قسم اللغة العربية وآدابها







الاستشراق ومدارسه عرب (٦٠٨) م٦

ساعتان

الدكتـــــــــــور

إبراهيم محمود عوض حسنين

أستاذ النقد الأدبى

قسم اللغة العربية وآدابها

القاهرة - ٢٠٢٢

قائمة المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
....	مقدمة	٢
الفصل الأول	فى الاستشراق والمستشرقين	٣
الفصل الثانى	طائفة من مشاهير المستشرقين (فلهلم شبيتا٦٤ --ديفيد صموئيل مرجليوث٧٦ --كارلو نالينو٩١ --شارل بيلا١٠٨ --المستشرقون محررو موسوعة "قرآن المؤرخين" ١٣٣	٦٤
الفصل الثالث	من تأثير أطروحات الاستشراق الخاطئة على بعض كتابنا	١٦٠
....	المراجع	٢٤٧

مقدمة

يدرس الطالب فى هذا المقرر حركة الاستشراق، وقِوَامُها علماء الغرب الذين يهدفون إلى معرفة الشعوب الشرقية من جوانبها المختلفة كاللغة والآداب والتاريخ والأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، مع الحديث عن تصنيفاتهم من جوانبها المختلفة.

وسوف نتحدث فى فصول ذلك المقرر عن بدء حركة الاستشراق الرسمية المؤسساتية مع التنبيه إلى أن الاستشراق كان موجودا من قبل لكن دون استعمال هذا المصطلح لا عندهم ولا عندنا، وسوف نبين أيضا متى ظهر هذا المصطلح عندنا لا فى المعاجم فقط كما يفعل الآخرون بل فى أقدم الكتب التى تردد فيها ذلك المصطلح، وسوف نثبت أيضا أن الاستشراق كان موجودا فى حياة المسلمين القدماء وأنهم تفاعلوا معه، وإن لم يكونوا محيطين بأبعاده كما نحيط نحن بها اليوم، إذ كانوا ينظرون إليه على أنه مجرد خلاف فى الموقف والاعتقاد يردون عليه ثم ينتهى الأمر عند هذا الحد. وهو أمر طبيعى، إذ لم يكن الاستشراق كمؤسسة رسمية قد برز إلى الوجود بعد.

وسوف نتناول كذلك فى هذه الفصول بعضا من أطروحات عدد من مشاهير المستشرقين ونناقشها تفصيلا ونرى القراء ما فيها من العوار واللامنطق وكيف أنه من السهل الرد عليها وتفنيدها بالعلم والعقل، مع التأكيد دائما أن الحياة قائمة على الاختلاف، فمن حق كل إنسان وكل شعب أن يعتقد ما يحب، لكن هذا لا يمنع أبدا من تبييننا لقيمة ما فى حوزتنا من تراث غال عزيز والدفاع عنه، والرد على كل ما يوجه إلى ذلك التراث من لغة وأدب وتاريخ وعلوم ودين وأبطال وقادة من تخطئات واتهامات وإظهار حسنات هذا التراث العظيم من خلال النصوص والوثائق الراسخة، وليس من خلال الصوت الزاعق والمواعظ العاطفية التى لا توصّل فى دنيا العلم إلى شىء. والله ولى التوفيق.

فى الاستشراق والمستشرقين

الاستشراق حقل معرفى واسع نشأ فى الغرب لدراسة الحضارات الشرقية فى آسيا وأفريقيا بكل جوانبها، كالحضارة الفرعونية والحضارة البابلية والحضارة الفارسية والحضارة الهندية والحضارة الصينية والحضارة اليابانية وحضارات القارة السوداء، وكذلك الحضارة العربية بطبيعة الحال منذ أقدم عصورها لا من أول ظهور الإسلام فحسب كما قد يظن كثير منا. فالاستشراق، كما نرى، ميدان رحب المجال متعدد الاهتمامات، ولا يقتصر، كما قد يتخيل البعض، على دراسة الإسلام بتاريخه ورجاله وبلاده وشعوبه ومذاهبه وآدابه وعلومه وفنونه وسياساته وحروبه واقتصادياته وأحواله الاجتماعية، فحضارة الإسلام ليست إلا جانبا واحدا من الجوانب التى يدرسها المستشرقون. بل إن دراسة الإسلام لا يختص بها الغربيون، إذ هناك دارسون يابانيون وهنود وصينيون مثلا يدرسونه كما يدرسه الغربيون، وإن سُمُّوا بـ"المستعربين" لأنهم شرقيون كالعرب والمسلمين فلا يقال عنهم إلا على سبيل التوسع: "مستشرقون".

وفى صدد المجالات المعرفية التى يتخذها الاستشراق موضوعا له يقول المستشرق البريطانى آرْبرِى فى مقدمة كتابه: "المستشرقون البريطانيون"، الذى ترجمه تلميذه د. محمد الدسوقى النويهى إلى العربية إن "الاستشراق... قد تخطى حدوده إلى ميادين تنتمى فى حقيقتها إلى علوم أخرى مستقلة عنه، وإن كانت مجانسة له حتى إن المستشرق... يشارك فى عمله عالم الآثار والحفريات، والمؤرخ، وعالم الصرف والاشتقاق، وعالم الأصوات، والفيلسوف، وعالم اللاهوت، والموسيقى، والفنان". وتعليقى على ذلك هو أن المستشرق لم يتخط حدوده، إذ لو حذفنا هذه العلوم وغيرها من الميادين العلمية التى يتحرك فيها المستشرق ما بقى شىء اسمه الاستشراق والمستشرقون. فالاستشراق هو دراسة الشرق من كل جوانبه: آثارا ولغات وآدابا وأديانا وسياسات وأحوالا اجتماعية وتواريخ وجغرافيا... إلخ، ولا يوجد استشراق مجرد، بل المستشرق إما يدرس هذا الجانب أو ذاك من حضارة البلد الشرقى الذى يهتم به، وإذا لم يفعل فلن يجد لنفسه موطئ قدم بين الدارسين والعلماء. أى أنه لا يوجد مستشرقٌ غُفْلٌ بل لا بد أن يكون المستشرق مهتما بتخصص أو أكثر من تلك التخصصات.

كذلك يورد آربرى فى تلك المقدمة ما عَرَّف به "قاموس أكسفورد الجديد" لفظ "المستشرق"، إذ قال إنه هو "من تبحر فى لغات الشرق وآدابه" معلنا أن هذا هو التفسير الذى

سيأخذ به فى كتيِّبه هذا. وهو تضييق لميدان الاستشراق، فالاستشراق يدرس هذه الحضارة الشرقية أو تلك من كل نواحيها لا من ناحية اللغة والأدب فحسب، وإلا فآربرى نفسه قد ترجم القرآن الكريم وكتب عن التصوف مثلا، ولا يدخل نشاطه هذا ضمن اللغات والآداب حسب ترجمة النويهى، وهى ترجمة غير دقيقة على الأقل، أما فى الأصل الإنجليزى فقد استعمل آربرى كلمة "literature" مفردة رغم عطفها على "اللغات" جَمْعًا: " one versed in oriental languages and literature"، وهى بمعنى "الكتابات" بوجه عام لا الكتابة الفنية التى يراد بها الإمتاع بالدرجة الأولى، ومن ثم تدخل فيها كل ألوان التخصصات. ذلك أن كلمة "literature" فى الإنجليزية تعنى المعنيين جميعا. وكثير من المترجمين يقولون عنها: "أدبيات": "الأدبيات السياسية، الأدبيات الجغرافية..." مثلا، وأنا أترجمها بـ"كتابات" حتى لا تذهب العقول إلى أن المقصود هو الكتابات الأدبية الضيقة من شعر ونثر فنى يقصد بهما الإمتاع كما قلنا.

وتعد الأهداف السياسية والدينية أبرز ما يتغياه المستشرقون عموما، وإن كان بعضهم يتعاطف مع قضايا الشرق، وقد يقف منها موقفا يعاكس موقف بلاده. بل إن بعض المستشرقين الذين يدرسون الإسلام قد دافعوا عنه وعن حضارته حتى لقد اعتنق الإسلامَ عددٌ منهم. ولكن هذا قليل وخروج عن القاعدة العامة. وهناك من المستشرقين من يتظاهر بأنه متعاطف مع الإسلام لكنه يضربه تحت الحزام. فهذا آربرى مثلا، وقد ترجم القرآن إلى لغة جونبول وقال كلاما طيبا فى حقه، يقول فى كتابه السالف الذكر إن الإسلام "هو وليد الفيافى المحرقة لجزيرة العرب وجدبائها الشاسعة ومهالكها المحرقة ومشقتها وعسرها". وهذا معناه أنه ابن البيئة وصناعة محمدية وليس وحيا نازلا من السماء مع أن الإسلام إنما ظهر فى مكة والمدينة، وهما مدينتان تملؤهما البيوت الحجرية لا بيوت الشَّعْر، ولم يظهر فى فيافى بلاد العرب كما يزعم آربرى. كما أن القرآن، وهو كتاب ذلك الدين، لا يعكس بيئة الصحراء والجفاف، بل فيه كلام عن البحار والأنهار، وعن الأمطار والنباتات والأشجار والفواكه، وأمثاله وصوره قلما تكون مأخوذه من بيئة البوادى والقفار، فضلا عن أنه يرسم الطريق لإنشاء حضارة عالمية، والقيم والمبادئ التى يدعو إليها ويعمل على إرسائها هى قيم ومبادئ إنسانية رفيعة لا يمكن أن تكون من نتاج البادية بل كثيرا ما تناقض أوضاعها وأحوالها. وآربرى يعرف ذلك تمام المعرفة، لكنه كمعظم المستشرقين يعز عليهم إنصاف

الإسلام كبرًا منهم وغطرسةً ولتعارض مصالح الغرب الذى ينتمى إليه مع الإسلام وانتشار نوره فى الآفاق.

كذلك فأسلوب القرآن يختلف تماما عن أسلوب الحديث الشريف بحيث لا يمكن القول بأن محمدا هو صاحب القرآن كما يلمز آربرى كتاب الله سبحانه. وقد وضحتُ تمام التوضيح ذلك الاختلاف فى كتابى: "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية"، وأضفت فى بعض كتبى الأخرى عددا من الاختلافات الأسلوبية الحادة بينهما كما هو الحال فى موضوع تكرار "بين" مع اسمين ظاهرين، وهو ما لم يحدث فى أى موضع من القرآن على حين أنه موجود على نحو ظاهر ملحوظ فى أحاديث النبى عليه السلام: "بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة"، "إنَّ اللهَ خَيَّر عَبْدًا بينَ الدُّنيا وبين ما عِنْدَه، فاخْتار ما عِنْدَ اللهِ"، "أتانى آت من ربى، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة"، "وإنْ أُمِّر عليكم عبدٌ حَبَشى مُجَدَّعٌ فاسمَعوا له وأطيعوا ما لَمْ يُخَيَّرْ أحدُكم بَيْنَ إسلامِه وبَيْنَ ضَرْبِ عُنُقِه. فإنْ خُيِّرَ بَيْنَ إسلامِه وبَيْنَ ضَرْبِ عُنُقِه فلْيمدُدْ عُنُقَه ثكِلَتْه أُمُّه"، "حِيلَ بينَ العبدِ وبينِ العَمَلِ"، "وما بين القومِ وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهِه فى جنةِ عَدْنٍ"، "كان بين إبراهيمَ وبين أهلِهِ ما كان"، "فلَمْ أَزَلْ أرجعُ بين ربِّى تبارَك وتعالى وبين موسى عليه السَّلامُ حتَّى قال: يا مُحمَّدُ، إنَّهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ"، "لا يُفرَّقُ بين الرجُلِ وبين والدِه"، "فأوحى اللَّهُ إليهِ أنْ خَيِّرْهم بينَ أن أنتقِمَ منهم وبينَ أن أسلِّطَ عليهم عدوَّهُم". وعلى كل حال فهناك عشرات الفروق الأسلوبية الحاسمة بين القرآن والحديث رغم أن الموضوعات واحدة، والجمهور الموجه إليه الكلام هنا وهناك واحد، والسياق التاريخى واحد، فضلا عن أن طبيعة الكلام فى الحالين واحدة، إذ ليس القرآن مثلا شعرا، والحديث نثرا، وليس القرآن بالفصحى بينما الأحاديث بالعامية، وليس القرآن وليد الاحتشاد والاستعداد المسبق فى حين أن الحديث وليد التلقائية... إلخ. وهناك أيضا الروح الإلهية السارية فى القرآن والمفتقَدة فى الحديث، فضلا عن أن شخصية الرسول وحياته الشخصية وبيته وزوجاته وذريته لا ذكر لها فى القرآن على عكس الأمر فى الأحاديث حيث نجد حياته كلها فيه واضحة مفصلة... وهلم جرا.

كذلك لو كان الإسلام وليد الصحراء وجفافها وقحولها فكيف يا ترى شق طريقه إلى البيئات الزراعية والتجارية والصناعية وما زال يشق طريقه حتى هذه اللحظة ويغزو الغرب رغم ضعف المسلمين المزرى الآن وعدم وجود أى شىء فيهم يغرى الآخرين على متابعتهم والإعجاب بهم

مما من شأنه أن يجذب الناس إلى دينهم لو كان هذا الدين هو ابن البيئة صنعه واحد منهم؟ ولقد كان الإسلام حملة شعواء على العصبيات القبلية وعلى الكهانة والخرافات والسحر والأصنام والأوثان والعدوان والتناحر وظلم الضعفاء والزنا والخمر والربا ووَأْد الوليدة وعلى ادعاء معرفة الغيب مما كان سائدا فى البيئة البدوية من حوله، وأرسى مبدا الأخوة الإنسانية، ونادى بالقيم الحضارية العظيمة مثل العلم والعمل والإتقان والنظافة والطهارة والنظام والتعاون على البر والتقوى وقيام التفاضل على أساس العمل الصالح النافع للإنسانية والمساواة بين البشر رغم اختلاف الألوان والأشكال والأمم والشعوب. وهذا كله يسير ضد قيم الصحراء والجفاف. بل إن النبى حين تحدث عن قيام الساعة قد تذكر حصريا غرس الفسيلة، وغرس الفسيلة هو من عمل أهل البيئة الزراعية الخضراء لا البادية الرملية الصفراء القاحلة. كما تحدث عليه السلام عن وجوب إحياء الأرض الموات، أى زراعتها، وشجع غاية التشجيع عليه.

متى بدأ الاستشراق؟ بدأ الاستشراق الرسمى فى أسبانيا فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حين اشتدت حملة نصارى الأسبان على المسلمين، إذ دعا ألفونس ملكُ قشتالة رجلَ الدين الأسكتلندى مايكل سكوت إلى دراسة حضارة المسلمين علما ودينا، فجمع سكوت طائفةً من الرهبان بدَيْرٍ قرب طليطلة، وشرعوا فى ترجمة بعض الكتب الإسلامية العربية، وقام رئيس أساقفة طليطلة ريمون لول بنشاط كبير فى ترجمة تلك الكتب. ومع مرور الزمن اتسع الأوربيون فى هذا المجال، وأنشأوا مطابع عربية لطبع كتب علمائنا القدماء التى كانت تدرَّس فى المدارس والجامعات فى بلدانهم.

وبالمثل أنشئت كليات لتدريس اللغات الشرقية فى عواصم أوروبا فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى (أواخر القرن الثامن عشر الميلادى). وكان الغرض الأول منها، وبالذات فيما يخصنا نحن المسلمين، تزويد السلطات الاستعمارية بخبراء فى شؤوننا، ثم أخذ الطلاب المسلمون يؤمُّون هذه الكليات الأوربية للدراسة فيها. والعبد لله واحد من هؤلاء الطلاب المسلمين الذين درسوا فى جامعة أوربية وحصلوا على درجة الدكتورية فى الأدب العربى من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢م وعلى يد أستاذ مصرى مُتَبَرْطِن هو د. محمد مصطفى بدوى. وعلى نفس المنوال أنشأت الدول الاستعمارية مؤسسات تعليمية فى البلاد الإسلامية التى خضعت لنفوذها لخدمة أغراضها منها فى مصر على سبيل المثال المعهد الشرقى بدير الآباء الدومينيكان، والمعهد الفرنسى، والجامعة

الأمريكية، وكلية فكتوريا، ومدارس الراهبات والفرنسيسكان والفرير، وفى لبنان جامعة القديس يوسف (الجامعة اليسوعية حاليًا) والجامعة الأمريكية، وفى سوريا مدارس اللاييك، والفرير، وكلية السلام...

من نشاط المستشرقين: وقام كذلك عدد من المستشرقين بإصدار مجلات لنشر البحوث الاستشراقية، وجمعوا المخطوطات العربية الإسلامية ونقلوها إلى بلادهم بأعداد هائلة بلغت مئات الآلاف، وحققوا كثيرا مما جمعوه من تلك المخطوطات. كما ألفوا الكتب والموسوعات التى تتناول جوانب حضارتنا المختلفة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عقدوا أيضا المؤتمرات لتدارس الجديد الذى توصلوا إليه عن الشرق وحضاراته المختلفة.

وهم، فى غالبهم، متعصبون لبلادهم وحضارتهم وثقافتهم ويعملون بكل سبيل على إيهام الشرقيين، وبخاصة المسلمون، بأنهم سوف يظلون متخلفين إن لم يتخلَّوْا عن ثقافتهم ويتبنَّوْا أساليب حياة الغربيين. فالغربيون، كما يرددون دائما، هم المثال الأعلى الذى ينبغى أن يحتذى، وإلا فلا أمل. وكثير منهم، فى دراستهم للإسلام بوجه عام، يجتهدون بكل ما لديهم من طاقة وعزم فى التشكيك فيه وفى رسوله وكتابه ورجاله، ويلوون النصوص ويطبخون النتائج سلفا كى تأتى على وفاق أغراضهم من تسفيه كل ما يتصل بديننا وثقافتنا، اللهم إلا من عصم اللهُ، وقليلٌ ما هم.

الاستشراق غير الرسمى: هذا هو الاستشراق المؤسساتى الرسمى. ولكنى كثيرا ما قلت لنفسى منذ وقت بعيد إننا إذا مددنا أبصارنا إلى ما قبل ذلك التاريخ الذى نشط فيه الغربيون قبل عدة قرون بعد أن انقلبت الآية وشرع المسلمون يتقهقرون فى الوقت الذى كانت أوربا تتقدم وتتحضر وتخرج من سباتها وتخلفها الطويل، إذا فعلنا ذلك تحققنا أن الاستشراق لم ينتظر حتى ذلك الوقت، بل كان هناك أوربيون اهتموا بدراسة الشرق قبل سطوع نور الإسلام بأزمان متطاولة، وأوربيون اهتموا بالكتابة عن الإسلام وحضارته منذ وقت مبكر من تاريخ الدين المحمدى الكريم. ومن بين تلك الأسماء التى مارست الاستشراق قبل الاستشراق الرسمى بزمن طويل المؤرخ الإغريقى هيرودوت، الذى كتب عن مصر الفرعونية فى القرن الخامس قبل الميلاد كتابة شائقة، وديودور الصقلى، الذى سجل مشاهداته فى بلاد العرب فى القرن الأول قبل الميلاد، ثم يوحنا الدمشقى الرومى، الذى كان يعمل مثلما عمل أبوه من قبله فى البلاط الأموى، وألف كتابا ضَمَّنَه فصلا حول الإسلام هاجمه فيه وشكك فى نبوة رسوله وعاب كل شىء يتعلق به وقدم أسوأ

التفسيرات لكل مبدإ كريم من مبادئه واختلق ودَلّس. وقد قمت بتحليل ما كتبه كل منهم وفصلت القول فيه تفصيلا وأدليت برأيي واضحا صريحا فى كتابى: "مستشرقون من قبل عصر الاستشراق. مستغربون من قبل عصر الاستغراب".

مبدأ ظهور مصطلح "الاستشراق" عندنا: والآن ما دمنا نتحدث عن تخصص الاستشراق فيحق بل ينبغى لنا أن نعرف متى ظهر هذا المصطلح فى لغتنا؟ فأما فى كتاب "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوى، الذى قص فيه علينا أخباره هو وزملائه لدن سفرهم إلى فرنسا للتعلم فى عشرينات القرن التاسع عشر وخضوعهم لإشراف بعض المستشرقين هناك أثناء تلك البعثة، فلم أجد هاتين الكلمتين. كذلك لم أجدهما فى أى من كتب الشدياق، وقد عاشرهم وحكى لنا بعضا من أخبارهم وذكر طائفة من أسماء مشاهيرهم وسخر منهم ومن تعالمهم وتنفُّجهم بما لديهم من علم قليل فى نظره، ورغم هذا لم أره يستخدم لا كلمة "استشراق" ولا كلمة "مستشرقون" فى حدود ملاحظتى. وفى الصفحة ٣٨٢ فى الجزء الأول من الطبعة الأولى من كتاب أحمد شفيق باشا: "مذكراتى فى نصف قرن" نقرأ ما يلى تحت عنوان "وفد مصر لمؤتمر المستشرقين": "وافق اليوم السابع من أغسطس سنة ١٨٨٩م عيد الأضحى. ففى يوم ١١ منه، أى رابع أيام العيد، دعوت لتناول طعام العشاء عندى عبد الله باشا فكرى وابنه أمين بك فكرى والشيخ حمزة فتح الله والشيخ محمود عمر، وهم أعضاء البعثة العلمية الموفدة لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين ببلاد السويد والنرويج فى هذا العام".

ومن يرجع إلى كلمة الإهداء التى وجهها أمين فكرى إلى الخديوى عباس الثانى فى كتابه: "إرشاد الألِبَّا إلى محاسن أوربَّا"، الذى وضعه لوصف تلك الرحلة نراه يشير إلى "مؤتمر المستشرقين الثامن الذى تقرر انعقاده بأستكهلم وكرستيانا عاصمتى السويد والنرويج فى سنة ١٨٨٩". وتكررت كلمة "المستشرقين" مرات فى ذلك الكتاب البديع الممتع فى الجزء الخاص بالمؤتمر، وإن كان لا يستعمل كلمة "مستشرق" لأى واحد منهم معين فلا يقول: "المستشرق فلان أو علان" بل "الكونت أو البارون أو الأستاذ فلان".

والطريف أن الكونت دى لاندبيرج، الذى فوضه ملك السويد بافتتاح المؤتمر، قد ذكر فى خطبة الافتتاح أن "عامة الناس لا يفرقون فى المعنى بين كلمتى "الشرق" و"المستشرق". وقد انتدبت يوما للتكلم فى موضوع شرقى فتعرض لى شخص حسن الملبس وسألنى: أين يقع الشرق

من الدنيا؟ وقد كان أحد السادة الأجانب يظن أن المستشرقين كناية عن عَصَبَات متجمعة لفتح الشرق. ولا شك أن كلام هذا السياسى الساذج فى جهالته لا يخلو من بعض صحة لأننا يا حضرات السادة لم نخرج عن كوننا عَصَبَة مؤلفة لحل مسألة الشرق العظمى، فإننا بما لدينا من عُدَد الحرب الهائلة نهدم قلاع الأفكار الفاسدة والغلطات الكاسدة حجرا حجرا، ولأننا نبعث بأحكام الانتقاد ودقته نورا يصل إلى أقاصى تاريخ البشر. وقد تكلم جلالة الملك عن ميدان حربنا هذه بما ينطبق على الحق. وذلك الميدان مفتوح لجميع الناس. ونحن نحارب فى صفوف الشرقيين لمصلحة الشرق مسجلين فى صفحات التاريخ الذى نحن قائمون بتحريره أصوله وتمدنه وعظمته ومسراته وأحزانه. فكيف لا يكون الشرقيون حلفاءنا فى تلك الحرب؟ وكيف لا يمدون إلينا يد المساعدة لكشف الغطاء عما لا تصل إليه أنظارنا؟ ونحن لا نعادى أحدا ولا نتكلم فى شأن الأديان بالاعتراض عليها، ولكننا نعجب بنور العلم أينما سطع ولا نتعرض لمعتقد خشية أن يتناول ذلك طرفا من تلك الحقائق التى نبحث عنها فى الشرق"... إلخ (ص٦٢٣ من الكتاب/ مطبعة المقتطف/ ١٨٩٢م).

وهو كلام كله مغالطات وخداع، وإلا فمن الذين يكتبون مهاجمين ديننا ومشككين فيه ومفترين عليه الكذب ومشوهين صورة نبينا الكريم ومتهمين كتاب ربنا العظيم بالاتهامات الباطلة ومدعين أن الإسلام دين العدوان والإرهاب فى الوقت الذى تقوم فيه الدول الغربية بالعدوان علينا واحتلال بلادنا وتخريب أوطاننا والعمل على اجتيالنا عن ديننا وتدمير حاضرنا ومستقبلنا واكتساح ثرواتنا والاجتهاد بكل وسيلة شيطانية فى إفقارنا، ومعاونين حكومات بلادهم فى هذا الإجرام ومزودين إياها بما يسهل لها إتمام جرائمها الإبليسبة؟ أليسوا هم المستشرقين؟ إننا لا ننكر أن من بين المستشرقين ناسا شرفاء، لكنهم قليلون، ويمثلون الشذوذ على القاعدة. و"دائرة المعارف الإسلامية" شاهد على هذا الذى أقوله عن المستشرقين، وهى مؤشر لا يكذب أبدا.

ولدى أحمد زكى باشا شيخ العروبة نقابل كلمة "مستشرقين" عدة مرات فى كتابه: "السفر إلى المؤتمر" الصادر سنة ١٨٩٣م بعد عام من عودته من المؤتمر الثامن للمستشرقين سنة ١٨٩٢م، أى بعد ثلاث سنوات من المؤتمر السابق، إذ قال: "إن القاعدة التى تقررت فى أول الأمر لأجل عقد المؤتمر كل ثلاث سنوات إنما كانت لقلة المستشرقين، وأما الآن فقد انتشروا حتى كان لهم من أمريكا مشاركون كثيرون، والواجب علينا أن نوجد لهم فرصًا كثيرة يعرضون فيها أعمالهم

لئلا يزداد الشقاق بين أجزاء هذه الجمعية، فتضيع القاعدة الأولى بالكلية، وتذهب ثمرات هذا الجمع أدراج الرياح، ويصر علماء كل دولة على عقد مؤتمر فى عاصمتها كل عام أو عامين، فيتفرق العمل شَذَرَ مَذَر"، "واعلم أنه لكبر هذه المدينة واتساعها لم يظهر فيها أثر ما لانعقاد مؤتمر المستشرقين، بل ولا أقل أثر لمؤتمرات غيره كانت منعقدة فى الوقت الذى انعقد مؤتمرنا فيه"، وفى أسفل أحد خطاباته عرف بنفسه على النحو التالى: مندوب الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين التاسع بلوندرة يوم الثلاث ٧ رجب الفرد سنة ١٣١٠- ٢٤ يناير سنة ١٨٩٣"... إلخ. كما عَرَّفَت الجرائد والمجلات المصرية بهذا الكتاب عند صدوره منشورا قائلة ضمن ما قالت إن صاحبه ألفه عن سفره إلى مؤتمر المستشرقين الثالث بلندن.

وفى مقدمة أول عدد من مجلة "المشرق" (١ يناير ١٨٩٨م) يذكر صاحبها "المستشرقين" واصفا إياهم بـ"الأجانب (الذين) يعكفون على تتبع أخبار بلادنا واستبطان أحوالها وكشف مكنون أسرارها، فدُعُوا لذلك بالمستشرقين" (ص٣- ٤). وفى العدد الرابع من مجلة "الجامعة العثمانية" (١نوفمبر ١٩٠٠م) مقال بعنوان "تاريخ الأسبوعين" ينعى فيه كاتبُه "الفيلسوفَ ماكس مولر المستشرق الإنجليزى الشهير" بهذا النص. وفى نفس المجلة (العدد ٩- ١٠/ ١ إبريل ١٩٠٤م) إعلان عن "مؤتمر المستشرقين الدولى" الذى سيعقد بالجزائر العام المقبل. وفى نفس العام والشهر واليوم ظهر فى العدد ١٣ من مجلة "الهلال" إعلان عن ذلك المؤتمر عينه تحت عنوان "مؤتمر المستشرقين" يبدى فيه كاتبه فرحة به لأنه أول مؤتمر مستشرقين يعقد فى بلد عربى. كما قابلتنى هذه الكلمة فى "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحى فى آخر الفصل الخاص بـ"باريس". وقد صدر سنة ١٩٠٧م، ولكنه كان يُنْشَر حلقات قبل ذلك فى صحيفة "مصباح الشرق" المصرية، لصاحبها إبراهيم المويلحى والد المؤلف، من سبتمبر ١٨٩٨ إلى أغسطس ١٩٠٢م. كذلك وردت كلمة "المستشرقين" فى المحاضرة الأولى من محاضرات كارلو نالينو العربية بالجامعة المصرية حول الفلك عند العرب فى العصور الوسطى، وذلك فى العام الجامعى ١٩٠٩- ١٩١٠م، وهى مطبوعة فى روما سنة ١٩١١م.

فى ضوء هذا نجد أن كلام د. حسام الخطيب التالى فى مادة "الاستشراق" بـ"الموسوعة العربية" السورية بحاجة إلى المراجعة، إذ قال: "لم ترد كلمة "الاستشراق: orientalism"، المشتقة من مادة "ش ر ق" فى أى من المعاجم العربية القديمة، وربما كان المعجم العربى الحديث

الوحيد الذى يشير إلى واحد من مشتقاتها هو معجم "متن اللغة" للشيخ أحمد رضا، الذى يورد فعلها: "استشرق" ويتبعه بشرحه له، وهو "طلبَ علوم الشرق ولغاتهم" واصفًا الكلمة بأنها "مولدة عصرية" تطلق على من "يُعْنَى بذلك من علماء الفرنجة". وفعل "استشرق" العربى مشتق من كلمة "الاستشراق" المترجمة لكلمة "orientalism" الإنكليزية و"orientalisme" الفرنسية، الحديثتى العهد، واستخدمت كلمة "مستشرق" ترجمة لكلمة "orientalist" لتصف المشتغل بهذا الحقل المعرفى". وسر غرابة هذا الكلام هو أولا ما يوحيه من أن العربية لم تعرف هذه الكلمة قبل ذلك المعجم، وثانيا أن المعاجم العربية الحديثة لا تعرف هذه الكلمة ما عدا "متن اللغة" لأحمد رضا. فأما أن المعاجم الحديثة لا تعرف هذه الكلمة فلا أدرى ما الذى أَطَرَ د. الخطيب على ذلك، وهو مما لا يتخيله متخيل مهما كانت قدرته على التخيل، فكثير جدا من المعاجم الحديثة تعرف تلك الكلمة وتوردها فى مادة "شرق"، وتشرح معناها، مثل "معجم المعانى الجامع"، ومعجم "الرائد" لجبران مسعود، ومعجم "الغنى"، و"معجم اللغة العربية المعاصرة" للدكتور أحمد مختار عمر، ومعجم "النفائس الكبير"، و"المنجد فى اللغة والأدب والعلوم"، و"المعجم العربى الأساسى"، و"المعجم المفصل فى الأدب" للدكتور محمد التونجى، و"المورد" (إنجليزى- عربى) لمنير البعلبكى، و"المورد" (عربى- إنجليزى) لروحى البعلبكى، و"معجم هانز فير" (عربى- إنجليزى)، و"قاموس أكسفورد" (إنجليزى- عربى)، و"قاموس بيلو" (فرنسى- عربى)، و"قاموس إلياس العصرى" (إنجليزى- عربى)، و"قاموس إلياس العصرى" (عربى- إنجليزى)، و"قاموس المنهل" (فرنسى- عربى)، و"قاموس المنهل" (عربى- فرنسى)، و"قاموس إدوارد تركيا" (فرنسى- عربى)... إلخ. وأما أن العربية لم تكن تعرفها قبل "متن اللغة" فقد رأينا أحمد زكى باشا فى أوائل العقد الأخير من القرن التاسع عشر يستعملها بأريحية عظيمة ويكررها، بل إنه ألف الكتاب الذى وردت فيه هذه الكلمة مرارا حول مؤتمر المستشرقين التاسع (بلندن) الذى كان مشاركا فيه كما وضحنا آنفا. كما نوه جرجى زيدان فى مجلة "الهلال" الصادرة فى ١٥ ديسمبر ١٨٩٣م بهذا الكتاب عند صدوره مشيرا إلى مؤتمر "المستشرقين" التاسع بلندره، الذى حضره المؤلف.

وأما المعاجم الإنجليزية أو الفرنسية- العربية: معجم كاتافاجو من النوع الأول، ومعجم روفى ومعجم لويس بقطر ومعجم كازيميرسكى من النوع الثانى، وكلها من إصدارات القرن التاسع عشر، فقد حاولت أن أعثر فيها على أى شىء يتعلق بالاستشراق عبثا. ومن مراجعة معجم أكسفورد

التاريخى نرى أن كلمة "orientalist" ترجع إلى عام ١٦٨٣م، وإن كانت تدل فى ذلك الوقت على أحد رجال الكنيسة اليونانية الشرقية، ثم انضاف إلى معناها بعد ذلك بأقل قليلا من مائة عام "الشخص الملم باللغات والآداب الشرقية"، وهو المعنى الذى نحن بصدده هنا.

وممن استعمل من الكتاب العرب أيضا مبكرا كلمة "مستشرق" و"مستشرقون" وأشار إلى نشاطهم فى ميدان التأليف حول لغتنا وأدبنا محمد دياب فى مقدمة كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية" المطبوع عام١٩٠٠م فى معرض حديثه عن أنه ينسج فى كتابه ذاك على منوال من سمع عنهم من "مستشرقى الألمان" ممن وضعوا تاريخا لآدابنا. وبطبيعة الحال كان يستعمل ذلك اللفظ قبل ذلك بزمن، فإن الكتب لا تكتب وتصدر فى الحال بل تأخذ زمنا. ومنهم أيضا جرجى زيدان" فى مقدمة كتابه عن "تاريخ التمدن الإسلامى" الصادر ١٩٠٢م حيث يشير إليهم بكلمة "المستشرقون" أحيانا، وأحيانا بـ"كتاب الإفرنج". كما ذكرهم مرارا فى الأجزاء الأربعة من كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية"، الذى صدر ما بين ١٩١٠ و١٩١٣م. وكتاب كهذا لا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها بل لا مناص من أن يستغرق تأليفه أعواما طوالا، وهو ما يعنى أن زيدان قد عرف هذه الكلمة قبل ذلك التاريخ بوقت طويل. بل لقد أفرد لهم مبحثا مطولا فى الجزء الرابع دل فيه على أنه يعرفهم ويعرف مجالات نشاطهم جيدا ويقرأ تآليفهم ويلم بآرائهم ومواقفهم من ثقافتنا وأدبنا فى كل العصور. بل إن كتابه هذا قد وضعه على غرار كتب المستشرقين الذين أرخوا للأدب العربى، ونص هو فى مقدمة الجزء الأول على ذلك نصا. ولأن ما كتبه فى هذا الموضوع شديد الأهمية رأيت أن أنقله كاملا بعد قليل. وهو موجود فى الفصل الأول من الجزء الرابع من الكتاب المذكور، وعنوان المبحث هو "المستشرقون واللغة العربية". وهناك منصور فهمى، الذى أشار فى مقدمة رسالته عن "وضع المرأة فى الإسلام" إلى "المستشرق" سينوك هرجرونه الهولندى: هكذا باستعمال كلمة "orientaliste: المستشرق". والكتاب مؤرخ فى نصه الفرنسى بعام ١٩١٣م، ومن الطبيعى تماما أن منصور فهمى كان يعرف تلك الكلمة قبل ذلك بسنوات: على الأقل منذ التحق بالسوربون. وبعد ذلك بسنة ظهر كتاب طه حسين: "ذكرى أبى العلاء"، وفيه يتردد لفظا "مستشرق ومستشرقون" مرارا. وهذا طبيعى، فقد كان تلميذا لهم فى كلية الآداب بالجامعة المصرية. والكتاب، وهو فى الأصل رسالة جامعية نال بها صاحبها درجة العالمية فى الآداب، يعكس فخرا شديدا بهم وثناء عظيما عليهم، وقد كُتِب تحت إشرافهم.

كلام الشدياق عن المستشرقين: وممن تكلم عن المستشرقين مبكرا، وإن لم يستعمل هذه الكلمة، أحمد فارس الشدياق. قال فى كتابه: "كشف المخبّا عن فنون أوربّا": "ومن طبع الإنكليز عمومًا التهافت على الشهرة والنباهة بين أقرانهم بأى سبب كان، ولا سيما فى أسباب المعارف والعلوم، فإن من يعرف منهم مثلًا بعض كلمات من اللغة العربية ومثلها من الفارسية أو التركية فإذا ألف كتابًا بلغته أدرج فيه كل شيء يعرفه من غيرها ليوهم الناس أنه لغوى، وما عليه أن يكتب تلك الألفاظ على حقها أو يخطئ فيها، وفى عنوان كتابه تعلق عليه جلاجل من الألقاب الطنانة، فيكتب له أنه من أعضاء جمعية كذا، وملخص كتاب كذا، ومحرر نبذه كذا، وخطيب مثابة كذا... وهلم جرًّا، ولو عصرت كتابه كله لما بللت منه صدى مسألة، وذلك لأنهم لا يأخذون اللغات عن أهلها، فمهما يخطر ببالهم فى تأويلها يقذفوا به جزافًا من دون تحرج أن ينسبوا إليها ما ليس منها.

انظر إلى ريشردصون الذى ألف كتاب لغة يشتمل على لغته وعلى لغتى العرب والفرس، فأقسم بالله إنه لم يكن يدرى من لغتنا نصف ما أدريه أنا من لغته. لا بل سَوَّلت له نفسه أيضًا أن ترجم النحو العربى، فخلط فيه ولفق ما شاء، فمثَّل للإضافة بقوله: "قدح فضة"، و"ملك كسرى"، و"رأس أمان" و"الغالب عجم"، و"غالب عجم"، و"كتاب سليمان"، و"نَصَرَا عقبة"، وفسرها بأنها مثنًّى مضاف إلى "العقبة"، و"نَصَرُوا عقبة"، و"النَّصَرا عقبة"، و"النَّصَرُوا عقبة".

وأورد حكاية من كتاب ألف ليلة وليلة عن ذلك الأحمق الذى قدر فى باله أن يتزوج بنت الوزير، فلما بلغ إلى قوله: "ولا أخلى روحى إلا فى موضعها" ترجمها بقوله: "لا أعطى الحرية لنفسى أى لزوجتى إلا فى حجرتها"، وقوله أيضًا: "ولا أزال كذلك حتى تتم جلوتها" صحف "جلوتها"، "بجلدتها" فقال: "ولا أكف حتى يتم ذلها"، وعند قوله: "حتى يقول جميع من حضر" كتب فى الحاشية "حظر" و"حضرة" بمنزلة السمو فى الإنكليزية، وقس على ذلك. وإذا ترجم أحدهم كتابًا رقَّعه بما عَنَّ له، وسبكه فى قالب لغته، فقد قرأت كثيرًا مما ترجم من كلامنا إلى كلامهم، فإذا هو مسبوك فى قوالب أفكارهم مما لم يخطر ببال المؤلف قط.

وقرأت ترجمة منشور صدر من الملك فى الحض على الجهاد من جملته: "ليس لعُبَّاد النبى من خلاص فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة إلا بجهاد الكفار". فانظر إن كان المسلمون يقولون إن النبى "معبود"، وما رأيت أحدًا تحرج من هذا التلفيق والافتراء والترقيع غير مستر صال الذى

ترجم القرآن، ومستر لان الذى ترجم حكايات ألف ليلة وليلة، ومستر برسطون الذى ترجم خمسًا وعشرين مقامة من مقامات الحريرى، أما الأول، فقد ذكر فلتير أنه مكث بين العرب سنين عديدة، وأخذ عنهم علم العربية حتى تهيأ له ترجمة القرآن، ولست من ذلك على ثقة، إذ الظاهر من مقدمته للترجمة أنه لم يخالط العرب، وكيفما كان فهو من المحققين. وأما الثانى فإنه لبث فى مصر وعاشر علماءها وأدباءها. وأما الثالث، فإنه كان قد سار إلى الديار الشامية واستصحب بعض أهاليها.

وما عدا هؤلاء الثلاثة فكما قال عقيل بن علقمة لعمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه:

خذا بطن هَرْشَى أو قفاها، فإنه كلا جانِبَىْ هَرْشَى لهنَّ طريق

فإن أحدهم لا يبالى أن يؤدى معنى الترجمة بأى أسلوب خطر له، فلو قرأ سبًّا فى كلامنا مثلًا بأن قال أحد السبابين لآخر: "يحرق دينه"، ترجمه بأن دينه ساطع ملتهب من حرارة العبادة والغيرة، بحيث إنه يحرق جميع ما عداه من الأديان، أى: يغلب هو عليها، فهو الدين الحقيقى القاهر، كما ورد أن الله نار آكلة... وهكذا. فليس لعمرى علم لغتنا عندهم سوى سبب يتوصل به إلى النتف من غيرها كالعبرانية والسريانية، فإن هاتين عندهم أهم وأنفع، وناهيك أنّ دَخْل مدرس العبرانية فى كمبريج ألف ليرة فى السنة، ودَخْل مدرس العربية سبعون ليرة فقط، ومتى عرف أحدهم شيئًا من لغتنا طابقه على غيره من تلك اللغة، واستخرج منه فائدة تختص بالمطابق عليه.

وقد جرى مرة بحضور الدكطر لى ذكر أحد النمساويين، فقلت: إنه ذو دعوى لكونه نظم أبياتًا فى لغتنا وشهرها فى كتاب مطبوع مع أنها كلها لحن وزحاف، فلو كان ذا أدب لما تكلف النظم من دون معرفة قواعده وهو بعيد عليه، بل على جميع الإفرنج الذين لم يأخذوا عن العرب. قال: كيف، ونحن ننظم الشعر باليونانية واللاتينية ولم نخالط أهلها؟ قلت: ها هنا فرق، وهو أن هاتين اللغتين كالأصل للغتكم فتتعلمونهما على صغر، أما العربية فهى أجنبية عنكم. قال: إن الإنسان ليمكنه أن يتعلم أى لغة شاء كما يتعلمها الطفل. قلت: ما هذا مذهبى، وإنى أعطى كتبى كلها لأى إفرنجى كان إذا نظم بالعربية بيتين صحيحين بليغين. قال: أنا أنظم لك الليلة ثلاثة أبيات. فلما قابلته فى الغد إذا به قد ناولنى رقعة كتب فيها:

أَلَمْ تَرَ يا صاحِ بهذا علامة بأن صار الأجنبى يُجْرِى كَرامة؟

وإن لم يكن هذا عَرُوضًا مُصَحَّحًا فلا تُعْطِه أسفارك عامة

فإن كان ذا إذن صحيحًا وسالمًا ستسلمه أجرًا أسفارك رامة

فلما قرأتها قلت له: فيها زحاف وخطأ، فسكت ساعة، ثم قال: أتدرى ما الألف التى فى قول امرئ القيس: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"؟ قلت: هى ألف التثنية عند بعض، فإن الشاعر خاطب صاحبين له، وذلك مستفيض فى كلامهم. وعند بعض أنها مقلوبة عن نوع التوكيد. قال: هذا كله تمحُّل وتعسُّف، وإنما هى مقلوبة عن الهاء من العبرانية، فإن اليهود يلحقون الهاء بفعلى الأمر والنهى دلالة على الطلب والتوسل.

ثم بينت له بعد ذلك خطأ أبياته، فما كان منه إلا أن قال: إن لغة العرب ليست مطبوعة كسائر اللغات، بل هى لغة مصنَّعة متكلَّف فيها كثرة القواعد والضوابط بخلاف لغة أوروبا. وطفق يبين أنه يجوز فى اللغة اللاتينية أن تقام حركة طويلة مقام حركة قصيرة نحو أن تجرى لفظة "مادّ" مجرى "مَدّ" وغير ذلك. ثم سألنى: كيف تفعلون بـ"أل" فى قولك: "الدين"، فإنه اجتمع فيها ثلاثة سواكن، وأنتم تقولون إنه لا يصح اجتماع ساكنين؟ فقلت: أين السواكن الثلاثة هنا؟ قال: الألف واللام والدال. وقال لى يومًا: أتدرى من أين اشتقاق "الزِّنَاء"؟ فقلت: لا. قال: من العبرانى، فإن "زنى" فيها بمعنى "باع"، فكأن الزانية تبيع نفسها للرجل.

ثم سألنى مرة أخرى: أتدرى ما أصل المَدَّة فى نحو "آمن"؟ قلت: لا. فقال: هى ألف من السريانى. وقرأ يومًا "قومًا بطالين"، فقال: البطَّال عند الصوفية فى ثانى مرتبة العابد. فقلت: الأَوْلَى البطل. وقال أيضًا إن "يومنا" فى قول العرب: "إلى يومنا هذا" من السريانى وهو "يومنان".

وقد جرى لى معه وقت الترجمة عدة مناقشات ومجادلات لا بأس بإيرادها هنا وإن طال بها الكلام، فإنها عنوان على معرفة القوم لغة الشرقيين، وخصوصًا العربية، منها أنه كان يحاول استعمال كلمة "هو ذا" فى كل موضع يجدها فى الأصل، أعنى العبرانى، فإنه لا يمتنع فيها أن يقال مثلًا: "لأن هو ذا أو وهو هو ذا وكان هو ذا رجل". وكان يظن أن "إذا" فى قولنا: "خرجت وإذا زيد بالباب" لا تغنى مغناة "هو ذا". ومن ذلك أنه كان ينكر قولنا مثلًا: "أحد الرؤساء" بدل "رئيس". ومن ذلك أنه كان يريد المحافظة على الأصل بالإتيان بـ"قائلًا" بعد "قال"، فإنه يقال فيه: "قال قائلًا" مع أن هذا التركيب فى لغة الإنكليز منكر، ولذلك كنا نجد فى توراتهم: "وتكلم قائلًا" لا "قال قائلًا". وفى مثل قولنا: "ضرب لهم مثلًا" كان يبدل "ضرب" بـ"قال" لأنه كان يترجم فى عقله لفظ "ضرب" إلى لغته فلا يجد له معنى سوى إيصال الألم.

وكان يبدل "عَلِمَ اعتقادهم" بـ"رأَى اعتقادهم"، ويزعم أنها أبلغ فى المعنى وأن الاعتقاد ليس بمرادف للإيمان، فإنه إنما ينظر إلى أصل اشتقاقه، وهو العقد، وهو غير مفيد معنى الإيمان. وكان يبدل "ماء البحر" بـ"مياه البحر"، وهذا لا محظور منه، إلا أن تبديله هوس. وجزم بأن قولك فى السؤال: "ما يكون لنا؟"، أبلغ من "ما عسى أن يكون لنا؟"، وأن "من ثم" التى يؤتى بها للسببية غير كثيرة الاستعمال ولا تسد مسد "ولهذا"، وكان يزعم أن لفظة "المعجزات" ليست من كلام النصارى حتى وجدناها فى نسخة رومية.

ومن أشد وساوسه تجنبه للسجع والتركيب الفصيح غاية ما أمكن، وحتى إنه زعم أن ما فى الترجمة من قوله: "خرجتم إلى بعِصِى كلِصٍّ" سجع وحاول تغييرها فلم يقدر فتركها وهو آسف، وكذا وهمه فى "نلت خيراتك فى حياتك"، وفى "وكان هناك قطيع من الخنازير كبير"، فكان يقول: هو من السجع الذى ينبغى مجانبته فى كلام الله تعالى، وكان كلما رأى جملة تنتهى بالواو والنون أو بالياء والنون يقول: "إنها مضاهئة لكلام القرآن" فيبدلها، حتى إنه رأى هذه الجملة وهى: "وأنتم على ذلك شهود"، فقال: إن هذا الوقف يشبه وقف القرآن. فمن ثم بدلها بقوله: "وأنتم شهود على هذا". ووجد عبارة أخرى وهى: "وما أولئك بعابرين من هناك إلينا"، فقال: "هذا التركيب فصيح"، فبدَّل "عابرين" بـ"يعبرون"، ولم أتعجب من تغييره، وإنما تعجبت من أنه شعر بحسن هذا التركيب. وزعم أن قولك مثلًا: "وكان رجل اسمه فلان" أخصر من قولك: "يُسَمَّى".

وكلما رأى فى الأصل عبارة كثيرة الألفاظ مما لا داعى له قال: إن ذلك للتقوية. وإذا رأى فيه إجحافًا ولو مع إخلال المعنى قال: إن فيه حذفًا للبلاغة. وكان يحاول أن يقال: "واتفق أنه قال، واتفق أنه افتكر"، فقلت له: هذه لا يصح استعمالها مع الأفعال التى لا تقتضى الندرة فى الاستعمال، فلا يقال مثلًا: "جاءنى فلان واتفق أنه جلس"، فإنه لا ندرة فى الجلوس بعد المجيء. فقال: وأين أنت من المحافظة على الأصل؟ والذى ظهر لى من أحواله أنه، فضلًا عن كونه شديد التعصب للتوراة، فإنه كان يتقى لوم خُصَمَائه، فإنه كان ذا خصوم كثيرة، إلا أنه لا حمق أكثر من أن يترجم من لغة إلى أخرى بعين الألفاظ والتراكيب، إذ لا يتصور بالبال أن لغة تطابق أخرى فى التعبير، فكيف يمكن أن يقال بالعربية: "خرج الدخان من مناخر الله" كما يقال بالعبرانية، أو "أحشاء الله" كما يقال باليونانية، وقد ذكرت ذلك لعدة من أهل المعارف منهم، وأنه من التعبير

الغير اللائق بجلاله تعالى، فكلهم قاسه على "وجه الله وعين الله ويد الله" من دون فرق بين نسبة الأعضاء الحقيرة إليه وبين غيرها.

ومما أضحكنى من الدكطر لى مرة أنه دعانى للغداء يومًا، وكان ذلك فى نحو الساعة الخامسة قبيل المغرب، فقلت له: قد تغديت فى الساعة الحادية على ما اعتدته. فقال: هذا لا نسميه نحن: غداء، وإنما نسميه: عجالة. فقلت: هذا عندك لأنك تتغدى وقت العشاء، فأما عندى فهو الغداء بنفسه وعينه.

والدكطر لى هذا كان يدرس العربية فى كمبريج، ولم يكن يحسن التكلم بها ولو بجملة واحدة، وكان ذا اجتهاد لا ملل معه، فكان يقعد على الكرسى للمطالعة أربع ساعات ولا يتحلحل عنه، وما أخال أحدًا غيره اشتهر بما اشتهر هو به فى علم اللغات المشرقية. وتوظُّفه فى كمبريج هو السبب الذى حدانى إلى الحضور إلى هذه البلاد لأن الجمعية لما استأذنت حاكم مالطة بواسطة وزير الأمور الخارجية فى إحضارى لأجاور المُومَأ إليه ظننت أن مكثى يكون فى تلك المدينة. وهى، وإن تكن لا تشوق أحدًا للسكنى فيها غير من يقصدها للتفقه فى الفنون، إلا أنها على كل حال أحسن من القرى. وذاك كنت أدريه من قبل، إلا أن البواعث الحالية والدواعى الكونية أوجبت على الدكطر لى أن يُعَدّى عن وظيفته فيها، ويلزم قريته...

ولم يكن شيء يسلينى فى تلك القرية سوى ترقب الشهر الذى يسافر فيه الدكطر المذكور إلى برسطول لأسافر معه حيث قُدِّر على أن أكون معه فى كل مكان وزمان، غير أن المذكور توفى وأنا بباريس، وأعفانى الله تعالى من السفر معه إلى تلك الدار، فعفا الله عنه بمنه وكرمه.

ثم لما حان الذهاب إلى برستول مررت بأكسفورد، وقصدت أن أرى خزانة الكتب فيها، فسألت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهدينى لها، فأخذ يطالع فى فهرسة المعلمين فلم يهتدِ إلى اسمه، فقلت له: كيف وأنت ملازم لهم لا تعرفهم؟ فقال: إن شيخ العربية لا يدرِّس بنفسه ولا يقرأ، ولكنْ له قارئ. فإذا قرأ القارئ شيئًا يأخذ الشيخ فى شرحه، أى فى توجيهه إلى وقائع تاريخية تتعلق بذلك الموضوع، وفى تطبيقه على بعض اللغات كما سأبين لك عن قريب، ثم بعد طول بحث ومعالجة اهتديت إلى دار الشيخ فقابلته وسألته أن يرينى المكتبة تفضلًا وتكرمًا، فأجاب إلى ذلك وسرنا معًا. وأول كتاب فتحه كان بالخط الكوفى، وإذا فى أول الصفحة لفظة "ألا" فقرأها "الا"

وفسرها أنها "الله"، فتعجبت كيف أنه انخدع فهمه لسمعه لأنهم جميعًا يلفظون اسم الجلالة مرَّققًا هكذا.

وسألنى مرة أستاذ آخر: أتعرف لم دلت "فى" على الظرفية؟ فقلت: لا. قال: لأنها مشتقة من الفم الذى أصله فوه. وهكذا يخمنون ويَخْرُصون على معانى المفردات والمركَّبات فى لغتنا. وهاك مثالًا على علم هؤلاء الأساتيذ وعلى شرحهم لكتبنا تَطَفُّلًا، فتصور مثلًا أن قارئًا يقرأ على الشيخ قول أبى تمام:

هِمّةٌ تنطح النجوم وجَدٌّ آلِفٌ للحَضِيض، فهو حضيضُ

فيقول الشيخ بلغته: "النِّطَاح" مختص بالحيوانات التى لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوها، وقد ذكر فى التوراة مرات كثيرة. ويمكن أيضًا أن ينسب إلى ما ليس له قرن، فقد روى ليناوس، الذى قسم جنس الحيوان إلى سبعة أقسام، أن الحيوانات الجَمَّاء تتناطح بجباهها، وقد أطلقت العرب اسم "الكبش" على آلة من آلات الحرب لما أنها تنطح الجدار. و"النجوم" معروفة، وقد كانت العرب تهتدى بها فى أسفارهم قبل أن عرفتْ خاصية إبرة المغنطيس. ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن فى أوروبا من يشم لها رائحة، ثم لما فتحوا إسبانيا أو جزيرة الأندلس، وذلك سنة ٧٥٠، أخذ عنهم العلم بعض من الإفرنج، ومنهم سَرَى فى سائر بلدان أوروبا، وكان انقراض الملك من قرطبة سنة ١٠٣١ بعد أن دامت العرب فيها أصحاب أمر ونهى وسيادة نحو مائتين وخمس وسبعين سنة.

أما الألف واللام التى فى "النجوم" فهى أداة التعريف، وهى فى الطليانية والإسبانيولية "أل" للمذكر و"لا" للمؤنث، واللغة اللاتينية ليس فيها أداة تعريف، فأما اليونانية ففيها عدة أدوات، ويوجد فى لغتنا ألفاظ كثيرة مبدوءة بهذا الحرف، منها ما هو عربى وذلك نحو "ألكنا" (الحناء)، و"ألكحل"، و"ألقائد"، و"ألجِبْرَة" (الجبر)، و"ألقرآن"، و"ألقَلِى، و"ألقرثيم"، أو "ألكرزيم"، ومنها ما هو من لغة أخرى، فأما اللغة الإسبانيولية ففيها من هذا النوع ألفاظ لا تعد. فأما عدم النطق باللام من "النجوم" فلكون النون من الحروف الشمسية.

ثم إن أول من قرر طريقة سير النجوم حول الشمس وسير القمر حول الأرض، ونسبة بعضها إلى بعض، وعلة المد والجزر والنور والجاذبية والاعتمادية، الفيلسوف إسحاق نيوطون. ولد فى سنة ١٦٢٤ ومات سنة ١٧٢٧، وكان ذا جِدٍّ ومثابرة على العلم لا تنظر. أما قوله: "جَدٌّ آلفٌ

للحضيض"، فـ"الحضيض" هنا معناه "الأرض" من تسمية الكل بالجزء، ووروده فى التوراة كثير. وفحوى البيت أنه، أى الممدوح، ذو عناية بالأرض، أى بحرثها وإحيائها وإنشاء المدن فيها وتسوية الأحكام بين أهلها لأن الأرض كثيرًا ما تذكر ويراد بها سكانها، وذلك أيضًا مستفيض فى التوراة حتى إن هذا الممدوح صار أرضًا وخصبًا لقاصده.

فأما إن كان هذا الشيخ قد تلمذ لشيخنا الأكسفوردى المشار إليه فإنه يقرأ "الحديد" بدل "الحضيض"، وحينئذ فيكون تأويله عنده: و"جَدٌّ" أى حظ أو أبٌ، فإن الجد يذكر ويراد به الأب وبالعكس كما ورد فى التوراة. آلف لاستعمال السلاح وقهر العدو، فإن الحديد يراد به السلاح كله، وهذا الاستعمال أيضًا وارد فى التوراة. وهكذا يمشى على انعكاس البيت بهذا القَصْد هو وتلامذته. وبعد انقضاء ساعة ونصف على تأويل هذا البيت يقومون وهم سامدو الرءوس عجبًا وفخرًا، ويظنون أن شيوخ الجامع الأزهر والأموى والزيتونة هم دون هذا النِّحْرير، الذى عرف مولد نيوطون ووفاته واستيلاء المسلمين على الأندلس. وقد استبد هؤلاء الأساتيذ بهذه الدعوى بحيث إنهم لا يوظفون الغريب فى هذه المدارس، وإنما يسمحون له بأن يعلم أشخاصًا على حِدَتهم، فلا هم يتعلمون حق التعلم ولا يأذنون لغيرهم فى أن يعلموا حق التعليم، وهذا الداء فاشٍ أيضًا فى مدارس فرنسا مع استتباب المصالح فيها. ولا بد لشيخ العربية عندهم أن يكون مطلعًا على اللاتينية حتى إذا جهل شيئًا من تلك عمد إلى هذه، فقوَّر منها رقعة".

كلام مارون عبود عن المستشرقين: وقد علق مارون عبود فى الفصل المخصص لأحمد فارس الشدياق من كتابه: "الرؤوس" على ما قاله الكاتب الكبير عن المستشرقين فقال: "قلت: وكذلك هى حالنا اليوم فى النصوص مع أكثر علماء الغرب، فإنهم ينطحون جدران أدبنا متوهمين أنهم أتوها من الأبواب. لا ننكر أنهم صاروا أحسن مما كانوا فى عصر شيخنا الشدياق، ولكنه ينقصهم فت خبز كثير حتى تشتد سواعدهم ويرموا صائبًا فى هذه المواقف التى قصرت فيها فحول العرب".

حوار علمى بينى وبين أحد المستشرقين: ولقد أذكر أنا كاتب هذه السطور أننى، وأنا أعد رسالتى للحصول على الدكتورية من جامعة أكسفورد، حضرت محاضرة لأحد المستشرقين الشبان، فألفيته يقول إن قوله تعالى مخاطبا المنافقين فى عصر النبى عليه السلام وموئا إلى الأقوام السابقين الذين نالوا عقابهم من ربهم: "كالذين من قبلكم كانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا

فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا" معناه "وخضتم كالذين خاضوا" لأن "الذى" فى آخر النص تعنى "الذين"، فقلت له: بل المقصود "وخضتم كالخوض الذى خاضوه" فقال: "You don’t understand"، وزاد فقال إن قائل هذا هو الطبرى. يريد أن يقول لى: وهل هناك من هو أعلم من الطبرى؟ فلم أُكَذِّب خبرا ونزلت إلى المكتبة وأحضرت تفسير الطبرى، وكانت طبعة قديمة فى هامشها تفسير النيسابورى، وأخذت أقرأ ما قاله شيخ المفسرين، فوجدته يذكر ما قلت: "وخضتم فى الكذب والباطل على الله كالذى خاضوا. يقول: وخضتم أنتم أيها المنافقون كخوض تلك الأمم قبلكم"، ولم أجد شيئا مما قاله المستشرق الصغير، فقلت: أبحث فى تفسير النيسابورى المطبوع على هامش الطبرى، فوجدت ذلك المفسر يقول بقولى أيضا ثم يسوق فى آخر كلامه أنه قيل (وكما نعلم فهذه صيغة التمريض) إن "الذى" هنا معناها "الذين". وهذا نص كلامه: "ومعنى "كالذى" كالخوض الذى خاضوه أو كالفوج الذى خاضوا. وقيل: أصله "كالذين" فحذف النون". فانظر كيف تسرع الأحمق واتهمنى بعدم الفهم مع أنى ابن اللغة ولى اتصال بتفاسير القرآن، ولم يخلنى الله من الذوق السليم، بالإضافة إلى زعمه أن الطبرى هو قائل ذاك.

ما كتبه جرجى زيدان عن المستشرقين: وقد كتب جرجى زيدان فى الجزء الرابع من كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية" عن دور المستشرقين فى حياتنا الأدبية والفكرية عكس ما قاله الشدياق فقال: "من العوامل الرئيسية فى إحياء آداب اللغة العربية فى هذه النهضة اشتراك الإفرنج فى درسها ونشر كتبها والتنقيب عن تلك الكتب فى مظانها. وليس اهتمام الإفرنج بالآداب العربية حديثًا، فإنه يرجع إلى الأجيال الوسطى قبل نهضتهم الأخيرة لإنشاء تمدنهم الحديث. ويُقسَّم عملهم فى هذا السبيل إلى دورين: الأول اشتغالهم بنقل العلوم الطبيعية والرياضية فى أول نهضتهم، والثانى اشتغالهم باللغات الشرقية وآدابها.

(١) نقل الإفرنج للعلوم الطبيعية: بدأ الإفرنج يهتمون باللغة العربية من القرن العاشر للميلاد ليطَّلعوا على ما فيها من العلم الطبيعى والطب والفلسفة. وقد نقلوا أهم تلك الكتب إلى اللاتينية، وهو لسان العلم عندهم يومئذٍ. وأول مَن بلغنا خبرُه من المترجمين أو الناقلين البابا سلفستر الثانى فى أواخر القرن العاشر للميلاد، ثم هرمان المتوفى سنة ١٠٥٤م، يليه قسطنطين الأفريقى وغيرهم. وفى القرن الثانى عشر للميلاد أصبحت طليطلة وغيرها من مدائن العرب

بالأندلس آهلة بالنازحين إليها من الإفرنج للاستفادة أو الترجمة أو التأليف كما كانت بغداد فى عصر الرشيد والمأمون. ومن جملة المشتغلين بالنقل ريمون أسقف طيطلة فى أواسط ذلك القرن، نقل كتبًا عديدة، يليه أفلاطون الطيبورى وأدلار الباجى ويوحنا الإشبيلى وكنديسالفى وهرمان الدلماتى ومرقس الطليطلى وغيرهم، وأكثرهم اشتغالًا فى ذلك جيرار الكرمانى، فإنه نقل نحو ثمانين كتابًا حوت علوم القدماء فى المنطق والفلسفة والرياضيات والنجوم والطبيعيات والكيمياء وغيرها لمؤلفى اليونان والعرب كالفارابى وابن قرة وأولاد موسى والخوارزمى والكندى والفرغانى وغيرهم، نقلها كلها عن اللغة العربية.

واهتم ملوك أوربا يومئذٍ بآداب العرب أيضًا للاستفادة منها فى مدنيتهم كما يفعل كل عاقل يريد النهوض بأمته فى العلم والمدنية، فإنه يستعين بمن سبقه فيها. وأول مَن سعى فى هذا السبيل فى نهضة أوربا الحديثة فريدريك الثانى المتوفى سنة ١٢٥٠م، وألفونس صاحب قشتالة، جمع إليه المترجمين كما فعل المأمون، وأمر بترجمة كتب العرب. وكانوا ينقلونها إلى الإسبانية، ومنها إلى اللاتينية. وشاع خبر تلك النقول فى سائر أوربا، فاقتدى أمراؤها بذلك، فقضوا معظم القرون الوسطى فى النقل، وبلغ عدد ما نقلوه من العربية فى تلك المدة ٣٠٠ كتاب، نُقِل أكثرها من العربية إلى اللاتينية رأسًا، منها ٩٠ كتابًا فى الفلسفة والطبيعيات، و٧٠ فى الرياضيات والنجوم، و٩٠ فى الطب، و٤٠ فى النجامة والكيمياء.

(٢) اشتغالهم باللغات الشرقية: فاهتمام الإفرنج فى الدور الأول إنما كان الغرض منه نقل العلوم الطبيعية وغيرها للاستفادة منها فى أول نهضتهم كما فعلنا نحن فى أوائل القرن الماضى، أما اشتغالهم بدرس آداب اللغة العربية نفسها فله أسباب دينية أو تجارية، وهو تابع لاهتمامهم بسائر اللغات الشرقية، وفى مقدمتها اللغة العبرانية، لأجل تحقيق بعض المسائل الدينية بالرجوع إلى نصوصها الأصلية فى التوراة، ثم اهتموا باللغة التركية والعربية لأسباب تجارية. ولذلك كان اليهود من أقدم المستشرقين، ونبغ منهم فى أثناء الأجيال الوسطى جماعة كبيرة من العلماء فى فنون مختلفة أخذوا فى نشرها بعد نزوحهم من الأندلس. وأصبحت اللغة العبرانية فى القرن الخامس عشر وسيلة بين مدنية العرب ولغات أوربا، ثم صارت تُعَلَّم فى الكليات الكبرى مع اللغة اليونانية لأن العلماء عكفوا على درس هذه اللغة لتفهُّم الكتب اليونانية التى حُمِلت إليهم من القسطنطينية بعد دخول العثمانيين إليها سنة ١٥٤٣م.

أما العبرانية فاستعانوا بها فى تفهم علوم الدين، وهى مفتاح سائر اللغات السامية، فلم يكن ينبغ عالم إلا وله إلمام باللغة المذكورة. وكانت إيطاليا مرجع طلاب هذه اللغة فى القرن الخامس عشر، يبعثون منها المعلمين إلى سائر الممالك الأوربية، وكانت رومية مشتغلة فى ذلك الحين بإخراج المبشرين إلى المشرق، فاضطُروا إلى اللغة العربية، فانصرفت الهمم إلى درس هاتين اللغتين. ومن هنا يبدأ الاستشراق، والفضل فيه لرومية أو الفاتيكان، وقد أيدت رومية فضلها فى هذا السبيل بإنشاء المطابع العربية، وجمع كتب الشرق وحفظها فى مكتبة الفاتيكان وغيرها.

واقتدى الفرنساويون بالإيطاليين، فاستقدم فرانسوا الأول الأسقف جوستنيانى من جنوا لتعليم اللغتين العبرانية والعربية فى ريمس سنة ١٥١٩، وعملوا مثل عملهم فى إنشاء المطابع العربية، وتحداهما سائر أمم أوربا، وبعد أن كان الاستشراق خاصًّا برجال الدين يراد به التبشير أصبح علمًا قائمًا بنفسه يراد به درس اللغات الشرقية وآدابها... وللمستشرقين فضل فى تعريف الآداب العربية إلى العالم المتمدن بما نقلوه منها. وقد مرت الإشارة إلى ذلك فى أثناء هذا الكتاب، ولا سيما فى هذا الباب، وإليك إجماله:

ما نقلوه من الشعر: خلاصة ذلك أنهم نقلوا طائفة من نخبة الشعر العربى إلى اللاتينية والإنكليزية والفرنساوية والألمانية، فمما نُقِل إلى اللاتينية: ديوان الحماسة، وأشعار الهذليين، وبعض أشعار الأغانى، ومما نُقِل إلى الفرنساوية دواوين امرئ القيس والنابغة وطرفة بن العبد والخنساء، و"البردة" للبوصيرى، وشعر الفرزدق، وبعض أشعار المتنبى وأبى العلاء. ومما نُقِل إلى الإنكليزية المعلقات، و"لامية العرب"، وأشعار الجاهلية، وأشعار عنترة، وديوان البهاء زهير، وبعض أشعار أبى العلاء. ومما نُقِل إلى الألمانية المعلقات، وديوان لبيد، وتائية ابن الفارض، وشعر ابن قيس الرقيات، وبعض ديوان أبى فراس، غير ما نُقِل إلى اللغات الأخرى.

ما نقلوه من كتب الأدب واللغة: ومما نقلوه من كتب الأدب واللغة إلى الفرنساوية "أطواق الذهب" للزمخشرى، "مُلْحَة الأعراب"، "ألف ليلة وليلة"، "مقدمة ابن خلدون"، مقامات الحريرى، "الآجُرُّومية"، "كليلة ودمنة"، كتاب "المستطرف". ونقلوا إلى الإنكليزية مقامات الحريرى، "أدب الكاتب"، "ألف ليلة وليلة"، رسالة "حى بن يقظان"، "تاج العروس"، "كليلة ودمنة". ومما نُقِل إلى الألمانية "أطواق الذهب"، "كتاب سيبويه"، "ألف ليلة وليلة"، "كليلة ودمنة"، "عجائب المخلوقات"، وغيرها.

ما نقلوه من كتب التاريخ ونحوها: ونقلوا إلى لغاتهم أهم كتب التاريخ منها أبو الفداء، "مختصر الدول"، "الإفادة والاعتبار"، "كشف الظنون"، تاريخ الطبرى، "المكين"، نُقِلت إلى اللاتينية، وابن خلكان، "تاريخ اليمن" لعمارة، "تاريخ الخلفاء" للسيوطى، "رحلة ابن بطوطة"، ابن حوقل، "نَفْح الطِّيب"، نُقِلت إلى الإنكليزية، وأبو الفداء، "مروج الذهب"، "طبقات الأطباء"، "تاريخ المماليك" للمقريزى، "الفخرى"، "جغرافية الإدريسى"، "تاريخ البربر"، ابن خلكان وغيرها، نُقِلت إلى الفرنساوية، و"سيرة ابن هشام"، كتاب "المغازى"، كتاب "الإكليل"، وغيرها إلى الألمانية، غير ما نقلوه من كتب الشرع الإسلامى، فالقرآن نُقِل إلى أهم لغات أوربا مرارًا، وتفسير البيضاوى و"مشكاة المصابيح" نُقِلا إلى الإنكليزية، و"فتح القريب" و"الدرة الفاخرة" و"مختصر خليل" نُقِلت إلى الفرنساوية، و"مقاصد الفلاسفة" نُقِل إلى الألمانية.

فبهذه المنقولات وأمثالها تمكَّن المستشرقون من تعريف العرب وآدابهم إلى أُمم أوربا لأن هؤلاء كانوا على جهل تام فى تاريخ الشرق وآدابه، ولا سيما الإسلام، فإنهم لم يكونوا يُحسِنون لفظ اسم النبى، فليلفظه بعضهم Mophomet (مفمت)، أو Bophomet (بفمت)، وكان بعضهم يظن محمدًا صنمًا يعبده المسلمون، وكانوا ينقلون عن المسلمين والعرب مزاعم لا أصل لها، فلما اطَّلعوا على آداب العرب وثمار مدنيتهم ذهب من أذهانهم ما تأصل فيها فى أثناء الأجيال المظلمة من سوء الظن بالإسلام واحتقار العرب وسائر الشرقيين، غير ما أَلَّفه المستشرقون فى لغاتهم عن العرب وتاريخهم وآداب لغتهم، منها نخبة حسنة تدل على درس وتحقيق فى تاريخ العرب والمسلمين وآداب اللغة، وقد ذكرنا طائفة من تلك الكتب فى كتبنا: "تاريخ التمدن الإسلامى، وتاريخ آداب اللغة العربية، وتاريخ العرب قبل الإسلام" فى اللغات الثلاث الفرنساوية والإنكليزية والألمانية، غير ما نشروه من ذلك فى مجلاتهم الشرقية المتقدم ذكرها فى أثناء عشرات من السنين، وغير فضلهم فى حفظ المخطوطات العربية فى المكاتب الكبرى فى عواصم بلادهم كما تقدم.

(٣) المؤتمرات الشرقية: ومن مساعيهم فى سبيل اللغة العربية عقد المؤتمرات الشرقية يدعون إليها قهارمة الآداب الشرقية من أطراف العالم، وبلغ عدد هذه المؤتمرات إلى الآن ١٥ مؤتمرًا أقدمها مؤتمر باريس سنة ١٨٧٢، وتوالى عقد المؤتمرات العربية فى لندن وبطرسبورج وفلورنس وبرلين وليدن وفينا وستوكهلم وجنيف ورومية وهمبورج وجزائر الغرب وأثينا وغيرها، واشتركت الحكومة المصرية فى كثير منها".

تعليقى على ما كتبه جرجى زيدان: هذا ما قاله جرجى زيدان، ولى ملاحظتان سريعتان على هذا ا لكلام: فالمستشرقون بما عملوه ويعملونه مما ذكره زيدان وغير زيدان إنما يخدمون بلادهم لا بلادنا، إذ نهضت بلادهم بما ترجموه من تراثنا العلمى والأدبى من بعد تخلف وتبلد وجهل غليظ على ما قال زيدان نفسه، كذلك فإن حكوماتهم ومؤسساتهم تنتفع بهذا كله وقت الحاجة وعلى النحو الذى تريد. وقد عرف الغرب العرب والمسلمين بعد أن كانوا يجهلونهم ويجهلون كل شىء عنهم كما يقول زيدان، فهل نفعتنا هذه المعرفة؟ بالعكس لقد استعمر الغرب بلادنا وسرقوا خيراتها واستذلونا واعتقلوا أحرارنا وأعدموهم وظلت إساءاتهم إلينا وإلى ديننا ونبينا وأبطالنا مستمرة حتى الآن. وكان المستشرقون بوجه عام يدلون حكامهم على عوراتنا ويتعاونون مع جيوش بلادهم ومؤسساتها بل ويقومون هم أنفسهم بالتجسس أحيانا علينا. فكلام زيدان فى هذا الموضوع خاطئ إلى حد بعيد.

وقد أشارت إلى شىء من هذا المادة الخاصة بـ"إدوارد سعيد" فى النسخة العربية من "ويكيبيديا" بقولها عن صاحب الترجمة: "قامت أفكاره على تبيان وتأكيد ارتباط الدراسات الاستشراقية وثيقًا بالمجتمعات الإمبريالية معتبرًا إياها منتجًا لتلك المجتمعات ما جعل للاستشراق أبعادًا وأهدافًا سياسيةً فى صميمه، وخاضعًا للسلطة. ولذلك شكك بأدبياته ونتائجه"، وإن لم يكن سعيد ابن بجدتها، إذ كان ذلك معروفا قبله بوقت طويل. لكن فضله يتمثل فى أنه كتب هذا وهو أستاذ جامعى أمريكى وأعلنه فى دراسة كبيرة مفصلة له بالإنجليزية ومطبوعة فى دار نشر أمريكية هى كتاب "الاستشراق" بالإضافة إلى أنه لم يكن مسلما.

ما قاله مرجليوث عن الاستشراق: وها هو ذا المستشرق البريطانى د. ص. مرجليوث يتناول الموضوع فيقول: "أول داعية دعت قومًا من علماء الإفرنج إلى اكتساب العلوم الشرقية هى الديانة. فإن التوراة أساس أُسِّس عليه الدين المسيحى، ولغتها الأصلية عبرانية تختص باليهود الذين، مع حفظهم لكتابهم المقدس وتعبدهم بفروضه، لم يهتدوا إلى تبويب وتدوين قواعدها وقوانينها إلا بعد توطئة نوابغ نحويي الإسلام للطريق. وبعد ما ألف سيبويه "كتابه"، وجمع أبو عبيدة "غريبه"، ورتب الراغب "مفرداته"، حملت بعضَ أساتذة اليهود الغيرةُ على الاقتداء بهم. وقد سهل ذلك عليهم ما بين اللغتين من التقارب والتشابه. فلما استهل عند الإفرنج قمر المعارف سار لاهوتيوهم يأخذون من علماء اليهود تفسير التوراة. وبتفقه الآثار تدرجوا إلى الموارد العربية،

فأصبح كل من يرغب فى الوقوف على حقائق معانى التوراة طالبًا للعربية لا يستغنى عن طرف منها. فالسبب الأصلى فى تأسيس أستاذيات اللغة العربية عند الإفرنج هو دينى صرف أضيف إليه ما كان اشتهر من حذق أطباء العرب وحكمائهم ومنجميهم وأنه لم يزل عندهم متون أئمة اليونان القدماء وشروحها. وكان طلبة الطب عندنا قبل ٢٥٠ سنة يُضْطَرُّون إلى حضور دروس مدرس العربية. ثم عندما بلغت حرية الأفكار ما بلغت وأنتجت علوم جديدة تنقّر عن الإنسان من حيث هو إنسان وتبحث عن مصادر السياسات والأديان وتاريخ الممالك والبلدان واختلاف الأنواع باختلاف الزمان والمكان لم يخفف على المتبحرين فى هذه العلوم اتساع الممالك الإسلامية وعظم ما تشتمل عليه من المواد اللازمة لأشغالهم من آثار متواترة وعوائد غير مُخَلٍّ بها ومذاهب متشعبة وطرائق متفاوتة، فازدادوا رغبةً فى الحصول على الآلات التى تمكنهم من الاكتشاف عن خفايا التاريخ. وهؤلاء لابد لهم من الاستشراق".

مقال صلاح الشهاوى عن الاستشراق: ويجد القارئ كلمة مرجليوث هذه فى مقال بمجلة "الهلال" فى عدد أكتوبر ١٩١١م. وقد علق عليها صلاح عبد الستار محمد الشهاوى فى مقال له بعنوان "الاستشراق- تاريخه وأسبابه ودوافعه" منشور فى مجلة "الداعى" الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند (محرم- صفر ١٤٣٣ هـ= ديسمبر ٢٠١١م- يناير ٢٠١٢م) قائلا: "وإذا نظرنا إلى محتوى المقالة نجد أن مرجليوث يدعى فيها أن الباعث على الاستشراق دينى أو خدمة التوراة والإنجيل والإفادة مما جاءت به الكتب العربية والإسلامية، ولكنْ هناك رأى مناهض قوامه أن الاستشراق هدفه تشويه الإسلام والطعن فيه حتى لا تعتنقه أوروبا. وثمة حجج قوية تسند هذا الرأى، ولا ننكر أن الاستشراق له أسباب كثيرة وأهداف عديدة، سنأتى على ذكرها فى هذا المقال نقضًا لمقالة مرجليوث.

أسباب الخصومة الغربية مع الشرق: الحقيقة أن جَهْل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى مقدمة ما يدعو إلى هذه الخصومة. والجهل، لا ريب، من أعقد أسباب الجمود والتعصب وأشدها استعصاءً. ولقد تراكم هذا الجهل على مر القرون، وقامت له فى نفوس الأجيال تماثيل وأوثان يحتاج تحطيمها إلى قوة روحية كبرى كقوة الإسلام أول ظهوره. ومما زاد هذه الخصومة عدم ملاءمة المسيحية دينًا لأبنائها ممن يدَّعون أنهم مسيحيون. فالمسيحية تدعو إلى الزهد فى الحياة واعتزال العالم، وإلى الكثير من العفو والمغفرة ومن المعانى النفسية السامية مما لا

يلائم طبيعة الغرب الذى عاش ألوف السنين على طريق تعدد الآلهة، والذى يدعوه مركزه الجغرافى إلى حياة الكفاح لمغالبة ظروف الطبيعة القاسية، فإذا قضت ظروفه التاريخية أن يدين بالمسيحية فلا مفر له من أن يسبغ عليها ثوب القسوة، وأن يخرجها بذلك عن طبيعتها السمحة الجميلة، وأن يفسد فيها هذا التناسق الروحى الذى يجعل منها حلقة فى سلسلة الوحدة التى أتمها الإسلام. هذا هو سبب تعصب الغرب فى موقفه من الإسلام موقفًا تجافت الحبشة المسيحية عنه حين احتمى المسلمون بها أول ما دعا النبى صلى الله عليه وسلم إلى دين الله...".

ثم مضى يتحدث عن دوافع الاستشراق قائلا: "الدافع الدينى: الاستشراق بدأ بالرهبان، وهؤلاء كان هَمُّهم أن يطعنوا فى الإسلام، ويشوهوا محاسنه، ويحرفوا حقائقه ليثبتوا لجماهيرهم التى تخضع لزعامتهم الدينية أن الإسلام، وهو الخصم الوحيد للمسيحية فى نظرهم، دين لا يستحق الانتشار. وهناك الهدف التبشيرى الذى لم يتناسَوْه فى دراستهم العلمية، وهم قبل كل شيء رجال دين.

الهدف الاستعمارى: لما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين، وهى فى ظاهرها حروب دينية، وفى حقيقتها حروب استعمارية، لم ييأس الغربيون من العودة إلى احتلال بلاد العرب وبلاد الإسلام، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد فى كل شؤونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ليتعرفوا مواطن القوة فيها فيضعفوها، وإلى مواطن الضعف فيغذوها ليزيدوها ضعفاً.

الدافع التجارى: هذا الدافع ناتج عن رغبة الغربيين فى التعامل معنا لترويج بضائعهم، وشراء مواردنا الطبيعية الخام بأبخس الأثمان، ولقتل صناعتنا المحلية التى كانت لها مصانع قائمة مزدهرة فى مختلف بلاد العرب والمسلمين.

الدافع السياسى: نرى الآن فى كل سفارة من سفارات الدول الغربية فى بلادنا ملحقًا ثقافيًا يحسن اللغة العربية ليتمكن من الاتصال برجال الفكر والصحافة والسياسة، فيتعرف أفكارهم، ويبث فيهم من الاتجاهات السياسية ما تريده دولته.

الدافع العلمى: من المستشرقين نفر قليل جدًا أقبلوا على الاستشراق بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها. وهؤلاء يمثلون القلة ولم يكونوا يعتمدون الدس والتحريف، فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمى السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين. بل إن منهم من اهتدى إلى الإسلام وآمن برسالته. على أن هؤلاء لا يوجدون إلا

حين يكون لهم من الموارد المالية الخاصة مما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق بأمانة وإخلاص لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقى رواجًا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة ولا عند عامة الباحثين، ومن ثم فهى لا تدر عليهم ربحًا ولا مالاً. ولهذا ندر وجود هذه الفئة فى أوساط المستشرقين".

على النملة يلقى مزيدا من الضوء على نشاط المستشرقين: وقد أورد على بن إبراهيم النملة فى الفصل الأول من بحث له عنوانه "مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين" أقوال طائفة من المستشرقين يُفْتَرَض أنهم معتدلون ينتقدون فيها عمل زملائهم فى تشويه الشرق والشرقيين زيفا وبهتانا، ووضع معارفهم فى خدمة دولهم الاستعمارية، والنظر بغطرسة واستعلاء إلى المسلمين، وسعيهم إلى تحويلهم عن ثقافتهم وتقاليدهم ودينهم إلى الثقافة الغربية والنصرانية، وكذبهم على رسول الإسلام ورسمه رسما شديد السوء فى مغالطة للتاريخ وللحقيقة. على أن بيننا نحن المسلمين تيارا ينقل عن هذا المستشرق أو ذاك كلاما رائعا فى حق ديننا ونبينا مثلا، متصورا أن كل ما عنده تجاه الإسلام ونبيه هو على هذه الشاكلة. لكن من يقرأ وينقّر يجد أنه يمزج كلاما طيبا بكلام غير طيب.

ومن ذلك أن بعض المسلمين يستشهدون فرحين بما قاله هربرت جورج ويلز من كلام طيب عن نبينا صلى الله عليه وسلم، إذ وصفه فى كتابه: "The Outline of History" بأن من كانوا يعرفونه تمام المعرفة كانوا يحبونه أشد الحب كخديجة وأبى بكر وعلى مثلا، وهذا دليل على صدقه واستقامته، وأنه لا يمكن أن يكون نبيا كذابا، وأن حزنه الشديد على ابنه الصغير إبراهيم وحرصه على تسوية تراب القبر بيده يدل على عمق مشاعره وصدقها. لكن من يسوقون هذا الوصف يَعْمَوْن عن بقية كلام ويلز فى حقه صلى الله عليه وسلم، فقد عابه بشدة الشهوة، وجعل نبوته مجرد تصوُّرَ من جانبه أن ما يقوله هو وحى من الله لا من عقله، وزعم أنه كان يعتقد فى أن الله جاهز دائما لتلبية ندائه وتسويغ ما يقول وما يعمل... وطبعا فإن الرد على ويلز فى كلامه الأخير أسهل شىء، فلو كان الرسول شهوانيا لشغلته شهواته عن أداء واجباته النبوية ولكان اتخذ لنفسه أجمل نساء العرب، ولكن ظروفه كنبى وسياسى هى التى فرضت عليه هذه الزيجات. كما أنه ظل يقول إنه مجرد عبد لله سبحانه، ويتلقى أحيانا العتاب الحار فى القرآن من ربه، وينفى عن نفسه علم الغيب، ويؤكد أنه لن ينجو بعمله ما لم يتغمده الله برحمته، ولم يكن يبادر أحدا بالحرب،

لكنه لم يكن يترك من يعتدى على الدولة والأمة دون رد، وإلا انتقضت أمور الدين والدولة جميعا. كذلك كان عليه السلام متواضعا أشد التواضع، وفيا أحسن الوفاء. ثم ما الذى يمكن أن يوجه إلى محمد صلى الله عليه وسلم من نقد، وقد أعلى شأن العلم والنظافة والنظام والصدق والوفاء، ودعا إلى استعمال العقل، وكان دوما يخاطب البشر بالمنطق والحكمة، ويفهمهم أن من اجتهد وأخطأ فله أجر وليس عليه عقاب، ويعلن أن العلماء ورثة الأنبياء، ويعلم أتباعه أن الإتيان بالدليل هو ما يحسم الأمور، وأن للفقراء والمساكين حقا معلوما محددا فى مال القادرين، وأن العمل يسقط عن صاحبه الذنوب، وأن امتهان الشحاتة يسوِّد وجه الشحات يوم القيامة، وأن الله يغفر الذنوب جميعا... إلخ. فماذا فى ذلك مما يعاب؟ ومن أعجب العجب أن ويلز، الذى عاب النبى بالتهاب الشهوة، ذكر فى سيرته الذاتية: "Experiment in Autobiography" أن زوجته غابت عن البيت ذات ضحى، فما كان منه إلا أن زنى بمساعِدته فى عمله بكل أريحية وانسجام ودون أى إحساس بالذنب أو الخيانة.

مواقف الكتاب المسلمين من المستشرقين: ونعود إلى النملة وما كتبه فنراه فى الفصل الذى بعد ذلك يتحدث عن موقف الكتّاب المسلمين من الاستشراق والمستشرقين وما يقولونه عن دينهم، فذكر أنهم ثلاثة اتجاهات: اتجاه يقبل كل ما يكتبه المستشرقون باعتبارهم ينتمون إلى أمم قوية ومتحضرة وتملك مفاتيح السيادة والسلطان وبلغ العلم فيها شأوا عظيما. وأذكر أننى منذ أكثر من عشرين سنة قدر لى أن أتحاور مع مسؤول فى قطاع كبير وشديد الأهمية من قطاعات الثقافة فى مصر، فعرَّجْتُ على سيرة الكتاب المسلمين الباكستانيين والهنود وما يكتبونه عن الإسلام وجَمْعهم بين الثقافتين الإسلامية والغربية مما يجعل لكتاباتهم قوة فى البحث والتعمق والإقناع، فأبدى تأففه قائلا: إن المستشرقين هم من يفهمون الإسلام ويكتبون عنه فهما وكتابة دقيقة صحيحة. ورغم أننا قد كتبنا عقدا مبدئيا بأن أترجم لذلك القطاع كتابا من كتب المستشرقين فإنه لم يتصل بى حتى الآن، ولن يتصل، فتذكرت كلامى له فى الدفاع عن الإسلام وإهدائى إياه كتابى: "مصدر القرآن"، الذى فندتُ فيه نظريات المستشرقين والمبشرين فى تفسير الوحى المحمدى. فهذا مثال حى على الطائفة الأولى التى تقبل كل ما يأتينا عن المستشرقين ولا ترى لهم ضريعا من بيننا وتؤمن إيمانا جازما بأن ما يقولونه فى ديننا هو القول الفصل.

ومن هؤلاء أيضا نجيب العقيقى صاحب كتاب "المستشرقون"، الذى ترجم فيه لمئات من أعلامهم وذكر لكل منهم أهم أعماله، وتغنى بإنجازات المستشرقين ورسم لهم صورة مثالية وكأنهم ملائكة أطهار خدمونا وخدموا ثقافتنا وحققوا مخطوطاتنا وكتبوا عن حضارتنا، وكل ذلك بلا مقابل، لكننا جزيناهم فى الغالب جزاء سنمار. وموقف العقيقى غريب عجيب، فهؤلاء المستشرقون كما قلنا لا يخدموننا بل يخدمون أنفسهم وبلادهم. وكتاباتهم فى معظمها تشكيك فى ديننا وتراثنا. والعقيقى لا يقول الحقيقة بل يقوم بدعاية مغرضة مفضوحة ممن يعرف حقيقة الأمور. ونحن العرب والمسلمين ندرس فى بلادنا آداب الغرب ونكتب عنها مثلما يكتبون هم عن آدابنا وحضارتنا، لكننا لا نمنّ بشىء من هذا عليهم بل نعده تخصصا من التخصصات العلمية التى من الطبيعى أن يهتم بكل منها من يجد فى نفسه الميل لدراسته. ليس هذا فحسب بل إن مستغربينا هؤلاء يكتبون كتبهم وأبحاثهم ودراساتهم بلغات الآداب التى يدرسونها على عكس المستشرقين، فإنهم يستخدمون فى تآليفهم لغاتهم القومية لا العربية. وهو وجه من وجوه تفوقهم على نظرائهم الغربيين. كذلك فكثيرا ما يترجمون أعمالا عربية وإسلامية إلى لغات الغرب التى يعرفونها، وهو ما يتفوقون به أيضا على المستشرقين لأن المستشرقين نادرا ما يتقنون العربية إلى الحد الذى يترجمون آدابهم إليها كما يفعل مستغربونا، الذين يقدمون آثارنا الأدبية وغير الأدبية إلى الغرب على طبق من ذهب أو، كما يقول التعبير العربى القديم، غنيمة باردة.

أما الاتجاه الرافض تماما لما عند المستشرقين فيمكن أن نمثل له بمحمود شاكر، الذى لا يطمئن إلى هؤلاء القوم أبدا، ويحذر دائما منهم ومن كتاباتهم ومواقفهم. وهذا ظاهر مثلا فى كتابه الصغير: "رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا"، وفى كتابه الكبير: "أباطيل وأسمار"، الذى رد فيه على ما سطره د. لويس عوض عن أبى العلاء المعرى فى كتابه: "على هامش الغفران". ولا ريب أن المستشرقين بوجه عام يعادوننا ويعادون ديننا ونبينا وقرآننا، ويفترون على الإسلام المفتريات، ويعملون بكل طاقتهم على التشكيك فى كل شىء جميل فيه وعلى عزوه إلى أسوإ البواعث حسبما وضحت مرارا. بيد أن هناك طائفة من المستشرقين يكتبون عنا وعن حضارتنا وتاريخنا ورموزه كلاما طيبا فيه عدل وإنصاف.

وهنا يأتى الاتجاه الثالث، وهو الاتجاه الذى يفرز كتابات هؤلاء الناس ويميز بين الطيب والخبيث منها. فليس من العدل أن نتجاهل كتاب "الدعوة إلى الإسلام" لتوماس أرنولد، أو كتاب

"Muhammad and Learning" الرائع العظيم للبروفيسور ستيفن، أو مقال "محمد رائد الحفاظ على البيئة" للباحثة الهولندية فرنشيسكا دو شاتل، أو ما نظمه كل من جوته الألمانى وهيجو الفرنسى وبوشكين من أشعار فى الإشادة بالرسول عليه السلام، ونعاملهم كما نعامل المعادين من الغربيين. على أنه لا ينبغى أن ننتظر تطابقا تاما بين رؤيتنا ورؤيتهم، فهم من بيئة وثقافة وحضارة مختلفة، ولهم ديانة مختلفة، وتلقوا تعليما مختلفا فى مدارس وجامعات مختلفة على أيدى أساتذة مختلفين، اللهم إلا إذا كانوا قد أسلموا وصاروا منا وصرنا منهم. ومع هذا فقد تكون هناك بعض الاختلافات بين فهم هؤلاء وفهمنا للإسلام. أفليس المسلمون الأصليون أنفسهم منقسمين إلى سنة وشيعة ومعتزلة وخوارج ومتصوفة؟

مناقشة إداورد سعيد فى بعض ما قاله عن الاستشراق: وفى عام ١٩٧٨م وضع د. إدوارد سعيد، وهو أستاذ جامعى عربى أمريكى، كتابا عن "الاستشراق" الذى أشرنا إليه آنفا وعالج فيه عددا مهما من قضايا هذا الموضوع. وأحب أن أقف إزاء بعض ما قاله وأُقَفِّى عليه برأيى. فعند الكلام عن مصطلح "الاستشراق" وعمل المستشرقين نراه يقول يقول إن الشرق هو اختراع أوربى تقريبا. وأنا لا أدرى ما المقصود بهذا، فالشرق موجود منذ أن كانت هناك الأرض مثلما كان هناك الغرب. أى أن الشرق، ومثله الغرب والشمال والجنوب، هو من خلق الله سبحانه وليس من اختراع أحد. أما إذا كان المقصود هو أن صورة الشرق هى من اختراع الأوربيين فهذا أمر لا يختص لا بالشرق ولا بالأوربيين، إذ إن كل شعب يرى كل شعب آخر بعينيه هو وبعقله هو، ويرسم له صورة من اختراعه هو. وهذا يصدق على رؤيتنا نحن أيضا لأوربا والغرب.

فالشائع بيننا الآن مثلا أن المرأة الأوربية، والغربية عموما، امرأة سهلة لا تبالى بعفة أو سمعة أو حب بل على استعداد لإقامة علاقة جنسية مع أى كان. كما أنها لا تعرف الإخلاص لزوجها حتى إنها متى غاب عنها لعبت بذيلها. وهذا مثلا ما يشغل بطل رواية "فيينا ٦٠" ليوسف إدريس، إذ تقول الرواية إن هذا الموظف ليلة عودته إلى مصر من زيارة عمل سريعة له إلى النمسا عز عليه أن يرجع دون أن ينال امرأة نمساوية مع ما يعرفه عن الأوربيات من أنهن سهلات الوقوع فى غرام أى عابر ما دامت قد أتيحت لهن الفرصة، وبخاصة إذا كان شرقيا أسمر، وشعره خشن قصير مثله، فظل يحوم فى الشوارع تلك الليلة حتى وجد امرأة تسير وحدها، فشرع يتتبعها أحيانا ويسبقها أحيانا ويتصرف تصرفات طفولية سخيفة كى يلفت نظرها حتى انتهى به

الأمر إلى أن ذهب برفقتها إلى بيتها وقضى ليلته فى السرير معها كما يقضى الأزواج لياليهم مع زوجاتهم. بل إن كثيرا من الرجال الأوربيين فى عقول كثير جدا منا هم أيضا لا يبالون بكرامتهم ولا يغارون على أعراضهم، فتراهم لا يمانعون أن تقيم زوجاتهم علاقة مع غيرهم. بل كثيرا ما نسمع أن الواحد من هؤلاء يحب أن تكون زوجته سعيدة مع هذا الغير فى السرير.

كذلك يقول د. إدوارد سعيد فى معرض انتقاد الاستشراق إن الاستشراق أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودى والمعرفى بين "الشرق" و"الغرب". وسؤالى هنا هو: هل فى هذا شىء غير طبيعى؟ إن كل شعب، كما قلنا قبل قليل، ينظر إلى كل شعب آخر على أنه مختلف عنه. ونحن العرب، بوصفنا شرقيين، نختلف بكل يقين عن الأوربيين والأمريكان اختلافا شديدا رغم جامع الإنسانية بين الطرفين، وهو الجامع الذى يجعلنا متشابهين فى خطوط تكويننا وحياتنا العامة. لكن رغم هذه الإنسانية الجامعة هناك اختلافات بيننا وبينهم لا تكاد تنتهى: فهم فى الغالب ينتمون إلى النصرانية، ونحن فى الغالب مسلمون. وهم إما يؤلهون المسيح أو ملاحدة، ولكنهم فى الحالين يكرهون الإسلام، ونحن لا نؤله المسيح بل نؤمن به عبدا رسولا، مثله فى ذلك مثل نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام. ونساؤهم يكشفن أجزاء كبيرة من أجسادهن بينما نساؤنا يتحجبن. والرجال والنساء عندهم يرتدين القبعات، أما نحن فنكشف رؤوسنا إن كنا رجالا، وتلبس نساؤنا الطرحة أو ما يشبهها. وهم يشربون الخمر ويأكلون الخنزير، ونحن نحرمهما. وأطعمتهم تختلف عن أطعمتنا فى تفاصيل كثيرة. وهم يكتبون من الشمال لليمين، ونحن من اليمين للشمال. وحروف لغتهم تختلف تماما عن حروف لغتنا. وبلادهم حاليا أنظف من بلادنا. وهم أنشط وأشد احتراما للعمل وإتقانه منا. ومعظم شوارع مدننا ممتلئة بالحفر والمطبات، أما شوارعهم وأرصفتهم فواسعة وممهدة تماما ومُراعًى فيها كل ألوان الراحة لمن يستعملونها، وأما قرانا وأحياؤنا الشعبية فلا داعى للكلام عنها، فبينها وبين قراهم وأحيائهم المناظِرة سنون فلكية. والعقول عندهم ناشطة فى ميادين الفكر والعلم والاختراع والابتكار، ومن ثم فهم وراء كل الاختراعات والابتكارات التى يستمتع بها البشر فى كل أنحاء العالم منذ قرون بخلافنا تماما، إذ نحن مجرد مستهلكين ومقلدين ولا نعرف ابتكارا ولا اختراعا. وعندهم شورى، وحكامهم يرون أنفسهم خداما لأمتهم، أما لدينا فالاستبداد هو سيد الموقف. وليس عندهم فقر وبؤس كالذى فى كثير من بلادنا... إلخ. والقرآن يقول عن البشر: "ولو

شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة. ولا يزالون مختلفين". فإذا كان هذا هو حال الواقع، وكان هذا هو تقرير القرآن، فالمسألة بالتالى منتهية.

إذن فأوربا لم تخترع الشرق اختراعا بل هو، عند انطلاق مرحلة الاستعمار الغربى لبلاد الشرق، والبلاد العربية والإسلامية على نحو خاص، موجود على النحو الذى صورتُه لتوى. لكن المشكلة فى أن أوربا تزعم أن الشرق هكذا كان، وهكذا هو الآن، وهكذا هو كائن وسيكون فى المستقبل إلى ما لا نهاية حتى إن بعضا من شياطين مفكرى الغرب يريدون أن يوهموا العالم أن الوضع الحضارى الحالى هو وضع دائم وخالد إلى الأبد. لقد وقف التاريخ عند هذا الحد، ولن يتحرك أو يتغير، بل سوف يظل الغرب متقدما متحضرا متفوقا، ويبقى الشرق طوال عمره متخلفا ضعيفا يغمره الخزى والهوان والضعف والهزيمة دون أى أمل فى الانعتاق من ذلك.

ونسى الغرب أن الوضع كان معكوسا إلى حد كبير قبل العصر الحديث، فكنا نحن فى المقدمة، وهم فى المؤخرة، وأن حضارتهم الحالية أساسها حضارتنا، التى غربت وسقطت شمسها فى مياه المحيط ولم تبزغ من يومها منذ قرون. وفوق هذا فإن الغرب يعمل بكل قواه وطاقاته على إبقائنا متخلفين ويسد الأبواب جميعا فى وجوهنا، ثم يستدير من الناحية الأخرى ويعايرنا بأننا بطبيعتنا متخلفون لسنا على استعداد للترقى لأن طبيعتنا تقف هى والترقى على طرفى نقيض. وهو موقف شيطانى خبيث. على أن هذا لا يعفينا من اللوم، فنحن لا نريد النهوض إرادة صادقة وإن جعجعنا بخلاف ذلك، ومن ثم فنحن المَلُومُون بالدرجة الأولى، إذ لا يعقل أن ننتظر من الآخرين مساعدتنا على النهوض ومنافستهم من ثم، وبخاصة إذا كان هؤلاء الآخرون هم أعداءنا وسارقى ثرواتنا وقاتلى أبطالنا والذين احتلوا بلادنا بقوة السلاح ولا يزالون يحتلونها، وإن لم يكن احتلالا عسكريا كما كان الأمر فى السابق بل احتلالا سياسيا وثقافيا واقتصاديا.

ومما يقوله إدوارد سعيد فى كتابه المذكور أيضا أن الشرق بالنسبة لأمريكا، على عكس الدول الأوربية، ليس هو الشرق العربى بل الشرق الأقصى، واليابان والصين فى المقام الأول. وهذا كلام يحتاج إلى مراجعة، فقد كان الليبيون فى القرن التاسع عشر يمنعون أساطيل الأمريكان من المرور فى البحر المتوسط بسلام، فكان أن لجأت أمريكا إلى الحصار وضربت طرابلس بقسوة، لكن ذلك لم يجدهم نفعا، فانسحبوا ودفعوا المعلوم كما كانوا يفعلون قبلا. وفوق هذا هل يمكن أن ننسى تجارة العبيد الأفارقة، وكثير منهم مسلمون، تلك التجارة التى كان يقوم بها الأمريكان

وفطس فيها ملايين البشر الذين كتب الله عليهم أن يقعوا عبيدا فى أيادى الأمريكان المجرمين؟ أيمكن أن ننسى فلسطين وما فعله الأمريكان (مع غيرهم من دول أوربا) من أجل خلع الفلسطينيين من بيوتهم وأراضيهم وزيتونهم وبلادهم وتسليم ذلك كاملا جاهزا لليهود والصهاينة وعملهم على الحفاظ على قوة أولئك الواغلين شذاذ الآفاق والتنكيل بأصحاب الحق والأرض والزيتون والوطن؟ أيمكن أن ننسى هزيمة سبع وستين وما جرته علينا من خزى وعار وهوان وتنازل عن الكرامة والحقوق وما رسخته من استبداد؟ فمن وراء هذا يا ترى سوى الأمريكان؟ أيمكن أن ننسى أن الانقلابات العسكرية التى ابتليت بها بلاد المسلمين مع ما ابْتُلِيَ بها كثير من شعوب العالم الثالث هى صناعة أمريكية فى المقام الأول، وإن زعم الانقلابيون أنهم أعداء لأمريكا وعلى استعداد لتشريبها مياه البحر، وهو شيء لزوم الاستهلاك المحلى للإيهام بأن عملاء أمريكا هم أبطال وطنيون غيارى على مصالح البلاد والعباد؟ أيمكن أن ننسى الجزية التى يدفعها بعض حكام العرب للأمريكان بمئات المليارات، والتى كانوا يدفعونها سرا ثم أتى ترامب الفظ الغليظ فأعلنها مدوية بأنهم إذا لم يدفعوا أكثر وأكثر وأكثر وأكثر فلسوف يتركهم يسقطون فى خلال أيام؟ وهو طبعا يعنى أن الأمريكان سوف يخلقون لهم المشاكل ويسلطون عليهم جيرانهم ويزيحونهم عن عروشهم. أيمكن أن ننسى ما فعله الأمريكان بالعراق وتدميرهم له وقتلهم مئات الألوف من أبنائه ونسائه وأطفاله المساكين وسرقتهم بتروله وآثاره الوطنية العظيمة التى لا تقدر بثمن؟ فكيف ينسى أو يتناسى هذا كله د. إدوارد سعيد بتلك البساطة ويقول إن الشرق لدى الأمريكان هو الشرق الأقصى ليس إلا؟

وبالنسبة إلى مصطلح "الاستشراق" يرى إدوارد سعيد أن أيسر تعريفاته أنه مبحث أكاديمى، بيد أنه يعود فيذكر بين المستشرقين شعراء وروائيين وفلاسفة وسياسيين واقتصاديين وإداريين، وهو ما نتفق معه فيه ولا نقصر الاستشراق على الأكاديميين، فالمستشرق هو كل من يهتم بالشرق، والمقصود فى حالتنا هو الشرق العربى والإسلامى، الذى يدخل فيه مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا رغم أن هذه البلاد الأخيرة لا تقع فى شرق أوربا بل فى جنوبها، وإن كانت تقع فى شرق أمريكا على نحو ما. والمهتمون بالشرق، كما وضحنا، لا ينحصرون فى الأكاديميين بل يشركهم فى هذا من ذكرهم سعيد نفسه وأشرت إليهم قبل قليل، ونضيف إليهم الصحفيين ورجال الدين والرحالة والمغامرين والجواسيس ومثيرى الشغب والفوضى ومدبرى

الانقلابات ما داموا قد تركوا وراءهم كتبا ودراسات ومقالات تتعلق بالشرق. وعلى هذا الأساس نرى إدوارد سعيد لا يمانع من اعتبار إيسخولوس المسرحى الإغريقى ولا فكتور هوجو الشاعر والروائى والمسرحى الفرنسى ولا دانتى الإيطالى صاحب "الملهاة الإلهية" ولا كارل ماركس الفيلسوف الألمانى من المستشرقين. وقد كتب إيسخولوس مسرحية عن حرب بلاده مع الفرس، ونظم هوجو شعرا جميلا فى بعض المنعطفات الهامة فى سيرة سيد الخلق، وتعرض دانتى فى "كوميدياه" لنبينا الكريم وبعض الشخصيات الإسلامية الكبيرة، فوضعهم الملعونُ فى الجحيم، ووضع سيد الخلق فى قعر ذلك الجحيم. كذلك تحدث كارل ماركس عن الإسلام وسجل رأيه فيه ضمن بعض مؤلفاته.

ومعنى هذا أن الاستشراق لا يقتصر على عصرنا ولا على ما قبل عصرنا بعدة قرون، بل هو قائم منذ كان هناك شرق وغرب وغربيون يهتمون بالشرق ويكتبون عنه ويرحلون إليه ويصفونه ويسجلون آراءهم حول ما وجدوه فيه سماعا ورؤية وتجارب واتصالا بالناس وما يعملون. ومن هنا وضعت كتابى: "مستشرقون من قبل عصر الاستشراق. مستغربون من قبل عصر الاستغراب" قبل سنتين، وذكرت من المستشرقين القدامى الذين ظهروا قبل بدء عصر الاستشراق الرسمى بأزمان بعيدة هيرودوت المؤرخ والرحالة الإغريقى ووقفت إزاء ما كتبه عن مصر وعن المصريين وقلبته على وجوهه وألفيت ما كتبه عن بلادنا وحضارتنا وأسلافنا كلاما طيبا إلى حد بعيد. ومنهم ديودور الصقلى، الذى تأملت فأعجبنى ما قاله عن بلاد العرب وجنوب بلاد الشام وبحيرة طبرية، ووضعت كل شىء فيه على محك المناقشة. كذلك تحدثت فى كتابى هذا عن يوحنا الدمشقى وما كتبه عن الإسلام والرسول والقرآن وفضحت أكاذيبه ومزاعمه الزائفة حول نبينا الكريم ورسالته العبقرية. ومن هنا نفهم اعتبار إدوارد سعيد لإسخولوس مستشرقا من المستشرقين.

ويقول إدوارد سعيد أيضا إن الاستشراق دليل على سيطرة أوربا وأمريكا على الشرق، ومن ثم ليس هناك أمل فى إدحاض الخطاب الاستشراقى بمجرد الرد عليه وتبيين ما فيه من أخطاء. يريد أن يقول إن الخطاب الاستشراقى سيظل قويا مؤثرا ما دام أهله أقوياء مؤثرين، ونحن العرب والمسلمين ضعفاء مستسلمين. ولى على هذا عدة ملاحظات: أولاها أن إدوارد سعيد يحصر نفسه هنا فى الاستشراق الحديث والمعاصر، وهو الاستشراق الذى واكب الاستعمار

الغربى لبلادنا. وهذا الاستشراق ليس هو كل الاستشراق بل مرحلة واحدة من مراحله سبقتها مراحل منها مرحلة كان العرب والمسلمون أقوياء، وكان الغرب يتعلم علومنا ولا يعيبها ولا ينتقدها بل يستفيد منها ما دامت هذه العلوم متصلة بالطبيعة والكيمياء والجيولوجيا والفلك والطب وما أشبه، أما ما اتصل بالإسلام فكان موقف الغرب منه مختلفا، إذ كان يختلق الأكاذيب ويروجها بين شعوبه وأممه حتى ينفرهم من دين محمد ويبغضهم فيه. وثانية ملاحظاتى أن الاستشراق لن يسقط مهما فعلنا بل كل ما يمكن أن يحدث هو أن عدد الذين يصدقون أقاويله سيقلون، وتأثيره سيضمحل، على الأقل فى نفوس العرب والمسلمين المفتونين به. وهذا من شأنه أن نستعيد الثقة بأنفسنا وتتحرر عقولنا وتنطلق وتعمل وتثور على هذه البلادة والعجز الفكرى والشلل النفسى والتيبس الحضارى الذى نرزح تحته منذ قرون. وهذا أمر يستغرق أزمانا ولا يتم دفعة واحدة فى وقت واحد. وكما تحرر الغرب من خوفهم من المسلمين قليلا قليلا وأخذ هذا الأمر منهم قرونا فلسوف يحدث الأمر على هذا النحو عندنا. ذلك قانون من قوانين الكون: ألا يتم مثل ذلك التحول بسهولة ولا بسرعة، بل يأخذ وقته. والمهم البدء، والمهم العمل، والمهم النشاط والحيوية.

ومما قاله إدوارد سعيد أيضا أن الاستشراق لا يمكن اختزاله فى كونه هيكلا من الأكاذيب. ونحن معه فى هذا، فلا شك أن الاستشراق، بما فى ذلك الاستشراق المتعصب المعادى، ليس كله أكاذيب، إذ المستشرق ينطلق فى كثير من الأحيان من نصوص فى تراثنا ومن أحوال فى واقعنا. لكن المشكلة تكمن فى أن كثيرا من المستشرقين، إن لم يكن أكثرهم، يلوون مغزى النصوص والأوضاع القائمة ويفسرونها تفسيرا مسيئا ويقوّلونها ما ليس فيها ويستخرجون منها أفسد النتائج وأبعدها عن المنطق. ذلك أنهم يدخلون الموضوع بفكرة مسبقة كارهة للإسلام، ومن ثم يوجهون النصوص والأوضاع كى تنسجم مع تلك الكراهية. وبوجه عام نراهم لا يستشهدون بأحد من الكتاب المسلمين المحدثين الذين يدافعون عن الإسلام أو يعرضونه عرضا حسنا مكتفين بالنصوص التى ينقلونها عن الكتب التراثية مع مراعاة أن تكون مجرد نصوص إخبارية أو تقريرية لا عرض فيها للإسلام ولا دفاع فيها عنه، ورغم هذا فنحن لا ننكر أن هناك نسبة من المستشرقين، ولكنها ضئيلة عموما، لا تنحرف هذا الانحراف بل تلتزم إلى حد معقول جانب الحياد والموضوعية. كما أن هناك مستشرقين مسلمين يقولون بطبيعة الحال فى الإسلام والعروبة قولا حسنا.

كذلك يركز إدوارد سعيد فى كتابه على الأهداف السياسية والاقتصادية للاستشراق، وهى تمكين المستشرقين لبلادهم من استغلال البلاد الشرقية، ويهمنا منها بطبيعة الحال البلاد العربية والإسلامية، والاستيلاء على خيراتها وتعويق نهضتها وقمع كل حركة كفاحية فيها وإشاعة اليأس فى نفوس أبنائها من مناطحتهم لسادتهم الأوربيين، فضلا عن الانتصار عليهم والقدرة على إخراجهم من بلادهم. لكن منطلق الاستشراق فى أصله الرسمى والمؤسساتى هو منطلق دينى. لقد رأينا كيف بدأ الاستشراق المؤسساتى فى أسبانيا فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) حين اشتدت حملة نصارى الأسبان على المسلمين، إذ دعا ألفونس ملكُ قشتالة رجلَ الدين الأسكتلندى مايكل سكوت إلى دراسة حضارة المسلمين علما ودينا، فجمع سكوت طائفةً من الرهبان بدَيْرٍ قرب طليطلة، وشرعوا فى ترجمة بعض الكتب الإسلامية العربية. وقام رئيس أساقفة طليطلة ريمون لول بنشاط كبير فى ترجمة تلك الكتب. ومع مرور الزمن اتسع الأوربيون فى هذا المجال، وأنشأوا مطابع عربية لطبع الكتب التى كانت تدرس فى المدارس والجامعات فى بلدانهم. ومعروف أمر محاكم التفتيش فى شبه الجزيرة الأيبيرية والغاية التى كانت السلطات السياسية والدينية هناك تعمل من أجل بلوغها، وهى القضاء على الإسلام تماما فى تلك البلاد بكل سبيل إجرامى ولاإنسانى، وهو ما تحقق بعد فترة ليست بالطويلة فى تاريخ الأمم حسبما وضحنا سابقا. لقد ترك العرب والمسلمون، حين فتحوا تلك البلاد، أهلها على ما هم عليه من دين، ولم يحاولوا تحويلهم عن عقيدتهم، فضلا عن أن ينشئوا المؤسسات التى تفعل هذا على عكس ما صنع رجال الحكم والدين النصارى هناك حين واتتهم الفرصة.

ومن هنا رأينا كثيرا جدا من المستشرقين والمبشرين يؤلفون الكتب ضد الإسلام معتمدين فيها على الأخاديع والمزاعم الباطلة من أن محمدا نبى كاذب وأن القرآن مأخوذ من الكتاب المقدس مع تحريف هذا المأخوذ، وأن الإسلام دين عدوانى انتشر بالسيف وأن النصرانية دين سلام ورحمة ورقة، وأن المسلمين بإنكارهم أن عيسى عليه السلام هو إله أو على الأقل: ابن الله قد كفروا وضلوا عن سواء السبيل. وكثيرة جدا هى الكتب والدراسات التى تهاجم الإسلام ورسوله وكتابه وتاريخه. ويتبين ذلك على أوضح صورة وأوجزها فى "دائرة المعارف الإسلامية" حيث الانحراف عن المنهج العلمى، والعداوة البارزة للإسلام ورسوله وكتابه وعقائده وشرائعه، والرغبة الحارقة فى تلطيخ كل شىء فيه، وضيق الأفق فى الكلام عن أى شىء يتعلق بالإسلام، والتعصب

الذميم ضده حتى لتقدَّم أسوأ التفسيرات لأى إنجاز كريم من إنجازاته، وتُعْزَى الأعمال العظيمة فيه إلى أحط البواعث، وتُنْثَر بذور التشكيك فى مصادر تاريخه، اللهم إلا إذا كان فيها ما يمكن عن طريق لَيِّه وتقويله ما ليس فيه أن يوظَّف للإساءة إلى الإسلام وحضارته وأعلامه كما لاحظتُ حينما عكفتُ على تأليف كتابى: "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل"، الذى يجد فيه القارئ الأدلة والبراهين القاطعة على تحيز الدائرة وكتابها ضد ديننا وكل ما يتعلق بهذا الدين. صحيح أن هناك مستشرقين معتدلين أو متعاطفين مع ديننا بل هناك أيضا مستشرقون أسلموا، إلا أنك عبثا تحاول العثور على شيء من آثار هذا الاعتدال أو التعاطف أو الاندماج فى تلك الموسوعة، ويبدو أن هؤلاء بوجه عام مستبعدون من المشاركة فى تأليف تلك الموسوعة.

ويكمل هذا النشاط اهتمامُ الغرب بمن يعمل منا لصالحهم وتلميعُهم ودعوتُهم لحضور مؤتمراتهم فى أوربا وأمريكا وتضخيمُ شأنهم مهما كانت محدودية قدراتهم وسطحية معارفهم وتفاهة شخصياتهم وخلعُ الجوائز عليهم وتسهيلُ عملية النشر لهم... إلخ بينما يحارَب من الكتاب والأدباء المسلمين من يخلصون لدينهم ويعتزون بحضارتهم وتاريخهم ويدافعون عن نبيهم وقرآنهم ورموزهم. وسياسة الغرب فى هذا الصدد تقوم على تقريب من يسمونهم بـ"المعتدلين" فى الدين إليهم مستعينين بهم فى ضرب من يسمونهم بـ"المتشددين"، حتى إذا ما قضوا على المتشددين استداروا فاستعانوا بالعلمانيين ضد المعتدلين، ليستعينوا بالملاحدة وخالعى أنفسهم صراحة من ربقة الإسلام ضد العلمانيين. وهذا مكتوب على نحو أو على آخر فى بعض تقارير مؤسسة راند، التى ترجمت أنا ثلاثة منها إلى العربية وصدرت عن دار "تنوير".

بنت الشاطئ وما كتبته عن اهتمام المستشرقين بتراثنا وحاضرنا: وتتحدث بنت الشاطئ فى الجزء الخاص بالمستشرقين من كتابها: "تراثنا بين ماض وحاضر" عن سر اهتمام الدارسين الغربيين بتراثنا وحاضرنا ذلك الاهتمام الشديد المذهل فتؤكد أنهم إنما يدرسوننا ليعرفونا جيدا ويقفوا على أسرار شخصياتنا ونواحى القوة والضعف فى أسلوب حياتنا وتفكيرنا وميولنا حتى يضعوا الخطط لاجتياحنا ثقافيا وعسكريا ويسددوا ضرباتهم إلى ديننا وكل ما تقوم عليه حياتنا وحاضرنا ومستقبلنا. وهى لا تنكر أن فى المستشرقين مخلصين للعلم وللحقيقة، لكنها ترى نسبتهم ضئيلة، أما التيار الجارف فيخطط لتدميرنا. ثم إنها رغم هذا تقول إننا مدينون لهم بما أنقذوره من مخطوطات تراثنا العظيم، تلك المخطوطات التى جندوا للحصول عليها بكل سبيل الأموال

والأشخاص وأرسلوهم إلى كل مكان فى العالم الإسلامى لشرائها وجمعها ونقلها إلى مكتباتهم وتحقيقها ونشرها. وأنا لا أستطيع أن أنكر جهود المستشرقين فى هذا المجال، لكنى أحب أن أضيف أن شعورنا بأننا مدينون لهم لا ينبغى أن يحملنا على الظن أنهم قد أرادوا خدمتنا بهذا بل كان ديننا لهم عرضا، أى شيئا لم يقصدوه، وإنما تصادف أن استفدنا نحن منه دون أن يقصدوا هم هذا على الإطلاق. ومن ناحية أخرى فإننا ندرس آداب الغرب وفكره وعلومه وفلسفته ولا نشعر أننا أصحاب جميل عليه، بل ننظر إلى الأمر على أنه تخصص نمارسه ليس إلا. وشىء آخر هو أن دارسينا المتخصصين فى آداب الغرب وعلومه وفلسفاته لا ينطلقون من منطلق البحث عن عيوبه والتخطيط لإيذائه كما يفعل المستشرقون بوجه عام حين يدرسوننا.

عَوْدٌ إلى إدوارد سعيد: كذلك يشير إدوارد سعيد إلى ما كان ولا يزال ينتهجه المستشرقون من اللجوء إلى التخطيط والتعاون وإصدار المجلات وعقد المؤتمرات وتبادل المؤلفات وتناول كل شىء تقريبا فى حضارتنا وثقافتنا بالكتابة والنقد، وغالبا بالتهوين اللهم إلا إذا كان الكاتب أو الأديب المسلم من المارقين أو الذين يمكن أن يقدَّموا على أنهم مارقون خارجون على الإسلام، فعندئذ يولونه أهمية عظمى ويستخرجون منه ما يستطيعون الزعم بأنه تمردٌ على الإسلام. ولا ينبغى أن ننسى فى هذا السياق "دائرة المعارف الإسلامية"، التى تجمع بين دفتيها خلاصة الفكر الاستشراقى المعادى لنا كما سبق أن وضحت. ومن وراء هذا كله الحكومات الغربية ومؤسسات المجتمع المدنى والتبرعات التى يقدمها أغنياؤهم خدمة للاستشراق والمستشرقين.

أما نحن فرغم أننا ندرس الأدب والثقافة الغربية فى جامعاتنا فلن تجد بوجه عام فى كتابات مؤلفينا إلا الإكبار للغرب وكتّابه وأدبائه وفلاسفته، ولا تكاد تجد شيئا يشتم منه رائحة الانتقاد واستخراج النواحى السلبية التى لا يبرأ منها عمل إنسانى كما قلت آنفا. كذلك عبثا تبحث عن انتقاد للغرب أو الأديب أو الكاتب المترجم له فى "فرنسيس باكون" و"شكسبير" و"برنارد شو" للعقاد، و"قادة الفكر" و"نظام الأثينيين" لطه حسين، و"دافيد هيوم" و"برتراند رسل" لزكى نجيب محمود، و"الكوميديا الإلهية" لحسن عثمان، الذى يجل دانتى إجلالا بعيدا رغم وضع الشاعر الإيطالى لنبينا محمد وعدد من رموز تاريخنا وثقافتنا فى الجحيم مختصا رسولنا الكريم بوضعه فى قاع القاع، وكل ما صنعه عثمان أن حذف الأبيات المتعلقة بموضوع النبى، لا ندرى أكان ذلك بدافع من ذاته أم بتوجيه من "دار المعارف"، التى نشرت له الترجمة، ولم تمنعه كراهية دانتى السامة لمحمد

عليه السلام ولدينه وبعض الشخصيات الإسلامية الكبيرة من إنفاق عشرين عاما على نقل دانتى إلى لغة القرآن رغم أن تخصصه هو فى التاريخ لا فى الأدب الإيطالى ولا فى أى أدب.

طه حسين وكتاب نالينو عن تاريخ الأدب العربى: هذا، وهناك كتاب ظهر فى مصر عن دار المعارف للمستشرق الإيطالى كارلو نالينو ذكرت ابنته وطه حسين أنه هو نفسه نص المحاضرات التى كان يلقيها على طلاب الجامعة المصرية فى العام الدراسى ١٩١٠- ١٩١١م فى تاريخ الأدب العربى، وعنوانه "تاريخ الآداب العربية". وإذا كان الكتاب هو نفسه نص المحاضرات فمعنى هذا أن المستشرق الإيطالى كان يقرأ من أوراق هذا الكتاب مباشرة على طلابه، إذ المحاضرات الشفوية لا يمكن أن تكون هكذا خالية من التكرار والفأفأة والبأبأة والاستطراد والخروج عن الموضوع والأخطاء والأسهاء وما إلى ذلك. وقد وقع لى كتابه عن الفلك عند العرب فى العصور الوسطى بعد ذلك، فألفيته يذكر فى التمهيد لفصوله أنه كان يملى كتابه ذاك على طلابه بإيقاع يسمح لهم بكتابة ما يسمعون حتى يستطيعوا أن يستذكروا المحاضرة فى البيت وما إلى ذلك. وأفهم من ذلك أنه لم يكن يشرح شيئا مما يمكن أن نقول فيه إنه يتحدث الفصحى من فمه وذهنه مباشرة لا من النظر فى كتاب وإنه كان بارعا فى ذلك كما يفهم من كلام طه حسين فى مقدمته لكتاب "تاريخ الآداب العربية"، إذ كان، كما يقول، يملى فقط، وببطء يمكِّن طلابه من كتابة كل شىء. ثم إن ابنته ذكرت أنها قد أضافت أشياء إلى الكتاب وترجمت الحواشى الإيطالية التى كان أبوها قد صاغها للكتاب بلغته رغم أن الكتاب مسبوك فى العربية ورغم أن مؤلفه كان يعرف العربية معرفة جيدة كتابة وكلاما حسبما قيل. ومما يلفت الانتباه أيضا تأكيد طه حسين أن الكتاب الذى نحن بصدده هو هو نفسه المحاضرات التى كان يلقيها نالينو على طه حسين وجيله من الطلاب المصريين قبل أكثر من أربعين عاما. فكيف يكون طه حسين على هذا اليقين القاطع من أمر مضى قبل كل تلك العقود؟ ثم ما دام نالينو كان يتقن العربية كل ذلك الإتقان فلماذا لم يؤلف شيئا آخر من مؤلفاته بها غير ذلك الكتاب وكتاب آخر عن الفلك ألقى محاضراته فى العام الجامعى السابق، والمحاضرات التى دُعِىَ بعد ذلك إلى الجامعة كرة أخرى لإلقائها مثلما صنع مع هاتين المجموعتين من المحاضرات؟

ثم لقد قرأنا، فى ترجمة نالينو بـ"موسوعة المستشرقين" للدكتور عبد الرحمن بدوى، أنه قد تعلم العربية على نفسه فى البداية، ولم يعش فى بلد عربى سوى نصف عام، وكان ذلك فى

مصر. وقد ذكر د. عبد الرحمن بدوى فى ترجمته له فى نهاية كتابه: "التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية- دراسات لكبار المستشرقين" (مكتبة النهضة المصرية/ ص٣٢٢) أنه "بدأ تعلم العربية دون أستاذ ودون كتب فى نحو اللغة وصرفها بأن كان يديم النظر فى كتابٍ جمع منتخبات من الأدب العربى وقع نظره عليه فى مكتبة بلدية أودِنه". والواقع أنى لا أدرى كيف يمكن تعلم لغة أجنبية من خلال النظر فى بعض نصوصها دون أن يعرف المتعلم ألفباءها أو نحوها وصرفها. إن المتعلم حينئذ ليشبه الأطرش الذى يحاول الاستماع إلى الموسيقى فى غرفة ليس فيها موسيقيون ولا آلات موسيقية ولا نوت موسيقية بل ليس فيها أحد سوى نفسه. إن الأمر وقتئذ لا يزيد عن تحديق نالينو فى صور لحروف لا تعنى أى شىء بالنسبة إليه، بل ولا يستطيع أن ينطقها مجرد نطق. ومعروف أن الأجنبى لا يكتسب المقدرة على الكتابة بلغة غير لغته التى ولد وتربى وتعلم فيها وبها إلا إذا أنفق فى معرفة حروفها ونطقها ونحوها وصرفها ثم القراءة والكتابة بها ثم استعمالها فى التأليف سنوات طوالا يكتب ويصحح له المصححون ويكتب ويصحح له المصححون ويكتب ويصحح له المصححون إلى أن يكتسب حساسية اللغة والتفكير والتأليف بها. إن لغة نالينو العربية التى نراها فى كتابه عن "تاريخ الآداب العربية"، ويكثر فيها أحيانا بعض تراكيب الأسلوب القديم ومفرداته وتعابيره لا يمكن تحصيلها هكذا من المرة الواحدة التى ألف فيها كتابه عن الفلك عند العرب فى السنة السابقة، إذ لم يصلنا ولم يذكر نالينو نفسه أنه كان يكثر من الكتابة بالعربية كما يصنع مع لغة بلده، وإلا فأين تلك الكتابات؟ وأين أخبارها؟ وما ظروفها؟ ولماذا يتعب نفسه فى صياغتها إذا لم يكن سيؤلف بها كتبه، وهو لم يكن يشم على ظهر يده ويعرف أنه سوف تستدعيه الجامعة المصرية ليحاضر طلابها بالعربية فكان يكتب بها سنوات قبل التحاقه بأساتذتها؟ ذلك إنه لمن الغرابة بمكان أن يكون هذا هو أسلوب كارلو نالينو فعلا حصله فى وقت جد قصير ودون تدريب طويل ولم يساعده أحد فى صياغته أو فى تنقيته من الأخطاء التى لا بد أن يقع فيها بوصفه إنسانا أجنبيا عن اللغة وعن الثقافة المكتوبة بتلك اللغة. إن أسلوبه العربى الذى صيغ به كتابه عن "تاريخ الآداب العربية" هو أسلوب قوى يصعب على كثير من الكتاب العرب أنفسهم أن يصلوا إليه، وإن لم يخل من بعض الأخطاء والغرابة والركاكة وأسلوب الخواجات.

ورغم هذا فلست مع طه حسين فى الضجة التى أحدثها فى مقدمته للكتاب بسبب امتلاك نالينو لمثل هذا الأسلوب العربى إن كان نالينو قد جرى على النهج الذى يجرى عليه كل

من يتعلم لغة غير لغة قومه، وبخاصة إذا كانت مختلفة تماما عنها اختلاف العربية عن الإيطالية وعن سائر اللغات الأوربية، فطه حسين نفسه قد كتب رسالته فى السوربون بالفرنسية، وكل من ذهب إلى بلد أوربى وحصل على درجة الدكتورية من هناك قد صنع نفس الشىء. وهذا ينطبق علىَّ أنا كاتب هذه السطور أيضا حين ذهبت إلى أكسفورد وحصلت على الدكتورية من هناك بعدما كتبت بها مرارا وصحح لى المصحح ما أكتب. أما الأساتذة المتخصصون فى اللغات والآداب الأجنبية فيتكلمون ويكتبون كلٌّ باللغة التى تخصص فيها مثلما كتب نالينو دروسه بالعربية، بل وأفضل كثيرا، ودون أن يبدو لنا الأمر عجيبا كما أراد د. طه أن يصور إنجاز نالينو.

كذلك فتصوير د. طه، فى مقدمة كتاب نالينو عن "تاريخ الآداب العربية" على سبيل المقارنة مع منهج نالينو فى ذلك الكتاب، للدرس الذى كان يلقيه عليهم الشيخ المرصفى فى الأزهر فى شرح النصوص الأدبية العربية القديمة وتحليلها وتفهيمها للطلاب على أنه شىء قديم ليس تصويرا صحيحا بل هذا أحد المناهج التى نقترب بها من النصوص الإبداعية والتى بدونها لا نستطيع أن نفهم تلك النصوص: على الأقل لا نستطيع أن نفهمها الفهم الواجب. وما زلنا حتى الآن نستعمل هذا المنهج مع طلابنا، وإلا ما فهموا ما ندرسه لهم، وبخاصة إذا كان نصا قديما لا يعرفون سوى القليل عن لغته والظروف التى أنشئ فيها والأشخاص الذين يرتبطون به. ولا أظن نالينو كان قاردا على القيام بعمل الشيخ المرصفى رغم أسلوبه العربى المتميز مع أخطاء وركاكات وغرابة فى التراكيب هنا وهناك.

وفى مقدمة كتاب نالينو: "تاريخ الآداب العربية" يقول طه حسين مقابلا بين لغة مشايخ الأزهر فى الجامع الأزهر ولغة المستشرقين فى الجامعة المصرية، والضمير فى أول الكلام يعود عليه وعلى زملائه الذين كانوا يحضرون نهارا دروس مشايخهم الأزاهرة، وليلا دروس المستشرقين فى الجامعة المصرية الجديدة: "ووازنوا كذلك بين شيوخهم أولئك الذين كانوا لا يعربون إلا حين يقرأون فى الكتب، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم فى اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعربون حين يقرأون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث. وكانوا يسألون أنفسهم: كيف أتيح لهؤلاء الأوربيين ما أتيح لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها، وكيف لم يتح هذا النوع من العلم لشيوخهم أولئك الأجلاء" (ص١٠).

هذا ما قاله طه حسين عن المستوى اللغوى العالى للمستشرقين الذين كانوا يحاضرون فى الجامعة المصرية أول ما افتتحت. لكن نالينو كان له رأى آخر فى الموضوع، إذ إنه فى مقدمة الكتاب الذى يحوى ما كان يلقيه قبل ذلك بعام من محاضرات عن "علم الفلك- تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى" (روما/ ١٩١١م/ ٢- ٣) قد اعتذر اعتذارا شديدا عن ضعفه فى الحديث باللغة العربية قائلا: "وقبل الشروع فى موضوع دروسى لا بد لى من أن أستدعى لطافتكم الجميلة استدعاء ملحا لأنال منكم الغفران لما فى كلامى من النطق الشنيع والتلعثم الفظيع والتوقف والتردد وعدم تلك الفصاحة وتلك البلاغة اللتين تعودتهما مسامعكم فى محاضرات زملائى أساتذة هذه الجامعة وخطب الأدباء البارعين فى الإنشاء ومحاورات الأزهريين الأفاضل أئمة اللغة والعلم. فاعتبروا أننا المستشرقين الباحثين فى أوربا عن لغات أهل الشرق واعتقاداتهم وعوائدهم وآدابهم وتاريخهم وجغرافيا بلادهم... وهلم جرا أكثرنا ما تعلمنا تلك اللغات إلا بمطالعة الكتب دون أن يمكننا الاستفادة من محادثة الوطنيين. فلعدم هذا التمرين صارت لساننا كأنها ذات ثقل وانعقاد لا يسعها التكلم المعتاد، وكذلك آذاننا يصعب عليها كل الصعوبة إدارك الألفاظ حتى ما نستطيع فى الأغلب فهم ما قد فهمناه بادئ نظر لو كنا رأيناه مكتوبا أو مطبوعا. فبالجملة صار مثلنا كمثل الصُّمّ والبكم، وأصبحنا فى كنوز العربية مترددين فى بحورها متحيرين مع صرف همتنا إليها ومثابرتنا عليها".

فهذا ما قاله طه حسين عن مشايخ الأزهر والمستشرقين ونالينو، وهذا ما قاله نالينو عن نفسه وعن المستشرقين والمشايخ الأزاهرة الذين كانوا يعلمون الطلاب فى الجامعة المصرية الأولى آخر العقد الأول وأول العقد الثانى من القرن العشرين. وما قاله نالينو هو نفسه عن نفسه هو نفسه ما قلته حين قارنت بين القراءة من كتاب عند إلقاء المحاضرات الجامعية وبين الكلام مباشرة من الفم مهما أعد الإنسان محاضرته جيدا.

كلام طه حسين عن كازانوفا: ولطه حسين شهادة أخرى فى المقابلة بين مستشرق آخر هو كازانوفا الفرنسى وبين مشايخ الأزهر، إذ كان د. طه حسين معجبا أشد الإعجاب بذلك المستشرق. ويظهر هذا فى قوله عنه: "ولقد أريدُ أن يعلم الناس أنى سمعت هذا الأستاذ (كازانوفا) يفسر القرآن الكريم تفسيرا لغويا خالصا، فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسى بالأزهر ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا، على طريقة جديدة، نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقا"، "لولا كازانوفا ما فهمتُ القرآن"

(صحيفة "السياسة"/ ١٩٢٢/٩/١م)، "كان كازانوفا مسيحيا شديد الإيمان بمسيحيته، يذهب فيها إلى حد التعصب، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس فى الكوليج دى فرانس نَسِيَ من المسيحية واليهودية والإسلام كل شئ" (السياسة/ ٢٧/ ٣/ ١٩٢٦م). وكان كازانوفا ممن تعلم طه حسين على أيديهم من المستشرقين فى الجامعة المصرية الأولى. كما أن كازانوفا شديد الحملة بحماقة عظيمة على القرآن والرسول. لقد صدر له كتاب عن " Mohammed et la fin du Monde" سنة ١٩١١م جاء فيه أن محمدا لم يعهد بالحكم إلى أحد من بعده لأنه كان يؤمن أن القيامة سوف تقوم فى حياته وينتهى كل شىء، إذ كان يظن أنه هو الذى بشر المسيح بظهوره عند نهاية العالم. أى أن كل ما نؤمن به نحن المسلمين من نبوته صلى الله عليه وسلم وأن القرآن وحى إلهى نزل من السماء عليه أوهام فى أوهام. فانظر كيف ينحاز طه حسين إلى ذلك المستشرق الذى يكفر بالقرآن ونبى القرآن، مؤكدا أنه لولا هو ما فهم القرآن حقا وأن المشايخ المسلمين ينبغى أن يتعلموا تفسير القرآن من ذلك الأعجمى.

وفى السنة التى أسند فيها إلى طه حسين تدريس الأدب العربى بالجامعة المصرية بدلا من د. أحمد ضيف المتخصص فى هذا الأدب والذى أزيح ليحل محله طه حسين بعد عودته من فرنسا دكتورا بعدة أعوام رغم أن الأدب العربى ليس تخصصه بل تخصصه هو التاريخ الأوربى القديم، أعلن فى كتابه أنه لا يمكنه أن يأخذ برواية القرآن عن مجىء إبراهيم وإسماعيل إلى بلاد العرب مهما أكد القرآن تلك القصة، إذ هى فى الواقع أسطورة أخذ بها العرب (وتقبلها الإسلام) للتقرب من اليهود الذين يعيشون فى بلادهم، متناسيا ومتجاهلا أن القرآن قد تكلم عن إبراهيم ومجيئه إلى الحجاز ومكة قبل الهجرة، أى قبل الالتقاء باليهود فى المدينة ومحاولة التقرب المزعومة منهم، فضلا عن أنه فى مكة أيضا قد ذكر مخازى اليهود فى عبادة العجل والعدوان فى السبت والمسارعة إلى الوثنية فى كل مفصل من مفاصل حياتهم. وليس هذا بيقينٍ تصرف من يريد التقرب إلى أحد. ولو كان ادعاء طه حسين صحيحا لرأينا القرآن يجاملهم ويثنى عليهم ويمدحهم ولا يتطرق إلى الكلام عن معايبهم وفضائحهم.

كما أن طه حسين فى مقدمة كتابه عن المتنبى ذكر أنه شدد على كاتبه ألا يحضر معه فى رحلة الأسرة إلى فرنسا آنذاك سوى ديوان الشاعر، لنفاجأ بأن الكتاب يحتوى على عدد من المراجع العربية والفرنسية وأنه لم يرجع فى كتابه إلى الديوان فقط. وقد ألفيت مارون عبود فى

الفصل الخاص بطه حسين وكتابه: "مع المتنبى" من كتابه: "الرؤوس" يسخر منه لتناقض كلامه فى هذه النقطة مع فعله. قال فى أول الفصل المسمى: "رأس ضخم": "افتتح المؤلف الكتاب الأول بفصل يقع فى ثمانى صفحات مآلها أن طه قال كارهًا لصاحبه أن يصطحب المتنبى، ثم خبرنا كيف أخذ ذاك الصاحب يعبِّئ الكتب والدفاتر والكراريس ويرزمها، وكيف نهاه أو تقدم إليه فى أن يكتفى بأيسر طبعة من طبعات المتنبى، إلى غير ذلك من أحاديث تعوَّد طه أن يسد بها الفراغ ويملأ الصفحات"، ثم يعود بعد نحو عشر صفحات فيقول: "قال طه فى أول كتابه: إنه أخذ معه أبسط نسخة من ديوان المتنبى. وأنا أزعم له أن شيخنا العكبرى زار فى "المَعِيَّة" جبال الألب، فأكثر الأشياء التى رأيتها فى "مع المتنبى" تثبت ذلك. فهل أحرج إن شككت؟ أليس طه يبيح الشك ويريدنا عليه؟ فهذا الاتفاق أكد لى أن طه هيأ الرفيق قبل الطريق. ولهذا رأيته فى كتابه هذا مُكَبِّرًا فوتوغرافيًّا أو رسامًا بالقلم الرصاصى أخذ فى نقد المتنبى بأقوال العرب، وفى تاريخه بقول بلاشير وجبريلى". أريد أن أقول إن الأخبار التى يذكرها طه حسين فى كتبه ينبغى أن تؤخذ بتحفظ، ومنها هذا التمجيد للمستشرقين وعلمهم وبراعتهم فى الكلام والكتابة بلغتنا.

مدارس الاستشراق: وتتبقى كلمة عن مدارس الاستشراق. وبعض الباحثين يتحدث عن المدرسة الفرنسية والمدرسة الإنجليزية والمدرسة الإيطالية والمدرسة الروسية... وهلم جرا، إذ بالإضافة إلى الموضوعات الاستشراقية العامة يهتم مستشرقو كل بلد بالموضوعات التى تهم بلادهم تبعا لعلاقاتهم الخاصة مع العرب والمسلمين فى تلك البلاد بالذات. ومن ذلك أن بعض من كتبوا عن الاستشراق الروسى يقولون إن الروس لم تكن لهم يوما مطامع فى البلاد الإسلامية، وهذا ما يميز الاستشراق الروسى. وهذا كلام يحتاج إلى مراجعة، فقد بسط الروس سيطرتهم على كثير من البلاد الإسلامية وضموها إلى إمبراطوريتهم ولم يفكر الاتحاد السوفييتى فى إعطاء أى بلد منها حريتهم. كما أن السوفييت عملوا كل ما فى طاقتهم لبسط نفوذهم فى كل بلد عربى استطاعوا الوصول إليه كما فى عدن والصومال والعراق وسورية والجزائر، وكذلك مصر، التى اتخذت منحى يساريا واضحا فى عهد عبد الناصر ونقلت كثيرا من التجارب والنظم والمصطلحات السوفييتية، وجاء يوم كان هناك خبراء سوفييت كثيرون فى مصر. وكان السوفييت بهذا يتخذوننا صبيانا لهم لمناوأة المعسكر الغربى ونشر عقيدتهم ومبادئهم فى بلادنا: أحيانا دفعة واحدة، وأحيانا بالتدريج. وهم يهاجمون الإسلام ويفسرونه تفسيرا ماديا اقتصاديا ولا يرون فى محمد نبيا حقيقيا، بل إنسانا

عاديا انتهز أوضاع قومه وبيئته واحتياجاتها وادعى النبوة. وكان صبيانهم ولا يزالون حتى بعد انهيار الاتحاد السوفييتى يجرون على هذا النهج ويهاجمون الإسلام من هذا المنطلق ويسيئون إلى النبى محمد عليه السلام ويرون فى الإسلام عقيدة وشريعة متخلفة ينبغى أن تختفى وتترك المجال لإلحادهم. فالقول بأن الاستشراق الروسى أو السوفييتى لا يعادى العرب والمسلمين بحاجة ماسة إلى إعادة نظر لأنه كلام خاطئ تام البطلان.

ويمكن النظر إلى مدارس الاستشراق من زاوية أخرى: فعامة المستشرقين يعملون بكل ما فى وسعهم على الإساءة للإسلام والتشكيك فيه والتقلل من شأنه وتصوير الرسول بصورة المدعى للنبوة واتهامه بالأخذ من الديانات الأخرى وبخاصة اليهودية والنصرانية. وبعض المستشرقين يكتبون كلاما طيبا عن بعض جوانب حضارتنا ويبرزون إنجازاتها واستفادة الغرب منها فى نهضته الحديثة وبنائه على تلك الإنجازات وتطويرها والإضافة إليها إلى أن بلغ ما بلغه من القوة والعلم. وهناك فريق من المستشرقين قليل فى العدد قد اعتنق الإسلام، وإن لم يمنع أن يكون منهم من اعتنقه نفاقا كى يستطيع الاختلاط بالمسلمين والتجسس عليهم والإضرار بهم. كذلك يمكن تقسيم الاستشراق باعتبار آخر: فمن المستشرقين من يهتم مثلا بالجوانب الحربية فى تاريخنا. ومنهم من يهتم بالتشريع الإسلامى. ومنهم من يهتم بالأدب العربى. ومنهم من يهتم بالجغرافيا العربية القديمة. ومنهم من يهتم بالناحية التاريخية. ومنهم من يهتم بالسياسة. ومنهم من يهتم بالاقتصاد... إلخ.

ولكن المستشرقين بعامة لا يعرفون التخصص الدقيق كما نعرفه اليوم، فكثيرا ما نجد مستشرقا يكتب فى الأدب العربى والفتوح الإسلامية... وهكذا. ولنأخذ أجناطيوس كراتشكوفسكى عميد الاستشراق الروسى فى عهده مثلا، فقد وضع كتابا ضخما فى تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب، وهو كتاب رائع ممتع رغم كل ما يمكن أن نخالفه فيه كما هو الحال حين ألفيته يعيب أسلوب ياقوت الحموى بجهل شديد، فرددت عليه فى الفصل الخاص بـ"معجم البلدان" لياقوت الحموى ضمن كتابى: "من ذخائر المكتبة العربية". وإلى جانب هذا الكتاب الذى حلل تحليلا أكثر من جيد عشرات الكتب الجغرافية العربية القديمة ووضع كلا منها فى سياقه الزمنى نجد له مؤلفات حول بعض الشعراء الأمويين والعباسيين مثلا. كما نقرأ أن المستشرقين يتميزون بأن كلا منهم يعرف طائفة من اللغات، وهو ما يتفوقون به علينا. وقد قرأت أن المستشرق الفرنسى دى ساسى، الذى كان مصاحبا للحملة الفرنسية على مصر، كان يعرف أكثر من عشر لغات أوربية

وشرقية. أما المستشرق الألمانى تيودور نولدكه فقرأت أنه كان يعرف أكثر من عشرين لغة. أقول هذا استنادا لما قرأت بغض النظر عن مدى دقة الكلام أو عدمها. أما نَتَاجهم فقد يكون كتبا، وقد يكون أبحاثا، وقد يكون ترجمة لكتب عربية أو دواوين شعرية أو للقرآن الكريم أو للحديث النبوى الشريف، وقد يكون تأليفا لمعجم، وقد يكون تحريرا لموسوعة... وكل ما يكتبونه يدور حولنا وحول حضارتنا وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ومن كل الجوانب والنواحى، إذ هذا هو ميدان الاستشراق كما وضحنا وشرحنا.

هل عرف أسلافنا الاستشراق واحتكوا بالمستشرقين؟ هذا، ومن المعروف أن الاستشراق الرسمى كان موجودا منذ عدة قرون، فهل كان أسلافنا قبل العصر الحديث يعرفون الاستشراق والمستشرقين؟ فأما معرفتهم بمصطلحى "الاستشراق" و"المستشرقين" فلا بكل تأكيد، وأما اهتمام الغربيين بالإسلام ونبيه وكتابه وأتباعه فأمر آخر كما قلنا. وما دام هناك اهتمام من الغربيين بذلك فلا بد أن يصل بعض هذا الاهتمام على الأقل إلى المسلمين على نحو أو على آخر، فهذه طبيعة الحياة. وإلى القارئ أمثلة على ذلك سجل بعضها مؤرخونا، وأورد بعضها الآخر مؤرخوهم، وقد يكون أسلافنا على علم بهذا البعض الأخير، وربما لا يكونون، وهو الأرجح. وهذه بعض الأمثلة على ذلك": ففى "صحيح البخارى" نقرأ رواية عن أبى سفيان "أنَّ هِرَقْلَ أرْسَلَ إلَيْهِ فى رَكْبٍ مِن قُرَيْشٍ، وكَانُوا تُجَّارًا بالشَّأْمِ فى المُدَّةِ الَّتى كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَادَّ فِيهَا أبَاسُفْيَانَ وكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فأتَوْهُ وهُمْ بإيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فى مَجْلِسِهِ، وحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ ودَعَا بتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ: أيُّكُمْ أقْرَبُ نَسَبًا بهذا الرَّجُلِ الذى يَزْعُمُ أنَّه نَبِى؟ فَقَالَ أبو سُفْيَانَ :فَقُلتُ أنَا أقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أدْنُوهُ مِنِّى، وقَرِّبُوا أصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لهمْ إنِّى سَائِلٌ هذا عن هذا الرَّجُلِ، فإنْ كَذَبَنِى فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللَّهِ لَوْلَا الحَيَاءُ مِن أنْ يَأْثِرُوا عَلَى كَذِبًا لَكَذَبْتُ عنْه. ثُمَّ كانَ أوَّلَ ما سَأَلَنِى عنْه أنْ قَالَ: كيفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلتُ: هو فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهلْ قَالَ هذا القَوْلَ مِنكُم أحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلتُ: لَا. قَالَ: فَهلْ كانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ؟ قُلتُ: لا قَالَ: فأشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أيَزِيدُونَ أمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهلْ يَرْتَدُّ أحَدٌ منهمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلتُ: لَا. قَالَ: فَهلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ؟ قُلتُ: لَا. قَالَ: فَهلْ يَغْدِرُ؟ قُلتُ: لَا، ونَحْنُ منه فى مُدَّةٍ لا نَدْرِى ما هو فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: ولَمْ تُمْكِنِّى كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شيئًا غَيْرُ هذِه الكَلِمَةِ، قَالَ: فَهلْ

قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكيفَ كانَ قِتَالُكُمْ إيَّاهُ؟ قُلْتُ: الحَرْبُ بيْنَنَا وبيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا ونَنَالُ منه. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يقولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وحْدَهُ ولَا تُشْرِكُوا به شيئًا، واتْرُكُوا ما يقولُ آبَاؤُكُمْ، ويَأْمُرُنَا بالصَّلَاةِ والزَّكَاةِ والصِّدْقِ والعَفَافِ والصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ له: سَأَلْتُكَ عن نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أنَّه فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذلكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فى نَسَبِ قَوْمِهَا. وسَأَلْتُكَ هلْ قَالَ أحَدٌ مِنكُم هذا القَوْلَ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، فَقُلتُ: لو كانَ أحَدٌ قَالَ هذا القَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلتُ رَجُلٌ يَأْتَسِى بقَوْلٍ قيلَ قَبْلَهُ. وسَأَلْتُكَ هلْ كانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، قُلتُ فلوْ كانَ مِن آبَائِهِ مِن مَلِكٍ، قُلتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أبِيهِ، وسَأَلْتُكَ، هلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أنْ يَقُولَ ما قَالَ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، فقَدْ أعْرِفُ أنَّه لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الكَذِبَ علَى النَّاسِ ويَكْذِبَ علَى اللَّهِ. وسَأَلْتُكَ أشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وهُمْ أتْبَاعُ الرُّسُلِ. وسَأَلْتُكَ أيَزِيدُونَ أمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وكَذلكَ أمْرُ الإيمَانِ حتَّى يَتِمَّ. وسَأَلْتُكَ أيَرْتَدُّ أحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، وكَذلكَ الإيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ. وسَأَلْتُكَ هلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أنْ لَا، وكَذلكَ الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ. وسَأَلْتُكَ بما يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أنَّه يَأْمُرُكُمْ أنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ولَا تُشْرِكُوا به شيئًا، ويَنْهَاكُمْ عن عِبَادَةِ الأوْثَانِ، ويَأْمُرُكُمْ بالصَّلَاةِ والصِّدْقِ والعَفَافِ، فإنْ كانَ ما تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَى هَاتَيْنِ، وقدْ كُنْتُ أعْلَمُ أنَّه خَارِجٌ، لَمْ أكُنْ أظُنُّ أنَّه مِنكُمْ، فلوْ أنِّى أعْلَمُ أنِّى أخْلُصُ إلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، ولو كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمِهِ. ثُمَّ دَعَا بكِتَابِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الذى بَعَثَ به دِحْيَةُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إلى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فيه بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِن مُحَمَّدٍ عبدِ اللَّهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ علَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أمَّا بَعْدُ، فإنِّى أدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإسْلَامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عَلَيْكَ إثْمَ الأرِيسِيِّينَ و"يَا أهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ أنْ لا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ ولَا نُشْرِكَ به شيئًا ولَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ". قَالَ أبو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ ما قَالَ، وفَرَغَ مِن قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وارْتَفَعَتِ الأصْوَاتُ وأُخْرِجْنَا، فَقُلتُ لأصْحَابِى حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أمِرَ أمْرُ ابْنِ أبِى كَبْشَةَ، إنَّه يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِى الأصْفَرِ. فَما زِلْتُ مُوقِنًا أنَّه سَيَظْهَرُ حتَّى أدْخَلَ اللَّهُ عَلَى الإسْلَامَ. وكَانَ ابنُ النَّاظُورِ، صَاحِبُ إيلِيَاءَ وهِرَقْلَ، سُقُفًّا علَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إيلِيَاءَ، أصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ، قَالَ ابنُ النَّاظُورِ:

وكانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فى النُّجُومِ، فَقَالَ لهمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّى رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فى النُّجُومِ مَلِكَ الخِتَانِ قدْ ظَهَرَ، فَمَن يَخْتَتِنُ مِن هذِه الأُمَّةِ؟ قالوا: ليسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا اليَهُودُ، فلا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ، واكْتُبْ إلى مَدَاينِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَن فيهم مِنَ اليَهُودِ. فَبيْنَما هُمْ علَى أمْرِهِمْ، أُتِىَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أرْسَلَ به مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عن خَبَرِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أمُخْتَتِنٌ هو أمْ لَا، فَنَظَرُوا إلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أنَّه مُخْتَتِنٌ، وسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ :هذا مُلْكُ هذِه الأُمَّةِ قدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إلى صَاحِبٍ له بِرُومِيَةَ، وكانَ نَظِيرَهُ فى العِلْمِ، وسَارَ هِرَقْلُ إلى حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حتَّى أتَاهُ كِتَابٌ مِن صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْىَ هِرَقْلَ علَى خُرُوجِ النبى صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّهُ نَبِى، فأذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فى دَسْكَرَةٍ له بِحِمْصَ، ثُمَّ أمَرَ بأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يا مَعْشَرَ الرُّومِ، هلْ لَكُمْ فى الفلاحِ والرُّشْدِ، وأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هذا النبى؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وأَيِسَ مِنَ الإيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَى، وقَالَ: إنِّى قُلتُ مَقالتى آنِفًا أَخْتَبِرُ بهَا شِدَّتَكُمْ علَى دِينِكُمْ، فقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا له ورَضُوا عنْه، فكانَ ذلكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ".

ولدينا يوحنا الدمشقى (٦٧٦- ٧٤٩م)، وهو من أصل رومى فى أغلب الظن، وكان يشتغل فى بلاط آل مروان، وكتب فى كتاب له باليونانية عنوانه "الهرطقة" عن الإسلام صفحات نال فيها منه ومن نبيه وكتابه. وبطبيعة الحال كان هذا محفوظا بعيدا عن أعين المسلمين، وإلا لما مر الأمر بسهولة البتة. أقول هذا ردا على ما يدعيه هذا اليوحنا من أنه كان يواجه المسلمين برأيه فى دينهم ونبيهم وكتاب ربهم. ويوحنا الدمشقى هو رائد الجدل النصرانى ضد ديننا، وأصبح ما خطته يداه فى هذا الشأن ركيزة من ركائز ذلك النوع من الجدل، إذ أخذ المجادلون من المنصّرين والمستشرقين الذين جاؤوا بعده يستعينون به. ويتلخص ما كتبه فى هذا السبيل فى الزعم بأن الإسلام ليس دينا سماويا بل هرطقة مسيحية، وأن النبى محمدا صلى الله عليه وسلم كان على معرفة بأسفار العهدين: القديم والجديد، وأنه تعلم على يد الراهب بحيرا، وكان يتلقى القرآن وهو نائم. ويجد القارئ هذا كله وأسوأ منه فى كتابه المشهور المسمى: "De Haeresbius: الهرطقة".

والواقع أن فى كلامه جهلا شديدا وتدليسا كبيرا ومزاعم كاذبة ضخمة لا تصمد أمام التحليل العقلى والوقائع التى تخزق العين. فمن ذلك قوله إن العرب كانوا طَوَال عمرهم وثنيين يعبدون نجمة الصباح وأفروديت، التى يسمونها فى لغتهم: "كَبَار"، أى الكبيرة. والحقيقة أنهم كانوا قبل ذلك

موحدين على دين أبيهم إبراهيم، ثم طمس الزمن كثيرا من معالم هذا التوحيد، وإن بقى منهم ناس لم يفارقوا وحدانيتهم الأصلية كانوا ينفرون من الأوثان وعبادتها رغم قلة عددهم، فضلا عمن تحول إلى اليهودية أو النصرانية. ثم أين يا ترى يمكننا أن نجد الإلهة "كَبَار"؟ الواقع أن العرب لم يكن عندهم إلهة تدعى: "كَبَار"، كما لم يكونوا يعبدون أفروديت على عكس ما يزعم ذلك المُدَّعِى، وإن علق محقق الكتاب فى الهامش بما كتبه هيرودوت من أن العرب كانوا يعبدون "أفروديت السماوية" ويسمونها: اللات. وهيرودوت، كما نعرف، أتى قبل الدمشقى بقرون طوال.

ويزعم يوحنا أيضا أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكتب ما ينزل عليه من وحى ثم يتلوه على قومه مكتوبا. وهذه أول مرة نقرأ فيها هذا الكلام العجيب، إذ من المعروف أن الرسول لم يكن يمسك فى يده بكتاب يتلو منه على قومه ما يريد تبليغه إليهم من وحى السماء، بل كان يفعل ذلك من حفظه مباشرة.

ويمضى يوحنا الدمشقى فينسب للنبى عليه السلام القول بأن اليهود قد قبضوا على "ظِلّ" المسيح وصلبوه. وهذا كلام لم يقله القرآن ولا النبى عليه الصلاة والسلام كما هو معلوم للجميع. قال تعالى عن بنى إسرائيل: "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)" (النساء). فأين الكلام عن ظل عيسى هنا؟ لقد قال القرآن إنه قد شُبِّه لليهود، وهذا كل ما هنالك، فلا ظلال ولا يحزنون.

ومما قاله أيضا يوحنا الدمشقى أن الله سبحانه وتعالى، حين صعد عيسى إلى السماء بعد نجاته من الصلب، سأله: أأنت قلت للناس: أنا الله وابن الله؟ وأن عيسى قد أجاب قائلا: ارحمنى يا إلهى. أنت تعلم أننى لم أقل هذا وأننى لم أستنكف أن أكون عبدا لك. إلا أن الخطاة من الناس قد اقترفوا الخطيئة فكذَبوا علىَّ وكتبوا أننى قلت هذا الكلام، فقال له الله: أنا أعلم بأنك لم تنطق بهذا الكلام.

هذا ما كتبه يوحنا الدمشقى، أما ما جاء فى القرآن عن ذلك الأمر فموجود فى سورة "المائدة"، وها هو ذا نصه بالحرف: "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

وَأُمِّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)".

ومن هذه الآيات المباركات يتضح أن الحوار المذكور لم يجر بين الله وعبده المسيح عقب صعوده إلى السماء، بل سيجرى يوم القيامة بدليل ما جاء فى آخر الآيات من الإشارة ألى أن ذلك اليوم هو اليوم الذى ينفع فيه الصادقين صدقُهم. وهذا هو يوم القيامة. كما أن السؤال الإلهى لم يكن عما إذا كان عيسى قد قال للناس إنه الله وابن الله، بل عما إذا كان قد قال لهم: "اتخِذونى وأمى إلهين من دون الله". كذلك ليس فى رد المسيح عليه الصلاة والسلام على ربه سبحانه أية إشارة إلى أن الناس قد كتبوا ذلك أو لم يكتبوه، بل ليس فيه أنهم قالوا هذا أو ذاك عن المسيح، إذ كل ما نقرؤه فى الآيات أنه عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمره الله به من دعوتهم إلى عبادة الله رب المسيح وربهم وأنه كان شهيدا عليهم طوال وجوده بينهم، وأنه بعدما توفاه الله كان سبحانه وتعالى هو الرقيب عليهم.

هذا عن جهل يوحنا الدمشقى، والآن جاء دور الكلام عن كذبه. فالرسول الكريم، حسبما يدلّس يوحنا الدمشقى، قد وقعت يده على العهدين: القديم والجديد، أى الكتاب المقدس، ثم حدث أن قابل راهبا آريوسيا تحدث معه، فقام فى نفسه أن يؤلف دينا جديدا. وكأن تأليف دين هو أمر من السهولة بمكان إلى هذا الحد. أما بخصوص هذا الراهب الآريوسى فقد علق محقق كتاب يوحنا الدمشقى الذى ورد فيه هذا الكلام بأنه قد يكون هو الراهب بحيرا، الذى قابل محمدا فى صباه عند بُصْرَى بالشام وقال إنه يرى فيه علامة النبوة. إذن فمحمد قد قابل الراهب فى صباه. وهل من الممكن أن يفكر صبى فى الثانية عشرة أو نحوها فى اختراع دين جديد؟ بل إن من الأوربيين أنفسهم من يشكون فى وقوع مثل ذلك اللقاء أصلا كإدمون باور (انظر Joseph Huby, Christus: Manuel d'Histoire des Religions, Beauchenese et ses Fils, Paris, 1946, P. 780). وبالله إذا كان لمثل ذلك الراهب وجود حقيقى فلماذا لم يتكلم

بما وقع موضحا أن ذلك النبى الجديد ليس فى الحقيقة سوى ذلك الصبى الذى التقاه فى بصرى قبل سنين وتعلم منه ما ساعده على تأليف ديانته الجديدة؟ أو لماذا لم ينبر أحد القرشيين الذى كانوا يرافقونه فى تلك الرحلة التجارية ورَأَوْا وسمعوا ما دار بينه وبين الراهب المذكور فيفضح محمدا وينسف دينه بكل سهولة؟

وبالنسبة إلى زعم الدمشقى أن محمدا استفاد من الكتاب المقدس فى توليف دينه أين يا ترى صادف الرسول عليه السلام الكتاب المقدس؟ هل كانت فى مكة مكتبات يستعار منها مثل تلك الكتب؟ ومن الذى شاهده وهو يطالع تلك الكتب ويحفظ ما فيها؟ إنه لم يشاهَد يوما وفى يده كتاب، فكيف يتجرأ مدلسنا ويقول هذا الكلام بلا أدنى دليل؟ ثم كيف نفسر تلك الاختلافات بين رواية القرآن ورواية الكتاب المقدس للموضوعات المشتركة بين الكتابين ويتصادف رغم ذلك أن يكون كلام القرآن هو الموافق للمنطق والتاريخ؟ وكيف تصادف أيضا أن يكون القرآن وحدانيّ الدعوة نقى الوحدانية إلى آخر المدى، والعهد القديم مجسِّدًا للإله فى بعض مواضعه، والأغلبية الساحقة من أتباع العهد الجديد مثلثين؟

والعجيب الغريب أن يوحنا الدمشقى، الذى اتهم النبى الكريم بأنه كان يستعين بكتب اليهود والنصارى وتعلم على يد راهب نصرانى، هو هو نفسه الذى زعم أن الرسول كان يأتيه القرآن وهو نائم. فبالله لماذا يأتيه القرآن وهو نائم إذا كان هو يؤلفه تأليفا، ويزيفه تزييفا؟ إن التزييف والتأليف عملية إرادية واعية، أما ما يقع أثناء النوم فلا وعى ولا إرادة، إذ يكون الإنسان سلبيا تام السلبية... إلخ.

أما آخر أكاذيب يوحنا الدمشقى فهى ادعاؤه بأنه كان يقول هذا الكلام كله للمسلمين فى وجههم أيام الدولة الأموية، التى كان يشتغل فيها جابيا. ترى هل يمكن أن يَجْبَه هذا الرجلُ المسلمين بقلة أدبه فى حق الرسول الكريم وبتطاوله عليه دون أن يخشى شيئا؟ لقد كان يعيش فى ظل خلفاء بنى أمية، فهل كان حكام بنى أمية ليتركوه ساعتئذ لحظة من نهار؟ ترى كيف يريدنا على أن نصدق مزاعمه العريضة هذه، وليس له أى ذكر فى كتب المسلمين آنذاك؟

لقد كان يعيش فى عصر عمالقة بنى أمية، وآخر من عمل لهم هذا الدمشقى هو عبد الملك بن مروان. أو يُتَصَوَّر أن يسكت على وقاحته وتجديفه ابن مروان فلا يقتطف بسيفه رقبته؟ قول بعض النصارى الشوام عن كتابه: "جدل بين مسيحى ومسلم"، إنه كان يكتب لأهل دينه

باليونانية مفسّرًا العقيدة، ولم يكن يتوقّع أن يقرأ العرب الفاتحون أى شىء مما يكتبه. وهذا ما يتمشى مع العقل والمنطق، أما التشدق والتنطع فما أيسرهما على كل كذاب.

وفى "البداية والنهاية" لابن كثير نقرأ فى ترجمة القاضى أبى بكر الباقلانى أنه "كان فى غاية الذكاء والفطنة. ذكر الخطيب وغيره عنه أن عضد الدولة بعثه فى رسالة إلى ملك الروم، فلما انتهى إليه إذا هو لا يدخل عليه أحد إلا من باب قصير كهيئة الراكع، ففهم الباقلانى أن مراده أن ينحنى الداخل عليه له كهيئة الراكع لله عز وجل، فأدار إسته إلى الملك ودخل الباب بظهره يمشى إليه القهقرى، فلما وصل إليه انفتل فسلم عليه، فعرف الملك ذكاءه ومكانه من العلم والفهم، فعظمه. ويقال: إن الملك أحضر بين يديه آلة الطرب المسماة بـ"الأرغل"، ليستفز عقله بها، فلما سمعها الباقلانى خاف على نفسه أن يظهر منه حركة ناقصة بحضرة الملك، فجعل لا يألو جهدًا أن جرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير، فاشتغل بالألم عن الطرب، ولم يظهر عليه شيء من النقص والخفة، فعجب الملك من ذلك، ثم إن الملك استكشف الأمر فإذا هو قد جرح نفسه بما شغله عن الطرب، فتحقق الملك وفور همته وعلو عزيمته، فإن هذه الآلة لا يسمعها أحد إلا طرب شاء أم أبى.

وقد سأله بعض الأساقفة بحضرة ملكهم فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك؟ فقال الباقلانى مجيبًا له على البديهة: هما امرأتان ذُكِرَتا بسوء: مريم وعائشة، فبرأهما الله عز وجل. وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج. يعنى أن عائشة أولى بالبراءة من مريم. وكلتاهما بريئة مما قيل فيها. فإن تطرق فى الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع. وهما بحمد الله منزهتان مبرأتان من السماء بوحى الله عز وجل، عليهما السلام".

وفى الأندلس كانت هناك فتنة ضخمة أثار عجاجها بعض النصارى من أهل البلاد بشتمهم للنبى محمد عليه السلام دون أى داع سوى التحكك فى السلطة الإسلامية، التى يعرفون أن قضاتها سوف يعاقبونهم عقابا شديدا من شأنه، إذا ما تكرر، أن يهيج الرعايا النصارى بالدولة ضدها. وتحت عنوان "فتنة النصارى بقرطبة" يقول محمد الأمين ولد آن فى كتابه: "أهل الذمة بالأندلس فى ظل الدولة الأموية" (دار الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية/ دمشق/ ٢٠١١م): "اكتسحت قرطبة فى أواخر عصر الأمير عبد الرحمن الثانى موجه من التعصب ضد

الإسلام بقيادة بعض الرهبان من النصارى ممن كانوا ينقمون على الإسلام، ويحرضون عامة قومهم على سب الرسول صلا الله عليه وسلم...

لقد أهملت المصادر التاريخية العربية الإشارة إلى أحداث تلك الفتنة التى وقعت فى قرطبة، ولا كُتُب النوازل الفقهية أشارت إلى بعض الإشكالات التى طرحتها، وما وصل إلينا منها إلا ما تناقلته كتب المؤرخين الأوروبيين مثل كاجيكاس وسيمونى وبروفنسال، الذين وضعوا هالة من القداسة على النصارى، ممن كان مصيرهم الحكم بالموت بسبب القذف والسب ضد الإسلام وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، واعتبروهم فى مقامات الشهداء والصالحين...

قاد هذه الحركة كل من إيولوخيو Elogio وألبارو Alvaro، اللذين كانا يحرضان على الثورة، ويدعوان النصارى إلى سب الرسول الكريم من أجل افتعال أزمة مع السلطة عبر بعض الممارسات التى لم يكن من السهل غض الطرف عنها. وبدأت هذه الأزمة عندما قام أحد القساوسة فى مدينة قرطبة، ويدعى برفكتو Perfecto بمناقشة بعض المسلمين حول العقيدة، وبلغت به الحماسة إلى درجة فقدان السيطرة على عباراته، التى جنحت إلى سب النبى صلى الله عليه وسلم والإسلام. وتم الإبلاغ عنه حيث مثل أمام القاضى، الذى حكم عليه بإقامة حد القتل، ونفذ فيه الحكم يوم فاتح شوال سنة ٢٣٥هـ / ٨٥٠م، وذلك بعد أن اجتمع المصلون لأداة صلاة العيد خارج المسجد بقرطبة فى مشهد من الناس.

وقد استغل المتعصبون الذين كان يتزعمهم كل من إيولوخيو وألبارو لإدانة برفكتو لنشر دعايتهم بين صفوف النصارى فى قرطبة، وذلك بهدف حشد المزيد من الشباب المسيحى، الذين جذبتهم الأفكار المتطرفة، ودفعتهم إلى سب الإسلام، والإصرار على موقفهم حتى الموت، وهو ما يسميه بروفنسال بـ"المعاناة فى سبيل المسيحية". بعد عام من إقامة الحد على برفكتو تهجم أحد النصارى ويدعى يوحنا على النبى صلى الله عليه وسلم، فأحضر إلى القاضى الذى أمر بجلده وإلقائه بالسجن، ثم نفذ فيه حكم بالقتل...

ولم يقتصر الأمر على الرجال من النصارى فقط، بل شاركت النساء المتحمسات للمسيحية فى تلك الأحداث. فقد أورد ابن سهل أن نصرانية اسمها ذبجة دخلت إلى مجلس قاضى الجماعة بقرطبة، واستهلت كلامها بنفى الربوبية عن الله عز وجل، وقالت إن عيسى عليه السلام هو الله. ثم قالت: إن محمدًا كذب فيما ادعاه من النبوة. وقد أفتى العلماء بوجوب قتلها. وعلى الرغم

من تنامى هذه الظاهرة واتساع دائرتها فإن السلطة الأموية لم تتخذ موقفا متشددًا ضد رعاياها من النصارى، بل أبقت كل الإجراءات الكفيلة بالتصدى لهذه المشكلة بيد القضاة والفقهاء الذين اتسموا بالمرونة فى تطبيقهم للحدود، واكتفوا فى بعض الأحيان بجلد من رشحوا أنفسهم للموت طلبا للشهادة كما كانوا يدعون".

وثم نص شديد الأهمية كتبه الأسقف القرطبى ألفارو سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م باللغة اللاتينية يبكى فيه دخول أكثر النصارى من أهل دينه الإسلام طواعية، فضلا عن أن من لم يدخل الإسلام قد تبنى الحياة الإسلامية برغبة ذاتية واضحة، فكتب قائلا: "إخوانى النصارى يبتهجون للشعر والقصص العربى، ويدرسون علوم الإسلام لا لتفنيدها بل لاكتساب الأسلوب والصيغة العربية الصحيحة الممتازة. وفى الوقت نفسه أين يوجد اليوم الشخص العادى الذى يقرأ الشروح اللاتينية على الكتب المقدسة؟ ذاك الذى يدرس الأناجيل والأنبياء والرسل؟ واحسرتاه! إن شباب النصارى الذين هم أبرز الناس مواهب ليسوا على علم بأى أدب ولا أى لغة غير العربية. فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة، وإنهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب، وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون إذا ذكرت الكتب النصرانية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم! فوا حرّ قلباه! لقد نسى المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد فى الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة بالعربية فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه فى تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة، بل قد يقرضون من الشعر ما يفوق فى صحة نظمه شعر العرب أنفسهم!".

وهناك رجل دين نصرانى أسبانى اسمه ريمون لل قضى فى تعلم العربية وحفظ القرآن والقطلونية تسع سنوات (١٢٦٦- ١٢٧٥) ثم قصد باريس وانضم إلى الرهبانية الفرنسيسكانية، وأقنع ملك أراجون (١٢٧٦) بإنشاء مدرسة لها فى ميرامار لتدريس العربية، وأشرف بنفسه عليها فتخرج منها بالعربية أكثر من ١٣ راهباً. وقد مهد بها إلى إنشاء معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ومراكز الثقافة الإسبانية فى الشرق. وصنف فى أثناء ذلك كتب جدل كثيرة فى الرد على المسلمين واليهود، وقام بالتدريس فى أديار مختلفة، ثم أبحر إلى تونس (١٢٩١)، وطفق يطوف فيها فقيرًا واعظًا فاعتقل وسجن ثم طرد. وبعد سنوات حول وجهه شطر بجاية فى الجزائر

(١٣٠٦) مبشرًا فلم يكن فيها أوفر حظًا منه فى تونس، فسجن ستة أشهر ثم طرد، وفى عودته استقر بساحل بيزا، وكتب ضد فلسفة ابن رشد فى باريس، وحضر مؤتمر فيينا (١٣١١-١٣١٢) حيث شاهد مساعيه تكلل بالنجاح إذ أقر البابا كليمنضس الخامس إنشاء كراسى للعبرية والعربية والكلدانية فى جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وصلمنكه، ثم فى جامعة خامسة بالبلاط البابوى، مع تنصيب أستاذين لكل من هذه اللغات الثلاث فى كل كرسى وتكليفهم بترجمة نصوص عبرية وعربية وكلدانية للرد على منتقدى الدين. ورجع رايموندو إلى شمالى أفريقيا وقتل فيها (١٣١٤). وقد عرف ريمون لل من المتصوفين المسلمين ابن سبعين وابن هود والششترى وابن مَدْيَن وعفيف التلمسانى وابن عربى، وتأثر بهم فى ابتداع مذهب الإشراق، كما تأثر بـ"كليلة ودمنة" فى مصنفه: "الكتاب السعيد فى عجائب الدنيا". ومن آثاره كذلك "تأملات فى الله"، وهو موسوعة فى علوم الدين كتب القسم الأكبر منها بالعربية ثم نقلها وأتمها بالقطلونية، و"الحكماء الثلاثة"، وهم يهودى ومسيحى ومسلم يعرض كل منهم فضائل الدين الذى يعتنقه، و"بلانكرنا"، وهى رواية دينية تشمل الكلام عن رحلاته فى بلاد الإسلام حتى السودان، و"ردود على ابن رشد"، و"التعاون بين النصارى والمسلمين"، و"مناظرات رايموندو المسيحى وعمر العربى فى بوجى". وليس للول، على قدر علمنا، ذكر فى تراثنا الذى وصلنا.

وفى عهد الملك الكامل الأيوبى يقول الغربيون إن الراهب فرانسيس الأسيزى ذهب مع رفيق له إلى الأراضى المقدسة لنيل إكليل الاستشهاد ونشر الإيمان بالثالوث بين المسلمين، وفشلا فى هذه المهمة المزدوجة. وكان ذلك أيام الحملة الصليبية على مصر، وقد دعا السلطانَ إلى اعتناق المسيحية ونشرها أمام حشد من كبار العلماء، فردّ الملك عليه قائلا: دينكم يقول لكم بأن لا تردّوا الشرّ بالشر، وأن تتركوا رداءكم لمن أراد أن يأخذ منكم ثوبكم، لذا يتوجب عليكم ألا تغزوا أراضينا. فأجاب فرنسيس حسب الرواية الغربية: يبدو أنك لم تطلع على الإنجيل بشكل كامل. واستشهد بالآية القائلة: "وإن أعثرتك عينك فاقلعها"، وأضاف مفسّراً: علينا أن نطيح بأى إنسان يبعدنا عن إيماننا، حتى لو كان هذا الإنسان بمثابة عيوننا، ولو آمنتم بالمسيح المخلّص سيحبكم المسيحيون كما يحبون أنفسهم.

ويقال أيضا إن فرانسيس قد تابع متحدّيا السلطان بقوله: إذا كنت ترفض الإيمان المسيحى فإنى أقترح أن تأمر بإيقاد نارً حامية ندخلها أنا ورجال دينك لترى من الذى ستحرقه

هذه النيران. وبذلك تستطيع أن تحكم أى الدينين أصح. فأجابه السلطان بأن أحدًا من رجال دينه لن يقبل هذا الاقتراح. وعاد فرنسيس ورفيقه إلى موطنهما فاشلين فيما جاءا من أجله. وتكررت قصة مواجهته للسلطان والعلماء فى روايات نصرانية متعددة استعادت هذا اللقاء مع اختلاف فى التفاصيل. بيد أننا لا نجد أى أثر لهذه القصة فى المصادر الإسلامية إلا فى إشارة عابرة وجدها المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون فى كتاب "الكواكب السيارة"، الذى يشير فيه ابن الزيات، لدن الحديث عن المحدث الصوفى فخر الدين الفارسى، إلى "القصة المشهورة" التى يفترض وقوعها بين الملك الكامل والراهب، ولكن من دون أن يذكر اسم هذا الراهب، وهو ما فهم منه بعض الباحثين الغربيين أن فخر الدين الفارسى كان واحدًا من العلماء الذين شاركوا فى هذا اللقاء.

ولا ريب أن فكرة إشعال نار يخوضها الأسيزى وعلماء مسلمون فكرة ماكرة، فأى عاقل سوف يرفض هذا التهوس الذى لا يوصل لشىء، إذ لو كانت هذه الطريقة هى الأسلوب الصحيح فى عرض الأديان على من لا يؤمن بها ما كانت العين بكت. إن الأديان الحقيقية تتجه إلى العقل وتعمل على إيقاظ المشاعر المتبلدة لا على إيقاد النيران وخوضها، فمن يخض النار تحرقه النار سواء كان على حق أو على باطل ما دام باب المعجزات قد أغلق، والأسيزى واع لذلك، ومن ثم كان عرضه، الذى يعرف عز المعرفة أن طلبه سوف يجابه بالرفض التام من أى شخص يتمتع بشىء من العقل، وبهذا يبدو فى عيون السطحيين أنه قد فاز فى تحديه للمسلمين. فهى، كما نرى، لعبة ماكرة.

وقد قرأتُ فى كتاب فرنسى منذ عدة عقود أن الملاعنة التى عرضها النبى عليه السلام على وفد اليمن النصرانى فى المدينة ونكص ذلك الوفد عنها قد اقترحها فرانسيس الأسيزى على المسلمين فى مصر أيام الملك الكامل فرفضوها. يريد أن يقول إن الأسيزى قد قبل الملاعنة التى اقترحها القرآن على النصارى اليمنيين، فلماذا نكل المسلمون عنها؟ والرد هو ما قلناه من أن اقتراح الأسيزى اقتراح خبيث لعلمه أن أحدا لن يقبله. كما أن هذا الاقتراح لا يمكن أن يعد ردا على عرض النبى الملاعنة على نصارى اليمن، فالملاعنة كلام ينبغى أن يقبله من تُعْرَض عليه الملاعنة، وهى لا تكلف شيئا إلا النطق ببعض الكلمات، ولسوف تظهر نتائجها فى الحال هلاكا للمبطلين ونجاة لأصحاب الحق، وهو النبى محمد، أما خوض النار فكل عاقل لا بد أن يرفضه. ثم إن الملاعنة قد عرضها "النبى" على "نصارى اليمن"، وانتهى أمرها بنكولهم عن ترديد كلماتها التى لا تكلف

شيئا، وإن كانت نتائجها وخيمة العواقب. ولا علاقة لها بالأسيزى والملك الكامل، اللذين جاءا بعد الملاعنة بقرون، ودار الحوار بينهما، إن كان صحيحا أصلا، فى مكان يبعد عن المدينة بعدا سحيقا، وفى ظروف متباينة أشد التباين. وعليه فهذه قصة، وتلك قصة أخرى مختلفة تماما، ولا شىء يربط بينهما، ولا يعد اقتراح الأسيزى جوابا عليها بأى معنى من المعانى، إذ لم يقل القرآن إن الملاعنة الذى جاء ذكرها فيه ستمرة إلى الأبد، بل انتهت بهروب نصارى اليمن من الرد عليها ورضاهم بدفع الجزية لدولة المدينة، وصارت خبرا من أخبار الماضى. فالخلط بين الأمرين خلط سخيف لا معنى له، وبخاصة حين يعرض الأسيزى ذلك العرض المجنون الذى لا يمكن أن يقبله أحد. وهذا كله لو كانت القصة صحيحة، وهو ما لا أظنه، وإلا لتناولتها المصادر الإسلامية تفصيلا. فسكوت تلك المصادر عنها يجعلنا نرجح أن الأمر فى معظمه أو فى كليته اختلاق من وحى الأوهام مما برع فيه الطرف الآخر على مدى تاريخه.

ومما يدخل أيضا فى باب الاستشراق أيام عز المسلمين، وإن لم يعرفوا أن هذا يسمى: "استشراقا"، الكتاب الذى وضعه القسيس الأسبانى أنسلم تورميدا أوائل القرن التاسع للهجرة، وعنوانه "تحفة الأديب فى الرد على أهل الصليب". وقد ألفه بعد اعتناقه الإسلام، وكتبه بالعربية التى ذكر فيه أنه أتقنها فى خلال عام. وكان قد درس النصرانية على يد قس طاعن فى العمر من أبناء وطنه كان يخفى الإسلام فى قلبه ويتظاهر بأنه لا يزال على دينه القديم. وفى الكتاب تتبُّع للبشارات التى يشتمل عليها الإنجيل بخصوص نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومنها ما جاء فى الإصحاح السادس عشر من سفر "التكوين" من العهد القديم من أن هاجر لما هربت من سارة ضَرَّتها رأت فى تلك الليلة ملكا، "فقال لها: يا هاجر، ما تريدين؟ ومن أين أقبلتِ؟ قالت: هربتُ من سارة. قال: ارجعى إليها واخضعى لها، فإن الله سيكثر زرعك وذريتك، وعن قريب تحملين وتلدين ولدا اسمه إسماعيل لأن الله سمع خشوعك، ويكون ولدك أعين الناس، وتكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون أمره فى معظم الدنيا"، وهذا لم يتحقق لإسماعيل ولا تحقق لأحد من ذريته إلا لمحمد.

واللافت للنظر أن ترجمة فانديك لهذه البشارة تجرى على النحو التالى بما يخرجها عن معناها إلى حد بعيد، إذ لا تقول تلك الترجمة إن يد إسماعيل ستكون فوق الجميع، وإن الجميع سيخضعون له، وإن أمره سوف يتسع فى معظم الدنيا، وهو ما ينطبق على الإسلام، بل تقول إنه

سيكون "إنسانا وحشيا يَدُه على كل واحدٍ، ويَدُ كل واحدٍ عليه، وأمام جميع إخوته يسكن". وهذا الاختلاف ناتج من العبث بنص البشارة بحيث لا تعطى معناها الصحيح.

ومن تلك البشارات كذلك ما نقرؤه فى الإصحاح الثامن عشر من نفس السفر من أن الله سوف يقيم فى آخر الزمان نبيا مثل موسى من بنى إخوتهم، ومن لم يؤمن به ينتقم الله منه. ومعروف أن الله لم يرسل نبيا من بنى إخوة الإسرائيليين إلا النبى محمدا، وكان ذلك فى آخر الزمان، بمعنى أنه خاتم الأنبياء. أما كل من سبقوه بعد موسى فكلهم من بنى إسرائيل. ومنها أيضا ما جاء فى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر "التثنية" فى العهد القديم من أنه سبحانه وتعالى تجلى برحمته ضمن ما تجلى برحماته من جبل فاران، والمقصود بفاران مكة لأن فاران اسم رجل من العمالقة مَلَكَ على الحجاز وتخومه، فسمى القطر كله باسمه. ومنها كلمة "البارقليط"، التى يقول قسيسنا إنها تعنى "أحمد" لا "المعزِّى" كما يقول النصارى. و"البارقليط" هو الشخص الذى تنبأ بمجيئه المسيح من بعده... إلى آخر ما قاله فى هذا الموضوع.

وقد أسلم تورميدا بتونس على يد السلطان الحفصى أبى العباس أحمد، وعمره خمس وثلاثون سنة، لكنه طلب من السلطان أن يسأل عنه، قبل أن يعلن اعتناقه لدين محمد، كل من يعرفه من كبار النصارى حتى لا يذموه بعد إسلامه كما صنع اليهود مع عبد الله بن سلام حين عرفوا أنه أسلم على يد النبى مع أنهم كانوا قبيل ذلك مباشرة يمدحونه للرسول أعظم مديح، ويجلونه ويبجلونه ويثنون على خلقه وعلمه أيما ثناء. والطريف أن ما حدث مع ابن سلام قد وقع للترجمان حَذْوَكَ القُذَّةَ بالقُذَّة. وقد حاول صديق له أسبانى نصرانى أن يعيده إلى دينه الأول ملوحا له بكل المغريات المادية وغير المادية، لكنه أبى واستمسك بإسلامه بكل صلابة. وقد برهن فى كتابه أيضا على أن عيسى عليه السلام بشر من البشر وليس إلها وأن التثليث باطل بطلانا مطلقا. كما رد على المفتريات التى يختلقها النصارى على الإسلام والعيوب التى يأخذونها عليهم، وبيَّن التناقض والأخطاء فى أناجيلهم وفى عقائدهم وعباداتهم وطقوسهم وأسرار دينهم. وساق الأدلة على كل ما يقول من كتبهم وتصرفاتهم، ولم يعتمد على الحِجَاج العقلى فقط.

وكان الغربيون فى العصور الوسطى ينظرون إلى النبى الكريم بعين البغض الرمداء فلا يستطيعون مواجهة نوره وبهائه، فشوهوا صورته انطلاقا من كراهيتهم له زاعمين ضمن ما زعموا بشأنه أنه كان قسيسًا نصرانيًا ثم ارتد عن النصرانية، إذ كان فى البداية تلميذًا للراهب بحيرا، وبعد

أن تلقى منه المعلومات اللازمة تركه وأعلن نفسه نبيا. وهو كلام مضحك لأنه، حتى بافتراض أنه قابل بحيرا فعلا ولم تكن القصة مزيفة، إنما كان فى ذلك الوقت صبيا صغيرا، والصبيان الصغار لا يفكرون فى نبوة ولا يفكر أحد فى تنبئتهم، كما كان برفقة رجال القافلة القرشية فلا يمكن من ثم أن يكون بحيرا قد علمه الإسلام ثم يسكتوا هم عند إعلانه النبوة ولا يفضحوه بأنه إنما تعلم على يد بحيرا أمامهم. ثم إن الإسلام بعقائده وشرائعه وعباداته وأخلاقه وحكمه وبكل تفاصيله التى نعرفها فى القرآن والسنة لا يمكن أن يتعلمه أحد فى خلال نصف ساعة مثلا، وهى المدة التى لا أظن بحيرا قضى أطول منها فى تلك المقابلة التى لا أظنها قد وقعت أصلا.

ومن القصص الشهيرة التى راجت عند الأوربيين فى العصور الوسطى أنه عليه السلام كان كاردينالًا إيطاليًا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وكان اسمه ماهومت، وبعد أن فشل فى الجلوس على كرسى البابوية هرب للجزيرة العربية، وأسس دينه الجديد نكاية فى البابا وكنيسة روما. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يوصف هذا الاتهام إلا بأنه جنون رسمى، فأين محمد من إيطاليا؟ وهل كان قومه يسكتون على إيطالى يدعى بينهم النبوة دون أن يهتكوا ستره ويسخروا منه حين يقول لهم إنه عربى وأبوه عبد الله وجده عبد المطلب؟ ثم كيف تعلم العربية وأبدع هذا القرآن العجيب؟ إن هذا أوغل فى الحماقة والجنون من التهمة السابقة.

كذلك وصفه الغربيون بأنه ساحر معادٍ للمسيح استطاع عن طريق السحر والخداع تحطيم الكنيسة. ولكن ترى كيف يصح أن يوصف النبى بأنه ساحر، ولو كان ساحرا وعنده القدرة على تحطيم الكنيسة، التى أكد المسيح، طبقا لرواية العهد الجديد، أنها مؤسسة على الصخور الصلاب وأن أبواب الجحيم لا تقدر عليها، ما استطاع قومه أن ينالوا منه منالا. ثم هل السحرة يأتون بأديان راقية كالإسلام تدعو إلى التحضر والرقى وتنور عقول الناس وتأخذ بأيديهم إلى سبيل البر والخير؟ وفوق ذلك فإن أحدا لا يبغض السحر ويحب العلم ويحض عليه بغض محمد ودينه للسحر وحبهما للعلم.

ومما تفتقت عنه عقول الغربيين فى العصور الوسطى أيضا اتهام النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه الشيطان ذاته، وأن الإسلام لون جديد من الهرطقة والوثنية والشهوانية. وهذه لوثة أخرى من الجنون أفظع مما مضى، فالإسلام والوثنية نقيضان لا يجتمعان أبدا من هنا إلى يوم القيامة. ومن القصص التى كانت رائجة فى الغرب فى تلك الأزمنة قصة الراهب الدومينيكانى فى

القرن الثالث عشر الذى زار بغداد، ثم خرج على الأوروبيين بحكاية خرافية مفادها أن الشيطان، حينما عجز بقدراته الذاتية عن وقف انتشار النصرانية، اخترع كتابًا جديدًا هو القرآن، وجعل له وسيطًا هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذى يجسد المسيح الدجال. لكن هل يمكن القرآن أن يصدر عن الشيطان، وهو دائم التحذير من الشيطان ومن الإصاخة إلى وساوسه وشروره؟ وهل الشيطان يقول هذا الكلام البديع الذى ليس له مثيل فى الحلاوة والروعة والإبداع مضمونا ولغة وتعبيرا وتركيبا وتصويرا وجلالا ومجدا؟

كما يفترى دانتى أليجييرى الإيطالى صاحب "المهزلة الإلهية"، وهو من أهل القرن الثالث عشر الميلادى، الأكاذيب على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فيقول إن موميتو كان ينشر الفضيحة والفتنة، وإن الشيطان سوف يمزقه فى جهنم لنشره الشهوانية المقززة. وأرجو القراء الكرام أن يتأملوا تخبط الغربيين فى توصيف الإسلام: فمرة هو من إبداع الشيطان، ومرة سوف يمزق الشيطان النبى فى الجحيم. وهذه ضد تلك، فالأولى تقيم علاقة تعاون بين نبينا والشيطان، والثانية تجعل بينهما عداوة شنيعة. كذلك كان الغربيون يزعمون أن القرآن يتساهل مع اللواط. وها نحن أولاء نرى الغربيين أنفسهم يقننون اللواط، وفوقه السحاق بالمرة، بينما المسلمون يرفضون ذلك. أليس هذا كذبا مفضوحا وضيعا؟

ومن الصور الرائجة فى أوروبا فى القرون الوسطى أيضا عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم اتهامه بأن كان دجالًا يأتى بألاعيب خفيَّة كتدريبه حمامة تنقر حبوب القمح من أذنه زاعما أن تلك الحمامة هى جبريل، الذى كان يبلغه الوحى الإلهى. ونحن لو قلبنا السيرة النبوية كلها ما رأينا النبى ممسكا بحمامة قط. ثم هل كان لدى النبى من الفراغ ما ينفقه فى الدجل وألاعيب الحواة؟ وهذا كله، كما نرى، اختلاق صُرَاح لا يقوله إلا مجنون مغرق فى الجنون. خيبة الله على من يفترى على النبى العظيم الكريم الذى غير وجه التاريخ تغييرا هذه المفتريات الهابطة المنحطة.

كتب عن الاستشراق والمستشرقين: وفى نهاية هذا الفصل يحسن بنا أن نوافى القراء بهذه القائمة المشتملة على طائفة صالحة من الكتب المتعلقة بالاستشراق والمستشرقين لمن يريد التوسع فى القراءة فى هذا الموضوع الشديد الأهمية: "مختارات إنجليزية استشراقية عن الإسلام" لإبراهيم عوض. "المستشرقون البريطانيون" لآربرى- تعريب محمد الدسوقى النويهى. "تاريخ حركة الاستشراق" ليوهان فوك. "الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق" لإدوارد سعيد- تعريب: محمد

عنانى. "بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام- نصوص وردود" إبراهيم عوض. "تعقيبات على الاستشراق" لإدوارد سعيد- تعريب صبحى حديدى. "المهزلة الأركونية فى المسألة القرآنية" إبراهيم عوض. "الإسلام فى خمس موسوعات إنجليزية: نصوص ودراسات" لإبراهيم عوض. "حول الاستشراق الجديد" لعبد الله الوهيبى. "مدخل إلى الأدب العربى لهاملتون جب: قراءة نقدية" لإبراهيم عوض. "الأدب العربى: نظرة عامة لبيير كاكيا"- عرض ومناقشة إبراهيم عوض. "هوامش على تاريخ العرب لفيليب حتى" إبراهيم عوض. "إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات- قراءة فى كتابه: النضال من أجل الاستسلام" لإبراهيم عوض. "الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى" لزينات بيطار. "المنهج الاستشراقى فى تاريخ الأدب والنقد" لإدريس الكريوى. "الاستشراق العربى: دراسة نقدية لأعمال أركون" لمحمد بريش. "الأثر الاستشراقى فى موقف أركون من القرآن" لحمد بن سعيد الرحانى. "الشبه الاستشراقية فى كتاب "مدخل إلى القرآن الكريم" للجابرى" لعبد السلام البكارى والصديق بو علام. "الالتفاف على الاستشراق: محاولة التنصل من المصطلح" لعلى بن ابراهيم النملة. "الاستشراق والقرون الوسطى" لجون غانم. "مراكز الاستشراق الأمريكى الجديد" لعبد الله المديفر. "سموم الاستشراق والمستشرقين فى العلوم الإسلامية" لأنور الجندى. "التبشير والاستشراق: أحقاد وحملات" لمحمد عزت الطهطاوى. "الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق" لعبد الرحمن عميرة. "الاستشراق والدراسات الإسلامية" لعبد القهار العانى. "الاستشراق والدراسات الإسلامية" لعلى بن ابراهيم النملة. "الاستشراق والإسلام: مطارحات نقدية للطروح الاستشراقية" لإبراهيم المحجوبى. "الاستشراق فى ميزان نقد الفكر الإسلامى" لأحمد السايح. "آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره: دراسة ونقد" لعمر بن ابراهيم رضوان. "آراء المستشرقين الفرنسيين فى القرآن الكريم" لأحمد نصرى. "الرسول (ص) فى كتابات المستشرقين" لنذير حمدان. "الاستشراق فى السيرة النبوية" لعبد الله محمد النعيم. "السيرة النبوية وأوهام المستشرقين" لعبد المتاعل محمد الجبرى. "الاستشراق: دراسات تحليلية تقويمية" لمحمد عبد الله الشرقاوى. "الإسلام والمستشرقون" لعبد الجليل شلبى. "الاستشراق والإسلام" لمجموعة من المؤلفين- ترجمة وإعداد فالح عبد الجبار. "المستشرقون والإسلام" لزكريا هاشم زكريا. "الاستشراق والمستشرقون: ما لهم وما عليهم" لمصطفى السباعى. "الحوار دائما وحوار مع مستشرق" لشوقى أبو خليل. "السجع

فى القرآن لديفين ستيوارت" ترجمة ودراسة إبراهيم عوض. "المستشرقون" لنجيب العقيقى. "المستشرقون والتراث" لعبد العظيم الديب. "المستشرقون والقرآن" لابراهيم عوض. "مستشرقون من قبل الاستشراق. مستغربون من قبل الاستغراب" لإبراهيم عوض. "المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها دراسة وتطبيقا" لعابد بن محمد السفيانى. "مقالات وبحوث حول الاستشراق والمستشرقين" لأبو الحسن الندوي- إعداد سيد عبد الماجد الغورى. "لو كان البحر مدادا: للصحفية الأمريكية كارا باور- حوار مع الشيخ أكرم ندوى"- عرض وتحليل إبراهيم عوض. "الإسلاميات بين كتابات المستشرقين والباحثين المسلمين" لأبو الحسن الندوى. "الاستشراق: قراءة نقدية" لصلاح الجابرى. "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية: أضاليل وأباطيل" لإبراهيم عوض. "آثار الفكر الاستشراقى فى المجتمعات الإسلامية" لمحمد خليفة أحمد. "الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى" لمحمود حمدى زقزوق. "الإسلام فى تصورات الغرب" لمحمود حمدى زقزوق. "المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام للويس ماسينيون" ترجمة وتعليق ودراسة إبراهيم عوض. "مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين" لعبد الله يوسف سهر محمد. "المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى" لابراهيم خليل أحمد. "المستشرقون والمناهج اللغوية" لاسماعيل أحمد عمايرة. "أصول الشعر العربى" لديفيد صمويل مرجليوث- ترجمة وتعليق ودراسة إبراهيم عوض. "المستشرقون والشعر الجاهلى بين الشك والتوثيق" ليحيى وهيب الجبورى. "دراسات دينية مترجمة من الإنجليزية" لإبراهيم عوض. "المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية: بحث فى الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية" لإسماعيل أحمد عمايرة. "محمد ونهاية العالم للمستشرق الفرنسى بول كازانوفا"- عرض ومناقشة إبراهيم عوض. "الاستشراق اليهودى: رؤية موضوعية" لمحمد عبد الرحيم الزينى. "تاريخ حركة الاستشراق" ليوهان فك- ترجمة عمر لطفى. "آراء المستشرقين الفرنسيين فى القرآن الكريم" لأحمد نصرى. "حفريات الاستشراق: فى نقد العقل الاستشراقى" لسلام يفوت. "محمد عند علماء الغرب" لخليل ياسين. "تاريخ اليهود فى بلاد العرب" لإسرائيل ولفنسون. "موقف الاستشراق من السيرة والسنة النبوية" لأكرم ضياء العمرى. "المستشرقون الألمان" دراسات جمعها وشارك فيها د. صلاح المنجد. "الاستشراق الأمريكى المعاصر" لمازن مطبقانى. "الاستشراق والتاريخ الإسلامى" لفاروق فوزى. "حضارة العرب" لجوستاف لوبون- ترجمة عادل زعيتر. "عادات المصريين وتقاليدهم"

لإدوارد وليم لين- ترجمة سهير دسوم. "المستشرقون الناطقون بالإنجليزية" لعبد اللطيف الطيباوى- ترجمة قاسم السامرائى. "ابن رشد والرشدية" لإرنست رينان- ترجمة عادل زعيتر. "نقد الخطاب الاستشراقى" لساسى سالم الحاج. "إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى الحديث" لمالك بن نبى. "تاريخ الأدب العربى" لكارل بروكلمان- ترجمة عبد الحليم النجار وآخرين. "تاريخ الفكر الأندلسى" لآنخل جنثالث بالنثيا- ترجمة حسين مؤنس. "آثار الاستشراق الألمانى فى الدراسات القرآنية" لأمجد يوسف الجنابى. "الدعوة إلى الإسلام" لتوماس آرنولد- ترجمة حسن إبراهيم حسن. "المستشرقون الألمان: النشوء والتأثير والمصائر" لرضوان السيد. "الاستشراق الروسى: نشأته ومراحله" لسهيل فرح. "المدرسة الاستشراقية" لآمنة محمود الذيابات. فلسفة الاستشراق وأثرها فى الأدب العربى المعاصر" لأحمد سمايلوفتش. "الإسقاط فى مناهج المستشرقين والمبشرين" لشوقى أبو خليل. "الفهم الاستشراقى لتفسير القرآن الكريم" لعادل ماجد. "موسوعة المستشرقين" لعبد الرحمن بدوى. "السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون" لعبد المتعال محمد الجبرى. "الاستشراق والدراسات الإسلامية" لعبد القادر العانى. المستشرقون والتاريخ الإسلامى" لعلى حسن الخربوطلى. "قضايا قرآنية فى الموسوعة البريطانية" لفضل حسن عباس. "الوحى القرآنى فى المنظورالاستشراقى ونقده" لمحمود ماضى... إلخ.

طائفة من مشاهير المستشرقين

١- فلهلم شبيتا

وهو مستشرق ألمانى ولد عام ١٨٥٣م، ومات عام ١٨٨٣م، وعاش شطرا من حياته فى مصر، وتولى إدارة دار الكتب المصرية. وما يهمنا هنا هو الكتاب الذى وضعه بالألمانية سنة ١٨٨٠م يعرض فيه قواعد النحو والصرف الخاصة بالعامية المصرية استنادا إلى معرفته لها من خلال معايشته للمصريين واختلاطه الواسع بهم. وقد تُرْجِم الكتاب إلى الإنجليزية بعد ذلك تحت عنوان "An Egyptian Alphabet for the Egyptian People"، وهى النسخة التى أعتمد فى هذا الفصل على طبعتها الثانية الصادرة عام ١٩٠٤م بفلورنسا.

وفى هذا الكتاب يقترح المؤلف الشيطان على المصريين أن يتركوا العربية الفصحى ويكتبوا بالعامية المصرية بحروفها التى اخترعها كما يقول من أجلهم ومن أجل راحتهم، فهو يحبهم، ولهذا لا يتركهم يعانون ويقاسون جراء استعمالهم عربية القرآن القديمة التى لا تصلح لهم ولا للعصر الحالى، بل لا بد من هجرها والانتقال إلى استعمال العامية، التى ينبغى أن تكون هى لغتهم الجديدة بكتابتها الجديدة. وهذه الكتابة الجديدة تتكون من أربعة وثلاثين حرفا كلها حروف لاتينية. أى أنه يريد أن يقطع صلتنا تماما بالتراث الحضارى العظيم الذى تركته لنا الثقافة العربية الإسلامية ونتحول إلى العامية المصرية، التى يصر دائما على تسميتها بـ"اللغة" لا "اللهجة". وهو يذكرها دائما بجانب الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها كى يوحى لقارئه المصرى أنها لغة قائمة بذاتها وليست لهجة من لهجات اللغة العربية مثلها للإنجليزية والفرنسية والألمانية لهجاتها التى تتكلم بها شعوبها فى حياتها اليومية وتعبر بها عن حاجاتها السريعة المباشرة وتقضى بها أشغالها العابرة.

وأولا وقبل كل شىء هل هناك لغة مصرية خاصة يتحدث بها المصريون جميعا؟ الجواب أنه لا توجد مثل تلك اللغة، وهذا إن عددنا العامية لغة. لماذا؟ لأن اللغة التى يتكلم بها مثلا أهل شفا، القرية الملاصقة لقريتى، تختلف عن اللغة التى نتكلمها نحن فى قريتنا، فهم مثلا يقلبون القاف الفصحوية إلى جيم جافة بينما نحن نقلبها همزة، وهم يعطشون الجيم الفصحوية بينما نحن ننطقها جيما جافة، ونحن مثلا نقول ما معناه: "ما الخبر؟" على النحو التالى: "خَبَرِيه؟" بإمالة المدة التى تلى الياء، أى ننطقها شيئا بين الألف والياء، أما أهل شفا فيقولون: "خَبَرَيْه؟". ونحن نسمى

"البَيْضة": "بِيضَة" بإمالة مدة الباء، أما سكان بعض العزب التابعة لقريتنا أو لقرية قريبة من قريتنا فيقولون: "دحية"، كما يقولون عن "البراز": "وَسَخ" فى حين نقول نحن: "خَرا". وفى أول إقامتى فى المدينة الجامعية فى منتصف ستينات القرن الماضى كنت أسمع زميلا لنا آتيا من الصعيد يسكن معنا فى نفس الممر يكرر فى كلامه كلمة "ضِوَّخْت" فلا أفهم ما يقصد، إلى أن سألت وعرفت أنه يقصد ما نقصده نحن بقولنا: "دِلْوَأْت"، أى "دلوقت" (هذا الوقت). كذلك فبعض المصريين يقولون حين يأتى ذكر مصيبة أو كارثة: "يا ساتِر!"، أى "اللهم استر وأزح هذه الغمة"، وبعضهم يقول: "يا سِتِّير". وبعضهم يقول فى مثل ذلك السياق: "يا خَرَابِى"، وبعضهم: "يا خَرَاشِى"، وبعضهم: "يا لَهْوِى"، وبعضهم: "يا لَهْوِتِى"، وبعض ثالث: "يا دَهْوِتِى". وبعضنا يدعو على من يكره قائلا: "جاتَكْ مصيبة"، وبعض آخر يقول: "نِصِيبِة". و"البكاكيم" فى قريتنا هى "القُرَص" فى قرية أخرى. وكانت كلمة "البكاكيم" تثير ضحك كثير من زملائنا فى المدرسة الثانوية بطنطا ممن لا يعرفونها. وبالمناسبة فمفردها "بَكُّومَة"، وسمعت بعضهم يقول: "بَكُّومِى". و"البَتَّاوِى" عندنا هو خبز رقيق طرى مصنوع من الدقيق والسمن واللبن فى حين أنه عند آخرين نوع من الخبز العادى، وينطقون اسمه هكذا: "بَتَّاوْ" بتسكين الواو. ونحن نسمى الخبز الذى كانت تخبزه نساء القرية فى البيوت: "عِيشْ مِرَأْرَأْ"، أى "مُرَقْرَق" بينما يسميه قوم آخرون: "عيش بَط"، وبعض ثالث: "عيش مِرَحْرَح". وفى قريتنا نسمى نوعا من الخبز طريا وأغلظ كثيرا من "العيش المرقرق" وفيه لبن: "عِشْخاص" (عيش خاص)، وهى تسمية لا أذكر أنى سمعتها فى أية قرية أخرى أو فى أية مدينة. كذلك هناك من يقول: "فَلافِل"، ومن يقول: "طَعْمِيَّة". وهناك من يقول: "يا ولد"، ومن يقول: "يا وَلَهْ"، ومن يقول: "يا وَلَا"، ومن يقول: يا لَهْ"، ومن يقول: "يادْ"، ومن يقول: "ياضْ"... إلخ. وهذه أمثلة ذكرتها كيفما اتفق، وهى مجرد إشارة سريعة إلى أنه لا توجد لغة مصرية واحدة لأهل مصر كما يقول هذا المستشرق الماكر، بل تختلف تلك اللغة (إن سميناها: "لغة"، وهى فى الحقيقة مجرد لهجة من لهجات اللغة العربية شأننا شأن اللهجات فى جميع لغات الدنيا) من إقليم من أقاليم مصر إلى آخر بل من قرية إلى أخرى قد تكون ملاصقة لها كما هو الحال عندنا نحن وجيراننا من أهل قرية شفا. ولولا وجود الفصحى وردّ كل شىء إليها ذهنيا دون أن نعى ذلك فى الغالب ما تفاهمنا نحن أصحاب العاميات المختلفة فى مصر وحدها، فما بالنا لو بسطنا رقعة الموضوع وتحدثنا عن لهجات البلاد العربية جمعاء؟ والغريب أن شبيتا نفسه يقول شيئا شبيها بهذا الذى

أقول عن تعدد اللهجات فى مصر، بل إنه أقر بأنه كان ينبغى أن يكون اسم الكتاب "قواعد عامية أهل القاهرة" لا "أهل مصر"، لكنه ككل شيطان مريد لا يتوقف عن الوسوسة بالشر مهما ظهر من معايبه وأخطاره ومخازيه والثمار المرة السامة التى تنتج عنه.

ثم ما الذى يشغل بال ذلك الأوربى الخبيث فى أمر لغتنا حتى ليصعب عليه حالنا كما يقول، فيحركه حبه لنا نحو اختراع تلك اللغة التى يسميها كاذبا: "لغة أهل مصر"، والتى بيَّنّا أنها ليست لغة أهل مصر، بل هى فى أحسن أحوالها لغة بعض أهل القاهرة؟ هذه أول مرة أرى أو أسمع أن أحدا غريبا عن أهل بلد ما تأخذه الشفقة عليهم فيخترع لهم لغة تزيدهم معاناة بزيادة صعوباتها، ويكفى أن حروفها تبلغ أربعة وثلاثين حرفا لا ثمانية وعشرين، إضافة إلى أنها حروف لاتينية لا عربية، وهذا معناه أنه سوف تنقطع صلاتنا بالفصحى تماما، ومن ثم لن نكون قادرين على قراءة القرآن ولا فهمه ولا على التعامل مع تراثنا العربى الإسلامى أصلا، وسوف تكون الفصحى غريبة علينا غرابة اللاتينية على الأوربيين الآن، ثم يدعى أنه قد صنع ذلك حبا لنا وغيرة على مصلحتنا ورغبة فى تسهيل تحصيل العلم علينا. والمريب أنه يزعم أن المصريين فى ذلك الوقت لم يكونوا يفهمون الفصحى قط، بل كانت بالنسبة لهم أوانذاك مثل اللاتينية لأهل إيطاليا أو اليونانية القديمة لليونان المحدثين. يقول هذا رغم أن العوام فى مصر يستمعون إلى القرآن، وهو بالفصحى، ويستمعون إلى خطبة الجمعة وغيرها من الخطب، وهى بالفصحى، ويستمعون إلى نشرات الأخبار والأحاديث الإذاعية التى يلقيها الكتاب والمفكرون وعلماء الدين، وهى بالفصحى، ويلقون بآذانهم طول النهار تقريبا إلى إذاعة القرآن الكريم بقرآنها وأحاديثها النبوية ومواعظ علمائها وتفسيراتهم للقرآن وفتاواهم وتعليقاتهم على الأحداث، وكل ذلك بالفصحى، وأولادهم يقرأون الكتب ويفهمونها، وهى مؤلفة باللغة الفصحى، التى يكتب أولئك الأولاد بها أيضا دروسهم وذكرياتهم وخواطرهم. ثم إذا كان هو وسائر المستشرقين الأعاجم يستطيعون التعامل مع الفصحى العربية فكيف يظن أنه قادر على إقناعنا بصعوبة الفصحى على أبنائها متى تعلموا وارْتَقَوْا؟ أم ترى الغربيين وحدهم هم الآدميين الذين يستطيعون الفهم، ونحن لا؟ وهذا الشيطان يسمى العربية الفصحى: "العربية الكلاسيكية (أى التقليدية)" أو "العربية القرآنية" أو "العربية القديمة". وكلها تسميات تشى بما فى نفس هذا الشيطان.

ومن هنا فهو يكذب حين يقول إن هذه اللغة الجديدة بحروفها اللاتينية المحورة لن تمنعنا من قراءة القرآن. كيف يا ترى؟ علم ذلك عند المستشرق الصغير سنا الشيطان الأريب فكرا ورأيا وتخطيطا مدمرا. ذلك أننا متى ما اعتمدنا اللغة الجديدة كما يسميها واستعملناها بدل اللغة الفصحى، التى يسميها ذلك الشيطان بـ"اللغة القديمة"، وهى تسمية لها ما بعدها، فكيف يمكننا أن نفهم الفصحى وأن نكتب بها، وقد صارت لغة أجنبية تماما عنا؟

إن بعض المستشرقين يحاجوننا بأن ذلك قد حدث مع اللاتينية، التى كانت تكتب وتقرأ بها أوربا ثم هجرتها وتحولت إلى لهجاتها من إيطالية وأسبانية وفرنسية... ولكن من قال إن ما حدث للاتينية لا بد أن يحدث مع العربية؟ وإذا كان هذا أمرا يحتمه التاريخ والتطور كما يقال فلم لا نترك التاريخ والتطور يقولان كلمتهما؟ إن كاتبا كجرجى زيدان لا يمكن اتهامه بممالأة الفصحى يؤكد أن العامية إفساد للغة (انظر كتابه: "تاريخ آداب اللغة العربية"/ مطبعة الهلال/ ١٩١٤م/ ٤/ ٢٦٩). بل إنه فى سنة ١٨٩٢م قد كتب مقالا يرد فيه على وليم ولكوكس، الذى كان يدعو فى ذلك الحين إلى استبدال العامية بالفصحى والحذو فى ذلك حذو الإنجليز، الذين هجروا اللاتينية واصطنعوا لهجة محلية بدلا منها. ويقوم رده على أن اللاتينية بالنسبة للإنجليز كانت لغة غريبة بخلاف العربية، التى هى لغة العرب القومية، وبغيرها لا تقوم لهم وحدة. ولا ينسى زيدان دور القرآن المجيد فى حفظ العربية فيقول: "لولا القرآن والمحافظة عليه منذ صدر الإسلام وعَوْدُنا إليه فى إصلاح ما تفسده الطبيعة من لغتنا لتشتت شمل الشعر العربى كما حصل فى الأمم التى كانت تتكلم اللغة اللاتينية، فضلا عن أن العامية منحطة عن الفصحى كثيرا، وليس لها أن تقوم مقامها، فإنها أرقى لغات العالم" (جرجى زيدان/ مختارات جرجى زيدان/ مطبعة الهلال/ القاهرة/ ١٩٢٧م/ ١٨٧- ١٨٩). وبالمثل يرى إبراهيم اليازجى، وهو نصرانى كجرجى زيدان فلا يمكن القول بأنه متعصب للفصحى دينا، أن العامية فساد تنبغى محاربته (انظر مقاله: "العامية والفصحى/ مجلة "البيان"/ أول أغسطس ١٨٩٧م/ ٢٨٢- ٢٨٨).

ومما تناوله فلهلم شبيتا فى كتابه أيضا أن العربية قد حلت فى مصر بعد الفتح الإسلامى محل اللغة القبطية، التى يصفها بأنها لغة البلاد الأصلية. بالضبط كما يقول البعض إن الإسلام دين طارئ من الخارج على مصر، أما النصرانية فهى دين مصر الأصلى، متجاهلا أن النصرانية قد أتت هى أيضا من الخارج، ولم تكن دينا مصريا أصيلا بهذا المعنى، إذ كان للمصريين، قبلها وحتى

بعد اعتناق طوائف منهم لها، ديانات أخرى. وهذا الذى يقوله شبيتا تدليس فى تدليس لأن لغة البلاد الأصلية هى أقدم لغة كان الناس فى بلادنا يتكلمونها أول شىء، وكيف يا ترى يمكننا التوصل إلى تلك اللغة؟ إن هذا أمر مستبعد تماما. ومن ثم فاللغة العربية هى لغة البلاد الآن، وهى لغة أصلية. ولأن شبيتا لا يستطيع المناداة بإحلال اللغة القبطية محل العربية فقد اكتفى مرحليا بالدعوة إلى هجر الفصحى واللجوء إلى العامية، التى يسميها: لغة، ويقول كاذبا مدلسا إنها هى اللغة المصرية. وأتصور أنه كان يضع تخطيطه على أساس أن يفعل الزمن فعله ويصير المصريون بعد نبذهم لغة القرآن مهيَّئين للتحول من العامية إلى القبطية لأن التحول آنذاك لن يثير الحساسية والنفور اللذين يثيرهما المناداة بالتحول من الفصحى، التى يسميها هذا الشيطان بـ"اللغة القديمة"، إلى العامية، التى ينعتها بـ"اللغة الجديدة".

وهو يرى أن تعليم العوام كتابة العامية وتحويل التأليف والكتابة من الفصحى إلى العامية كفيلان بتثقيف الشعب الأمى الذى لا يستطيع القراءة أو الكتابة بالفصحى، والذى لو احتاج أحد منه إلى كتابة رسالة لجأ إلى كاتب محترف. والرد ميسور جد ميسور على هذا الكلام الكاذب. ذلك أنه ما دام هناك من تعلم قراءة الفصحى وكتابتها كذلك الكاتب الذى يحبر للعامة الرسائل فمن السهل على العامة أن يتعلموا الفصحى قراءة وكتابة حتى لو أخطأوا فى نحوها وصرفها. فالمسألة ليست صعوبة الفصحى كما هو واضح، بل مسألة الأمية، التى لو زالت لكان باستطاعة أى عامى أن يقرأ الفصحى ويكتبها على نحو أو على آخر. وهذا ينطبق على العوام فى كل لغة، أم ترى العامى الإنجليزى لمجرد تعلمه الألفباء الإنجليزية سوف يكتب كما يكتب شكسبير أو ملتون أو الدكتور جونسون أو بوزويل؟ إن العامى عندنا كان يلجأ إلى من يكتب له خطاباته لا لأن الفصحى صعبة بل لأنه لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب أصلا. وأولاد العوام يتعلمون فى المدارس والجامعات باللغة الفصحى ويتفاعلون معها بكل أريحية.

وهو بسبب عجز العامة عن الكتابة والقراءة يدعونا إلى التخلى عن لغة القرآن حتى لا يقع ذلك العامى فريسة لمن يخدعه ويجعله يوقع على بياض ويستولى على أمواله. ويتجاهل هذا الشيطان أننا حتى لو انتقلنا إلى العامية لظل ذلك العامى عرضة لخداع المخادعين لأنه ما دام أميا فستظل المشكلة قائمة. فالعبرة إذن ليست فى العامية والفصحى بل فى الأمية ومعرفة القراءة والكتابة. أما الخداع فكلنا يمكن أن نقع فيه عوامَّ أو خواصَّ. وأنا أتابع هذه الأيام قضية بين أخوين

متعلمين خدع أصغرها، وهو مدرس عادى، أخاه الأكبر الحاصل على الدكتوراه من أرقى الجامعات الأوربية وجعله يختم له دون أن يدرى على أوراق بأنه باع له عدة فدادين من أرضه. بل إن أحد العوام الأميين فى قرية أعرفها زور أوراقا بأنه اشترى فدان أرض كان بعض التجار قد اشتروه، وكتب لافتة على رأس الفدان يراها الغادى والرائح بأن الأرض متنازع عليها أمام المحاكم ولا يجوز التصرف فيها، مما اضطر التجار المذكورين إلى مساومته حتى رضى بثلث مليون جنيه نظير الانسحاب من الميدان، إذ هم يعلمون أنهم لو لجأوا إلى المحاكم لطال الأمر سنوات تقف فيها دورة الفلوس وينعدم المكسب، وهم يريدون بيع الأرض مساكن واستثمار فلوس البيع فى شراء أرض جديدة وبيعها والكسب من ورائها. وقد عوضوا المبلغ الضخم الذى دفعوه للأمى الخبيث بأن زادوا على سعر البيع الذى كانوا قد حددوه لكل قيراط عشرة آلاف جنيه، وكأنهم لم يدفعوا للأمى الشرير شيئا. فما رأى شبيتا فى تينك الواقعتين اللتين كان المضرور المخدوع فيهما هو الطرف المتعلم أو الأرقى تعليما؟

وقد تناول بعض المستشرقين، وهو وليم ولكوكس، سنة ١٩٩٣م الخيط من هذا الكتاب وأشباهه من الكتب التى يدعو فيها واضعوها إلى استخدام العامية بدلا من العربية الفصحى فأكد فى خطبة له نشرها بعد ذلك فى مجلة "الأزهر" المصرية أن استخدام العامية سيؤدى إلى دوران عجلة التقدم العلمى وما يترتب عليه من اكتشافات واختراعات، متجاهلا عن قصد وخبث أن العامية بطبيعتها فقيرة لا تستطيع أن تقوم بحاجات العلم، إذ وظيفتها هى قضاء الحاجات اليومية السريعة العملية، وأما فى مجالات الفكر والفلسفة والآداب والعلوم الإنسانية والطبيعية والرياضية فليست مؤهلة لها، وتحتاج إلى أشواط طويلة مرهقة كى تستطيع أن تقوم ببعض ما يزعم الداعون إليها أنها قادرة على النهوض بتبعاته. ثم إن كذب هؤلاء يتضح على تمامه متى عطفنا وجوهنا نحن الماضى المتحضر الزاهى فى تاريخ العرب والإسلام، إذ سوف نجد أن كل التراث الفلسفى والأدبى والنقدى والعلمى على اختلاف ألوانه وأشكاله إنما تم التفكير والكتابة والجدل والخلاف والأخذ والرد فيه باللغة الفصحى لا بهذه اللهجة أو تلك. ولدينا الجاحظ والقاضى عبد الجبار والكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن طفيل وابن رشد وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وأبو الفرج الأصفهانى والقاضى الجرجانى وجابر بن حيان والبتانى والخوارزمى وابن النديم والطبرى والمقريزى وياقوت الحموى والسيوطى وابن عبد ربه وابن زيدون وابن رشيق والآمدى وابن المقفع والباقلانى

والشوكانى والزبيدى ومئات بل آلاف الكتاب والعلماء والأدباء والنقاد والمفكرين والمؤرخين، وكلهم كان يستخدم الفصحى ويعبر بها عما يريد التعبير عنه من فكر وأدب ونقد وتاريخ وفلسفة وعلوم طبيعية ورياضيات وطب ولم يخطر لواحد منهم قط أن يستعمل العامية رغم أنه يتكلم العامية فى الشارع وفى بيته وفى شراء ما يحتاجه من الدكاكين والأسواق.

والعامة فى عصرنا، كما قلنا، تستمع إلى الخطب الدينية والسياسية ونشرات الأخبار والأغانى الفصحوية وتفهمها وتتفاعل معها، والطلاب فى المدارس والجامعات يتعلمون بالفصحى ويجيبون على أسئلة الامتحان بالفصحى، والتعليمات الرسمية فى كل مكان مصوغة بالفصحى. فكيف يقول المستشرق الخبيث ما يقول عن العامية وأنها كفيلة بأن تفتح لنا أبواب التقدم؟ ثم هل علماء أوربا ومفكروها وأدباؤها ونقادها وفلاسفتها فى عصر ذلك المستشرق أو فى عصرنا هذا أو فى أى عصر كانوا يستعملون العامية ويهملون الفصحى فى تفكيرهم وتعبيرهم كما يريدنا هو أن نفعل حين نفكر ونكتب؟ فلم ينبغى أن ننبذ لغة تراثنا وحاضرنا وننتقل إلى العامية؟ إن ذلك المستشرق يريد منا أن نلغى عقولنا ونصدق المزاعم الكاذبة التى يرددها والتى لا يمكن أن يقتنع بها أى إنسان لديه مُسْكَة من عقل وفكر. ولكن الشياطين لا ييأسون ويظلون يرددون الباطل ويلحون عليه معرفة منهم أن هناك دائما فى الدول المتخلفة من هو جاهز لتبنى ما يقولون رغم عواره الفاحش. وقد سمعنا، بتأثير من هذا السخف الساخف، من يدعو إلى هجر الفصحى واستعمال العامية، ومن يريد منا أن ننبذ حروفنا العربية ونتبنى حروف اللاتين... وهكذا. وهذا وأمثاله هو عَرَضٌ من أعراض الهزيمة والتخلف والشعور بالهوان وتصديق كل ما يقوله الغربيون المتفوقون علينا مهما يكن من تهافته وتفاهته وتضعضعه وانحطاطه ومجافاته للمنطق والعقل.

ولا بد، فى هذا السياق، من توجيه الانتباه إلى أن موسوعة "ويكيبيديا" قد تبنت تلك الدعوة إلى استعمال العامية وتسميتها بـ"اللغة المصرية"، والتعامل معها على أنها لغة قائمة بذاتها. وهو ما لم تفعله "الويكيبيديا" مع أية لغة أخرى رغم أنه ما من لغة فى العالم إلا ولها لهجاتها. فلماذا لم تصنع "ويكبيديا" هذا الصنيع مع غير لغة الضاد؟ ولقد أشرت إلى ذلك عدة مرات فيما كتبت. وقد لاحظت أن تلك الموسوعة قد حذفت ترجمتى من قاعدة بياناتها، فلم يعد هناك من سبيل إلى الوصول إليها. وقد أخبرنى بعض تلاميذى وأصدقائى أنهم حاولوا إعادة تلك الترجمة فلم يفلحوا قط لأن "ويكبيديا" قد منعت إدخال أية مادة باسمى. وهو تصرف عجيب من "ويكيبيديا". فهل لتلك

الموسوعة أغراض تستلزم حذف ترجمتى بالذات دون سائر الكتاب والأساتذة المصريين والعرب من أمثالى؟ ولكن لماذا؟ وهل لهذا علاقة باستنكارى الشديد لإفراد تلك الموسوعة نسخة منها لما تسميه زورا وبهتانا بـ"اللغة المصرية"، والمقصود العامية المصرية، وهو ما لم تفعله مع أية لهجة أخرى من لهجات أية لغة من لغات العالم؟

وفى مقال لناصر عبود قاسم بموقع "المدارس الإسلامية" نقرأ ما يلى تحت عنوان "الدَّعْوَةُ إِلَى العامّيةِ- نَشْأتُها ودُعَاتُها": "إن الدعوة إلى العامية قد أحدثت بركانًا فكريًا لم يخمد أواره فى عقول الباحثين إلى يومنا هذا، وقامَ بعض الغيورين على اللغة العربية، وشمّروا عن سواعدهم، ومشقوا يراعهم، وتسلّحوا بإرادتهم، وردّوا على ذلك بتأليف الكتب القيمة، والرسائل والأطاريح المعتبرة، والمقالات والبحوث الرصينة، مما عاد بالنفع على لغتنا العربية الفصحى، حتى إن البعض يرى أن فكرة المجامع اللغوية التى أُنشِئتْ فى مصر وسوريا وغيرها من الدول العربية لم تكن إلّا ثمرة نتيجة لتلك الحملات الشعواء على لغة العرب. وكان دعاة اللهجة العامية يرون بضرورة استخدامها ليس على مستوى التخاطب اليومى فحسب، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث أكّدوا على ضرورة إدخالها فى كتابة الصحف والمجلات والكتب، والمناهج الدراسية بصورة عامة.

ولم تكن هذه الفكرة وليدة اليوم، بل انبثقت عام ١٨٨٠م فى مصر على يد المستشرق الألمانى ولهلم سبيتا حين قام بتأليف كتابه الموسوم بـ"قواعد اللغة العامية فى مصر". وبالرغم من أن الكثير من الكُتّاب والمفكرين قد أشاروا بأصابع الاتهام نحو الدول الاستعمارية والحملات التبشيرية بالوقوف وراء هذه الفكرة لمحقِ لُغةِ القُرآنِ الكريم فقد ذهبتْ الكاتبة المصرية بنت الشاطئ إلى أن سبيتا لم يكن ينطلق من منطلق استعمارى، بل كانت تراه متأثرًا بفكر العالم البريطانى تشارلز روبرت داروين صاحب كتاب "أصل الأنواع" ونظريته الموسومة بـ"النشوء والارتقاء" ونقلَ تطبيق هذه النظرية من الكائنات الحية إلى اللغات بصورة عامة، واللغة العربية بصورة خاصة، إذ عدَّ اللغة بأنها كائن حى ينشأ ويتطور ثم يموت، ويرى أن اللغة العربية الفصحى ميتة سريرياً، وستوارى الثرى عاجلًا أو أجلًا بسبب استعمار الدولة العثمانية الغازية للوطن العربى وسياسة التتريك المتبعة لها، ويُطبّق فكرة "الصراع من أجل البقاء" عليها، إذ يرى أن العاميةَ خاضت، وما زالت تخوض المعركة مع الفصحى، وأنها فى طور الانتصار، وأن عملية "الانتخاب الطبيعى" أو

"بقاء الأصلح" تنطبق على العامية، إذ يراها بأنها الأقوى. وبطبيعة الحال: الأقوى هو الأقدر على الصمود بوجه عاديات الزمان".

وهذا الكلام المعزوّ إلى بنت الشاطئ موجود فى كتابها: "لغتنا والحياة" (دار المعارف/ ط ٢/ ١٩٩١م/ ٩٩ وما بعدها). وهى تستبعد أن يعمل شبيتا الألمانى لمصلحة الاستعمار البريطانى. ثم إنه، كما تقول، قد كتب كتابه بالألمانية التى لا يعرفها المصريون. لكنها لم تتطرق إلى نظرية داروين فى النشوء والارتقاء على عكس ما قاله الكاتب الناقل. ورغم ذلك فحتى لو ثبت أنه لم تكن هناك أصابع استعمارية تحرك شبيتا، فلا أظنه كان منطلقا من أفكار داروين عن التطور، إذ لم نسمع أن دارون قد تدخل بنفسه أو دعا غيره إلى التدخل لتسريع التطور فى أى نوع من الأنواع. وقد قلت آنفا إن شبيتا لو كان يرى أن مصير اللاتينية واختفاءها وحلول لغات أخرى متولدة عنها محلها هو أمر طبيعى حتمى لقد كان الأحرى به أن يترك العربية لنفس المصير تصل إليه وصولا طبيعيا دون تدخل يد من الخارج. وأما أنه كتب كتابه بالألمانية غير المعروفة فى مصر بما يترتب عليه من أن ما كتبه لن يؤثر فى المصريين ولن يؤتى ثماره المرة فإننا نتساءل: ولمن كتب كتابه إذن، وكل ما فيه موجه إلى المصريين والعقل المصرى ويخطط لمحو الفصحى وإحلال العامية محلها؟ ثم إن المستشرقين يعرف بعضهم لغات بعض، فهو يكتب بلغة بلده مثلما يكتب البريطانى بالإنجليزية، والفرنسى بالفرنسية، والإسبانى بالإسبانية، والإيطالى بالإيطالية، فيقرأ المستشرقون الآخرون ذلك ويفهمونه تمام الفهم، ويتفاعلون بل يتعاونون معه، ويضيفون إليه، وينشرونه فى أبحاثهم ومؤلفاتهم.

هذه واحدة، والثانية أن تتالى كتابة المستشرقين الموجودين فى مصر على اختلاف جنسياتهم فى هذا الموضوع ودعوتهم بنفس الدعوة دليل على أنه أمر بُيِّت بليل، وعلى أن كتابة شبيتا كتابه بالألمانية ليست عائقا أمام المستشرقين من غير الألمان كما وضحتُ. وعلى أية حال لقد ترجم كتابه إلى الإنجليزية. فما القول فى ذلك؟ والثالثة أنه لا شبيتا ولا غيره ممن نادى بذلك من الأجانب قد أشار إلى داروين ونظريته فى "النشوء والارتقاء". وأنا هنا أراد على دعوى اتكاء شبيتا على نظرية دارون فى حد ذاتها رغم أن بنت الشاطئ لم تتطرق، حسبما شرحت، إلى هذا الموضوع؟ ورابعا لا ينبغى أن ننسى زعم شبيتا بأن الفصحى تقف حائلا بين جماهير المصريين والتعلم، فهل هذه أيضا تنطلق من نظرية دارون؟ وخامسا فإن التطور الداروينى هو كلام خاص بالكائنات الحية لا الأفكار. وسادسا هل يعقل أن شبيتا كان يعمل من أجل مصلحة المصريين؟

ترى منذ متى ترمى الحدأة كتاكيت؟ ولو كان يعمل لصالح مصر فلماذا، بدلا من ذلك، لم يدع إلى استقلال مصر وتخليصها من الاستعمار البريطانى؟ وسابعا كيف يعمى هذا المستشرق عن الحقيقة التى تخزق عينيه وعينى كل من كان على شاكلته، وهى أن التراث العربى والإسلامى على مدى بضعة عشر قرنا كان كله مصوغا فى قالب الفصحى بينما لم يكن هناك شىء عامى؟ ثم هل يمكن أن نصدق جهله بما ترجمه الأوربيون فى بدايات عصر النهضة من كتب العرب والمسلمين فى الطب والفلك والرياضيات والجغرافيا والصيدلة والأحياء والنباتات والفلسفة وغير ذلك فى مختلف المجالات؟ كيف يا ترى يجهل واحد مثله تلك الحقيقة؟

ولقد ذكرت بنت الشاطئ فى الفصل الخاص بالمستشرقين من كتابها: "تراثنا بين ماض وحاضر" أن الغربيين قد استطاعوا بطرقهم ووسائلهم المختلفة إحراز مئات الألوف من مخطوطات تراثنا هذا واستعانوا به فى نهضتهم الحديثة. وشبيتا بكل تأكيد يعرف هذا لكنه يعمل رغم ذاك على الإطاحة بلغة القرآن خارج أسوار الحياة. تقول بنت الشاطئ إنه لم يكن مطلعا على الكتابات العربية الراقية بل على النصوص العربية الممسوخة بتأثير لغة الترك عليها، ومن ثم فله عذره فى تصوره أن الفصحى لا تصلح لتعليم المصريين. وهذا كلام من بنت الشاطئ غير مقبول، إذ ليس شبيتا، وهو مدير دار الكتب المصرية، بالذى يجهل التراث العربى والإسلامى على مدى القرون المتطاولة ويجهل أنه كان مصبوبا كله فى قالب الفصحى الراقية التى لم يمسها اللسان التركى على أى وضع. هذا ما لا يمكن أن يكون. ثم لقد تحررت العربية من التأثير اللغوى التركى منذ زمن، وكان رفاعة وتلامذته والشدياق وأحمد تيمور وأخته عائشة وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وكل شعراء العصر يستعملون الفصحى الصافية غير المَشُوبة بأى شَوْبٍ من اللسان التركى. بل لقد كان الشدياق يصدر صحيفة "الجوائب" العالمية من قلب الآستانة ذاتها بالعربية الفصحى الراقية، وينشر كتبه فى الأدب واللغة والسياسة من هناك.

وثامنا لو كانت العامية أقوى من الفصحى وسوف تحل محلها فلماذا يتدخل شبيتا أو غيره فى هذا الصراع بين المستويين اللغويين؟ ترى متى كان القوىّ بحاجة إلى من يتدخل لصالحه كى يصرع الضعيف؟ وتاسعا فإن العربية كانت قد انتصرت على التركية واستقلت عنها وظهر فيها شعراء يشار إليهم بالبنان، وترجمت إليها كتب العلم والقصص، وألف فيها رفاعة وغير رفاعة كالشدياق والبستانى واليازجى ويعقوب صروف وجرجى زيدان وغيرهم الكتب القيمة فى ميادين

علمية وأدبية دقيقة، فكيف يستدعى شبيتا أو بنت الشاطئ هذه النقطة تبريرا لدعوته تلك؟ وهبه لم يكن يعرف فعلا شيئا عن تاريخ العربية وكنوزها الفكرية والعلمية والأدبية فلم إذن أقدم على الحديث فى موضوع يجهله كل هذا الجهل؟ إن هذا لا يصنعه عاقل. أتراه كان مجنونا أو أحمق أخطل حتى يقتحم ميدانا يجهله ولا يعرف ماذا يقول فيه أو يدع؟

وعاشرا لم يا ترى لم يَدْعُ شبيتا بنفس الدعوة بالنسبة للغات الأوربية؟ سيقول إن هذه اللغات لا تحتاج إلى شيء من ذلك لأن شعوبها تعرفها جيدا وتفهمها جيدا. وهنا مربط الفرس. ذلك أن المسألة ليست مسألة عامية وفصحى بل مسألة تقدم ثقافى نتج عنه أن الجموع الأوربية تعلمت وتثقفت، ويوم تتعلم شعوبنا وتتخلص من الشعور بالهوان والانسحاق أمام الغرب وتعرف أن العلم هو أساس التقدم والتحضر والقوة والرفاهية والاستقلال الحقيقى فلسوف يتقدمون كما تقدمت الشعوب الأوربية. وحادى عشر لو كانت العامية هى طوق النجاة للمصريين فلم يا ترى فرض الإنجليز لغتهم وسيلة للتعليم فى مصر ولم يفرضوا العامية، ودعنا من الاستعمار الفرنسى فى الجزائر، الذى فرض الفرنسية فرضا على أهلها العرب والمسلمين وعمل بكل ما وسعه من جهد وتخطيط ومكر وعسف على محو اللغة العربية؟ الجواب هو أن رقبة اللغة العربية هى المرادة. وقد تحقق شيء من ذلك فى عهد الاحتلال البريطانى لبلادنا الحبيبة من خلال فرضه للغته زمنا على المصريين أداة للتعلم.

ومما ينبغى التعريج عليه فى هذا السياق الإشارة إلى ما تركته فى نفوس بعض المصريين آنذاك دعوة شبيتا ومن على شاكلته من الغربيين ممن نادَوْا بمخاصمة الفصحى لحساب العامية، وإهمال الحروف العربية لصالح الحروف اللاتينية، فقد ظهر مثلا ضمن من ظهروا سلامة موسى وأعلن خصومته للفصحى رغم أنه كان يكتب بها كتابة صحيحة إلى حد بعيد، ويتضح ذلك بوجه خاص فى كتابه: "اللغة العربية والبلاغة العصرية". وهو فى واقع الأمر لا يخاصم الفصحى فقط، التى يسميها: "لغة القرآن"، وهى تسمية لها دلالتها حين يستعملها مثله، بل يخاصم الحضارة العربية الإسلامية كلها حتى إنه ليستغرب كيف أن مؤلفينا يكتبون عن على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان وخالد بن الوليد وحسان بن ثابت ولا يكتبون بدلا من ذلك عن هنرى فورد وأمثاله من الغربيين وأساليب الحياة فى بلادهم. وقد عزا كل ما نحن فيه من تخلف فى هذه المرحلة من تاريخنا نحن العرب والمسلمين إلى اللغة مرددا كلاما متهوسا لا منطق فيه بل بغض وتعصب غليظ. وعلى

الجانب الآخر ظهر عبد العزيز فهمى وشن حملة شعواء حمقاء على الحروف العربية داعيا إلى استبدال الحروف اللاتينية بها. وهو فى هذه الدعوة يذكرنا بامرأة جميلة ذات شعر حريرى ظل بعض النساء من ذوات الشعر الليفى القبيح يزيِّنَّ لها أن تحلق شعرها وتلبس بدلا منه شعرا مستعارا خشنا لا حلاوة فيه، فصدقت ونفذت ما قيل لها بحجة أن هذه هى تقليعة الوقت، ففقدت بهذا العبث فى شعرها سحرها وفتنتها، وهى تظن حمقا منها وبلاهة أنها بمسايرتها للبدعة السائدة قد ازددات فتنة على فتنة، وسحرا إلى سحرها الأصلى.

٢- ديفيد صمويل مرجليوث

ديفيد صمويل مرجليوث David Samuel Margoliouth (١٨٥٨- ١٩٤٠م) مستشرق بريطانى معروف عمل قسا فى كنيسة إنجلترا لبعض الوقت، واشتغل أستاذا للغة العربية فى جامعة أكسفورد من ١٨٨٩م إلى ١٩٣٧م. وهو يهودى الأصل، ومتعصب أشد التعصب على الإسلام. وقد بدأ حياته العلمية بدراسة اليونانية واللاتينية، ثم اهتم بدراسة اللغات السامية وتعلم العربية. وكان أبوه وخاله قد تحولا من اليهودية إلى الأنجليكانية. ومن مؤلفاته "التطورات المبكرة فى الإسلام"، و"محمد وظهور الإسلام"، و"المحمدية"، و"العلاقات بين اليهود والعرب قبل الإسلام" و"أصول الشعر العربى". كما نشر كتاب "معجم الأدباء" لياقوت الحموي، ورسائل أبى العلاء المعري، و"نشوار المحاضرة" للتنوخى... وشارك فى تحرير "دائرة المعارف الإسلامية"، وكان عضوا فى الجمعية الآسيوية الملكية من ١٩٠٥م فصاعداً، وصار رئيسها بين ١٩٣٤-١٩٣٧م. وانتخب عضوًا فى المجمع العربى العلمى بدمشق والمجمع اللغوى البريطاني والجمعية الشرقية الألمانية وغيرها .

وكان مرجليوث، كما قلنا، من أشد المستشرقين بغضا للإسلام وكتابه ونبيه. ومن يرغب فى أن يأخذ فكرة عن هذا البغض القتال فليرجع إلى كتابه: " Mohammed and the Rise of Islam"، الذى يأخذ فيها دائمًا جانب وثنيى مكة حتى فى تعذيبهم للمسلمين الأوائل، وينحاز دائمًا لليهود، الذين تآمروا على قتل النبى عليه السلام رغم مده يده لهم بالحسنى وإقامته نظاما سياسيا يكفل لهم حريتهم ويضعهم على قدم المساواة مع المسلمين ويلزم كل طرف من أهل المدينة بمعاونة الأطراف الأخرى وقت الخطر، والذين أرادوا أن يدمروا الإسلام تدميرا نهائيا، وحمل عليهم مرجليوث حملة شعواء لأنهم لم يحكموا أمرهم جيدا ويتعاونوا على القضاء عليه وعلى دينه.

ولقد وصف هذا المستشرق الوغد النبى صلى الله عليه وسلم بأنه "a robber chief: شيخ منسر" لا لشىء إلا لأنه كان يرد على العدوان الوثنى بمثله ولا يتلقى الضربة ثم يسكت. وهو لو فعل كما يريد مرجليوث وأشباهه لانتهى الإسلام من فوره وصار فى خبر "كان"، وهذا ما يتمناه ذلك الحقود الذى يغلى مرجل الغيظ فى قلبه فيحرمه السكينة والسلام. ولم يحدث مرة أن بادأ الرسولُ عليه السلام أحدًا بعدوان. ثم هل يصح أن يقال عن النبى عليه السلام إنه "شيخ منسر"، وهو الذى جاء بالتوحيد الراقى بدل الوثنية المنحطة التى تغزَّل فى جمالها مرجليوث تغزلا

عجيبا يجعلنا نتساءل: إذا كان الأمر كذلك وكانت الوثنية بهذا الجمال فلم كان الاستعمار الغربى يصر على نشر النصرانية فى البلاد الإفريقية والأسترالية الوثنية التى يستعمرها لا يترك وسيلة تؤدى إلى تلك الغاية دون أن يستخدمها، ولم يترك أهاليها على ما هم يتمرغون فيه من سعادة وانشراح؟ وكان الرسول عليه السلام يتلو على قومه ما ينزل عليه من وحى كريم أو يحدثهم بحديثه الشريف مخاطبا عقولهم ومثيرا تفكيرهم ولافتا إياهم إلى وجوب النظر فى الكون ومظاهره ونظامه وقوانينه، والتأمل فى أنفسهم وأوضاعهم وفى التاريخ الماضى وفى الحاضر الحالى، ومطلقا طاقاتهم وباعثا حيويتهم، وداعيا إياهم إلى كل راق من الأخلاق وكل طاهر من السلوك، وموجبا العمل والإتقان على أتباعه، وحاثا لهم على طلب العلم وجاعلا إياه فريضة من الفرائض وليس فقط حقا من حقوقهم يمكنهم أن يتنازلوا عنه إذا شاؤوا بل واجبا دينيا يحاسَبون أشد المحاسبة إذا ما قصَّروا فيه، وحاضًّا لهم على النظافة والنظام، وباثًّا فيهم معانى العزة والكرامة، ورافعا من شأن المرأة رفعة كبيرة... إلخ، ونجح نجاحا باهرا فى أن ينقل العرب من حال إلى حال، ففتحوا البلاد ونشروا هذه القيم والمعانى فى كل مكان وصلوا إليه. أيصح أن يفضل أحدٌ الوثنيةَ على التوحيد، والهمجيةَ على التحضر، الذى دعا إليه محمد حتى لو افترضنا المستحيل وقلنا إن محمدا كان نبيا زائفا، أستغفر الله؟

وكان مرجليوث يرى أننا لا ينبغى أن نعير أقواله عليه السلام كبير ثقة. ويتساءل المرء: لماذا، وقد كان رسول الله مثال الإنسان الكامل تواضعا وصدقا وكرما ولين جانب ودماثة خلق ورُقِيَّ تصرف وطولَ بال وصبرٍ ومعرفةً بجوانب الضعف البشرى ومراعاةً له وتسامحًا ودعوةً إلى الرقى والتحضر فى كل مجالات الحياة حتى صار العرب أسياد العالم فى الثقافة والسياسة فى وقت مثالى فى القِصَر وفى السهولة العظيمة التى فتحوا بها أبواب العالم فى وجه الدين الذى أتاهم به رسول الله؟ هذا من ناحية ما جاء به محمد ودعا إليه، فإذا انتقلنا إلى ما أعلن أنه سوف يقع ثم وقع فعلا فكيف يقول المستشرق البريطانى الحقود إننا ينبغى ألا نعير أقوال محمد كبير ثقة؟ ومن ذلك تأكيد القرآن منذ وقت مبكر من الفترة المكية أن الإسلام سوف ينتصر على الدين كله، وأن الروم سوف يهزمون فى بضع سنين الفرس، الذين كانوا قد انتصروا عليهم لتوهم، وأن المسلمين سوف يفتحون مكة. ومنه أيضا تبشير الرسول أتباعه بأنهم سيغنمون القسطنطينية من أيدى البيزنطيين، وأن دينه سيبلغ من أرجاء الأرض ما بلغ الليل والنهار، ثم وقع الأمر كما قال وتنبأ فعلا وصدقا وحقا مع أن إمكانات الإسلام المادية والبشرية والعسكرية كانت شديدة الضآلة ولا قيمة لها. فانظر

أيها القارئ إلى مدى فعل الحقد فى نفوس بعض البشر، إذ يمنعهم من رؤية الشمس فى رائعة النهار.

وتبقى أخلاقه صلى الله عليه وسلم، وما من مرة وعد إلا أوفى. كتبت الصحيفة بين طوائف سكان المدنية، فظل يحترمها ويحافظ على بنودها ويحرص على ألا يخرج عليها أى خروج، لكن اليهود شرعوا يخرجون عليها قبيلة منهم إثر قبيلة ويحيكون المؤامرات، ويختلقون المشاكل، ويدبرون لقتله صلى الله عليه وسلم ويعتدون على سيدة مسلمة أَمَّتْ سوقهم فكشفوا سوأتها وهتكوا سترها وأساؤوا إلى سمعتها وعرضها، وانحازوا كما ينحاز مرجليوث، إلى الوثنية والوثنيين والشرك والمشركين رغم ما نسمعه من الدارسين الغربيين كذبا وزورا وبهتانا من أن اليهود هم حفظة التوحيد فى العالم مع أن العهد القديم يقول على لسان ربهم وأنبيائهم فى انحرافهم عن التوحيد وميلهم المغروس فى طباعهم اللئيمة إلى الأوثان ما قال مالك فى الخمر، ووضعوا أيديهم فى أيدى المكيين متعاهدين على ضرب الإسلام ونبيه وأتباعه ضربة تقضى عليه وعليهم. وبلغ الأمر ذروته فى حرب الأحزاب، ولولا أن الله ستر لكان الإسلام الآن فى خبر "كان". ولقد سأل المشركون أسلاف مستشرقنا اليهودى الأصل: أى الدينين خير وأقوم قيلا؟ فكان جواب الكذابين الأفاكين: بل دينكم خير وأفضل من دين محمد.

وبالمثل نجد الرسول عليه السلام فى صلح الحديبية الذى انعقد قريبا من مكة فى العام السادس من الهجرة، وقد انتهى هو وأهل مكة لتوهم من إقرار ذلك الصلح، فأتاه مكى مسلم مضطهَد يرسف فى القيود هاربا من محبسه بمكة يستغيث به عليه السلام أن ينقذه من القيود والهوان والتضييق والأذى الذى يتعرض له ليل نهار، فكان رده عليه السلام أنه لا يستطيع له شيئا لأن شروط الصلح تمنعه من قبوله بين أتباعه هو وأمثاله من الفارين من مكة. وكان من بين يهود فى المدينة مَنْ حذرهم من الغدر بمحمد والانحياز إلى المشركين ضده فى غزوة الأحزاب وأعلن أن لن ينضم إليهم فى حربهم له لأنه لم تصدر عنه خيانة ولا غدر بل كان مثالا للصدق والأمانة ومراعاة الاتفاقات. وهناك ما قاله أبو سفيان لقيصر حين استدعاه، وكان وقتها فى الشام فى قافلة تجارية، وسأله عن الرسول ومدى صدقه وأمانته واحترامه لكلمته، إذ لم يستطع أبو سفيان باعترافه هو نفسه، أن يقول شيئا معيبا فى حق النبى، فكان كل ما قدر عليه أن المكيين لا يدرون ماذا سيصنع بالمعاهدة التى وقعوها معه فى الحديبية. أى أنه لم يستطع أن يتهم النبى بشىء

لكنه لم يقدر على قول الحق دون أن يسرب كلمة يتصور أنها قد تمس النبى ولو مسا رقيقا بعدما عجز عن أن يغمزه بشىء حقيقى. فهذا كل ما استطاع أبو سفيان لمزا للإسلام ورسول الإسلام فى ذلك الوقت. وأبو سفيان هو هو من دخل الإسلام ومعه كل أهل مكة بعد قليل حين رأوا أن محمدا موفقٌ مُعَانٌ لا يمكن هزيمته وتبين لهم أنهم فى حربهم لمحمد إنما يحاربون الحق والصدق والاستقامة والنظافة، ويقفون فى وجه القدر ذاته.

فكيف يصف مرجليوث محمدا عليه السلام، وهو الصدق والنبل والشرف واحترام العهد بعينه، بأننا لا ينبغى أن نعير أقواله أية ثقة؟ الواقع أن من لا ينبغى أن نعير أقواله أى قدر من التصديق هو مرجليوث نفسه وأهله، الذين دخلوا النصرانية لكن اليهودية لاصقة بأعماقهم وأعماقه حتى إنه ليأخذ جانب اليهود ضد التوحيد الإسلامى الكريم ويفضل الوثنية كأسلافه من سكان المدينة اليهود على الإسلام، ويكتب عن العلاقات بين اليهود والعرب خصوصا دون سائر الموضوعات، ويشغله حقده على محمد فيشنع عليه وعلى دينه فى كل سانحة، ويعيد ويبدئ فى الكتابة عنه ليجد فرصة لنفث حقده عليه.

على أن حقد مرجليوث على الإسلام ونبيه لا يتوقف هنا، إذ قال عن أبى عامر الراهب، هذا اليثربى العميل للروم، إنه كان لديه قبل هجرة الرسول إلى المدينة ميل إلى الإصلاح الدينى، بيد أن القليل الذى خبره من محمد بعد هجرته إليها قد أقنعه بأفضلية الوثنية. والواقع أن الجزء الأخير من كلام مرجليوث كفيل بتنفيرنا منه ومن أبى عامر الفاسق كما كان المسلمون يلقبونه بحق وصدق. ذلك أنه لا يمكن أن يفضل الوثنية على الإسلام إلا منحط زنيم. ولكى نعرف أبعاد كلام مرجليوث اليهودى المستخفى فى رداء النصرانية وما فيه من تلفيق وكذب فلنقرأ السطور التالية عن أبى عامر هذا: لقد كان معروفًا بـ"أبي عامر الراهب"، وكان يدعى أنه على دين الحنيفية، ولَبِس المُسُوح، وكان رأس الأوس في الجاهلية.

وتبدأ قصته بالنسبة لنا من وقت دخول النبى صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة، إذ ذهب إليه أبو عامر يسأله: ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال صلى الله عليه وسلم: جئت بالحنيفية دين إبراهيم. قال أبو عامر: فأنا عليها. فقال: إنك لست عليها. قال أبو عامر: بلى عليها. إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها. فقال صلى الله عليه وسلم: ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية. قال أبو عامر: الكاذب أماته الله طريدًا وحيدا غريبا. قال صلى الله عليه وسلم:

أجل، مَنْ كَذَبَ فَعَلَ اللهُ تعالى به ذلك. ولم يستطع أبو عامر أن يمكث في المدينة بعد أن فشا فيها الإسلام ودانت القيادة فيها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المدينة مهاجرا إلى مكة حيث الأصنام والأوثان والشرك بالله تعالى، واشترك فى تحزيب الأحزاب على رسول الله، فلما ردهم الله بغيظهم ظل أبو عامر بمكة مظهرًا لعداوته إلى أن جاء الفتح الإسلامي لمكة المكرمة في السنة الثامنة للهجرة، ففر من مكة إلى الطائف، ثم لما أسلمت الطائف في سنة تسع من الهجرة خرج هاربًا إلى الشام يريد قيصر الروم مستنصرًا به على رسول الله، وعاش هناك حتى مات طريدًا وحيداً غريبًا، وحقت عليه لعنة الله التى دعا بها هو نفسه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وقت الهجرة بنى مسجدًا في بني عمرو بن عوف، وهو مسجد قباء، وتشرف القوم بذلك، فحسدهم حينئذ رجال من بني عمهم، وكان فيهم نفاق، وكان أبو عامر منهم، وكانت أمه من الروم، فذهب إلى هرقل ليستعين به على قتال المسلمين، ومن الشام كتب إلى قومه المنافقين منهم أن ابنوا مسجدًا فى حيكم مضادا لمسجد قباء، فإني سآتي بجيش من الروم أخرج به محمدًا وأصحابه من المدينة، فَبَنَوْه أملا فى أن يأتى أبو عامر ويتخذه متعبَّدًا ويُسَرّ به. وأثناء عودة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أراد المنافقون أن يصلي رسول الله فى ذلك المسجد إقرارا له، لكن الله أخبره بما ينتوونه، فأرسل مِنْ صحابته مَنْ هدمه.

هذا هو أبو عامر الفاسق، الذى زعم مستشرقنا الكذاب أن القليل الذى بلاه من رسول الله جعله يكره دينه ويفضل الوثنية. فما الذى يا ترى خَبَرَه هذا الفاسق من الرسول أول مَقْدَمه عليه السلام المدينة؟ لقد عالَنَه الفاسقُ بالكفر، لكنه عليه السلام تركه على هواه ولم يتعرض له بأدنى سوء لا بالكلام ولا بالفعل. ولو كان الفاسق صادقا فى التمسك بالحنيفية ما آثر الوثنية على التوحيد بأى حال. كما أنه دعا على أيهما كان كاذبا، هو أو رسول الله، أن يميته الله غريبا طريدا، فحقت عليه الدعوة وأماته الله ذليلا فى الغربة ورَفَعَ راية محمد خفاقة عالية ونصره ونصر دينه نصرا مؤزرا كما وعده فى آيات قرآنية كثيرة. والحق أن مرجليوث هو الصورة البريطانية من أبى عامر الفاسق بكراهيته للطهارة والنور والنبل والشرف، وقد أماته الله والحقد يهرى قلبه وديدان الغيظ ترعى فيه وتأكله أكلا. ومن عجب أن يكون هذا المبغض لرسول الله وللإسلام عضوا فى بعض المجامع اللغوية العربية. أرأيتم خيبة كهذه الخيبة؟

ومن أعاجيب هذا المستشرق كذلك دعواه المضحكة أن كلمة "مسلم" معناها فى الأصل "الخائن". ترى أَنَّى لهذا الجهول الكذاب هذا الكلام؟ أولا: لا وجود لهذا المعنى فى المعاجم. ثانيا: أين ذلك فى النصوص الشعرية أو النثرية فى الجاهلية أو بعد الإسلام؟ ثالثا: إن هذه المادة بالعكس مما قاله تدل على السلام والسلم والسلامة والتسليم، وكلمة "مسلم" تدل على إسلام النفس لله. فأين الخيانة هنا؟ رابعا: لو كان كلام المستشرق الجاهل صحيحا لكانت فرصة للمشركين واليهود والنصارى كى يسخروا منه عليه السلام ومن دينه ولاتخذوا المسلمين هزوا ولعبا وسخرية واحتقارا كلما مر بهم أحد منهم فيطاردونه فى الشوارع منادين له بـ"يا مسلم. يا مسلم" ويضحكون ويصيحون. خامسا: لو كانت الكلمة تعنى شيئا من هذا الذى يقوله المستشرق لما اقترب الرسول منها ولا فكر فى إطلاقها على أتباعه. وقد كان صلى الله عليه وسلم كلما رأى اسما مسيئا لصاحبه نزعه عنه وأعطاه عوضا عنه اسما جميلا. بل لقد غير اسم "يثرب" ذاتها إلى المدينة" لأن اسمها القديم به إيحاءات غير طيبة. الواقع أن مرجليوث غليظُ جلدِ الوجه لا يعرف معنى الحياء. ومن الواضح أن يهوديته لا تتركه يهدأ دون أن يتهجم على الإسلام فى كل مناسبة وفى كل غير مناسبة.

ولا تقف سخافاته وتنطعاته عند هذا بل يقول إن الرسول كانت تعتريه النوبات العصبية كثيرا. يقصد أن الوحى ما هو إلا نوبات عصبية لا نصوص تنزل من السماء. ولكن هل حدث أن أنشأ مصابٌ بتلك النوبات دينا عظيما حضاريا كالذى أنشأه محمد؟ إن المرضى بتلك النوبات مكانهم هو عيادات الأطباء للعلاج، أما التمحض لدعوة الأفراد والجماعات إلى دين جديد قوامه المبادئ الراقية الكريمة المتحضرة، والتعرض لأذى الناس ومؤمراتهم، والصبر على كل ذلك دون فتور أو إحباط، والمضى فى إيصال الرسالة حتى النهاية فهذا لا يقع فى طوق المرضى من هذا النوع. كما أن أصحاب النوبات العصبية، حين تأتيهم النوبة، يسقطون من طولهم على الفور، ويخرج الزبد من بين شفاههم، وكثيرا ما يعضون ألسنتهم أثناءها، وقد يقطعونها وهم لا يدرون، ويسارع من حولهم فى التو واللحظة إلى حمايتهم من أنفسهم، وعندما يستيقظون تكون أذهانهم مشوشة ولا يتذكرون شيئا مما مر بهم خلالها. ولا شيء من هذا كله يصدق على حالة النبى عليه السلام، فلم يحدث أن سقط من طوله ولا خرج الزبد من فمه ولا عض لسانه ولا صرخ ولا تشنج، ومن ثم لم يكن أحد ممن حوله يهب لمساعدته، وحين يفيق من غاشية الوحى كان يتلو على الفور آيات قرآنية مجيدة كلها بلاغة وروعة أسلوب ورقّ مضمون وحكمة عميقة ردا على سؤال سُئِلَه فورا أو

موقف واجهه أو واجه أحدا من أتباعه. كما أن أعراض النوبة العصبية لا تتسق أبدا مع عوارض الوحى. وقد اتهمه المشركون بأنه كاهن وبأنه شاعر وبأنه كذاب، وهذه التهم لا صلة بينها وبين النُّوَب العصبية. وهذا يدل على أنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يقولون أو يصنعون. إنما هى اتهامات كاذبة يرددونها كراهية منهم للدعوة الكريمة التى أتاهم بها. ثم لا ننس أن العرب قد دخلوا جميعهم بعد ذلك فى الإسلام مكذبين بذلك كل ما كانوا يتهمونه به زورا وبهتانا.

واستمرارا من مرجليوث فى نفوره وتنفيره من الإسلام نراه يزعم أن النبى عليه السلام قد عاشر بعض النصارى واستفاد منهم كثيرا مما فى القرآن من قصص. ولكن لو أن هذا هو الواقع فلماذا لم ينبر أحد من أولئك النصارى فيفضحه بأنه هو الذى علمه ما فى القرآن من قصص حتى يضع حدا لهجومه المستمر على دينه فى القرآن؟ ثم إن قصص القرآن تختلف فى حالات كثيرة عن قصص الكتاب المقدس من حيث إنها تخلو من التجديف فى حق الله والتجرؤ على رسله ونسبة الجرائم المنحطة والأخلاق الخسيسة إليهم، وتهاجم كثيرا من عقائد اليهود والنصارى. كذلك لو كان النبى هو مؤلف القرآن لما أورد فى القرآن شيئا من معجزات الأنبياء السابقين حتى لا يتعنت عليه بها قومه ويطالبوه بأن يأتيهم بمثلها. لقد كان يمكنه الصمت عن هذا الموضوع، فإذا ما طالبه أحد. بمعجزة استنادا إلى معجزات السابقين من النبيين والمرسلين تحداهم بأعصاب مستريحة أن يثبتوا أنه كانت هناك معجزات أصلا، وهو ما لا يستطيعون إثباته لأن المعجزات قد راحت مع الماضى، وما راح مع الماضى لا يمكنه أن يعود. ثم لقد دخل فى دين الله فى عصره كثير من النصارى واليهود، وتلاهم مئات الملايين بعد ذلك، ومنهم ساسة ورجال دين وعلماء وأدباء وفنانون ومشاهير وإعلاميون ورياضيون، وكثير جدا منهم من الدول الغربية المتقدمة. فهل كانوا ليفعلوا ذلك لو رأوا أنه من الممكن أن يكون بعض النصارى قد علموه؟

لقد كان مرجليوث ملتويا خبيثا، والكلمة التالية التى كتبها الشيخ عبد العزيز جاويش عن الكتاب الذى نحن بإزائه الآن تدل على ذلك أقوى دلالة. قال الشيخ جاويش: "ظهر هذا الكتابُ من نحوِ سبعةِ أعوامٍ، ونفُوسُ الإنجليز والأمريكيين تَرقُبُه لِمَا لذلك الرجل عندهم من المكانةِ العِلميَّةِ الرفيعة، ولا سيَّما وهو مشغوفٌ بدعوى أنه محيطٌ بأكثرِ لغاتِ العالم، فتراه يَدَّعَى العِلمَ بالإسبانية والفرنسيةِ والإيطالية والألمانية والعربية والفارسية والعِبْرانية. وقد كُنتُ إبَّانَ ظُهورِ الكِتابِ فى مدينة أكسفورد حيث المؤلّف، ولَمَّا ذكرتُ له رغبتى فى شراءِ كتابه وَعَد أن يُقدِّمَ لى منه نُسْخةً، ثم

جَعَل يتباطأ تارةً، ويتناسى أخرى، حتى مَلِلْتُ وُعودَه، وظَننتُ أنه لا بد لهذا الكِتابِ مِن سرٍّ يُرِيدُ إخفاءَه عنى، ولا سيَّما والمؤلفُ يعلمُ أنتى ضعيفُ الثقةِ بكثير من المستشرقين، سيئُ الظنِّ بهم. وقد كنتُ فى الواقع كذلك ولكنْ بعد أن خَبَرتُهم، وسَبَرْتُ غَوْرَ معلوماتِهم، وتَتَبَّعتُ مَبلغَ كفاءتَهم. ولولا أننى وَجدتُ مِن بينهم أفذاذًا قليلينَ جدًّا لَمَا اطمأنَّت نفسى إلى أحدٍ منهم. فلما حَصلتُ على الكِتابِ وتصفَّحتُه ثم درستُه بابًا بابًا وكلمةً كلمةً حتى جِئتُ على آخِرِه وجدتُه عند ظنِّى به: وجدتُه حارَبَ التاريخ كما حارَبَ الإنصافَ، وحَمَل على الرسولِ صلى الله عليه وسلم حَملاتٍ منكرةً. ويَظهرُ أن المؤلِّفَ توقَّع ألا يَقَعَ كتابُه إلّا فى أيدى البُلْهِ، ولا يَطَّلع عليه إلّا الأغرارُ، فلم يُبالِ أنْ جاء فيه بمُحدَثاتٍ لو أنه تَدبَّر لَمَا اجترأَ على الإقدام عليها".

ومضى جاويش فى حديثه عن مرجليوث وغرامه بالحذلقة الجاهلة: "لا أريدُ أن أذكرَ هنا رأيى فى هذا المستشرق الشهيرِ اكتفاءً بحادثةٍ وقعت لنا فى جامعة أكسفورد. ذلك أننى كنتُ مدعوًّا معه فى بعض المنازل، فلمَّا كنَّا على المائدة سألنى بعضُ الحاضرين: هل سَبَق لى أكلُ لحم الجَزُور؟ فأجبته أننى لا أذكرُ ذلك، وربما اتفق لى هذا وأنا صغير. فلمَّا سمع الأستاذ مرجليوث هذا الكلام قال: كيف ذلك، وعلى كلِّ مسلم فَرضٌ أن يأكلَ لَحمَ الجِمالِ ولو مرةً واحدةً فى حياته لأنه من قواعدِ الإسلام؟ عند ذلك أجبتُه وأنا دَهِشٌ مما قال: يا سيدى، إنَنى أَعرِفُ أن قواعدَ الإسلام خمس، أمَّا هذا السادسُ فلا أعرفُه. بَيْدَ أنى أَستميحُ الأستاذَ عَفْوًا أن يذكرَ لى مأخذَ هذا الحُكم! فقال إنه وَرَد فى "صحيح البخارى" أنه قد جاء أحدُ اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: إنى جئت أشهدُ ألا إلهَ إلّا الله وأنك رسول الله. فأجلَسَه الرسولُ صلى الله عليه وسلم وأَمَر له بلَحْم جَزورٍ". ومِن هنا استنبط مِسْتر مرجليوث أنه يجب على كلِّ مسلم أن يأكلَ لَحم الجَزور وأنَّ هذا من العوائدِ الإسلامية التى يَنهدم الدين بانهدامها. فلمَّا فَرَغ قلت له: إنْ صَحَّ وجود هذا الحديثِ فى "البخارى" فالذى يَفهمُه المسلم الذى يَفقَه اللغةَ العربيةَ منه أحد أمرين: فإمَّا أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أراد يُقدِّم لذلك اليهودى شيئًا من الطعام لأنه ضَيفُه فى بيته، وإمَّا أنه أراد أن يمتحنَ إيمانَ اليهودى بإطعامه شيئًا ممَّا حَرَّمه اللهُ على بنى إسرائيلَ فى التوارة من أجزاءِ اللحم. ثم تَلَوْتُ الأدلةَ المفيدةَ لذلك، فبُهِت الأستاذ، ولكنْ لم تَجْسر قُوَّةُ المكابَرة وشِدَّة العنادِ التى فُطِر عليها الأوربيون، ولا سيَّما المستشرقون منهم، على أن تحوله عن رأيه. وبمثل كلام هذا الأستاذِ يقتدى واضِعو الكتبِ التاريخيةِ القانونية".

فانظر بالله عليك طريقة هذا المستشرق المتحذلقة التى تنبئ عن عقل طفولى فى البحث والاستنتاج. وأنا أميل إلى الاحتمال الأول الذى ذكره جاويش، ومعنى العبارة أنه كان هناك لحم جزور متاح، وكان الوقت وقت طعام، فأمر الرسول به لذلك المسلم الجديد. وسر استبعادى الاحتمال الثانى أن النبى لم يكن من طبيعته إحراج أحد، ولم نسمع أنه عليه لسلام قد لجأ إلى مثل ذلك الإجراء مع أى أحد أتاه يعلن إسلامه.

ومن سخافات مرجليوث أيضا ادعاؤه الضال المتهافت أن النبى والذين آمنوا به كانوا يكونون جماعةً سِرِّيَّةً على نحوِ ما يفعل الماسون، وأن هذا الجَمْعَ السِّرِّى قد اتَّخذ له بِضْعَة رُموزٍ منها قولهم: "السلام عليكم". ووجه الرقاعة فى هذا الادعاء أنه لو كان الرسول قد شكل جماعة سرية على الطراز الماسونى لما أعلن دعوته بتاتا على الملإ ولظل أمرها سرا لا يعلم به إلا من دخل فيها وآمن بها، ولما جعل رموزها علنية كـ"السلام عليكم"، التى تقال على رؤوس الأشهاد وعلى أسماعهم. فالماسون، حسبما قرأنا، كانوا مثلا حين يسلمون على أ حد بأيديهم يضغطون ضغطة معينة من كُلْيَة راحة الكف، فإن كان الطرف الآخر ماسونيا هو أيضا رد على الضغطة بضغطة مثلها وعرف كل من الطرفين أن الآخر زميل له فى الماسونية واطمأن إليه وتم بينهما التفاهم والتعاون، وإن لم يكن ماسونيا مر الأمر بسلام فلم يشعر أنه بإزاء ماسونى، وظل أمر الماسونية سرا خفيا.

ولقد نزل الوحى مبكرا بأن يصدع الرسول بما يؤمر به. بل كان بعض المسلمين يتعرض تعرضا للمشركين فيقرأ القرآن عليهم وهم مجتمعون حول الكعبة مع علمه بأنه سوف يؤذَى أذى عنيفا. وقد كان الرسول يغادى الكفار ويماسيهم بتلاوة القرآن ولا يخافت به ولا يجمجم بل يقرؤه بقوةٍ وتحدٍّ. فهل هذا فِعْل الماسون؟ ولقد تحدى القرآن الدنيا كلها بأن الإسلام سوف ينتصر على جميع الأعداء وجميع الأديان، وسوف ينساح بطول العالم وعرضه، وقد كان. ولو كان الرسول يتبع منهج الماسون ما برز لأعدائه على هذا النحو ولظل يعمل فى الظلام صُنْع الماسون حتى اليوم. ثم قامت دولة الإسلام وظل المسلمون وظللنا نحن حتى الآن نقول: السلام عليكم. وكان ينبغى أن يكف المسلمون عن ترديدها بعدما أدت دورها وانتهت الحاجة إليها. ثم ما علاقة الماسون وأشباه الماسون بالإيمان بالله وتوحيده والاعتقاد فى الجنة والنار والدعوة إلى الخيرات ابتغاء وجه الله سبحانه؟

كذلك وقف مرجليوث عند موضوع المعجزات فأنكر أن يكون محمد عليه السلام قد أتى بأية معجزة بما فى ذلك القرآن. فأما القرآن فقد تحدى الكفارَ أن يأتوا ولو بسورة من مثله فلم يفعلوا رغم الصراع الطويل بينهم وبين النبى عليه السلام، وكل ما استطاعوا أن يردوا به على ذلك التحدى هو قولهم: "لو نشاء لقلنا مثل هذا. إنْ هذا إلا أساطير الأولين"، ثم لم يقولوا ولم يشاؤوا. كذلك يحمل القرآن طابعا إلهيا واضحا، ويتنبأ بالمستقبل تنبؤات كلها صحيحة، كما أن أسلوبه يختلف تمام الاختلاف عن أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم رغم اتفاق الموضوعات والسياقات والظروف والجمهور والتاريخ حسبما حللت الأمر فى كتابى الكبير: "القرآن والحديث- دراسة أسلوبية". وأما المعجزات المادية فإن القرآن كلما طلب المشركون شيئا منها أمره عليه السلام أن يرد عليهم بقوله: "سبحان ربى! هل كنت إلا بشرا رسولا؟"، "إنما الآيات عند الله". وهو كلام لا يقوله كذاب أبدا.

ومع هذا تخبرنا بعض الأحاديث أن هناك آيات تمت على يد النبى عليه السلام. ورغم أن كاتب هذه السطور لا يقف كثيرا عند المعجزات بل يركز اهتمامه على الجوانب الحضارية التقدمية فى الإسلام فإنى لا أستبعد أن تكون قد وقعت على يده عليه السلام تلك المعجزات التى أوردتها كتب الحديث، ولا أرى تناقضا بينها وبين ردوده صلى الله عليه وسلم على الكفار. ذلك أن المعجزات المذكورة هى معجزات فيما بينه عليه السلام وبين أتباعه وليست استجابة لاقتراحات المشركين كى يسلموا بناء على ما قالوا، إذ أكد القرآن أن المعجزات لن تفلح فى ليهم عن كفرهم بل ستزيدهم عنادا وطغيانا، بل لم يطلبها ولا حتى المسلمون أنفسهم، وفعلها النبى من تلقاء نفسه بقدرة ربه وإذنه بطبيعة الحال. فلا تناقض إذن بين الأمرين. ومرة أخرى أنا لا أعول على المعجزات كثيرا بل على القيم الحضارية النبيلة الباهرة التى تضمنها القرآن وفتحت له الطريق نحو الانتصار على كل العقبات والمعوقات والأعداء الحاشدين وتأسيس حضارة عظيمة امتدت قرونا، وقدرته حتى الآن على إلهام أتباعه لو أرادوا بإعادة الكرة والانتقال من التخلف والضعف الذى هم فيه إلى مقعد القيادة فى قاطرة البشرية.

ورغم هجوم مرجليوث على دين التوحيد وتغزله فى جمال الوثنية وتفضيله إياها عليه فى كتابه عن الرسول وظهور الإسلام فقد سبق أن تكلم عن "مستقبل الإسلام" عام ١٩٠٤م فى أحد المجامع العلمية، فأورد قولَ برايس إن الإسلام لم يَبْقَ من عُمرِه إلّا قَرنان، وذكر ما قاله أحدُ

المبشِّرين مِن أن الإسلام لا يَلبثُ أن يَذوبَ ذَوَبانَ الثلْج بين يَدَى العلو والتمدُّنِ والنصرانية، ونَقَل رأْى الدكتور بروين، الذى أكد أن "الإسلام يذهبُ بذَهابِ الدولةِ العثمانية"، وأنه لن يَبقَى بعدَ احتكاكِه بالتمدُّنِ الحديث، بل يموتُ لا محالةَ، وساق ما كتبه أحدُ كُتَّاب التغريب من أنَّ الانحطاطَ الذى يَعيشُه المسلمون فى هذه الفترة يَرجع إلى أسبابٍ متَّصلةٍ بالإسلام نفسه لأنه لا يوافقُ رُوحَ التمدُّنِ، ورغم ذلك كله فإن مرجليوث لم يوافق على معظم هذا الكلام ورأى أن الإسلام يمكنه التواؤم مع المدنية والعلم الحديث وأن مستقبله لا يعلمه سوى الله. ويجد القارئ تلخيصا لهذا البحث فى عدد نوفمبر ١٩٠٤م من مجلة "الهلال" ص ٩٠- ٩٤. فكيف يقول مرجليوث هذا فى البحث المذكور ثم بعد ذلك بسنة يعيب الإسلام بكل وسيلة ويدعى عليه الدعاوى الجاهلة الحاقدة فى كتابه عن "محمد وظهور الإسلام"، الذى فرغنا لتونا من مناقشة بعض ما جاء فيه من تلك الدعاوَى؟

وعلى أية حال فإن النصرانية قد اختفت تقريبا من البلاد الأوربية وحل محلها الإلحاد أو فى أحسن الأحوال: اللاأدرية. وأما الإسلام فرغم كل الحرب الضروس التى تشنها عليه أوربا منذ قرون صار يعتنقه كثير من الغربيين من كل الأطياف، وبخاصة من الطبقات المثقفة، وأخذت وسائل الإعلام تعبر عن رعبها منه وخشيتها الشديدة من انتشاره فى بلادها، وكثرت المساجد فى المدن الأوربية وأصبح مشهدا جِدَّ مألوف أن نرى المصلين المسلمين يصلون الجمعة فى الشوارع حول المساجد، التى تغص بهم. كل هذا والمسلمون فى أحط حالات ضعفهم وتتبع كثير من حكوماتهم خطا الحكومات الغربية تبعية عمياء ولا يقومون بعشر معشار الدعاية التى تقوم بها الكنائس الأوربية فى كل مكان ولا ينفقون عليها ولو كسرا ضئيلا مما تنفقه دول الغرب على نشر نصرانيتهم.

وأما أن الحضارة الحديثة تناقض الإسلام بوصفه دين التخلف فكيف يغفل غافل عن أن الحضارة الإسلامية بعلمها وتقدمها وإبداعاتها وابتكاراتها إنما نشأت وعاشت فى ظل الإسلام بل عاشت بفضل الإسلام وتحضيضه على تحصيلها من علم ونظام ونظافة وعمل وكد وإبداع واختراع واستقامة خلق واجتهاد فى الحفاظ على مقومات القوة والعزة والكرامة، وأن النصرانية لم تزدهر فى أوربا إلا أيام تخلف الأوربيين الشنيع؟ نقول هذا ردا على أولئك الذين أورد مرجليوث أحاديثهم عن مستقبل الإسلام.

على أن سخافات مرجليوث لا تتوقف عند الموضوعات الدينية بل كان له مع الشعر الجاهلى قصة، وقصة عجيبة. فقد أقدم على كتابة بحث شديد التفاهة والتهافت فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٢٥م اسمه "The Sources of Arabic Poetry" ينكر فيه وجود شيء اسمه الشعر الجاهلى والشعراء الجاهليون، وادعى أن الشعر المنسوب للجاهلية مصنوع فى العصر العباسى صنعا، وكأن العرب والمسلمين كانوا نائمين ذات ليلة، ثم استيقظوا فوجدوا أشعارا يقال إنها نظمت قبل الإسلام ولم يكن لها وجود ومعها شعراء لم يعرفوا الحياة من قبل، فصار لهم وجود وسِيَرٌ وحكايات وعلاقات ومِهَنٌ وأوضاع اجتماعية اخترعها المخترعون اختراعا، ورغم هذا خرس العرب والمسلمون أجمعين فلم ينبسوا ببنت شفة مع أن سنة الله أن يختلف الناس حول كل شيء، فما بالنا بمسألة مثل هذه لا يمكن أن تمر مرور الكرام على أسلافنا إلا إذا تواطأوا كلهم على تقبل الباطل والرضا به والصمت حياله، وهو ما لا يمكن أن يكون؟

كذلك نرى فى القرآن كلاما عن الشعر واتهام المشركين للنبى عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر لا رسول وأن القرآن شعر من الشعر وليس وحيا إلهيا. ومعنى هذا أن الشعر كان موجودا آنذاك، وإلا فكيف اتهموا الرسول بأنه شاعر وهم لا يعرفون الشعر ولا يسمعون به إذ هو لم يوجد بعد عند العرب؟ وهنا يقفز مرجليوث إلينا فيتنطع ويدعى أن الشعر المذكور فى القرآن معناه العرافة غافلا عن أن المشركين قد اتهموه صلى الله عليه وسلم بأنه كاهن عراف إلى جانب أنه شاعر، وهو ما يدل على أن الكهانة والعرافة غير الشعر. فضلا عن أن هذا المعنى لا يوجد فى أى معجم من المعاجم ولا ذكره أى كاتب أو شاعر من كتابنا وشعرائنا.

كما أن فى الشعر الأموى، الذى يقر به مرجليوث السخيف ولا يشك فى شيء منه، إشارات إلى عدد من شعراء الجاهلية بأسمائهم. أى أن شعراء الجاهلية كانوا معروفين للعرب قبل تزييف الأشعار عليهم بعد ذلك فى العصر العباسى طبقا لنظرية مرجليوث السخيفة التافهة.

ومما ارتكن إليه مرجليوث فى نفى وجود الشعر الجاهلى وأصحابه أن فى ذلك الشعر مصطلحات دينية إسلامية وكلاما عن البعث والحساب مثلا مع أن أحدا لم يقل إن كل أهل الجاهلية كانوا يرفضون الإيمان بالآخرة والثواب والعقاب. أما مصطلحات الركوع والسجود والقسم بـ"الذى أمات وأحيا" على سبيل المثال فلم يقل أحد عن شعر عنترة بن شداد الذى يحويها إنه شعر صحيح، بل هو شعر منحول عليه فى السيرة الشعبية التى تحمل اسمه، وليس من يطالعه

محتاجا إلى إثبات أنه مصنوع مزيف لأن روحه ونكهته وأسلوبه تقول ذلك بأفصح لسان وأبلغ بيان. وقد فصلت القول فى ذلك فى الكتاب الذى ألفته عن الفارس الأسود المغوار وعن فنه الشعرى.

وأما أن العرب لم يكن لديهم أوراق يسجلون فيها ذلك الشعر إن كان له وجود، وبالتالى فكيف وصلنا ما دام ناظموه أو مستمعوه لم يسجلوه فى حينه كتابيا كما يتساءل مرجليوث، فالجواب سهل يسير، إذ كان العرب، بسبب أميتهم واعتمادهم على الذاكرة فى حفظ أمورهم وخطبهم وأشعارهم وأنسابهم وكلام كهانهم، يحفظون أشعارهم فى أدمغتهم. وكما حفظوا القرآن وأحاديث نبيهم فقد حفظوا قصائد شعرائهم. وأقصى ما يمكن قوله فى هذا السياق هو أن الشعر الجاهلى يمكن أن تكون قد حدثت فيه بعض التغييرات على هذا النحو أو ذاك أو اختلطت نسبته إلى هذا الشاعر أو غيره أو صُنِع بعض الشعر وأضيف إلى شاعر لم ينظمه. أما أن نرتب على ذلك أن الجاهليين لم يعرفوا الشعر أصلا فهذا تنطع ثقيل غليظ.

وهناك الأشعار الموغلة فى القدم والتى تصل إلى عصر إسماعيل، وبعضها إلى آدم. فأما آدم فلا أظنه أبدا كان يملك لغة كاملة فضلا عن أن يعرف هو أو أحد من أبنائه الشعر، وأما إسماعيل فلا أستبعد أن تكون هناك أشعار صحيحة نظمت فى عصره، لكنى لا أجزم بشىء من ذلك. وها نحن أولاء ما زلنا نستعمل اللغة بنفس القواعد النحوية والصرفية وكثير جدا من المفردات والتعبيرات التى كان يستعملها امرؤ القيس وزهير وعنترة وأشباههم ونفهم عنهم ما قالوا فى أشعارهم رغم مرور ما يقرب من ألفى سنة. وإذا كان ابن سلام قد استنكر كل شعر منسوب إلى عاد وثمود تحت حجة أن عادا وثمود قد بادتا عن آخرهما بنص القرآن الكريم، ومن ثم لم يكن هناك من ينقل لنا أشعارهم، فقد فاته أن من بادوا هم الكافرون وحدهم لا كل القبيلتين بمؤمنيهما وكافريهما، وهذا ما وضحه القرآن الكريم حين نص على نجاة المؤمنين فى أكثر من موضع. ومعنى هذا أن ورود شعر إلينا عن هاتين القبيلتين ليس مستحيلا ولا مستغربا من الناحية المبدئية على عكس ما يظن ابن سلام. وعلى كل فحتى لو قلنا مع القائلين بأن عمر الشعر الجاهلى الصحيح الذى وصل إلينا هو على أكبر تقدير قرنان فإن الشعر الذى ينطبق عليه هذا الكلام شعر جد كثير.

وأما ما قاله مرجليوث من أن الأمر من الناحية الموسيقية فى اللغة العربية قد تم كالآتى: كان القرآن أول نص مسجوع، ثم ظهرت الأراجيز، ثم تلتها الأشعار فى العصر الأموى، ثم صُنِعَت

الأشعار الجاهلية فى العصر العباسى، فهو خطأ بواح. فالشعر موجود منذ ما قبل الإسلام بقرنين على أقل تقدير طبقا للرأى السائد فى تلك القضية، كما عُرِف السجع فى خطب الجاهليين وفى كلام الكهان وفى الأمثال، وكانت الأشعار والأسجاع والأرجاز متواكبة لا متتالية كما يزعم مرجليوث على غير أساس، بل بمحض التحكم والتنطع.

ومما يعتمد عليه مرجليوث أيضا فى نفى وجود الشعر الجاهلى أن العرب كانت لهم لهجاتهم القبلية، فأين هى فى الشعر الجاهلى؟ والجواب هو أن لهجات البلاد العربية بعد الفتح بل اللهجات داخل كل بلد عربى طول عمرها مختلفة، ومع هذا فإن الشعر والنثر كليهما لا الشعر وحده لا يحمل آثار تلك اللهجات المستخدمة فى الحياة اليومية. على أن فى الشعر الجاهلى بعض آثار من اختلاف القبائل فى هذا المجال، وكلها فصيحة: فمن القبائل من يقول مثلا: "الحَكَمُ التُّرْضَى حكومتُه"، أى الحكم الذى ترضى حكومته. ومنها من يقول: "وبئرى ذو حَفَرْتُ وذو طَوَيْتُ"، بدلا من "بئرى التى حفرتها وطويتها"، أى وبطَّنتها بالحجارة. ومنهم من يقول: "ما هذا بشرا" ومن يقول: "ما هذا بشرٌ". ومنهم من يقول: "هذاك، هذالك" عوضا عن "ذاك، ذلك". ومنهم من يقول: عَسَيْتَ بخير"، ومنهم من يقول: "عساك بخير"... إلخ. فكلام مرجليوث هنا خاطئ يدل على جهل كبير.

ومن أعجب العجب أن يعود مرجليوث بعد عامين اثنين فحسب عما قال بعد كل تلك العواصف والزوابع التى أثارها، ففى كتابه: "Lectures on Arabic Historians"، الذى ألقى فصوله كمحاضرات عام ١٩٢٧م، يتحدث عن أشعار الأوس والخزرج فى الجاهلية حديث المطمئن إلى صحتها بل وصلاحيتها لأن تكون مصدرا تاريخيا لما كان يقع قبل الإسلام من معارك بين تينك القبيلتين، وكأنه لم ينكر الشعر الجاهلى كله ويدَّعى عليه الدعاوى الفارغة ويقول إن العرب لم يعرفوا الشعر إلا بعد الإسلام بزمن غير قصير. ومن أعجب العجب أيضا أنه لا يحاول إزالة هذا التناقض فيقر مثلا بأنه فد اتضح له خطأ ما كان سائرا فيه فعاد عنه. قال فى فصل " Poetry as a Vehicle of History" من هذا الكتاب ما نصه: " one of the sources which the historical portions of the Old Testament acknowledge for early narratives is a Book called “And he sang”, i.e., a collection of tribal ballads which commemorated victories or defeats. We read similarly of

odes wherein the struggles of the Aus and Khazraj prior to the arrival of the Prophet were recorded, which the Prophet, whose purpose was to institute fraternity between the tribes, forbade to be recited. Clearly only such odes as were of transcendent merit or recorded some overwhelming triumph or defeat would stand much chance of being ."preserved

ليس ذلك وحسب، بل يقول بكل أريحية قبيل ذلك: " If history was in a measure commentary on the Qur'an, there is reason for thinking that it was also to some extent comment upon verses. We meet at times with the theory that poetry was the tribal method of recording history, and the earlier historians cite verses in illustration of the chief events; this they can the more easily do because the military organization is still tribal, and the successes or disasters which they sing belong to the tribe". ومعناه أنه إذا كان التاريخ على نحوٍ ما تعليقا على القرآن فثم سبب يدفع إلى التفكير بأنه أيضا إلى حد ما تعليق على الأشعار. ونقابل فى بعض الأحيان النظرية القائلة بأن الشعر هو الأسلوب القبلى لتدوين التاريخ، وأن المؤرخين الأوائل يستشهدون بالأشعار لتوضيح الأحداث الرئيسية. وهذا أمر يزيد سهولتَه عليهم أن النظام الحربى لا يزال قبليا وأن الانتصارات والمصائب التى كانوا ينشدونها هى انتصارات القبيلة ومصائبها.

٣- كارلو نَلِّلينو

جاء فى مادة "كارلو نللينو" (١٨٧٢- ١٩٣٨م) فى "الموسوعة العربية" السورية ما يلى تعريفا بذلك المستشرق الطليانى: "كارلو ألفونسو نَلِّلينو Carlo Alfonso Nallino مستشرقٌ إيطالى وُلِدَ فى مدينة تُورينو Torino الإيطاليَّة. لغوى فلكى مؤرِّخٌ جغرافى له اهتمامٌ واسعٌ بالدِّراسات العربيَّة، ولاسيَّما اللُّغة العربيَّة وعلم الفلك العربى وتاريخ اليمن القديم ولهجاته والمذاهب الدِّينية الإسلاميَّة.

شبَّ على تعلُّم العربيَّة، فلمَّا أتقنها أخذ العبريَّة والسريانيَّة، وتلقَّى هذه العلومَ اللغويَّة فى مدينة أودِنى Udine فى إيطاليا، ثمَّ انتسب إلى جامعة تُورينو الإيطاليِّة ليتابع تحصيله العلمى فى تلك اللُّغات، وما إن تخرَّج فيها حتَّى أوفدته الحكومةُ الإيطاليَّة إلى القاهرة سنة ١٨٩٣م، وأقام فيها بضعة شهور، ثمَّ عاد إلى إيطاليا، وأفاد من رحلته إلى مصر فعمل فى نشر كتابٍ عن اللَّهجة المصريَّة.

قام بتدريس اللُّغة العربيَّة فى المعهد الشرقى فى نابولى Napoli منذ عام ١٨٩٤م حتَّى عام ١٩٠٢م، فأسهم فى نشر اللُّغة العربيَّة بين المثقفين الإيطاليين فى هذه السَّنوات الطَّويلة. ثمَّ دعاه المصريون سنة ١٩٠٩م للمحاضرة فى علم الفلك العربى، فألقى فى الجامعة محاضرات باللُّغة العربيَّة عن ذلك، ونُشِرَتْ هذه المحاضرات بعد ذلك فى كتابٍ مستقلٍّ تحت عنوان "علم الفلك- تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى".

اهتمَّ بالتَّاريخ الإسلامى، وبعد احتلال إيطاليا لطرابلس الغرب عيَّنته الحكومةُ الإيطالية فى وزارة المستعمراتِ فى روما Roma مديرًا للجنة تنظيم المخطوطات العثمانيَّة، وكان آنذاك يدرِّسُ "تاريخ الإسلام" فى الجامعة الإيطاليَّة. ولا يخفى أنَّه اطَّلع على جملةٍ من المخطوطات العثمانيَّة الَّتى كانت تشتملُ على مخطوطاتٍ عربيَّةٍ قيِّمةٍ.

كان واسع الاهتمام باليمن، وقد وضع دراساتٍ تتعلَّق به منها ما يتناول الحضارات القديمة المتعاقبة فى اليمن، ومنها ما يتعلق باللَّهجاتِ والخطوط العربيَّة فيه. وقد رُشِّحَ لتدريس تاريخ اليمن فى كليَّة الآداب بمصر، ودرَّسَه أربعَ سنواتٍ منذ عام ١٩٢٧م حتى عام ١٩٣١م.

اتَّسع نشاط نَلِّلينو فى تعريف الإيطاليين بالحضارة العربيَّة، فعمل فى الإشراف على بعض المجلات التى تصدر فى إيطاليا وتُعْنَى بالدِّراسات العربيَّة. منها مجلة "الدِّراسات الشَّرقيَّة" ومجلة

"الشَّرق الحديث". ورغبةً منه فى توسيع نطاق التَّعريف بالحضارة العربيَّة فقد آثر إصدار المجلَّتين باللُّغة الإيطاليَّة ممَّا أسهم فى توسيع شريحة القرَّاء من الإيطاليين.

كان نَلِّينو عضوًا فى مجامعَ علميَّةٍ تهتمُّ بالدِّراسات الاستشراقيَّة منها "المجمع العلمى الإيطالى: Accademia d'Italia"، وعُيِّنَ فى أعضائه عام ١٩٣٢م، كما كان عضوًا فى "المجمع اللُّغوى بمصر" عام ١٩٣٣م.

صنَّفَ كتبًا ومقالاتٍ وأبحاثًا أكاديميَّةً باللُّغتين الإيطاليَّة والعربيَّة. من آثاره العربيَّة "علم الفلك- تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى" و"تاريخ الآداب العربيَّة" و"اللُّغة العربيَّة العامَّة بمصر"، وهو يشتمل على قواعدَ ومخاطباتٍ. ومن المقالات الَّتى وضعها "رواد اليمن من الأوربيين".

ربى ابنته ماريا نلينو على تعلم اللغة العربية، فشبت مستشرقة ومستعربة لا يشق لها غبار".

وهناك مقال عن نفس المستشرق منشور فى صحيفة "المساء" القاهرية بتارخ ٢٥/ ٢/ ٢٠١٢م عنوانه "كارلو نالينو- صفحات مضيئة من الاستشراق الإيطالى" لعبد الحميد صبحى ناصف. وهذا نصه: "إنه الأستاذ كارلو نالينو، الذى أمّ القاهرة بطلب من الجامعة المصرية لكى يدرّس فيها باللغة العربية تاريخ علم الفلك عند العرب، ولم يكن تلامذة الجامعة أقل أعجابًا بفصاحة أستاذهم الأوروبى وسعة اطلاعه طيلة المدة التى قام فيها بتدريسهم حتى أواخر عام ١٩١٢ من كثيرين فى مصر وسورية ولبنان وبلدان المغرب العربى وكل البلدان التى زارها هذا المستعرب، فكان فى كل مكان حلّه وكل مجلس ضمّه موضع تقدير أهل العلم لا لحسن نطقه وطلاقة لسانه بتلفظ العربية فصيحها وعاميها فحسب، بل لسعة معارفه.

ولد كارلو نالينو فى تورينو عام ١٨٧٢ وفيها تلقى دروسه الابتدائية والثانوية وتعشق، منذ حداثته، علم البلدان وانكب على مطالعة كتب الرحلات، ولطالما حدثته نفسه بارتياد الأسفار واكتشاف المجاهل. ولم يكن شغفه باللغات الأجنبية دون شغفه بعلم الجغرافيا، وشعر بميل خاص إلى اللغة العربية، فانكب على دراستها فى مجموعة عربية وقعت له فى مكتبة بلدية أودينى. وبينما كان مكبًّا على درس العربية عكف على دراسة أختيها: السريانية والعبرية، اللتين تعمق فيهما تعمقه فى العربية.

وفى عام ١٨٩٩ رشّح نفسه لدخول فرع الآداب فى كلية تورينو لوجود كرسى فيها للدروس الشرقية يتولاها عالمان شهيران أحدهما إيطالو بيتزى، وعلى يده تضلع نالينو فى العربية وظل حياته كلها حافظًا لجميله. على أن ميله إلى الأبحاث الجغرافية كان يحفزه للتتلمذ على أحد أهم أساتذة هذه العلوم، وهو جويدى كورا صاحب مجلة "كوزموس" العلمية وأستاذ الجغرافية فى كلية تورينو ثم فى كلية روما". وكانت باكورة أعماله فى هذا المجال البحث الذى نشره له أستاذه كورا فى مجلته بعنوان "قياس العرب درجة من قوس نصف النهار وتعديلها بالمقياس المترى". وهذا البحث الأول دعاه إلى التخصص بالأبحاث الجغرافية والفلكية حيث كرس لهذا القصد مقالات عدة نشرها فى المجلة منها مقالة كبيرة فى خمسين صفحة ذات أهمية بالغة فى تاريخ الجغرافية عندنا، عنوانها "الخوارزمى وتجديد جغرافية بطليموس عند العرب"، وذلك على أثر تناوله بالدرس العميق نسخة خطية وحيدة عثر عليها فى مكتبة ستراسبورغ من كتاب "صورة الأرض" للخوارزمى.

ومما أقام عليه نالينو هو أن هذا الكتاب لم يكن تقليدًا لجغرافية بطليموس، بل محاولة تهدف إلى الإصلاح والتجديد. وفى هذه الدراسة، كما فى ما كتبه قبل أن يبلغ الـ٢٥، أظهر نالينو مقدرة علمية دفعت العالمين سكابارللى المستعرب منهما والفلكى إلى تحميله عام ١٨٩٤ مسؤولية الإشراف على طبع أحد أهم المخطوطات العربية فى علم الفلك، وهو كتاب "الزيج الصابئ" للبتانى. وهذا الكتاب يعد من أسس علم الهيئة ليس عند العرب فحسب بل فى الغرب أيضًا حيث ترجم إلى اللاتينية وأصبح دستورًا لهذا العلم فى أوروبا، ولم تأفل شمسه إلا بعد تغلب نظرية كوبرنيكس على الفلكيين القدماء. وأكمل نالينو العمل فى هذا المخطوط، وهو أعلم الناس بما سيعترض سبيله من المشاق، فتوجه عام ١٨٩٤ إلى مدريد لكى يطلع على النسخة الوحيدة المعروفة له فى الإسكوريال ثم أجهد نفسه بتحقيق كل العمليات الحسابية التى بُنِيَتْ عليها أبعاد النجوم وتثبَّت من أرقامها المشيرة إلى كل نجم بمفرده، وبفضل انصبابه المنقطع النظير وتنقيبه المتواصل تكلل سعيه بالنجاح فأتحف العلم بثلاثة مجلدات ضخمة جاءت فى ١١٣١ صفحة من القطع الكبير يشتمل الأول منها، وهو ثلثها، على النص العربى لـ"الزيج الصابئ" ويليه الجزء الثانى، وهو ترجمة لاتينية للنص العربى مع شروح وتعليقات ومقدمة تاريخية تعرّف بالصابئ وتأليفه ومكانته بين فلكيى العرب، أما الثالث فيتضمن ترجمة لجداول الكتاب باللغة اللاتينية مع فهارسه ومعجم للمصطلحات الفلكية وشروحًا لاتينية للتعابير العربية. وفى نهاية الكتاب فهارس تهدى إلى كل مادة من مواده.

وعهد إليه بكتابة مواد فى علم الفلك وأحكام النجوم لـ"دائرة المعارف الإسلامية" ولموسوعة أخرى إنكليزية.

على أن ما يعنينا مباشرة هو وقوع الاختيار عليه عام ١٩٠٩ لإلقاء الدروس فى الجامعة المصرية فى علم الفلك عند العرب وسواهم ممن تقدموهم، فلبّى الطلب موضحًا رأى علماء العرب فى طبيعة الأفلاك والكواكب وأصلها وأحكام النجوم، وأورد المناقشات التى دارت رحاها بين المتعالمين والفقهاء والفلاسفة والمنجمين فى تأييد هذا العلم أو بطلانه، فجمع هذه الدروس القيّمة فى كتاب أتى فى ٣٧٠ صفحة طبعه فى روما عام ١٩١١. وبلغ من ارتياح عمدة الجامعة المصرية إلى دروسه وأبحاثه أن جددت التعاقد معه دورتين أخريين حتى عام ١٩١٣.

كما كان لمستشرقنا باع كبير فى تاريخ الأدب العربى على وعورة مسالكه لأجنبى. وكان من بين تلامذته المعدودين الدكتور طه حسين والذى طالما اعترف بأنه مدين لأستاذه. وأيضًا فإن تلك الدروس فى تاريخ علم الأدب عند العرب أصبحت فى مأمن من الاندثار عندما نشرتها ابنته ماريا مع تعليقاتٍ وحواشٍ ضافية وفهارس عدة. ولناللينو مقالات كثيرة نشرتها له "المجلة الخديوية المصرية" (المجلة الجغرافية) عام ١٩٠٧ فى الجغرافيا وأسماء الأمكنة فى البلدان الإسلامية، وعلى الأخص ما وصفه من القواعد لنقل الأسماء العربية إلى الإيطالية وكيفية التوصل الى ضبط الأسماء الجغرافية فى طرابلس وبرقة.

وإذا نظرنا إلى اللغة من مختلف نواحيها: فصيحها وعاميها وبائدها نراه قد امتلك ناصيتها حتى ليكاد يلمّ بكل ما دقّ وخفى من قواعد صرفها ونحوها، وأصدق شاهد على ذلك كتابه "العربية المتكلَّم بها فى مصر"، الذى صدر للمرة الأولى عام ١٩١٠ ثم أعيد طبعه عام ١٩١٣. ومثل ذلك يقال فى الملحوظات التى أوردها بشأن اللهجة التونسية والتى نشرها فى مجلة "الشرق الحديث" التى كان يصدرها باللغة الإيطالية. كما أولى الجاهلية عناية فائقة وكرس لبحثها وقتًا طويلاً. ففى عام ١٨٩٣ ظهر له، وهو بعد فتى، بحث عن "نظام القبائل العربية قبل الإسلام". وكان هذا العمل من الرصانة ما حدا بالأب لامنس اليسوعى إلى ذكر هذا العمل بعد انقضاء نحو عشرين عامًا على صدوره. ولهذا المستشرق أبحاث لم تنشر، ولكن ما نشر منها يثبت معرفته بلغات جنوبى الجزيرة العربية، وهى المعروفة بالحميرية، التى تفرغت منها لهجات عدة منها المعينية والسبئية والحضرمية. وقد عرض نالينو لهذه اللهجات البائدة وأثبت معرفته التامة بها فى مقال طويل تناول

فيه بالنقد والتحليل كتابًا أصدره العالم الإيطالى السيد كونتى روسينى باللاتينية عنوانه "مجموعة نصوص عربية جنوبية".

وعلاوة على أبحاثه فى الكتب كان نالينو يتحف بعض المجلات العربية فى مصر والشام بمقالات متنوعة منها مقالة نشرتها له مجلة "الهلال" عام ١٩١٧م كانت من الجرأة والأهمية العلمية بمكان تحت عنوان "كيف نشأت اللغة العربية؟". وفى ثنايا هذا المقال ينفى زعم الكثيرين بأن قريشًا كانت أفصح العرب، إذ فى رأيه أنه لو صح هذا الزعم لأخذ الرواة والنحاة الشعر والنحو عن قريش وأهملوا عرب البادية. ولو كان التنزيل بلغة قريش لاعتمد الشرح أهل مكة فى تفسير ما استغلق من غريب القرآن. زد على ذلك أن قريشًا لم ينبغ فيها شاعر مشهور ولا خطيب مذكور. فلا شك إذًا فى أن ما ذهب إليه الناس من القول بتفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب الرسول (ص) واعتبار تكريم قبيلته تكريمًا له.

وظل نالينو معنيًا بشؤون الشرق قديمها وحديثها حتى تنبهت إيطاليا إلى ما للشؤون الشرقية والإسلامية من الأهمية فى سياسة الدولة. وكان ذلك على أثر خروجها من الحرب العظمى الأولى، فأنشأ أماديو جانين فى روما معهد الشرق وعهد إلى نالينو بإدارته العلمية، ونشر المعهد مجلة "الشرق الحديث" برعايته. انتُخب نالينو عضوًا فى الجمعية الملكية الآسيوية فى لندن وفى الجمعية الألمانية، أما فى الشرق فقد عرفت له جمعياتنا العلمية مكانته وضمته إلى سلكها ابتداء بالجمعية الملكية المصرية ١٩٣٣م. كما أصبح من الأعضاء العاملين فى مجمعى دمشق وبغداد، وفى ١٩٣٨م زار السعودية فاستقبل بالإكرام والإجلال وطاف من العقبة حتى الطائف بصحبة كريمته ماريا".

وعن نالينو تحدث د. طه حسين فى أكثر من موضع من الجزء الثالث من كتابه: "الأيام"، ومما قاله عنه: "لم يكن الأساتذة المصريون وحدهم هم الذين يملأون الجامعة فكاهة ودعابة، ويتعرَّضون لعبث الطلاب وجراءتهم الماجنة، وإنما كان الأساتذة الأجانب مصدرًا من مصادر الفكاهة وموضوعًا من موضوعات العبث. كانت لهجتهم العربية تملأ أفواه الطلاب بالضحك، وكان منهم الذين يَلْوُون ألسنتهم بالعربية يقلدون هذا الأستاذ أو ذاك من أساتذتهم الإيطاليين أو الألمانيين. ولم ينسَ الفتى يومًا قرر فيه الطلاب أن يُضربوا عن درس الأستاذ نالِّينو الإيطالى لأن إيطاليا أعلنت الحرب على تركيا، وأرسلت سفنها غازية لطرابلس، فأزمع الطلاب أن يجتمعوا فى

غرفة الدرس، حتى إذا أقبل الأستاذ وارتقى إلى مجلسه خرجوا من الغرفة وتركوه فيها وحيدًا. وقد أتمَّ الطلبة ما قرروا، فتركوا الأستاذ وحيدًا فى غرفة الدرس، ووقفوا أمام الغرفة ينتظرون ما يكون من أمره. ولبث الأستاذ فى الغرفة دقائق ثم خرج، فأقبل على تلاميذه وقال لهم فى لهجة عربية صحيحة فصيحة يلتوى بها لسانه بعض الشيء: مَثَلُكُمْ مَثَلُ الرَّجُلِ الذى أَرَادَ أَنْ يَغِيظَ امْرَأَتَهُ فَخَصىَ نَفْسَهُ! وكان السهم صائبًا، وكان أثره لاذعًا ممضًّا، ومنذ ذلك اليوم لم يفكر طلاب الجامعة فى الإضراب، ومنذ ذلك اليوم استقرَّ فى نفس الفتى بغض شديد لإضراب الطلاب عن الدروس مهما تكن الظروف".

والواقع أن نالينو كان فى رده هذا وقحا شديد الوقاحة، فها هى ذى بلاده تعتدى على بلد عربى مسلم مجاور لمصر، ومن الطبيعى أن يثور الطلاب ويعلنوا سخطهم لما حدث، وبدلا من أن يعتذر نالينو عن دولته ويطيب خاطرهم ويعلن تعاطفه معهم وتفهمه لموقفهم ولو من وراء قلبه نراه يتحداهم ويضرب مثلا مصميا مؤلما. ذلك أنه ينظر إلى نفسه على أنه أوربى، ومن حق الأوربى أن يصنع بغير الأوربى ما يشاء. وإيطاليا لم تفعل شيئا يعتذر عنه بل فعلت ما هو من حقها، فقد كانت قوية، وليبيا ضعيفة، وكان فى حوزتها الجنود والسلاح الذى يخول لها احتلال ليبيا دون خوف من أية عقبات أو عقابيل، فمن حقها إذن أن تحتل ليبيا وأن تسوم أهلها الويلات والثبور إذا ما قاوموا تمددها فى الجوار الجغرافى الذى كانت تعده مجالها الحيوى. لقد كان نالينو أوربيا وقحا متكبرا، وهذا ما يبرزه موقفه وتعليقه على ما حدث وكلامه إلى الطلاب المساكين الذين من الواضح أنهم لم يجدوا تفهما ولا تعاطفا من أحد ولا حتى من إدارة الجامعة أيضا.

وكان على طه حسين أن يكون موقفه مثل موقفى هذا، لكنه بدا خاليا من المشاعر العربية الإسلامية التى ينبغى أن تهيج فى نفس كل عربى مسلم فى مثل تلك الظروف لا فى وقتها فحسب بل حتى فى الوقت الذى كتب هو فيه ذلك بعدها بعقود، وكأن الدم الذى يجرى فى عروقه ماء مثلج. وبالمناسبة فقد كان أحمد لطفى السيد، الذى كان طه حسين مرتبطا به آنذاك ارتباطا شديدا، يرى أنه لا ينبغى أن نشغل أنفسنا بعدوان إيطاليا على ليبيا، فليبيا ليست منا، ونحن لسنا من ليبيا فى شىء. بل لقد وقف أحمد لطفى السيد ضد جمع المصريين للتبرعات من أجل الليبيين. فانظر الفرق بين موقف نالينو وهو فى بلد عربى مسلم، وموقف كل من أحمد لطفى السيد وطه حسين من الأمر.

وقد أعان نالينو بلاده فى استعمارها لليبيا ووضع ما عنده من علم ومعارف فى خدمة ذلك الاستعمار، وهاجم الخلافة الإسلامية فى تلك الظروف خدمة للسياسة الأوربية الاستعمارية التى عملت بكل قواها من أجل تفكيك الدولة الإسلامية المتوحدة كى تستطيع كل حكومة أوربية ابتلاع شِلْوٍ من أشلائها، وكان نصيب إيطاليا الشِّلْو الليبى، ناعتا الخلافة العثمانية بـ"المزعومة" طبقا لما كتب د. عبد الرحمن بدوى عنه فى ترجمته له بـ"موسوعة المستشرقين". ثم يأتى ناس فيقولون إن المستشرقين، المستشرقين بإطلاق، كانوا يخدمون الثقافة العربية الإسلامية. لقد كانوا فى الواقع يخدمون دولهم وأممهم ونزعاتها الاستعمارية.

هذا، وقد وصف د. عبد الرحمن بدوى منهجه فى كتابة "تاريخ الآداب العربية" بأنه جديد لم يسبق إليه مع أن حسن توفيق العدل ومحمد دياب فيما كتباه عن تاريخ الأدب العربى قد سبقاه فى هذه النقطة بأكثر من عشر سنوات، وإن كان هو أكثر تفصيلا. بل إن نالينو نفسه قد ذكر أن حفنى ناصف زميله بالجامعة المصرية فى ذلك الوقت قد "أجاد فى وصف تاريخ الآداب... حين قال فيما طبع من محاضراته أن يَدْخُل فى ذلك التاريخ وَصْفُ الكلام من شعر ونثر فى كل عصر من عصور التاريخ وذِكْرُ نوابغ الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين وبيانُ تأثير كلامهم فى من بعدهم وتأثرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنةُ بينهم والإلمامُ بمؤلفاتهم" (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية/ دار المعارف/ القاهرة/ ١٩٥٤م).

وهناك مديح لنالينو منشور بمجلة الرسالة بتاريخ ٢٠/ ٢/ ١٩٥٠م فى مقال عنوانه "كارلو نلينو" بقلم يوسف الخورى (من العصبة الأندلسية) نقرأ فيه ما يلى: "وكل من يدرس تاريخ هذا البحاثة المجاهد فى حقل العربية دون كلل ولا ملل يرى أنه تعشَّق العربية والأبحاث الشرقية منذ حداثته وبرع فى هذه الدراسات حدثا يافعا حتى توصل فى كهولته إلى التسيطر الفكرى على كل ما يتعلق بهذه العلوم، فأصبحت له الكلمة العليا بين المستشرقين، وقوله هو القول الفصل فى كل نواحى الفكر العربى من حضارة وتاريخ فى الجاهلية والإسلام لغة ولهجات وقبائل وعادات وأديانا ونحلا وسياسة وفلسفة واجتماعا، حتى إن المرء ليعجب كيف أن قُوَى رجل واحد وحياة واحدة تكفى لاستيعاب كل ما تقدم، إلى جانب إنتاج خصب امتاز بالدقة والتحقيق ومعرفة تامة بالنصوص على تسامٍ فى القصد وتنزُّه عن الهوى. فعَمَلُ الأستاذ نلينو ونتاجه العلمى رفعاه إلى مرتبة سامية بين كبار المستشرقين مثل سنوك هورجرنيه الهولندى، وجولد زيهر المجرى، ونولدك

وولهوزن وريت". وقال يوسف الخورى أيضا: "وبدلا من أن يجرى على المألوف فيدرس الأدباء تبعا لترتيب الحروف الأولى من أسمائهم نسق تاريخهم وقسمه لما طرأ على علم الأدب من تطورات جوهرية فى عصوره الجاهلى والمخضرم والأموى والعباسى ودرس كلا من هذه الحقب مبينا الخاصية الأدبية والفنية التى تميزت بها عن سابقتها ولاحقتها، متقصيا فى كل حقبة النتاج الفكرى الذى تفردت به نظما ونثرا، مما أنزله فى الأوساط الأدبية منزلة لا ينازعه فيها منازع وجعله ذا أثر بين فى التقدم العجيب الذى أحرزته اللغة العربية فى الربع الأول من هذا القرن".

ولنا على هذا الكلام ملاحظات: فأما بخصوص ريادة نالينو فى كتابة تاريخ الأدب عند العرب على أساس زمنى لا على أساس الترتيب الهجائى نقول ما قلته فى الفصل الأول الخاص بالمرصفى من كتابى: "مناهج النقد العربى الحديث". وهذا نصه: "ومن القضايا التى ينبغى تمحيصها فى هذا الفصل أيضًا ما قاله الأستاذ محمد عبد الغنى حسن من أن المرصفى، بمراعاته التسلسل الزمنى فى تقسيمه لطبقات الشعراء العرب، قد سبق المستشرق الألمانى بروكلمان والأستاذ حسن توفيق العدل وجرجى زيدان وأحمد حسن الزيات وغيرهم فى مراعاة تسلسل العصور من الجاهلية إلى الإسلام فما بعده، إذ إنه، كما يقول، "قسَّم أولئك الشعراء إلى طبقات ثلاث: الطبقة الأولى للعرب جاهليين وإسلاميين من المهلهل إلى بشار بن برد، والثانية للمُحْدَثِين الذين كانوا يحرصون على موافقة العرب ويجتهدون فى سلوك طرائقهم من أبى نواس إلى مَنْ قَبْلَ عبد الرحيم المعروف بالقاضى الفاضل، والثالثة للشعراء الذين غلب عليهم استعمال النّكات والإفراط فى مراعاة البديع، وهم من القاضى الفاضل إلى هذا الوقت".

والأستاذ محمد عبد الغنى حسن من الكتاب المحققين المدققين، وإذا كتب فى موضوع ما فإنه يظل ينقِّب فى الكتب حتى يحيط به أو يكاد، ومع هذا فهو، مثلنا كلنا، بشر من البشر تفوته أشياء، ومن ذلك ما قاله هنا، فإن ابن سلام مثلًا فى كتابه: "طبقات الشعراء" قد قسَّم الشعراء الذين ترجم لهم إلى جاهليين فإسلاميين، وصنيعه هذا يدل على أنه قد راعى الاعتبار الزَّمنى قبل المرصفى بقرونٍ طوال، ومثله ابن قتيبة فى كتابه: "الشعر والشعراء"، الذى رتب فيه من ترجم لهم من الشعراء، وعِدادُهم أكثر من مائتين، ترتيبا زمنيا بوجه عام بادئا بأقدم الشعراء الجاهليين مرورًا بشعراء صدر الإسلام فشعراء بنى أمية فشعراء بنى العباس إلى أن بلغ شعراء عصره منتهيا بأشجع

السُّلَمِىّ. وبين ابن قتيبة والمرصفى نفس ما بينه وبين ابن سلام تقريبا من الزمن، إذ توفى فى السبعينات من نفس القرن الذى مات فيه ابن سلام. وهذان مثالان اثنان فحسب.

والملاحظ أن لغة نالينو فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى حتى العصر الأموى تستقيم أحيانا، وترِكّ وتظهر عليها آثار العجمة أحيانا، ولكنها مفهومة فى الحالين، بالإضافة إلى بعض الأخطاء النحوية والارتباك فى استعمال حروف الجر. ومع هذا ففى أسلوبه تراكيب وتعابير جزلة يحسب لذاكرته أنها احتفظت بها من قراءته كتب كبار كتابها وشعرائها. والملاحظ أيضا طول صبره فى التنقير عما يريد التوصل إليه فى كتب التراث والمعاجم ودواوين الشعراء كما هو الحال عندما كان عليه أن يبحث عن معنى كلمة "أدب" بمعنى الشعر والنثر الفنى فى تلك المظانّ، وبخاصة أنه كان يبحث عنها فى وقت لم تكن هناك أدوات تساعد الباحث على وجدان ما يريد بسرعة كما هو الوضع فى أيامنا، أيام الكاتوب (الكمبيوتر) والمشباك (الإنترنت)، وإن كان قد أبعد النجعة حين تعيَّن عليه القيام بهذا التعريف بنفسه رغم أن بعض القدماء طرحوا تعريفا للأدب الذى نحن بصدده هنا، فرفضه هو لينتهى فى آخر الجولان إلى شىء قريب مما قالوه.

وفى عدد شعراء الجاهلية قال إنهم ثمانون ونيف حسبما يستفاد من كتب اللغة والأدب. ولا أدرى كيف توصل إلى هذا؟ ترى هل فرَّ كل كتب اللغة والأدب كما يوحى كلامه؟ وكيف؟ كل ما نستطيع أن نقوله هو أن عدد شعراء الجاهلية كبير هائل: منهم المشهور الطائر الشهرة كامرئ القيس وعنترة والأعشى وزُهَيْر بن أبى سُلْمَى والنابغة الذُّبْيَانى وعمرو بن كلثوم وطَرَفة بن العبد وزرقاء اليمامة، ومنهم من لا يحظَوْن بشىء من الشهرة كأبى حذيفة وأعصر بن سعد وأوس الهجيمى وجناب بن منقذ وسبيع التميمى وأرطأة الفزارى وابنة أبى الجدعاء وكسرة بنت دوشن وجمل السلمية وزهراء الكلابية وسُعْدَى الأسدية، ومنهم من كان بين ذلك قَوَامًا مثل عَبِيد بن الأبرص والمهلهِل بن ربيعة وعلقمة الفحل والمرقش الأكبر ولَقِيط بن يَعْمُر وعروة بن الورد وتأبَّطَ شرًّا والشَّنْفَرَى وعمرو بن قميئة وسلامة بن جندل وعبد يَغُوث الحارثى وكعب بن الأشرف النَّضَرىّ وجليلة بنت مُرَّة وليلى العفيفة. ومنهم أصحاب المطوَّلات، ومنهم من لم يصلنا عنهم إلا مقطوعاتٌ أو نُتَفٌ أو أبياتٌ مفردة. ومنهم كذلك أصحاب الدواوين، ومنهم من لهم عدد صغير من القصائد والمقطوعات، ومنهم من ليس لهم إلا بعض أبيات أو أقل من ذلك. ومنهم من كان يَنْظِم فى أناةٍ ورَيْثٍ ويعيد النظر فى ما ينظمه قبل أن يذيعه فى الناس حتى ليقول ابن قتيبة فى "الشعر

والشعراء" إن زهيرا كان ينفق فى إبداع القصيدة الواحدة وقتا طويلا، وإن الحُطَيْئَة (من الشعراء المخضرمين)، وسُوَيْد بن كُرَاع وعَدِىّ بن الرقاع (من شعراء بنى أمية) كانوا يتخذونه مثلا لهم يحتذون طريقته وينقّحون شعرهم قبل أن يذيعوه تنقيحا شديدا كما كان يصنع. ومنهم فى المقابل من لم يكن يعكف كل هذا الوقت الطويل على تهذيب ما ينظم بل كانوا يميلون إلى إذاعة ما يبدعون من شعر على الجمهور بمجرد ما يفرغون من نظمه، وهؤلاء يُسَمَّوْن: "أصحاب الطبع"، وهو ما تناوله الجاحظ فى كتابه: "البيان والتبيين"... وهكذا. ومن أولئك الشعراء أيضا من كان ملكا أو أميرا أو شيخ قبيلة كامرئ القيس والمهلهل والأفوه الأودى وأبى قيس بن الأسلت وحاتم الطائى، ومن كان فارسا كسلامة بن جندل وعلقمة الفحل وقيس بن الخطيم وعبدة بن الطبيب وأُحَيْحَة بن الجلاح، ومن كان حكيما كأميّة بن أبى الصلت وقس بن ساعدة، ومن كان صعلوكا كتأبَّطَ شَرًّا والسُّلَيْك بن السُّلَكة، ومن كان عبدا كعنترة بن شداد وسُحَيْم عبد بنى الحسحاس (وهو جاهلى إسلامى)، ومن كان يتخذ من المديح مرتزَقا كالنابغة والأعشى والمنخَّل اليشكرى وأبى زبيد الطائى...

إلا أن قول نالينو عقب ذلك إن لكل واحد من أولئك الثمانين والنيف أبياتا وصلت إلينا متفرقة فى جملة من التصانيف هو قول خاطئ تمام الخطإ بكل يقين، إذ ما أكثر الشعراء الجاهليين الذين وصلتنا دواوينهم، وما أكثر من وصلتنا أيضا قصائد كاملة لهم. ومع هذا فنحن معه فى أن تواريخ ميلادهم ووفاتهم لا يمكننا التوصل إليها. أما بالنسبة إلى خلو شعر اليهود من الإشارة إلى دينهم فهو لا يستبعد ضياع شعر كثير لهم يجوز أن يحوى مثل تلك الإشارات. ثم هو يقسم شعراء الجاهلية إلى شعراء بادية، ومنهم الشعراء الصعاليك ومنهم امرؤ القيس والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وعنترة وزهير ولبيد، ومنهم نساء. وأما الصنف الثانى من شعراء الجاهلية فهم شعراء وثنيون كانوا يمدحون الملوك فى الحيرة وغسان فانخلعوا من خشونة البادية كعبيد بن الأبرص وطرفة والنابغة والأعشى. وأما شعراء الصنف الثالث من الجاهليين فهم الشعراء النصارى، وهم كما يقول المقيمون فى الحيرة وعند بنى غسان. وهو يخطئ هنا لويس شيخو، الذى أطلق العنان وجعل كل من لم يتحدث عن يهوديته نصرانيا. ويعد نالينو من شعراء الجاهلية النصارى أبا دؤاد الإيادى وصّاف الخيل، وعدى بن زيد، الذى يروى له أبياتا زهدية ثم يعقب بأنه من غير المستبعد أن يكون أبو العتاهية قد اتخذ منها ومن أمثالها عنده أنموذجا ينظم على منواله فى التزهيد فى الدنيا.

وهو رأى ضعيف إذ لا يعقل أن يتجاهله كل الشعراء فى الجاهلية والإسلام والعصر الأموى وبعض العباسى ليتذكره فجأة أبو العتاهية المسلم، وبخاصة أنه لم يذكره ولو مرة فى شعره، وهو ما يدل على أنه لم يكن على باله قط، فضلا عن أن أحدا من مؤرخى الأدب والنقاد القدماء قد أومأ مجرد إيماء إلى هذا. ويبقى الصنف الرابع من شعراء الجاهلية، وهم شعراء أهل المدر، ومنهم قيس بن الخطيم وأمية بن أبى الصلت.

وهذا التقسيم واسع جدا، وأجود منه تقسيم جرجى زيدان، الذى صنفهم إلى شعراء المعلقات، والشعراء الأمراء، والشعراء الفرسان، والشعراء الحكماء، والشعراء العشاق، والشعراء الصعاليك، وشعراء اليهود، والنساء الشواعر، والشعراء الهجاؤون، والشعراء الوصافون للخيل، والشعراء الموالى، ثم باقى الشعراء الجاهليين. وحديثه عن كل شاعر وشعره أوسع بوجه عام عن حديث نالينو.

ولدن الحديث عن القرآن نراه يؤكد أن تأثير القرآن فى المسلمين أقوى كثيرا من تأثير الإنجيل فى النصارى لأن الإنجيل منحصر فى العقائد والأخلاق، أما بالنسبة إلى القرآن فهناك التشريع، الذى هو عند النصارى عمل بشرى. كما أن القرآن قد ساعد كثيرا على انتشار العربية خارج بلادها، وكان مصدر علوم شتى. كذلك نراه يخالف ما قيل قديما من أن الفتوح الإسلامية قد شغلت العرب عن قول الشعر مستشهدا بما تعج به كتب الأدب القديمة من شعر إسلامى... وهكذا إلى آخر الكتاب.

ومما أريد أن أنظر فيه أيضا ما قاله عن لغة الضاد. ففى حوار أجراه معه (س) بعنوان "حديث مع الأستاذ نلينو" بمجلة "الهلال" بتاريخ ١ مارس ١٩٢٨م أبدى المستشرق الإيطالى رأيه فى اللغة العربية وأدبها وشعرها قائلا: "إن الأدب العربى يلتزم القيود العُرْفِيّة أكثر من الأدب الأوربى، وللقديم حرمة كبيرة عنده. ثم هو شخصى أكثر مما هو عالمى. يضع الشاعر قصيدة فى شخص من الأشخاص ولا يؤلفها فى موضوع من المواضيع. وللشاعر العربى أنفاس متقطعة قصيرة حتى إن كل بيت يمكن أن يكون موضوعا قائما برأسه. أما نَفَسُ الشاعر الغربى فواحدٌ، ولكنه طويل ممتد لا يمكنك أن تقطع من القصيدة بيتا وتجعله مستقلا بمعناه. أما من حيث قدرة اللغة العربية على التعبير عن العلوم والآداب الحديثة فجوابى على ذلك أنها قادرة بإدخال بعض الأصول، أى الجذور، اللاتينية واليونانية. فهذه الجذور دخلت فى اللغات الأوربية للاستعانة بها على

التعبير، ويمكن الأديب أو العالم فى مصر أن يستعين بها أيضا. وقد رأيت أنكم استعملتم جملة لواحق فى الكيمياء مثل "ايك و"اوز" فتقولون: الحمض الكربونيك والجلوكوز. فيمكنكم أ تتوسعوا فى ذلك مع عدم الإفراط...".

ونفس هذا الحكم المضحك عن الأدب العربى قد قاله قبلا السياسى والكاتب والمؤرخ البريطانى ماكولى الذى عاش العقود الستة الأولى من القرن التاسع عشر، إذ "كتب ذات مرة أنه لم يقابل أى دارس للغات الشرقية استطاع أن يقنعه بأن الأدب الشرقى على بكرة أبيه يساوى رفا واحدا من الكلاسيكيات الأوربية". وقد علق عليه آربرى بأنه "لو صح هذا الحكم لكان علينا أن نأسف على الوقت والجهد اللذين أهدرهما مواطنونا الفخورون باستشراقهم. لكنه، والحق يقال، سوء تعبير خبيث فى ناحية منه، ويعكس للأسف جهلا تاما بالحقائق". وقد نقلت كلامه هذا عن كتاب "British Orientalists" للمستشرق البريطانى أ. ج. آربرى، وهذا نصه فى أصله الإنجليزى، وهو موجود فى الفقرة الرابعة من مقدمة الكتاب:

"Macaulay once wrote that he had never met any student of eastern languages who could convince him that the whole of oriental literature was worth a single shelf of the classics of Europe. If this judgment were true, then clearly we must deplore the time and energy wasted by our brilliant but misguided countrymen who have taken pride in their Orientalism. But it is, of course, a partly malicious and, one fears, wholly ignorant misrepresentation of the facts".

وأول وآخر شىء أعلق به على كلام ماكولى هذا هو أن آربرى ذاته قد نعته بالخبث والجهل. وأما بالنسبة إلى كلام نالينو فأقول إننا لو أصخنا إلى نصيحته لانقلبت لغتنا مسخا قبيحا فلا تعود عربية ولا تصير لاتينية أو يونانية. إنه إذا كان ما قاله يصلح فى اللغات الأوربية، وهى قريبة بعضها من بعض، فإنه لا يصلح للغتنا، التى تنتمى إلى مجموعة لغوية مختلفة. أما بالنسبة لحكمه على الأدب العربى وتقليله من شأنه فهو لم يكن متخصصا فى الأدب العربى، بل فى آثار اليمن والفلك ونشوء الفرق الإسلامية وعلاقة الفلسفة العربية بالإغريق القدماء، فكيف تواتيه نفسه على إصدار مثل هذا الحكم الجائر فى أدبنا الكريم الذى يحتاج ذوقا لغويا عاليا ومعرفة مفصلة بالأدب

العربى تاريخا ونصوصا، بينما هو محروم بحكم تخصصه واهتماماته من هذا كله؟ ثم هل يعقل أن يتغشمر أى باحث فيعلن حكما كهذا على لغة كاملة وعلى نصوص أدبها شعرا ونثرا وقصة ومقامة وخطبا وفلسفة وعلوما ورسائل شخصية ورسمية وغير ذلك، وعلى مدى ستة عشر قرنا على أقل تقدير؟ هذا رجل لا يحترم منطقا ولا عقلا ولا ذوقا، وهو يكذب بكل يقين: إن لم يكن عن عمد، أى بلسان المقال، فبلسان الحال بحكم عدم إحاطته بالموضوع وعجزه عن تقديم تقويم صحيح.

وهو يقول إن الأدب العربى يلتزم القيود العرفية أكثر من الأدب الأوربى، وللقديم حرمة عنده. فهل الأدب العربى فى عصر صدر الإسلام هو نفسه الأدب العربى فى الجاهلية، وقد جد عليه القرآن والأحاديث النبوية والخطب الدينية، وانتهت الكهانة وسجع الكهان؟ وهل الأدب فى عصر الأمويين هو نفسه الأدب العربى فيما قبل ذلك؟ وهل جميل بثينة والقيسان وكثير عزة وابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات وبشار وأبو نواس وعباس بن الأحنف وأبو العتاهية والبحترى وأبو تمام والمتنبى وابن حجاج وابن سكرة ويحيى الغزال وابن زيدون والبوصيرى وابن سودون، وغيرهم كثيرون جدا، لا يقدمون فى أشعارهم جديدا؟ وهل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وأبو حيان والمعرى وإخوان الصفا والنقاد العرب الكثيرون وغيرهم كانوا يجرون على التقاليد؟ فأى تقاليد يا ترى؟ هل كان فى الجاهليين كُتَّاب أصلا، فضلا عن أن يكون عندهم أحد كهؤلاء الكتاب؟ وهل كان خطباؤهم كخطباء الفرق الإسلامية مثلا؟ وهل كانت لهم مجالس تقيَّد كما قيد التوحيدى المجالس الثقافية والفلسفية الراقية التى كان يحضرها ويشارك فيها؟ وهل كان لهم كتاب ككتاب "الأغانى" الساحر العجيب أو ككتاب "طبقات الشعراء" لابن المعتز أو كتاب "بلاغات النساء" أو كتاب "مثالب الوزيرين" أو "رحلة ابن فضلان" إلى بلاد البلغار أو مذكرات أسامة بن منقذ عن الصليبيين وعلاقاته بهم؟ وهل كان لهم شىء مثل "رحلة ابن جبير" أو "رحلة ابن بطوطة" أو رحلة يحيى الغزال إلى ملك الدانمارك وأشعاره فى ملكتها مثلا مما ذكر كثيرا منه أغناطيوس كراتشكوفسكى فى كتابه عن "تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب"؟ وهل كان لهم سير كسيرة "عنترة" و"الزير سالم" و"سيف بن ذى يزن" و"الظاهر بيبرس"؟ أم هل كانت لهم "ألف ليلة وليلة" و"المقامات" القصصية الفاتنة؟ وهل كان عند العرب نقاد وبلاغيون كالذين عرفهم الأدب العربى بعد ذلك بطول القرون المتتالية وسبقوا به كثيرا مما طنطن به النقاد الغربيون فى العصر الحديث؟ واضح أن نالينو يقول ما لا يدرك أبعاده بل يخبط خبط عشواء، وكل همه أن يقول إن

الأدب العربى أدب متخلف عن الأدب الأوربى أشواطا وأشواطا. والغريب أن يقول نالينو ذلك بعد أن انفكت عن أدبنا كثير من القيود التى كانت تعوق طلاقة حركته أواخر العصر العثمانى، وقد ظهر فيه المنفلوطى وجرجى زيدان ومحمود طاهر حقى وإبراهيم رمزى وحافظ إبراهيم ويعقوب صروف، ومن قبلهم رفاعة الطهطاوى والشدياق وعلى باشا مبارك واليازجى وبطرس البستانى وأحمد تيمور باشا وأخته عائشة ووردة اليازجية ومى زيادة وباحثة البادية ومحمد المويلحى وعبد الله باشا فكرى وابنه أمين وقسطاكى الحمصى وروحى الخطيب... إلخ. واضح أن نالينو يهرف بما لا يعرف أو يعرف لكن تعصبه قد أعماه عن قول كلمة الحق، وظن أننا سوف نتقبل كلامه على عره وغره بما أنه أوربى.

أما قوله إن الأدب العربى، الأدب العربى كله بتاريخه الطويل المتناوح مما لا يعرفه أى أدب أوربى، هو أدب شخصى أكثر مما هو أدب عالمى، وإن أنفاس الشاعر العربى أنفاس متقطعة قصيرة حتى إن كل بيت يمكن أن يكون موضوعا قائما برأسه، فهو كلام لا يقل تعصبا أو جهلا. فالأدب العربى لا يدور على الأشخاص دائما بل لا يدور على الأشخاص إلا فى جانب ضيق منه. وأغلب الظن أنه يرميه بأنه أدب مديح. والمديح مجرد غرض واحد من أغراض الشعر. وهناك الغزل، ومنه العذرى اليائس الذى تهب منه على وجه القارئ لفحات اللظى المحرق، ومنه الغزل البهيج كغزل عمر والعرجى والأحوص، ومنه الغزل السياسى كغزل عبد الله بن قيس الرقيات. وفى الغزل العذرى تحليل رائع بارع عميق لأغوار النفس الإنسانية حين تقع فى شراك الحب ولا تستطيع التخلص منه بأى حال. وهناك وصف الطبيعة ووصف الآثار ووصف القصور ووصف اجتماعات الشراب واجتماعات العزف والغناء كما فى شعر الأعشى وأبى نواس وابن الرومى. وهناك التفلسف فى الحديث عن الموت والفقد، واللواعج المحرقة المتدفقة من قلب أب مكلوم. وهناك الأشعار السياسية والحربية ووصف المعارك وتمجيد الإسلام ودولته وإبراز انتصاراته فى أبهى زينة. وهناك أشعار المنافحة عن المذاهب والفرق الدينية والجدال مع أصحاب الفرق الأخرى. وهناك أشعار الزهد والدعوة إلى العمل الصالح. وهناك قصائد الشعراء فى دمار المدن وسقوطها وقصائدهم فى خروج الإسلام من الأندلس. وهناك أشعار الهجاء وأشعار المجون وأشعار التظرف وأشعار البذاءة. وهناك أشعار التاريخ كما عند ابن المعتز مثلا. وهناك أشعار ابن الرومى فى الصداقة والصديق وفى موت ابنه. وهناك الشعر القصصى العجيب. وهناك نونية ابن زيدون، وهى لو

وزنت بالشعر الأوربى كله لرجحت عليه. وفى العصر الحديث تتالت الملاحم كما هو معروف، وعلى رأسها "ترجمة شيطان"، ولا أظن أن ثمة شاعرا أوربيا يستطيع أن ينظم مثلها. وهناك الشعر القصصى الغرامى، والشعر القصصى الحربى، والشعر القصصى العام. وهناك وهناك وهناك... إلخ. وفى العصر الحديث حتى نالينو هناك شوقى وحافظ ومطران وإبراهيم اليازجى ونجيب الحداد، فكيف يقدم نالينو على المجاهرة بهذا الرأى الفطير الجاهل المثير للقهقهة؟ وكيف يقول ذلك متناسيا أن الآداب الأوربية تدين لأدبنا العربى بالكثير والكثير، ومنها "الكوميديا الإلهية"، التى لم تشدّنى ولم تغرنى بمتابعة قراءتها بل أَمَلَّتْنى؟

ترى هل هناك أدب أو شعر أمة كامل يدور كله من أوله لآخره حول أشخاص؟ هذا خبل فى العقل ليس له وصف إلا هذا. أما قوله إن الشاعر العربى كان يضع حمولته الفكرية أو الشعورية كلها فى البيت الواحد فتكون الأبيات غير مترابطة فإنه مرة أخرى لم يفهم طبيعة الشعر العربى، إذ المقصود الحمولة النحوية بحيث يكون الفعل والفاعل أو الفعل ونائب الفاعل معا، وكذلك المبتدأ والخبر، أو إن كان لا بد فالمبتدأ بكل متعلقاته فى بيت، والخبر بمتعلقاته فى البيت الذى يليه حتى يكون هناك نوع من التوازن، أما الارتباط الفكرى والشعورى بين الأبيات فقائم فى كثير جدا من الأحوال. وهذا لا يمنع إمكانية أخذ بيت أو عدة أبيات واستعماله حكمة أو مثلا أو ما إلى ذلك. وهذا موجود عند شكسبير وغيره من شعراء أوربا، وجميع القراء يعرفون هذا. وهو مبعث فخار لا انتقاد وعيب كما يريد نالينو بتعصبه وجهله أن يوهمنا.

والغريب أن نالينو الذى عاب شعرنا وأدبنا على هذا النحو هو ذاته الذى قال فى ذلك الأدب فى العصر الجاهلى: "ومن المشهور أن العرب القدماء من أكثر الأمم شعرا لهم فيه التصرف العجيب والاقتدار اللطيف. دونوا عواطفهم وأعمالهم ومفاخرهم" (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى العصر الأموى/ ٥١)، ووصف ما وصلنا من شعر الجاهلية بأنه "فى غاية الإتقان وزنا وتقفية وفى نهاية التفنن من الافتخار والتحضيض والزجر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والرثاء، وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة، ومتانة التراكيب إلى رشاقة الأساليب" (المرجع السابق/ ٥٤). وهو يعجب بشعر تأبط شرا والشنفرى، وبخاصة ما كتبه الأول عن الغول، ولامية الثانى غاية الإعجاب (ص٥٧- ٥٨). كما يعجب بالمعلقات إعجابا شديدا مع اختلاف الأسباب التى تدفعه إلى الإعجاب بهذه المعلقة أو تلك. وقل مثل ذلك فى سائر

شعر الجاهليين بوجه عام مع حرصه على إبراز الموضوعات التى نظموا فيها، ومعظمها بعيد عن الأشخاص عكس ما زعم هو نفسه فى حواره بعد ذلك بمجلة "الهلال" بنحو عشرين سنة. وقد أضاف بعد عدة صفحات قوله: "وهو غاية الجمال والإتقان لفظا وعروضا"، "كان الشعر ديوان أفكار العرب وخواطرهم وعواطفهم كأنه دفتر عظيم قيدوا فيه عوائدهم واعتقاداتهم وأمثالهم ومآثرهم"... إلخ. وهو وما قاله بعد ذلك عن الشعر الإسلامى والشعر الأموى مصداقٌ لما قلته فى الرد على دعاواه السخيفة عن الشعر العربى، إذ تحدث عن الوصف والسخرية والقصص وسرد وقائع المعارك والرثاء والتأمل فى معانى الموت والفقد... وهلم جرا مبديا إعجابه بذلك.

ومع هذا كله مما قلناه ومما لم نقله نرى كارلو نالينو، على العكس من موقفه من الأدب والشعر العربى الذى أعلنه فى حواره بمجلة "الهلال"، يثنى على العلم العربى والعلماء العرب القدامى ويؤكد أننا يجب أن ندرس جهودهم وإنجازاتهم فى ميدان العلوم المختلفة رغم أن العلم الحديث قد جَبَّ معظم ما كان يقال قديما. ذلك أنه لولا أولئك العلماء وجهودهم ما كان العلم الحديث. ومن ذلك ثناؤه الكبير على القفطى صاحب "الحكماء" رغم ما عثر عليه فى كتابه من أخطاء وأسهاء، إذ إن هذه هى الطبيعة البشرية لا معدى لها عن ذلك. وهو ما ينبغى أن نحيى مستشرقنا الإيطالى عليه كما انتقدناه انتقادا شديدا حين رأيناه يعمل على الغض من آدابنا وإبداعاتنا القديمة والحديثة شامخا بأنفه فى غير موضع للشموخ بالأنف، إذ هو شموخ قائم على الزيف والتنفُّج الكاذب. لا بل إنه فى مقدمة ذلك الكتاب يقول لطلابه فى الجامعة المصرية إنكم باهتمامكم بالعلم وبالفلك تحوزون خيرى الدنيا والآخرة. وهو كلام عجيب، إذ لا يقول هذا الكلام فى هذا السياق للطلاب المسلمين إلا مسلم. وبطبيعة الحال لم يكن نالينو مسلما بل قال ما قال على سبيل المجاملة ليس إلا. ولكنه فى دراسة له ترجمها د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية- دراسات لكبار المستشرقين" (مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٤٠م) يتهم المعتزلة بأنهم ليسوا أحرارا فى الفكر. وسبب اتهامه لهم بهذه التهمة أن أحد العلماء النصارى، وهو ابن جَزْلَة، كانت له صلة علمية بهم، فعرضوا عليه الإسلام مرارا حتى أسلم. فعد نالينو ذلك مناقضا لحرية الفكر (ص٩٦- ٩٧). وأنا فى الواقع لا أدرى أين تلك المناقضة المزعومة. فحرية الفكر ليس معناها ألا أدعو أحدا إلى اعتناق معتقدى، بل معناها ألا أكره الآخرين على اعتناق هذا المعتقد. ذلك أن كل إنسان يتصور أنه على الحق وأن غيره أخطأ الطريق، ومن ثم يرى أن واجبه يفرض عليه أن يدعو الآخرين إلى نهجه كى

يفوزوا معه بالعاقبة الحسنى. ثم إن نالينو نفسه عقب احتلال إيطاليا لليبيا بعد هذا الوقت بقليل قد انضم إلى سلطات الاحتلال وساعدهم فى تمكين أقدام إيطاليا هناك، وكانت إيطاليا تعمل على نشر النصرانية فى تلك البلاد كما هو معروف.

وفى مقال نالينو المسمى: "حول فكرة غريبة منسوبة إلى الجاحظ عن القرآن" والموجودة ترجمته فى كتاب "التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية- دراسات لكبار المستشرقين" لعبد الرحمن بدوى ينقل مستشرقنا الإيطالى عن ابن الراوندى أن الجاحظ كان يقول إن "القرآن جسدٌ يجوز أن يُقْلَب مرة رجلا، ومرة حيوانا"، ويدخل فى بحث طويل ومقارنات بين هذه المقالة وأمثالها من المقالات عند هذا المفكر أو ذلك من مفكرى المسلمين شارحا محققا مدققا مفصصا الشعرة والشُّعَيْرَة، وعند من ترجمها من المستشرقين وأخطائهم فى الترجمة، وهو ما يحسب له بكل يقين، لكنه نسى شيئا واحدا مهما لو أنه قام به فى المبتدإ ما كان هذا المقال أصلا أو فصلا. ألا وهو: هل قال الجاحظ هذه المقالة فعلا؟ فإن كان قالها فأين هى من كتبه ورسائله؟ ولماذا لم يذكرها عنه أحد قبل ابن الراوندى؟ وهل يعقل أصلا أن يقول الجاحظ الواسع العقل الكبير الذهن العميق العلم الموسوعى الثقافة الحاضر النادرة العميق الإيمان المعتقد للتجريد التام مثل هذا الكلام المضحك الذى هو بعقول العوام أو المخبوطين فى عقولهم أشبه؟ الحق أن الإجابة على هذه الأسئلة لا يمكن أن تقودنا أبدا إلى أن المقولة المذكورة هى من بُنَيَّات عقل الجاحظ وقلمه. لقد بدأ المقال الذى كتبه نالينو بعبارة منسوبة على لسان ابن الراوندى إلى الجاحظ نعتها نالينو نفسه بالغرابة، ولكن سرعان ما ابتعد الكلام عن الجاحظ إلى علماء آخرين، حتى إذا ما مضينا قليلا فى القراءة نسينا الجاحظ ونسينا أننا ما كنا لنكون هنا لولا تلك المقالة المعزوة له، وحتى إذا ما بلغنا نهاية المقال كان الجاحظ قد ابتعد ابتعاد المجرات التى وراء الشمس عنا؟

٤- شارل بيلا

شارل بيلا (Charles Pellat) مستشرق فرنسى ولد سنة ١٩١٤م فى الجزائر، وعاش بين الجزائر والمغرب الأقصى، الذى درس فيه ردحا من الزمن ثم فرنسا حيث حصل على الأجريجاسيون فى اللغة العربية، ثم على دكتوراه الدولة فى الآداب من جامعة باريس. وصار مدرسا فى مراكش، وبعدها عاد إلى باريس حيث صار، بعد تقلب فى عدة وظائف تعليمية، أستاذا فى معهد الدراسات الإسلامية، ثم أصبح مديرا لهذا المعهد. كما انتخب عضوا فى أكاديمية النقوش والآداب الجميلة.

وتدور معظم أعمال بيلا حول الجاحظ، ومنها "الوسط العلمى فى البصرة وتنشئة الجاحظ، والإمامة فى مذهب الجاحظ، والجاحظ ومذهب الخوارج، والجاحظ والهند، والنصرانية فى نظر الجاحظ"، إلى جانب مجموعة من الرسائل التى نشرها للجاحظ، سواء بالعربية كرسالة "التربيع والتدوير" و"رسالة فى نفى التشبيه" أو مترجمة إلى الفرنسية مثل "كتاب البخلاء". ومن كتبه الأخرى التى لا تتعلق بالجاحظ "اللغة والأدب العربيان" و"اللغة العربية الحية" و"مدخل إلى اللغة العربية الحديثة" و"الموسوعات فى العالم العربى" و"ديوان ابن سهل الأندلسى" (بالعربية)، و"نصوص عربية"، وهو كتاب يحتوى على مجموعة من النصوص اليونانية واللاتينية والفارسية المتعلقة بالعد بالأصابع إلى جانب النصوص العربية. كذلك اهتم بيلا باللغة البربرية وكتب أبحاثا حولها. وبطبيعة الحال قد أشرف على عدد كبير من الرسائل الجامعية للطلاب العرب والمسلمين والأوربيين كما يفعل الأساتذة الجامعيون فى كل مكان.

ويقول بيلا فى كُتَيِّبه: "أصالة الجاحظ"، الذى ترجمه إلى العربية محمد عزيز الحبابى، إن الدهر قد أكل على كتب الجاحظ وشرب ولم يعد أحد يهتم بها، وإن مخطوطات كتبه قليلة مما يدل على أن الاهتمام به بين العرب فى القرون الوسطى كان ضئيلا. ولا أدرى من أين له بهذا الحكم، والجاحظ طوال القرون المتتالية وفى كل أنحاء العالم الإسلامى كان ولا يزال يشغل العلماء والكتاب على اختلاف ألوان كتاباتهم وتوجهاتهم فى الاعتقاد والرأى والأدب، فيتحدثون عنه وعن كتبه مادحين معجبين، ويستشهدون بكلامه فى كتبهم ورسائلهم مهما كان موضوعها، ويحللون فكره وأسلوبه تحليلا.

وفى الجزء الثانى من كتاب "تاريخ آداب اللغة العربية" لمحمد دياب، وهو مطبوع عام ١٩٠٠م، ترجمة للجاحظ فى صفحة كاملة من كتاب غير طويل إذ لا يبلغ ٢٥٠ صفحة أتى فيها بأهم ما ينبغى معرفته عن ذلك الأديب العظيم ذاكرا بعض مؤلفاته، وموردا فى خلال ذلك كلام ابن العميد فى أن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا. وفى الجزء الثانى من "تاريخ آداب اللغة العربية" أيضا لجرجى زيدان حديث مفصل عنه فى موضعين: الأول ترجم فيه للجاحظ وألم بالخطوط العريضة من حياته وشخصيته وآرائه وأفكاره وذكر أشهر كتبه، والثانى حلل فيه أسلوبه تحليلا جيدا مفيدا. وفى عام ١٩٣١م صدر كتاب "أدب الجاحظ" للسندوبى، وهو بحث تحليلى فى حياة الرجل وسيرته وأدبه وعلمه وفلسفته وبيان خصائصه ومميزاته ووصف لمصنفاته وعرض لنوادره وفكاهاته. وقد سبق السندوبى شارل بيلا وغيرَه إلى كثير مما ذكروه عن الجاحظ وشخصيته وأدبه وعقله وفكره وأسلوبه فى صفحات تتلو صفحات إلى جانب كثير مما لم يتطرقوا إليه. وفى عام ١٩٣٧م نشر محمد كرد على كتابا كبيرا بعنوان "أمراء البيان" كسر فيه قسما كبيرا منه على الجاحظ وكتبه وأدبه وفكره وحلل شخصيته وأسلوبه. وناهيك بمحمد كرد على اهتماما بمن يكتب عنه.

والعجيب أن شارل بيلا قد رجع عن هذا الحكم بعد قليل فى الكتيب الذى معنا الآن فقال إن أهل الحكم فى عصره رأوا نثره أشد وقعا من الشعر، كما أن النقاد لم يبخسوه حقه بل ضربوا به المثل فى إتقان اللفظ وإجادة المعنى. وزاد فقال إن أسلوبه نسيج وحده، وإن القدماء أعجبوا به غاية الإعجاب، وبخاصة أنه كان قريبا من الشعر. ثم عاد بيلا كرة أخرى فى آخر كتيبه فقال إن الجاحظ لم يحظ بالاهتمام فضلا عن الإعجاب بين العرب، إذ لا كرامة لنبى فى وطنه. وهو ما يعنى أن الجاحظ لم يكن أحد يبالى به، وقد ذهبت جهوده أدراج الرياح ولم يكن له تلاميذ، وذلك على نقيض ما نعرفه ورأيناه على مدى تاريخنا الأدبى الطويل. وهكذا يتناقض بيلا مع نفسه على هذا النحو الغريب!

ومما قاله شارل بيلا فى "أصالة الجاحظ" أن أحدا لم يكن يعرف شيئا عن "رسالة التربيع والتدوير" بله أن يهتم بها قبل أن ينشرها فان فلوتن المستشرق الهولندى فى أول القرن العشرين. قال بيلا هذا رغم أن القدماء تحدثوا عن هذا الكتاب حديث الإعجاب والتقدير العالى كما فى "مثالب الوزيرين" للتوحيدى، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموى، و"نشوار المحاضرة" للقاضى

التنوخى مثلا. ثم لم يكتف بيلا بدعواه تلك بل أردفها بدعوى ثقيلة أخرى هى أن هذه الرسالة ظلت لغزا من الألغاز إلى أن بلغ مراده منها بعد جهد طويل وكد لا يتوهمه القارئ، مع أن الساسى قد طبعها فى أوائل القرن العشرين بعد سنتين أو ثلاث من طبعة فلوتن، التى لا أظنها كانت معروفة فضلا عن أن تكون منتشرة فى البلاد العربية. كذلك وصف السندوبى تلك الرسالة وصف العارف بكل شىء فيها، وخصص لها نبذة فى كتابه عن أدب الجاحظ جال خلالها جولة أعطتنا موضوعها وزبدة ما فيها وحكم عليها حكم من قرأها جيدا ورازها كما ينبغى وعَلِمَ قيمتها وأهميتها. كل ذلك قبل أن يكتب بيلا شيئا عن الجاحظ بنحو خمس وعشرين سنة حين نشرها فى دمشق سنة ١٩٥٥م.

وفى كتاب محمد كرد على: "أمراء البيان"، الذى صدر سنة ١٩٣٧م، فصل كامل عن الجاحظ يضم صفحات طويلة للفكاهة والمزاح والهزل لدى كاتبنا الكبير اهتم فيها برسالة "التربيع والتدوير" اهتماما شديدا وفصل القول فيها تفصيلا. فكيف يجرؤ شارل بيلا على إنكار كل تلك الحقائق الساطعة فيزعم أن أحدا لم يكن يعلم عن تلك الرسالة شيئا إلى أن أرسلته العناية الإلهية فأخرجها من الركن الذى كانت مطمورة فيه تحت طبقات الأتربة والقمامة؟ بل بأى وجه تشجع وادعى أن الجاحظ نفسه لم يكن يشغل أى حيز من اهتمامات العلماء والكتاب والأدباء والنقاد طوال قرون إلى أن أتى هو وأعاد إليه قدره واعتباره؟ كذلك كتب الدكتور شوقى ضيف عن الجاحظ فى كتابه: "الفن ومذاهبه فى النثر العربى" فضلا ضافيا طويلا تناول فيه حياته وحلل فيه شخصيته واستخلص سمات أسلوبه وفنه وعالج الكلام عن مؤلفاته، ثم وقف وقفة مطولة إزاء "رسالة التربيع والتدوير". وهذا كله يكذب مزاعم بيلا تكذيبا. وبالمثل فإن شفيق جبرى قد سبق بيلا إلى الحديث عن "رسالة التربيع والتدوير" فى الفصل الخاص بتهكم الجاحظ من كتابه: "الجاحظ معلم العقل والقلب" الصادر عام ١٩٤٨م، فوقف بوجه خاص لدن هذه الرسالة فعرضها وفَلَّاها وحللها وأورد منها استشهادات غير قليلة.

كذلك يقول بيلا فى كتيبه المذكور إن الكتاب يصفون الجاحظ بأنه "معلم العقل والأدب" دون أن يحققوا معنى تلك العبارة. والواقع أن هذه الكلمة هى لابن العميد الوزير الأديب الخطير، وقد تناقلتها كتب الأدب عبر العصور مقرين بصدقها ودقة انطباقها على الرجل إلى أن وصلنا فى العصر الحديث إلى تحقيق حسن السندوبى لكتاب "البيان والتبيين"، الذى حمل إلى جانب

عنوانه تلك العبارة ممهورة باسم صاحبها، والذى افتتحه السندوبى بمقدمة لا أروع ولا أبدع فى تحليل عقل الرجل وعلمه وفنه الأدبى، وكان ذلك قبل صدور كتابه: "أدب الجاحظ" بأعوام. ومثله فى ذلك كتاب شفيق جبرى: "الجاحظ معلم العقل والقلب"، الذى حلل فيه عقل الجاحظ وتجاربه العلمية وأدبه البديع وفلسفته العميقة ونقده الذكى الواعى ولغته المتميزة وأسلوبه الذى هو نسيج وحده فى التحليل والتعليل والتصوير والجدال... إلى آخر ما ألفه كتاب العرب فى عصرنا حول هذا الرجل العجيب وفنه وفكره الأعجب، وهو كثير ومتنوع. وإذا نظرنا فى كتابى السندوبى وشفيق جبرى مثلا فسنرى كيف توهج قلم كل منهما فى درس الجاحظ والكتابة عنه وتجلية مناحى شخصيته والجولان فى أعماق عبقريته وسنلمس كم كان شارل بيلا سخيفا حين ظن أن علماء العرب وفلاسفتهم وأدباءهم وشعراءهم ومفكريهم وكتابهم ودارسيهم فى تلك البضعة عشر قرنا كانوا يجهلون معنى أن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا، والأدب ثانيا، إلى أن جاء هو الأعجمى فعَرَّفَنا نحن العرب كيف تُعَلِّمِ كتب الجاحظ العلم والأدب!

والغريب أن شارل بيلا يدعو من يقرأون كلامه هذا ألا يظنوا به قلة التواضع. طبعا، فكلامه هذا يدل على تواضع لم نسمع به فى الأولين ولا فى الآخرين. وبالمناسبة فإن الإنسان ليخرج من المادة التى خصصها لبيلا د. عبد الرحمن بدوى فى "موسوعة المستشرقين" بأنه من الناحية العلمية وسط: مفيد، وعنده استقصاء، لكنه فى عمومه غير عميق فيما يتناول من موضوعات. وحكم د. بدوى عليه يخلو من الغبن والإجحاف، فهو فعلا فيما كتبه عن الجاحظ متوسط القامة والقيمة رغم تصايحاته عن إنجازاته الجاحظية التى يريد إيهامنا بأنها ليس لها ضريب. ومما هول به المهولون أيضا فى أمره تلقيبه بـ"صانع الدكاترة" كما جاء فى الصفحات الأولى من كتيب محمد الجويلى: "شارل بيلا". وهو لقب مضحك، إذ ما من أستاذ جامعى إلا ويخرج من تحت يده عشرات الحاصلين على الدكتوراه. فهذا مما هو معلوم من الأستذة الجامعية بالضرورة، لكن ذوى الغرض يريدون إيهام القراء بأن شارل بيلا هو وحده الذى فعل هذا أو هو وحده الذى يستحق أن نسميه بهذا. أيصحّ أن نقول عن إنسان بعينه دون العالمين إنه "شخص يأكل ويشرب"؟ فهذا مثل هذا.

ومما كتبه المجدولى فى كتيبه هذا أن بيلا قد حرر الدراسات العربية من المركزية الأوربية، فصار أولاد العرب يشاركون فى دراستها هم أيضا. وهو زعم سخيف ويبعث على القهقهة، إذ معناه

أن أولاد العرب لم يكونوا يدرسون حضارة أمتهم وثقافتها وآدابها وتاريخها ورجالها قبل أن يهل على الكون شارل بيلا ويشرف على المبعوثين العرب إلى فرنسا. إن بيلا ليس سوى واحد فقط من المستشرقين الفرنسيين وغير الفرنسيين الذين كانوا وما زالوا يشرفون على المبعوثين العرب والمسلمين إلى الجامعات الأوربية. وقبل هذه الجامعات الأوربية هناك الجامعات العربية والإسلامية، وفيها يدرس الطلاب العرب والمسلمون. والعبد لله قد خرج من تحت يديه عشرات الدكاترة، وما أنا إلا واحد من مئات، إن لم يكن من آلاف، الأساتذة العرب والمسلمين الذين يشرفون حاليا على دارسى الدكتوراه من أبناء العرب والمسلمين. فلا داعى بل لا معنى إذن لهذه التشنجات اللامنطقية فى التحمس لشخص من الأشخاص، وبخاصة أن الأساتذة الغربيين يعملون على نحو أو على آخر على صبغ عقول ونفوس المبتعثين إلى جامعات بلادهم بصبغة التبعية للفكر الغربى وسلخهم عن ثقافتهم القومية والإسلامية.

وقد قال المجدولى ذلك دفاعا عن بيلا، الذى أخذ عليه الآخذون أنه لم يفكر يوما فى إدانة الاستعمار الفرنسى لبلاد المغرب العربى وجرائمه الوحشية هناك. أرأيتم دفاعا أسخف وأتفه من هذا الدفاع؟ إن بيلا بالعكس من ذلك كان يساعد فرنسا على سحق العرب والمسلمين، وكان يشتغل فى مخابراتها. كما اشتغل بالدعاية لفرنسا بين العرب فى الشمال الأفريقى لكى يقف العرب المسلمون هناك مع الاستعمار الفرنسى لبلادهم ضد ألمانيا، وقبل ذلك اشتغل ضابطا فى الجزائر، ولا أظن ذلك الضابط كان يربت على أكتاف الجزائريين الذين كانت بلاده تحتل بلادهم وتنزل بهم صنوف الويل والثبور وتغتصب ثرواتهم وتقتل منهم الآلاف المؤلفة حتى صارت الجزائر تسمى: بلد المليون شهيد. والبركة فى الضباط والجنود الفرنسيين الذين اعتمدت عليهم بلادهم فى إخضاع الجزائر والتنكيل بالجزائريين والذين كان بيلا واحدا منهم.

ومما أقف إزاءه مما يتعلق ببيلا أيضا قوله فى الكتاب الذى بين أيدينا ما يفهم منه أن الفرس كلهم كانوا بعد الإسلام يدينون بدياناتهم القديمة سرا وأنهم كانوا طابورا خامسا ضد أمة المسلمين. وهذا كلام غريب غير مقبول. نعم لقد كان هناك شعوبيون، لكن الشعوبية لم تكن تغطى الفرس جميعا ولا كان الشعوبيون فرسا فقط بل كان هناك شعوبيون آخرون من الأمم المختلفة. لقد كان الفرس بعامة أمة مسلمة، بل هم حتى الآن أمة مسلمة تتمسك بدين الله رغم اختلافهم فى اتجاه تدينهم عن أهل السنة. كما أن الشعوبية لم تكن كلها لونا واحدا، ولم تكن كلها زندقة بل كان

هناك من يشعر فقط بالغبن لأنه كالعرب سواء بسواء فى انتمائه للإسلام، فكان يتوقع أن يعامَل كالعربى على قدم المساواة، لكن الواقع لم يكن كذلك دائما، فآلمه ذلك وأطلق لسانه بالغضب، لكنه ظل مسلما متمسكا بدينه. وعندنا أيضا حالة بشار، الذى قيل عنه إنه شعوبى يحمل على العرب ويتنقص منهم فى حين أنه ما كان ليمسهم بكلمة سوء لو لم يعتد عليه ويحقر من شأنه أحد الأعراب فى مجلس أحد العرب، إذ أبدى نحوه عنجهية مقيتة ونفى أن يكون العجم قادرين على نظم الشعر كالعرب، مما كان من نتيجته أن استأذن الشاعرُ الفارسىُّ صاحبَ الدار العربى التى أهين فيها ليرد على هذا التحقير، فأذن له. فلو كان بشار يكره العرب ويؤمن بديانته الثنوية الوثنية ما سكت رب البيت على ما قال. ولقد كان هجوم بشار على الأعراب لا العرب. ومعروف أن القرآن قد أصلى الأعراب نار تعنيفه، لكنه لم يمس العرب بسوء.

وبالمثل زعم بيلا أن الهزل بصفة عامة كان مكروها عند العرب لعدم ملاءمته الحلم والوقار، وأن الجاحظ لم يقنع كل المسلمين بأن الهزل فى موضعه محمود مثلما أن الجد فى غير موضعه مذموم. لقد فات شارل بيلا أن كثيرا من الشعر العربى منذ القديم هو شعر هجائى، وأن الشعر الهجائى فى جانب غير قليل منه هو تصوير هزلى للخصم يراد من ورائه إضحاك السامعين من المهجو. وعندنا شاعر مخضرم عاش بين الجاهلية والإسلام هو الحطيئة كان يمسخ بهجائه الهازل من لا يعطونه ما يريد. وعندنا شعراء المربد فى العصر الأموى، وكان كل منهم يجعل من خصمه ومن قوم خصمه مهزلة بشرية. وعندنا بشار، وعندنا أبو الشمقمق، وعندنا أبو دلامة، وعندنا مطيع بن إياس، وعندنا أبو الرقعمق، وعندنا ابن الرومى، وعندنا المتنبى، وعندنا ابن سكرة، وعندنا ابن حجاج، وعندنا ابن سودون، وعندنا ابن حرب... وهلم جرا. وفى إبداعات النثر لدينا "أخبار أبى نواس" لأبى هفان مثلا، و"الأغانى" لأبى الفرج الأصفهانى، و"أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزى، و"الرسالة الهزلية" لابن زيدون، و"التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم" للخطيب البغدادى، و"جمع الجواهر فى الملح والنوادر" للحصرى...

وكان من بين صحابة رسول الله من يهزلون فيضحك النبى من ألاعيبهم. فمثلا "خرج أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ قبل وفاةِ رسولِ اللهِ ﷺ بعامٍ فى تجارةٍ إلى بُصْرَى ومعه نُعَيمانُ بنُ عمرٍو الأنصارى وسُلَيْطُ بنُ حرملةَ، وهما مِمَّن شهِدا بدرًا مع رسولِ اللهِ ﷺ، وكان سُلَيْطُ بنُ حرملةَ على الزّادِ، وكان نُعَيمانُ بنُ عمرٍو مَزّاحًا فقال لسُلَيطٍ: أطعِمْنى. قال: لا أُطعِمُك حتّى يأتى أبو بكرٍ. فقال نُعَيمانُ

لسُلَيطٍ: لأغيظنَّك. فمرُّوا بقومٍ، فقال نُعَيمانُ لهم: تشترون منِّى عبدًا لى؟ قالوا: نعم. قال: إنَّه عبدٌ له كلامٌ. وهو قائلٌ لكم: لستُ بعبدٍ. أنا ابنُ عمِّه. فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تُفسدوا على عبدى. قالوا: لا بل نشتريه ولا ننظُرْ فى قولِه. فاشترَوْه منه بعشرِ قلائصَ، ثمَّ جاؤوه ليأخذوه، فامتنع منهم، فوضعوا فى عُنقِه عِمامةً، فقال لهم: إنَّه يتهزَّأُ، ولستُ بعبدِه. فقالوا: قد أخبرنا خبَرَك. ولم يسمعوا كلامَه. فجاء أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، فأخبروه خبرَه، فاتَّبعَ القومَ فأخبرهم أنَّه يمزَحُ، وردَّ عليهم القلائصَ وأخذ سُلَيْطًا منهم. فلمّا قدِموا على النَّبى ﷺ أخبروه الخبرَ، فضحِك من ذلك رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه عليهم السَّلامُ حولًا أو أكثرَ". كذلك فالحديث التالى يدل على عدم تحريج الإسلام للضحك: "كان رجُلٌ من الصَّحابةِ ضحّاكًا، فذُكِرَ ذلكَ لرسولِ اللّهِ ﷺ، فقال: ما يَعْجَبون؟ إنَّهُ ليدخُلُ الجنَّةَ وهو يضحَكُ". وفى الحديث: "كان أصحابُ النبى ﷺ يتبادَحون (أى يتقاذفون لعبا وضحكا) بالبِطِّيخِ، فإذا كانت الحقائقُ كانوا هم الرجالَ". وكان هو عليه السلام يمازح أصحابه: ففى الحديث أنَّ "رَجُلًا أتى النَّبى ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، احْمِلْنى. فقال النَّبى ﷺ: إنّا حامِلوك على وَلَدِ ناقةٍ. قال: وما أصنَعُ بوَلَدِ النّاقةِ؟ فقال النَّبى ﷺ: وهل تَلِدُ الإبِلَ إلّا النُّوقُ؟". وفيه أيضا أنَّ "امرأةً عجوزًا جاءتْهُ تقولُ لَهُ: يا رسولَ اللهِ، ادع اللهَ لى أنْ يُدْخِلَنى الجنة. فقال لَها: يا أمَّ فلانٍ، إنَّ الجنَّةَ لا يدخلُها عجوزٌ. وانزعجَتِ المرأةُ وبكَتْ ظنًّا منها أنها لن تدخلَ الجنةَ. فلما رأى ذلِكَ منها بيَّنَ لها غرضَهُ أنَّ العجوزَ لَنْ تدخُلَ الجنَّةَ عجوزًا بل يُنشِئُها اللهُ خلقًا آخرَ، فتدخلُها شابَّةً بكرًا. وتَلا عليها قولَ اللهِ تعالى: إنّا أَنشَأْناهُنَّ إنشاءً * فَجَعَلْناهُنَّ أبكَارًا* عُرُبًا أَتْرابًا".

ومن أقواله عليه السلام يحث أصحابه ألا يُفْرِطوا فيجعلوا حياتهم كلها جِدًّا فى جِدٍّ قوله: "ساعة وساعة". وفى حديثِ آخرِ أهلِ النار خروجا من النار عجبٌ من العجب يتمثل فى الحوار الذى يدور بين الله وبين ذلك الرجل: "إذا فرَغَ اللهُ من القضاءِ بين العبادِ وأرادَ أنْ يُخرِجَ برحمتِه مَنْ أرادَ من أهلِ النّار، أمَرَ الملائكةَ أنْ يُخرِجُوا من النارِ مَنْ كان لا يُشرِكُ باللهِ شيئًا مِمَّنْ يقولُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، فيُخرِجُونهمْ ويعرِفُونهمْ بآثارِ السجودِ، وحرَّمَ اللهُ على النارِ أنْ تأكلَ آثارَ السجودِ، فيَخرجُونَ من النارِ وقدِ امْتُحِشُوا، فيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياةِ، فيَنبُتونَ كما تنبُتُ الحبَّةُ فى حميلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفرُغُ اللهُ من القضاءِ بين العباد، ويبْقَى رجلٌ بين الجنةِ والنارِ، وهوَ آخِرُ أهلِ النارِ دُخولًا الجنةَ، مُقبِلًا بوجهِهِ قِبَلَ النار، فيقولُ: يا ربِّ، اصرِفْ وجهِى عنِ النارِ، فقدْ قشبَنِى رِيحُها،

وأحرَقَنِى ذكاؤُها. فيقولُ: هل عَسَيْتَ إنْ فُعِلَ ذلكَ بِكَ أنْ تسألَ غيرَ ذلكَ؟ فيقولُ: لا وعِزَّتِكَ. فيُعطِى اللهَ ما يشاءُ من عهدٍ وميثاقٍ، فيَصرِفُ اللهُ وجْهَهُ عنِ النارِ. فإذا أُقبِلَ بهِ على الجنةِ، ورأَى بَهْجَتَهَا سكَتَ ما شاءَ اللهُ أنْ يسكُتَ، ثُمَّ قال: يا ربِّ! قدِّمْنى عندَ بابِ الجنةِ. فيقولُ اللهُ: أليسَ قدْ أعطيْتَ العهدَ والمِيثاقَ ألا تسألَ غيرَ الّذى كنتَ سألْتَ؟ فيقولُ: يا ربِّ، لا أكونُ أشْقَى خلْقِكَ. فيقولُ: فما عَسَيْتَ إنْ أعطيتُكَ ذلكَ ألا تسألَ غيرَهُ؟ فيقولُ: لا وعِزَّتِكَ، لا أسألُكَ غيرَ ذلكَ. فيُعطِى ربَّهُ ما شاءَ من عهدٍ ومِيثاقٍ، فيقدِّمُهُ إلى بابِ الجنةِ، فإذا بلَغَ بابَهَا فرأَى زهرَتَهَا وما فيها من النَّضْرَةِ والسُّرورِ، فيَسكُتُ ما شاءَ اللهُ أنْ يَسكُتَ، فيقولُ: يا ربِّ، أدخلْنِى الجنةَ. فيقولُ اللهُ: ويْحَكَ يا ابنَ آدمَ! ما أغْدَرَكَ! أليسَ قدْ أعطيْتَ العهدَ والمِيثاقَ ألا تسألَ غيرَ الّذى أُعطِيتَ؟ فيقولُ: يا ربِّ لا تجعلْنِى أشْقَى خلْقِكَ. فيَضحَكُ اللهُ مِنْهُ، ثُمَّ يأذَنُ لهُ فى دُخولِ الجنةِ، فيقولُ: تَمَنَّ. فيتَمنَّى حتى إذا انقطعَتْ أمنِيَّتُهُ قال اللهُ تعالى: زِدْ من كَذا وكَذا. أقبَلَ يُذَكِّرُهُ ربُّهُ، حتى إذا انتهَتْ بهِ الأمانِى قال اللهُ عزَّ وجلَّ: لكَ ذلكَ، ومِثلُهُ معَهُ".

أما الآيات التى استشهد بها شارل بيلا فى مادة "الجد والهزل" بـ"دائرة المعارف الإسلامية" على كراهة الإسلام للضحك اعتمادا على مثل قوله تعالى: "فلْيضحكوا قليلا ولْيبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون" فقد أخطأ عامدا (أو جاهلا؟ لا أظن) فى فهمها، إذ المقصود هو ضحك المنافقين استهزاء بالإسلام ورسوله وكتابه الكريم، وليس الضحك بإطلاق. أى أنهم إذا كانوا يضحكون الآن استهزاء ونفاقا فهو ضحك قليل لأن الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة تعد فى الواقع لاشىء، ولسوف يعقبه فى الحياة الآخرة بكاء طويل وعويل متصل حين يعذبون فى نار الجحيم. والسياق هو سياق الحديث عن المنافقين وضحكهم استهزاء بالوحى وبالرسول وبتعاليم الإسلام. وهذا هو النص كاملا: "فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، وقالوا: لا تنفروا فى الحر. قل: نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا بما كانوا يكسبون". وعبارة "بما كانوا يكسبون" التى اختتمت بها الآية الأخيرة تدل على أن الجزاء المذكور هو بسبب ما كسبوه من نفاق وكفر وتخلف عن الجهاد وعن الدفاع عن الدين لا بسبب الضحك.

وقد كان الرسول عليه السلام يمزح مع أصدقائه ويضحك كما فى حديث عباس بن مرداس السلمى "أنَّ بعضَ الصحابةِ رأى النَّبى ﷺ يضحك، فقال: أضحكَ اللهُ سِنَّكَ"، وعن

عائشة: "إنْ كان رسولُ اللهِ ﷺ لَيُقبِّلُ بعضَ نسائِه وهو صائمٌ ثم يضحَكُ"، وعن بريدة بن الحصيب الأسلمى: "كان النبى ﷺ أكثرَ ما يضحكُ إلا حتى تُرَى أو تبدوَ رُباعِيَتُه". وفى الحديث أيضا "أنَّ النبى ﷺ خرجَ ذاتَ يومٍ وهو يضحكُ وهوَ يقولُ: لنْ يغلبَ عُسرٌ يُسرينِ. إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا". وعن أم حرام: "أتانا رسولُ اللهِ ﷺ فقال عندَنا فاستيقَظ وهو يضحَكُ. قالت: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، بأبى أنتَ وأمِّى ما أضحَكَكَ؟ قال: رأَيْتُ قومًا مِن أمَّتى يركَبونَ هذا البحرَ كالملوكِ على الأَسرَّةِ. ثمَّ نام فاستيقَظ وهو يضحَكُ. قالت: فسأَلْتُه، فقال لى مِثْلَ ذلك. قُلْتُ: ادْعُ اللهَ أنْ يجعَلَنى منهم. قال: أنتِ مِن الأوَّلِينَ". و"كان رجلٌ يُسمّى: عبدُ اللهِ ويلقبُ: حمارًا، وكان يُضْحِكُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ". "بيْنَما المُسْلِمُونَ فى صَلاةِ الفَجْرِ لَمْ يَفْجَأْهُمْ إلّا رَسولُ اللَّهِ ﷺ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عائِشَةَ، فَنَظَرَ إليهِم وهُمْ صُفُوفٌ، فَتَبَسَّمَ يَضْحَكُ، ونَكَصَ أَبُو بَكْرٍ رَضِى اللَّهُ عنه على عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ له الصَّفَّ، فَظَنَّ أنَّهُ يُرِيدُ الخُرُوجَ، وهَمَّ المُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فى صَلاتِهِمْ، فأشارَ إليهِم: أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ، فأرْخى السِّتْرَ وتُوُفِّى مِن آخِرِ ذلكَ اليَومِ". وعن أنس بن مالك: "كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِن أَحْسَنِ النّاسِ خُلُقًا، فأرْسَلَنِى يَوْمًا لِحاجَةٍ، فَقُلْتُ: "واللَّهِ لا أَذْهَبُ"، وفى نَفْسِى أَنْ أَذْهَبَ لِما أَمَرَنِى به نَبِى اللهِ ﷺ، فَخَرَجْتُ حتّى أَمُرَّ على صِبْيانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فى السُّوقِ، فَإِذا رَسولُ اللهِ ﷺ قدْ قَبَضَ بقَفاى مِن وَرائِى، قالَ: فَنَظَرْتُ إلَيْهِ وَهو يَضْحَكُ، فَقالَ: يا أُنَيْسُ، أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟ قالَ: قُلتُ: نَعَمْ، أَنا أَذْهَبُ يا رَسولَ اللَّهِ". وعن عائشة أم المؤمنين أنها "كانت مع رسولِ اللهِ ﷺ فى سَفَرٍ، وهى جاريةٌ [قالت: لم أَحْمِلِ اللَّحمَ، ولم أَبْدُنْ]، فقال لأصحابِه: تَقَدَّموا، [فتقَدَّموا]، ثم قال: تَعالَى أُسابِقْكِ، فسابقتُه، فسَبَقْتُه على رِجْلَىّ، فلما كان بعدُ، خرجتُ معه فى سفرٍ، فقال لأصحابِه: تَقَدَّموا، ثم قال: تعالَى أُسابِقْكِ، ونَسِيتُ الذى كان، وقد حَمَلْتُ اللَّحمَ، [وبَدُنْتُ]، فقلتُ: كيف أَسابِقُكَ يا رسولَ اللهِ وأنا على هذه الحالِ؟ فقال: لَتَفْعَلِنَّ. فسابقتُه، فسبقَنى، فـ(جعل يضحكُ، و) قال: هذه بتِلْكِ السَّبْقةِ". وعن أنس بن مالك أنَّ" أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يومَ حُنَيْنٍ خِنجَرًا، فكانَ معها، فَرَآها أَبُو طَلْحَةَ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، هذِه أُمُّ سُلَيْمٍ معها خِنجَر. فَقالَ لَها رَسولُ اللهِ ﷺ: ما هذا الخِنْجَرُ؟ قالَتْ: اتَّخَذْتُه. إنْ دَنا مِنِّى أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ بَقَرْتُ به بَطْنَهُ. فَجَعَلَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ". وعن أم سلمة أم المؤمنين أنَّ

"توبةَ أبى لُبابةَ نزلت فى بيتى، فسمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يضحكُ فى السَّحَر، فقلتُ: ما يُضحكُكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: تِيب على أبى لُبابةَ". وعن سعد بن أبى وقاص: "استأذنَ عمرُ رضى اللَّهُ عنهُ على النَّبى ﷺ، وعندَهُ جَوارٍ قد علَتْ أصواتُهُنَّ على صَوْتِهِ، فأذِنَ لَهُ، فبادرْنَ فذَهَبْنَ، فدخلَ عمرُ ورسولُ اللَّهِ ﷺ يضحَكُ، فقالَ عمرُ رضى اللَّهُ عنهُ: أضحَكَ اللَّهُ سنَّكَ يا رسولَ اللَّهِ، بأبى أنتَ وأمِّى. قالَ: قد عَجِبْتُ لجَوارٍ كنَّ عندى، فلمّا سمِعنَ حِسَّكَ بادرنَ فذَهَبْنَ". "قالَت عائشةُ: "صَنعتُ حريرةً، وعِندى سودَةُ بنتُ زَمعةَ جالِسةٌ، فقُلتُ لَها: كُلى. فقالت: لا أشتَهى ولا آكلُ. فقلتُ: لتأكُلِنَّ أو لأُلطِّخنَّ وجهَكِ. فلطَّختُ وجهَها، فضحِكَ رسولُ اللَّهِ صلّى اللَّه عليهِ وعَلى آلِهِ وسلَّمَ وَهوَ بينى وبينَها، فأخذَتْ منها فلطَّخَت وجهى، ورسولُ اللَّهِ صلّى اللَّه عليهِ وعلى آلِهِ وسلَّمَ يضحَكُ". "يخرجون من النارِ رجلًا فيقولُ له (ربه): هل عملتَ خيرًا قطُّ؟ فيقولُ: لا غيرَ أنِّى أمرتُ ولدِى: إذا أنا مِتُّ فأحرِقونى بالنارِ ثم اطحنونى حتى إذا كنتُ مثلَ الكحلِ فاذهبوا بى فى البحرِ فاذرُونى فى الريحِ. فواللهِ لا يقدرُ علَى ربُّ العالمين أبدًا. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ له: لِمَ فعلتَ ذلك؟ قال مِن مخافتِك. قال: فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: انظرْ إلى مُلْكِ أعظمِ ملِكٍ فإن لك مثلَه وعشرةَ أمثالِه. قال: فيقولُ: لِمَ تسخرُ بى، وأنت الملِكُ؟ قال (صلى الله عليه وسلم): وذاك الذى ضحكتُ منه من الضُّحَى"...

فكيف يزعم هذا المستشرق أن الإسلام دين بكاء لا ضحك، وأن من يضحك فله عقاب أليم طويل؟ الحق أن دعوى بيلا بأن الإسلام دين حزن ودموع هى دعوى منكرة. وأرجح بل قد أؤكد أنه كان يعرف هذا الذى أقول، لكنه يريد تصدير صورة قاتمة عن الإسلام عامدا متعمدا لتنفير الناس منه مسلمين وغير مسلمين. بل لقد أسند الرسول عليه السلام إلى الله "الضحك" فى أكثر من حديث: "ضَحِكَ رَبُّنا عزَّ وجلَّ من قُنُوطِ عبادِهِ، وقُرْبِ غِيَرِهِ، فقال أبو رزينٍ: أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ؟ قال: نَعَمْ. فقال: لَنْ نَعْدَمَ من رَبٍّ يَضْحَكُ خيرًا"، "يضحكُ اللَّهُ إلى رَجُلَيْنِ يقتُلُ أحدُهما الآخَرُ كلاهما يدخلُ الجنَّةَ"، "ثلاثةٌ يضحكُ اللَّهُ إليهِمْ: الرَّجلُ إذا قام باللَّيلِ يصلِّى، والقومُ إذا صَفُّوا فى الصلاةِ، والقومُ إذا صَفُّوا فى قتالِ العدوِّ"، "أفضلُ الجهادِ عند اللهِ يومَ القيامةِ الَّذين يلتقون فى الصَّفِّ الأوَّلِ فلا يلفتون وجوهَهم حتّى يُقْتَلوا. أولئك يتلبَّطون فى الغرفِ من الجنَّةِ يضحكُ إليهم ربُّك. وإذا ضحِك إلى قومٍ فلا حسابَ عليهم"، "ألا إنَّ اللَّهَ يضحَكُ إلى رجلينِ: رجلٌ قامَ فى ليلةٍ باردةٍ من فراشِه ولحافِه ودثارِه فتوضَّأَ ثمَّ قامَ إلى الصَّلاةِ، فيقولُ اللَّهُ عزَّ

وجلَّ لملائِكتِهِ: ما حملَ عبدى هذا على ما صنعَ؟ فيقولونَ: ربَّنا رجاءَ ما عندَك، وشفقةً ممّا عندَك. فيقولُ: فإنِّى قد أعطيتُه ما رجا، وأمَّنتُه ممّا يخافُ". وفى المرحلة النهائية من قصة آخر أهل النار خروجا منها يقول الله تعالى له: "أوَليسَ قدْ زَعَمْتَ ألا تَسْأَلَنِى غَيْرَهُ؟ ويْلَكَ يا ابْنَ آدَمَ! ما أغْدَرَكَ! فيَقولُ: يا رَبِّ، لا تَجْعَلْنِى أشْقَى خَلْقِكَ. فلا يَزَالُ يَدْعُو حتَّى يَضْحَكَ، فَإِذَا ضَحِكَ منه أذِنَ له بالدُّخُولِ فِيهَا (أى فى الجنة)، فَإِذَا دَخَلَ فِيهَا قيلَ له: تَمَنَّ مِن كَذَا. فَيَتَمَنَّى، ثُمَّ يُقَالُ له: تَمَنَّ مِن كَذَا. فَيَتَمَنَّى حتَّى تَنْقَطِعَ به الأمَانِى، فيَقولُ له: هذا لكَ ومِثْلُهُ معهُ". بل إن القرآن لينسب السَّخَر والاستهزاء إلى الله سبحانه وتعالى من المنافقين. وبطبيعة الحال فإن إسناد الضحك والسَّخَر والاستهزاء إلى الله هو إسناد مجازى، لكن مغزى الإسناد واضح فيما نحن بسبيل الحديث فيه.

وثم قضيةٌ جِدُّ مهمةٍ أثارها جليل العطية فى صحيفة (الشرق الأوسط/ الأربعاء ٣ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ- ٢٥ يوليو ٢٠٠١م)، ألا وهى: هل كان بيلا مخبرا أم هل كان مستشرقا وعاشقا للشعر العربى القديم؟ فهو، كما قال، قد خدم المخابرات الفرنسية عدة سنوات ثم كرس حياته للجاحظ. ثم أوجز مسيرة حياته إلى أن تقاعد سنة ١٩٧٨م، وإن كان قد ظل يواصل النشاط العلمى والإشراف على الرسائل العلمية وإلقاء المحاضرات هنا وهناك حتى داهمه المرض وافترسه سرطان الرئة سنة ١٩٩٢م، وعنده تسعة وسبعون عاما. ثم أفاض العطية فى التغنى بمواهب بيلا العلمية، وهى مواهب متوسطة فى رأيى. وأزيد القارئ من الشعر بيتا فأشير إلى دراسته: "النثر العربى ببغداد"، التى أعدّها بمناسبة الذكرى الألفية لتأسيس بغداد (١٩٦٢م) وقال فيها: "إننا نستطيع ان نعتبر أن النثر الأدبى قد استكمل عند وفاة الجاحظ جميع مقوماته وبلغ درجة يندر على كتاب القرون الموالية إدراكها، إذ إن فن الجاحظ لا يخضع لأية مقارنة. وقد اهتدى النقاد المحليون إلى تلك الحقيقة فاتخذوا لقبه شعارا للعبقرية الأدبية دون أن يبينوا لنا ما يعجبهم فى كتابته. ولو أردنا أن نحدد بإيجاز خصائص أسلوب الجاحظ لقلنا إنه يمتاز بطول الجملة المركبة وجزالتها. ومما لا ريب فيه أن الجاحظ ليس بالكاتب السهل وأن معانيه التى قد تتوارد بطريقة عشوائية ليست دوما واضحة التسلسل، ومن ثمة ندرك أن نسق الجملة المركبة بوصلها وفعلها يعزب فهمه عمن لا خبرة له بنحو الجمل".

فهذا ما قاله بيلا فى ذلك الموضوع، وهو كلام عادى بل أقل من العادى ولا يكاد يقول شيئا، بل لا يصح أن يكون هو كل بضاعته فى مؤتمر عالمى. وقد رأينا فى الصفحات الفائتة كيف

حلل النقاد المحليون، كما يسمى مستشرقنا الفرنسى النقادَ العرب، أسلوب الجاحظ وفكره على نحو لا يستطيعه هو ولا مائة مثله. ونعجب أشد العجب لكون هذا هو كل ما لدى المستشرق الفرنسى رغم "صلته الوثيقة بأبى عثمان الجاحظ، الذى قضى معظم حياته، وعلى مدى ستة عقود من نشاطه العلمى، باحثًا فى مؤلّفاته وآثاره يلازمه فى حلّه وترحاله من مراكش إلى باريس مرورا بدمشق، يكتب ويحاضر حول مؤلّفاته فى الرباط وتونس وعمان، وصولًا إلى جدة والرياض، وفى السند والهند وما وراء البحار فى الجامعات الأمريكية حتى صار أنيسه وقريبه و"صديقه" كما ورد على لسانه أكثر من مرة" حسبما كتب محمد الجويلى فى مقدمة كتابه: "شارل بيلا".

صحيح أن الرجل قد حقق عددا من الكتب والدواوين، لكن لا بد أن نعلم أنه هو وأمثاله لا يدينوننا بشىء، بل كل الناس فى كل مكان فى العالم تدرس كل شىء. وأولادنا وزملاؤنا يدرسون ليل نهار الآداب الغربية ولا نمن على الغربيين بأية منة رغم أن العرب والمسلمين حين يدرسون آداب الغرب لا يتخابثون ولا يحاولون التحقير من شأنها أو فرد عضلاتهم بل يؤدون عملهم فى هدوء، وفى الغالب يبرزون الإيجابيات ويمرون على السلبيات مرور الكرام. فنرجو الكف عن التغنى بعشق المستشرقين لأدبنا وترتيل المدائح فيما يكتبون أو يحققون. إنهم، فى كل ما يصنعون، إنما يخدمون بلادهم على نحو أو على آخر، وعند الجد يخدمونها بطريق مؤذٍ لنا.

ومما قاله بيلا أيضا عن الجاحظ، نقلا عن العطية، أن أبا عثمان "ألَّف كتبًا لم تلبث، لمعالجتها أحيانًا مواضيع غير عادية، أن أصبحت غير مفهومة، وقد أصابها التشويه غير المقصود، وزادتها خطورةً تشويهاتٌ متعمدة. ونحن اليوم إزاء مقاطع عديدة مغلقة بسدّ محكم". ولا أدرى هل هذا الرجل يتحدث بعقله أم بشىء آخر. كنت أرجو أن يورد لنا شيئا من هذه المقاطع المغلقة بسد محكم حتى ندرك أين هذا الغموض وما سببه. لكنه قد ألقى حكمه ومضى خفيف الضمير لا يبالى بشىء.

ومما قاله أيضا ونقله عنه جليل العطية أن "الجاحظ لم ينج من العيوب التى امتاز بها الكتّاب العرب الآخرون، وقد استطاع مع ذلك فى كثير من مؤلفاته أن يحتفظ باهتمام القارئ إلى حدّ يجعل جميع آثاره تقرأ بلذة على الرغم من التكرار، الذى حاول تجنبه، وعلى الرغم من فقدان النهج المنطقى وتسلسل الأفكار، والاستطرادات التى لا تحصى والتى تعطى أسلوبه طابعه وطعمه الخاص". وهذا حكم تعميمى يطبعه السخف بطابعه، فإن الجاحظ فى استطراداته، وهى غير طويلة

بالمناسبة ولا تتسبب لأمثالنا فى أى تشويش أو ضيق، يخالف الكتاب العرب على عكس ما يزعم بيلا. وهذا مثال آخر على أنه لا يُحْكِم كلامه ولا أحكامه التى يطلقها إطلاقا بخفة واستهتار. ثم إن الجاحظ، برغم كل ما ذكره بيلا سواء كان صحيحا أو لا، مفهوم ومعجِب وممتع ومثير للفكر والمشاعر. وبيلا ذاته قد أبدى إعجابه به مرات، لكنه ينقلب هنا على نفسه ويعيب ما كان قد أثنى عليه من قبل ثناء شديدا. فمن الواضح أن ذهنه ليس متسقا، وأحكامه غير راسخة.

وفى الناحية اللغوية، وهى الناحية التى يمدح محمد الجويلى مستشرقنا الفرنسى فيها مديحا شديدا، نحب أن نقف أمام ما قاله من أن بيلا لم يجد فى مادة "ح ك ى" فى "لسان العرب" لابن منظور أنها تعنى "روى". ولكن بالرجوع إلى المادة المذكورة من المعجم المذكور يتضح لنا أن ابن منظور يقول ضمن ما قاله خلال استعراضه معانيها: "وحكيتُ عنه الحديث حكاية. ابن سيده: وحَكَوْت عنه حديثًا فى معنى "حَكَيْتُه"... وحَكَيْتُ عنه الكلام حِكاية، وحَكَوْتُ لغة". وإذن فقد ذكر ابن منظور من معانى "حكى": "روى وقص"، وإذن فقد أخطأ شارل بيلا فى قوله ما قال عن ابن منظور. ومما أحب أن أقف لدنه أيضا من كلامه فى المضمار اللغوى قول الجويلى فى كتابه عنه: "يذهب بيلّا بعيدا فى مقارباته اللغوية والدلالية للألفاظ العربية كما يتضح ذلك مثلًا من خلال مقالاته التى خصصها لأغراض الشعر العربى، مثل "حماسة" أو "هجاء"، ويعتقد أنه بالعودة إلى المعنى الاصطلاحى لجذر "هـ ج و" يتبين أنه ثمّة احتمالا أنّ العربية قد استعارته من العِبْرِيّة مورِدا الجذر العبرى بحروفه الأصلية الذى يدل فى معناه الأساسى على الهمس، كما يدلّ فى اللّغة السريانية على معنى" التأم"، وكذلك معنى التلفظ بتعويذات فى صوت خافت". وهو ما يرينا أن بيلا يجرى على نفس خطا المستشرقين السخفاء فى المكايدة للغة العربية ورد كل شيء مشترك فى الجذر اللفظى بينها وبين أية لغة سامية إلى تلك اللغة مع أن العربية أقدم اللغات السامية جميعا، بل إن من الباحثين من يرى أنه من الممكن أن تكون هى اللغة السامية الأم. وعلى أية حال فكلام بيلا لا يمكن أن يدل على أنه يحب العربية أو أهلها عكس كل ما يقال عن هذا الحب.

واتصالا بهذه النقطة يقول شارل بيلا إنه ساعد بكتابه: "اللغة العربية الحية" على تعريب عدد لا بأس به من الأفارقة مثلما ساعد بلاشير بترجمته للقرآن إلى الفرنسية على اعتناق الكثير من سكان أفريقيا السوداء للإسلام. ويجد القارئ نص هذا الكلام فى أواخر كتاب محمد الجويلى: "شارل بيلا". وأول كل شيء أن هذه مجرد ادعاءات. والتمدح بالإنجازات باب لا يمكن سده. وثانيا

لم يا ترى كان التأثير هنا وهناك فى أفريقيا السوداء؟ وهل يعقل أن يجد فرنسى متعصب مفخرا فى أن يؤمن الناس بدين محمد أو يقبلوا على تعلم لغة القرآن بناء على ما كتب أو ترجم؟ الواقع أنى لا أفهم وجه مدح بيلا لبلاشير بدخول الأفارقة الإسلام بسبب ترجمته للقرآن، اللهم إلا إذا كان يشير إلى أن الإسلام دين الأفارقة المتخلفين الذى يصلح لهم ولا يصلح للمتحضرين الأوربيين. ثم إن لى دراسة عن ترجمة بلاشير للقرآن إلى الفرنسية تفضح كراهية هذا المستشرق لكتاب الله ورغبته فى التنفير منه وتشويهه والكذب عليه: فمثلا أقدم بلاشير على شىء لم يصنعه غيره فى ترجمته القرآن، وهو إضافة الجملتين الغرانيقيتين إلى سورة "النجم" رغم أنهما ليستا من الوحى، رغبة منه فى التشكيك فى القرآن ومصدره. كما تعددت مزاعم بلاشير بأن هذه الآية أو تلك تعرضت لتغييرات بَعْدِيّة أو لم تكن موجودة أولا ثم أضيفت إلى القرآن بعد موت النبى عليه السلام. وبالمثل تلاعب هذا المستشرق بمواضع بعض الآيات فقدمها أو أخرها عن مكانها الحقيقى فى المصحف. وهذه جرأة إجرامية على القرآن الكريم يراد من ورائها تجرىء الناس عليه وإذابة تقديسه من النفوس. وفى بعض المواضع الأخرى نراه يزيد عبارة تقلب المعنى رأسا على عقب كما وقع فى ترجمته لقوله تعالى من سورة آل عمران": "وقالت طائفة من أهل الكتاب: آمِنوا بالذى أُنْزِل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون" إذ كتب الجملة الأخيرة هكذا: "لعلهم يرجعون عن ضلالهم"، وهو ما يعنى أن اليهود كانوا حريصين على هداية المسلمين وإبعادهم عن مهاوى الضلال، بينما كان مقصد اليهود من قولهم لما قالوه هو إرجاع المسلمين عن الإيمان بمحمد وبالقرآن الذى نزل عليه، حسدا منهم لهم لا حرصا على التنبيه إلى ضلالهم، أستغفر الله رب العالمين. ترى هل يمكن أن تكون هذه الإساءات مما يمكن أن يوصف بأنها سبب فى إسلام غير المسلمين؟ بل هل يمكن أن يكون مقصد صاحبها هو هداية غير المسلمين إلى الإسلام؟ إن شارل بيلا يكذب بكل تأكيد. وإن دخول الأفارقة غير المسلمين فى الإسلام إنما وقع رغم أنف بلاشير ورغم أنف ترجمته الخبيثة. ويجد القارئ الكريم هذه الدراسة فى الفصل الرابع من الباب الأول من كتابى: "المستشرقون والقرآن".

كذلك فلشارل بيلا كتيب عن "تاريخ اللغة والآداب العربية"، وهو عمل موجز ولا يعطى قارئه صورة واضحة ولا حتى واحدا على مائة منها لتاريخ أدبنا الشاسع، وقد صدر بالفرنسية سنة ١٩٥٢م، وترجم ثم نشر ببيروت سنة ١٩٩٧م. ومن بين ما جاء به من آراء قوله فى

الفصل الخاص بالنقد الأدبى: "إن العرب، وهم يجهلون الآداب الأجنبية، لم يتمكنوا من تأسيس نقد مقارن، وقد نشأت أحكام عن مجرد ارتسامية وقامت على الإحساس الفنى الذى يحدثه هذا البيت أو ذاك يؤخذ على حدة حتى أن جميع الشعراء تقريبا اعتُبِروا أشهر الشعراء على أن يحترموا طبعا القاعدة، أى الشعر الجاهلى. والنقد، وهو شكلى، سيدرس شكل المعلقات. وهو، دون أن يعتبر تطور العادات، سيقترح تقليد القصائد القديمة تقليدًا أعمى، والمحاولات المفردة للتخلص من ذلك ستلقى معارضة المنظرين ولن يساعدها البتة نقد مناسب. والشعراء أنفسهم هم الذين سيكون عليهم تبرير مبادرتهم". وهذا، والحق يقال، كلام فارغ وجاهل ومتكبر وقائم على غير أساس، فالرجل يلغى التطورات الهائلة التى مر بها الشعر العربى، ويتجاهل التراث العظيم الذى خَلَّفه لنا النقاد العرب وتناولوا فيه شخصية المبدع ولغته وأسلوبه وأفكاره وعواطفه وبنية قصيدته ووازنوا بينه وبين أمثاله من شعراء العروبة، بل وقارنوا أحيانا بين أدبنا وبعض الآداب الأخرى كما بينت فى كتابى: "فى الأدب المقارن- مباحث واجتهادات". بل إنه هو نفسه، حسبما ذكر محمد الجويلى فى كتابه عنه، قد أعلن أن الجاحظ هو رائد الأدب المقارن فى تاريخ الأدب العربى. وهو بهذا يكذّب نفسه بنفسه. إن هذه الأحكام الفطيرة لبيلا تعكس عنجهية غربية جاهلة وفارغة. ومن هنا لست أفهم ما يقوله جليل العطية من أن بيلا "كان عاشقًا للشعر العربى القديم يتحدى شعراء العالم على اختلاف جنسياتهم إيراد ما يشبه شعر دعبل بن على الخزاعي» (١٤٨- ٢٤٦هـ) السائرة:

أين الشباب؟ وأَيَّةً سلكا؟   لا. أين يُطْلَب؟ ضَلَّ بل هَلَكا

لا تعجبى يا سَلْمُ من رجلٍ   ضحك المشيبُ برأسه فبَكَى

... إلى آخر القصيدة. ويرى بأن الخزاعى بلغ الغاية فى قوله:

ما أكثر الناس! لا بل ما أقلَّهمو!   الله يعلم أنى لم أقل فَنَدا

إنى لأفتح عينى حين أفتحها   على كثير، ولكن لا أرى أحدا!"

ذلك أنه قبل قليل قد نقل لنا رأى بيلا السيئ فى الشعر العربى وأنه شعر تقاليدى لا يستطيع كسر قيوده الفولاذية ولا يقدم جديدا. وهو الرأى الذى سبق فى كتابى هذا أن هزأتُ به وبصاحبه أيما هزء. ونعود إلى السؤال السابق: هل كان بيلا مخبرا أم هل كان مستشرقا وعاشقا للشعر العربى؟ ونقول فى الجواب: إن وضع السؤال على هذا النحو يوحى أنه لا يمكن الجمع بين الأمرين مع أن المستشرق فى كثير من الأحيان مخبر وجاسوس ومخرب وداهية خبيث، وليس

هناك أى تعارض بين الأمرين. فعلى سبيل التمثيل نبدأ بما قاله رفاعة الطهطاوى فى "تخليص الإبريز" عن الخداع الذى مارسه المستشرق الفرنسى دى ساسى على السيدة الرشيدية زوجة عبد الله مينو آخر قائد للحملة الفرنسية على مصر. قال الطهطاوى: "ومثله ما حكاه لى بعضهم أن سر عسكر المسمى: الجنرال"مينو" بفتح الكاف، وكسر اللام وكسر الباء كان أسلم فى مصر نفاقًا، كما هو الظاهر، وتسمى: "عبد الله" وتزوج ببنت شريف من أشراف رشيد، فلما خرج الفرنسيس من مصر وأراد الرجوع أخذها معه، فلما وصل رجع إلى النصرانية، وأبدل العمامة البرنيطة ومكث مع زوجته، وهى على دينها، مدة أيام، فلما ولدت، وأراد زوجها أن يُعَمِّد ولده على عادة النصارى لينصِّره أبت الزوجة ذلك وقالت: لا أنصِّر ولدى أصلاً، ولا أُعَرِّضه للدين الباطل! فقال لها الزوج: إن كل الأديان حق، وإن مآلها واحد، وهو عملُ الطيِّب. فلم ترض بذلك أبدًا، فقال لها: إن القرآن ناطق بذلك، وأنتِ مسلمة، فعليك أن تصدقى بكتاب نبيل. ثم أرسل بإحضار أعلم الإفرنج باللغة العربية، فإنه هو الذى يعرف يقرأ القرآن، وقال لها: سليه عن ذلك. فسألته، فأجابها بقوله: إنه يوجد فى القرآن قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخَرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ". فَحَجَّها بذلك، فأذنت بعمودية ولدها، ثم بعد ذلك انتهى الأمر، على ما قيل، أنها تنصرت، وماتت كافرة".

وهذا الثعلبان الخبيث انتهز فرصة جهل الست الرشيدية وغربتها فى فرنسا وخدعها بكل انحطاط وحقارة، وإلا فإذا كانت النصرانية والإسلام شيئا واحدا بدون أى فرق فلماذا ادعى الفرنسيون الأوباش للمصريين بأنهم ضد النصرانية وأتوا لنصرة الإسلام؟ ولماذا أعلن نابليون اعتناق الإسلام، وأعلنه أيضا مينو؟ بل لماذا كان لا بد من تعميد الطفل ولم يُبْقِه أبوه على إسلامه إذا كان لا يوجد أدنى فرق بين الدينين؟ ثم هل الإسلام والنصرانية متماثلان حقا، والمعروف أن النصارى يعبدون المسيح بينما المسلمون يؤمنون به عبدا لله ورسولا من عنده، فضلا عن أن النصارى لا يؤمنون بنبوة محمد بل ينعتونه بالكذب والتقول على الله بغير حق فى حين يؤمن المسلمون بنبوة عيسى؟ ثم إن مستشرقنا الفرنسى يعلم أن تفسير الآية على النحو الذى فسرها به تفسير كاذب، وإلا فلم دعا محمد النصارى واليهود وأصحاب الديانات الأخرى إلى الإيمان به؟ أم تراه جاء بالإسلام تضييعا لوقته ووقت الناس؟ وأخيرا وليس آخرا ماذا نصنع بقوله تعالى:

"إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون: نؤمن ببعض، ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا. وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا"؟ كذلك كان دى ساسى هو مترجم بيانات الحملة الفرنسية بمصر، وبيانات الاستعمار الفرنسى للجزائر، وهى البيانات التى يحبِّرها الاستعمار لخداع الشعوب المبتلاة به حتى تعمى عن حقيقته وتتقبل استعماره لبلادها وتخضع له وتتحنى له كى يركبها ويذلها ويصادر خيراتها له وينكل بأحرارها ويعتدى على أعراض حرائره.

وثم شخص آخر من هذه النوعية القذرة، وهو ضابط فرنسى اسمه ليون روش تظاهر بالإسلام أيام نضال الأمير عبد القادر الجزائرى ضد الاستعمار الفرنسى، وعاش مع الأمير النبيل سنوات يتظاهر بخدمته، وهو فى الحقيقة إنما يتجسس عليه وينقل أخباره وأسراره الحربية إلى سلطات الاحتلال. وكان كل همه أن يحصل على توصية يتقرب بها إلى المسلمين فى الشرق الأوسط ليحصل على فتوى تقنعهم بحِلِّيَّة عيشهم فى ظل الاحتلال الفرنسى بالجزائر. وكتب ذلك الأفاق اللعين كتابا يحكى فيه هذه القصة بعنوان " Dix ans à travers l'Islam 1834-1844"، أى "عشر سنوات فى بلاد المسلمين". وقد قرأت الكتاب فى أكسفورد فى أواخر سبعينات القرن الماضى خلال دراستى بتلك الجامعة للحصول على درجة الدكتورية.

ولدينا فى كتاب الخونة المجرمين الذين كانوا يعادوننا ويكرهوننا ويعملون على تمهيد الاحتلال البريطانى لمصر المستشرق الجاسوس الخبيث بالمر مترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية. وهذه قصته كما رواها د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه: "موسوعة المستشرقين" ملخصا فيها الدور القذر الذى قام به ولقى بسببه الجزاء المستحق لأمثاله. لقد كانت بريطانيا تدبر لاحتلال مصر فى أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر، وكان المطلوب الاستفادة من خبرته بسيناء لكى يتصل ببدوها ويؤلبهم ضد بلادهم، ويستخدمهم لتأمين الجانب الشرقى من قناة السويس لصالح بريطانيا. وكانت مهمته أن يتنقل بين قبائل بدو سيناء من أجل أن يعرف مدى الثورة بين الناس، وإلى أى مدى كانوا يميلون للانضمام إلى حركة عُرابى، وأن يعرف الشروط التى يلتزمون بها السكون بل وينضمون عند الضرورة إلى القوات البريطانية ضد الجيش المصرى. وقد استطاع التوصل إلى عدد من المشائخ القبليين الخونة الذين كانوا على استعداد للقيام بهذه المهمة لقاء المال. لكن بعض البدو قد نصبوا كمينا له ولأولئك الخونة، واقتادوهم إلى وادى سدْر فى الجنوب الغربى من سيناء حيث

قتلوهم وألقَوْا بهم فى وادٍ سحيقٍ. وما كان لبالمر وأمثاله، كما يقول د. بدوى، أن يستحق نهاية غير هذه بل وأبشع من هذه.

ولدن احتلال إيطاليا لليبيا وضع كارلو نالينو علمه الاستشراقى فى خدمة بلاده بغية إخضاع ليبيا والليبيين لنِير الاستعباد الإيطالى. بل لقد ضن على الطلبة المصريين الذين كانوا يستمعون إلى محاضراته بالجامعة المصرية الوليدة أوائل العقد الثانى من القرن الماضى بكلمة مجاملة حين أضربوا عن حضور دروسه بل قال لهم شامتا ناكيا: أنتم تذكروننى برجل أراد معاقبة زوجته فأخصى نفسه. ثم جاء طه حسين بعدها بنحو أربعين عاما فبدلا من أن يخطِّئ هذا الوغد قال إن الطلبة قد تعلموا الدرس فلم يعودوا لمثلها بعد ذلك قط. وهذا الكلام قد أورده د. طه حسين فى "الأيام" وفى مقدمته لكتاب نالينو عن "تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية".

وهناك لوارنس العرب الشاذ الذى ضحك على الأغبياء والخونة منا فجندهم لمحاربة الدولة العثمانية على وعد بأن يقيم لهم بدل الإمبراطورية العثمانية دولة عربية هاشمية، وانتهى الأمر بما نراه اليوم، فلم يحكم الهاشميون، الذى منَّاهم هذا الشاذ الأمانى، إلا شرقى الأردن، وهى دويلة تعيش على المعونات ولا قيمة لها فى عالم السياسة ولا فى عالم الاقتصاد ولا فى عالم أى شىء. ولورانس العرب هذا الشاذ هو صاحب كتاب "The Seven Pillars of Wisdome: أعمدة الحكمة السبعة"، وهى مفارقة عجيبة: أن يكون الشاذ حكيما. وقد بانت لعيوننا كلنا ثمرة تلك الحكمة: خرابا للأوطان، وتقسيما للبلاد، وعمالة كثير من حكوماتنا للغرب، وائتمارا بكل ما يأمرنا به سادتنا الغربيون، وانتهاء عما ينهانا عنه أولئك السادة، وتعاديا فيما بيننا، وعملا لكل ما من شأنه إفساد أمور حياتنا كى يرضى عنا سادتنا. وأَمْر لورنس العرب ووساخاته السياسية والخلقية أشهر من الشمس.

وثم مستشرق آخر يهودى الأصل ومن أبناء القرن العشرين ومن وسط أوربا اسمه محمد أسد بك (وهو غير محمد أسد المعروف صاحب "الطريق إلى مكة" ومترجم القرآن وطائفة من أحاديث البخارى إلى الإنجليزية مع التعليق والشرح)، وقد أعلن إسلامه نفاقا، وألف فى ظل دينه الجديد الذى تظاهر باعتناقه كتابا فى السيرة النبوية قرأتُه مترجما إلى الفرنسية منذ واحد وعشرين عاما وكتبت عنه دراسة فى نحو خمسين صفحة فضحت فيها نفاقه وكشفت بغضه السام للنبى محمد، الذى افترى عليه وعلى زوجته خديجة الأكاذيب، وصوَّر الإسلام فى صورة شديدة المقت.

ومن هذا النوع من المستشرقين أيضا سانت جون فيلبى، الذى أعلن إسلامه وتسمى باسم "الحاج عبد الله فيلبى" وعاش شطرا من حياته فى السعودية عينا على الأحوال هناك وعمالةً لشركات النفط، ولم يكن يطمئن إليه المتعمقون فى الأمور. وترجم له وكتب عنه عدد من المؤلفين.

وعندنا المستشرق الفرنسى لويس ماسنيون، وكان ضابطا فى مخابرات الفرنسيس، ويقوم بتجنيد عملاءَ عربٍ لفرنسا يعملون ضد بلادهم وإخوانهم فى الوطن والعروبة. وقد تكلم عن تلك النقطة الكاتب اللبنانى إسكندر الرياشى فى كتابه: "رؤساء لبنان كما عرفتهم". واشتغل آربرى المستشرق البريطانى فى وزارة الإعلام أثناء الحرب العالمية الثانية حيث أصدر منشورات دعائية بالعربية والفارسية لتضليل العرب والمسلمين وإقناعهم بالباطل والزور بالوقوف مع بريطانيا، أى بمعاونة إبليس والبقاء فى أشراك الاحتلال والاستعمار. ويجد القارئ خبر ذلك فى ترجمته بـ"موسوعة المستشرقين" للدكتور عبد الرحمن بدوى... والأمثلة كثيرة، ولكن يكفى هذا كلون من التوضيح والتنبيه، وإن كنت أشك أعظم الشك فى أن يكون لذلك التوضيح والتنبيه أية ثمرة.

وقد تولى شارل بيلا بدءا من سنة ١٩٥٦م الإشراف على "دائرة المعارف الإسلامية" التى يصدرها المستشرقون، ولَقَّبَه المتحمسون له من أبناء العرب الذين كانوا يدرسون على يديه: "العمود الفقرى لدائرة المعارف الإسلامية" وأثْنَوْا عليه، وأَعْلَوْا من شأن هذه الموسوعة ثناء عظيما بوصفها خدمة رائعة للثقافة العربية والإسلامية حسبما ذكر محمد الجويلى فى كتابه عنه، والجويلى أحد أولئك الحواريين المتحمسين له والمدافعين عن المستشرقين جميعا. ولكنْ كُتِب لصاحب هذه السطور أن يقرأ قراءة مدققة المجلد الذى جُمِعَتْ فيه المواد الخاصة بالإسلام وصدر فى ستينات القرن الماضى، فهالنى ما يسوده من انحراف عن المنهج العلمى وعداوة بارزة للإسلام ورسوله وكتابه وعقائده وشرائعه، ورغبة حارقة فى تلطيخ كل شىء فيه، ولم أجد مرة أحدا من كتاب الموسوعة قد تحدث عن ديننا ورسولنا وقرآننا بشىء من رحابة الصدر وسعة الأفق، بل دائما ما تُقَدَّم أسوأ التفسيرات، وتُعْزَى الأعمال العظيمة إلى أحط البواعث، وتُنْثَر بذور التشكيك فى مصادر التاريخ الإسلامى إلا إذا كان فيها ما يمكن أن يُوَظَّف للإساءة إلى الإسلام وتاريخه وأعلامه. وهو أمر بالغ الغرابة. وقد قمت فى كتابى: "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل" بتوضيح ما فى الموسوعة المذكورة من تجاهل منهج البحث العلمى، وكذلك

إظهار الأخطاء الرهيبة والتناقضات الخطيرة التى تطفح بها، وتنبيه القارئ إلى النيات البشعة التى تكمن خلف ذلك.

ومما يحتاج إلى تصحيح من آراء شارل بيلا زعمه فى كتابه: "تاريخ اللغة والآداب العربية"، أن اللغة العربية التى جمعها أصحاب المعاجم هى لغة غنية بالألفاظ الخاصة بحياة البدو، لكنها فقيرة فيما يخص ألفاظ الحضارة. وهذه شِنْشِنَةٌ استشراقيةٌ كاذبة خاطئة يتواطأون على ترديدها فى كتاباتهم وهم يعلمون علم اليقين أنهم كاذبون بالثلث. ذلك أن الشعر الجاهلى نفسه مفعم بأعداد هائلة من ألفاظ الوجدان والفكر والعقائد، إذ البدو بشر من البشر يشتهون ويحبون ويتعصبون وينقمون ويسخطون ويحقدون ويفاخرون ويهجون ويسخرون ويأملون ويرجون وييأسون ويحسون بمعانى الشجاعة والجبن والكرم والبخل والغيرة على العرض ويفكرون ويتأملون ويترددون، ولهم آراؤهم وعقائدهم ومواقفهم... إلخ. أم تراهم كانوا خالين من الأفكار والمشاعر والعواطف؟ إن الحيوانات نفسها لا يمكن أن يقال إنها لا تشتهى ولا تحب ولا تنقم ولا تحن ولا تعطف. فكيف يقال ذلك عن البشر؟ ثم كيف استجابت العربية للتعبير بكل سهولة وسلاسة عن الإيمان والكفر والنفاق والمذاهب والعقائد، ومشاعر الخوف والقلق واليأس واليقين والشجاعة والسعادة والرضا والسخط... الموجودة فى القرآن والحديث؟ ترى أَنَّى لامرئ القيس وزهير وعنترة وطرفة والأعشى والنابغة وعمرو بن كلثوم ومئات الشعراء فى الجاهلية قبل أن يحتك العرب بالأقوام الآخرين وتحتك لغتهم بلغاتهم، من أين لهم بالألفاظ والتعابير والتراكيب التى تعبر عن أفكارهم وآرائهم وعقائدهم وعواطفهم ومشاعرهم وانفعالاتهم؟

وهنا نرى بيلا يقول إن ألفاظ المعانى فى العربية أصلها مادى. يريد طبعا إظهار الاحتقار للعربية. وهو كاذب فى هذا أو جاهل، فهذا الذى قاله يقال عن كل اللغات وليس عن لغة الضاد وحدها، إذ تفسَّر نشأة اللغات بأنها بدأت مادية ثم تطورت فعرفت المعانى والمجردات. كما يردد بيلا كلام رصفائه من المستشرقين بأن ألفاظ الدين قد أخذتها العربية عن بعض اللغات السامية الأخرى مثل الآرامية والعبرية. والسؤال هو: كيف تم ذلك؟ ومتى؟ وأين؟ وما الدليل عليه؟ إن معظم المستشرقين إنما يقولون بهذا التفسير نكاية فى الإسلام. ولو لم تكن العربية هى لغة الدين الجديد الذى يكرهونه ويعملون على الإساءة إليه بكل وسيلة ما رددوا هذه الدعوى المنكرة. فالعربية أعرق من أخواتها الساميات أو على الأقل: هى مثلها فى العراقة، وهم يعرفون هذا جيدا،

لكنها النكاية والمكايدة. والعجيب أن حواريى بيلا من العرب والمسلمين يستميتون فى تمجيده وتسليط الأنوار الساطعة عليه وإيهامنا بأنه يحب العرب والإسلام. ألا إن ذلك لشاذ غريب. وإذا رجع القارئ مثلا إلى كتاب "المخصص" لابن سيده وجد ثروة هائلة عظيمة من المجموعات اللفظية الدالة على الأفكار والمشاعر، أى المعانى المجردة. ولو رجع القارئ إلى أية قصيدة جاهلية لألفى كلمات المعانى والمجردات فيها أكثر من الهم على القلب. وهل يستطيع الإنسان، مهما كانت درجة تخلفه، أن يعيش ويتفاعل مع من حوله دون أن يعبر عن أفكاره ومشاعره؟ وفى النهاية هذا هو أحد الساسة العراقيين فى أواسط القرن الماضى يصف لغة الإنجليز بأنها "لغة وجدت لتكون لغة عمل لا لغة خيال، فهى فقيرة جدا بالمفردات التى تخص النظريات والأمور الخارجة عن نطاق الواقع" (أمين المميز/ الإنجليز كما عرفتهم/ مطبعة السكك الحديدية/ بغداد/ ١/ ١٦). فهل هذا الكلام صحيح؟ لا أظن أبدا، فنحن أعقل وأحكم وأكثر استقامة ضمير من أن نقبل هذا الكلام رغم أنه قد يدغدغ مشاعرنا. والغريب أن هذا الذى يصف لغة جونبول بأنها فقيرة فى الخيال يرفع فى الصفحة التالية مباشرةً الشعر الإنجليزى مكانًا عَلِيًّا ويرى أن الشعب الإنجليزى يتذوق الشعر أيما تذوق! وقد يكون لكلامه معنى إذا فهمنا أنه يقصد طريقة الإنجليز فى التعامل لا فى الأدب والشعر وما إلى ذلك، فهم عمليون لا ينساقون مع لغة العواطف والخيالات بل يهتمون بالواقع والإنجازات على الأرض لا بالهيام فى أودية الخيال.

وعند حديثه عن الشعر الجاهلى يصف شارل بيلا ذلك الشعر بأنه شعر واقعى، أى يصور الحياة الخارجية، إلا أنه ضعيف من حيث المشاعر الخيالية والصور الموحية والأفكار، ولا يهز الشعور. وهذا حكم أقل ما يقال فيه إنه تافه ومتهافت. وواضح أن هذا رجل مجرد من الذوق الأدبى. ولسوف أكتفى فى الرد على هذا الكلام الهزؤ بإيراد الأبيات التالية من معلقة عنترة:

يا دارَ عَبلَةَ بِالجواءِ تَكَلَّمى وَعِمِى صَباحًا دارَ عبلةَ وَاسْلَمى
فَوَقَفتُ فيها ناقَتى، وَكَأَنَّها فَدَنٌ لِأَقْضِى حاجَةَ المُتَلَوِّمِ
وَتَحُلُّ عَبْلَةُ بِالجواءِ، وَأَهلُنا بِالحَزْنِ فَالصَمّانِ فَالمُتَثَلَّمِ
وَلَقَد نَزَلتِ، فَلا تَظُنّى غَيرَهُ، مِنّى بِمَنزِلَةِ المُحَبِّ المُكرَمِ
إِذ تَسْتَبيكَ بِذى غُروبٍ واضِحٍ عَذبٍ مُقَبَّلُهُ لَذيذِ المَطعَمِ

وَكَأَنَّ فارَةَ تاجِرٍ بِقَسيمَةٍ سَبَقَت عَوارِضَها إِلَيكَ مِنَ الفَمِ
أَو رَوضَةً أُنُفًا تَضَمَّنَ نَبْتَها غَيثٌ قَليلُ الدِّمْنِ لَيسَ بِمَعْلَمِ
جادَت عَليهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرارَةٍ كَالدِّرهَمِ
سَحًّا وَتَسْكاباً، فكُلَّ عَشِيَّةٍ يَجرى عَلَيْها الماءُ لَم يَتَصَرَّمِ
وَخَلا الذُّبابُ بِها فَلَيسَ بِبارِحٍ غَرِدًا كَفِعْلِ الشارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَهُ بِذِراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ عَلى الزِّنادِ الأَجذَمِ
لَمّا رَأَيتُ القَومَ أَقبَلَ جَمْعُهُم يَتَذامَرونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ
يَدْعونَ عَنْتَرَ، وَالرِّماحُ كَأَنَّها أَشطانُ بِئرٍ فى لَبانِ الأَدهَمِ
ما زِلتُ أَرْميهِم بِثُغْرَةِ نَحرِهِ وَلَبانِهِ حَتّى تَسَربَلَ بِالدَّمِ
فَازوَرَّ مِن وَقعِ القَنا بِلَبانِهِ وَشَكا إِلَى بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لَو كانَ يَدرى ما المُحاوَرَةُ اشتَكَى وَلَكانَ، لَو عَلِمَ الكَلامَ، مُكَلِّمى

وفى موضع آخر من كتابه الحالى يؤكد أن نصوص الخطب التى وصلت إلينا عن الجاهلية إما مزيفة وإما اعتراها تغيير شديد. ولكن كيف؟ هذا ما لا يقوله بل يلقى حكمه ويمضى. كذلك يقول إن العرب لم يخطئوا حين عدوا النبى كاهنا. أيريد أن يقول إنه كان فعلا كاهنا؟ وهل كان الكهان يدعون الناس إلى الإيمان بالله الواحد الأحد وبالأنبياء والملائكة والكتب السماوية واليوم الآخر والحساب والجنة والنار؟ هل كان الكهان يدعون إلى إطعام الفقير والمسكين والرحمة باليتيم؟ هل حرم كاهن على قومه الخمر والكذب والكبر والظلم والغيبة والنميمة وأكل الميتة ولحم الخنزير؟ هل دعا كاهنٌ أتباعَه إلى طلب العلم والبعد تماما عن الخرافات؟ هل أوجب كاهن على أحدٍ الطهارة والنظافة والوضوء والاغتسال والصلاة؟ هل قال أى كاهن إن كهانته عالمية للناس جميعا؟ هل كان الكهان يشرّعون لأقوامهم؟ ولقد كان الكهان يزعمون اطلاعهم على الغيب فى حين كان النبى ينفى عن نفسه هذا تماما ويقول إن الغيب هو لله وحده. كذلك كان العرب يقصدون كهانهم ليكشفوا لهم عمن سرق مالهم أو يعرفوا منهم هل فلانة زانية أو لا وما إلى ذلك بسبيل، وهو ما لم يفعله النبى قط ولا ادعاه. ثم هل سمع أحد أن العرب آذَوْا كاهنا من كهانهم كما صنعوا مع النبى عليه السلام؟ ولقد اتهم العرب النبى، إلى جانب الكهانة، بأنه شاعر وبأنه كاذب، فهل صدقوا فى

هاتين التهمتين أيضا؟ إن هذا التردد بين تلك الاتهامات لهو دليل على تخبطهم وكذبهم وليس على صدقهم كما يقول بيلا.

وقد قال بيلا أيضا إن محمدا قد وصف نفسه مرة على الأقل بأنه خطيب، ولكن دون أن يورد لنا بيلا النص الذى يقول فيه النبى ذلك. أما مترجمو الكتاب فقد أوردوا الحديث التالى على أنه قد يكون هو المراد بكلام بيلا: "إذا كان يومُ القِيامةِ كُنْتُ إمامَ النبيِّينَ وخَطيبَهم وصاحبَ شَفاعتِهم، ولا فَخْرَ". لكن هذا إنما يكون يوم القيامة كما يقول الحديث. وهى غير خطابة الدنيا. كما أنها ليست وظيفة أو مهنة أو أداة لدعوة الناس إلى اعتناق عقيدة أو فكرة أو رأى مثلا، بل هى تكرمة له صلى الله عليه وسلم بين زملائه النبيين والمرسلين. ثم إنه عليه السلام قد نص فى الحديث على أنه سوف يكون أيضا إمام النبيين وصاحب شفاعتهم. وهذا كله غير ما يقصده بيلا المداور.

وهناك ما قاله بيلا عن القرآن من أنه طبع بطابعه اتجاه الأدب العربى، وهو حكم غير دقيق، فبكل يقين لا يمكن القول بأن شعر الغلمان أو شعر الخمر أو الشعر الجنسى العارى أو شعر الإقذاع مثلا هو شعر مطبوع بطابع القرآن. كما أن قوله إن بعض معاصرى محمد وبعض الأعلام فيما بعد قد أعلنوا مفتخرين أنهم قادرون على تجاوزه هو قول كاذب، إذ لم يحدث أن أعلن أحد من مشركى العرب أو أعلام الأدب العربى فيما بعد قدرتهم على تجاوز أسلوب القرآن، وإلا فليذكر لنا اسما من هؤلاء. إن كل ما قاله المشركون فى عصره عليه السلام: "لو نشاء لقلنا مثل هذا"، ولم يقولوا: "لو نشاء لقلنا أحسن من هذا"، ومع ذلك لم يشاؤوا، فضلا عن أن يقولوا، وأما أعلام الأدب فلم يخلف لنا أحد منهم شيئا يدعى أنه يماثل، فضلا عن أن يتجاوز أسلوب القرآن روعة وجمالا وجلالا. ولو كان هناك من قال هذا لبادر بيلا المداور بذكر اسمه. لقد اتُّهِم ابن المقفع والمعرىّ بتلك التهمة، بيد أن ذلك اتهام زائف، إذ لم يحدث أن فكر أحد منهما فى إتيان ذلك العمل السخيف. وفى كتابى: "تاريخ الأدب العربى- العصر العباسى" مناقشة مفصلة لهذه التهمة وتفنيد لها من كل الوجوه.

ثم يمضى هذا المستشرق فيقول إن محمدا قد "غَفَلَ" عن مراجعة القرآن مراجعة عامة اطمئنانا إلى قوة ذاكرة قومه ولأنه لم يكن يتصور قط الإشعاع الذى سيحظى به الدين الذى دعا إليه. ويظهر إفكه حين نتذكر آيات مثل قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (أى ليس

للعرب وحدهم)، "هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" الذى تكرر ثلاث مرات فى سُوَر "التوبة" و"الفتح" و"الصف" بنفس الألفاظ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "ليبلغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهارُ ولا يتركُ اللهُ بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ إلا أدخله اللهُ هذا الدينَ بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليلٍ عزًّا يعزُّ اللهُ به الإسلامَ وأهلَه وذلًّا يذلُّ اللهُ به الكفرَ. وكان تميمٌ الدارى يقول: عرفت ذلك فى أهلِ بيتِى. لقد أصاب مَنْ أسلمَ منهم الخيرَ والشرفَ والعزَّ، ولقد أصاب مَنْ كان منهم كافرًا الذلَّ والصغارَ والجزيةَ"،"إنَّ اللهَ زوى لى الأرضَ مشارِقَها ومغارِبَها، وسيبلغُ مُلكُ أمَّتى ما زوى لى منها"، "لو تعلَمون ما ذُخِر لكم ما حزِنتم على ما زُوِى عنكم، وليُفتحنَّ لكم فارسُ والرُّومُ".

واستمرارا فى دعواه المتهافتة يقول بيلا إن القرآن يخاطب الأذن والقلب ولا يهز الفكر إلا قليلا. وأساس اتهامى له بالادعاء المتهافت هو أن القرآن يخاطب العقل بالدرجة الأولى وليس مثل بعض الأديان التى تطالب الناس بالإيمان دون تفكير أو تشغيل عقل. والتفكير فريضة إسلامية كما قال العقاد بحق وصدق. والعلماء فى الإسلام هم ورثة الأنبياء. وكلما طالب القرآن البشر بالإيمان ساق الدليل العقلى والحجة المنطقية، ودائما ما يقول: "لعلكم تتفكرون"، "لعلكم تعقلون". وهو يعلى من شأن العلماء: "هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟"، "إنما يتذكر أولو الألباب"، "إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ"، "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات". فهل يعقل أن كتابا كهذا يمكن أن يكتفى بهز الآذان وإثارة القلوب ليس إلا؟ كما أن آياته قد سبقت كثيرا من حكمة العلماء والفلاسفة فى العصر الحديث. ثم إن كثيرا من آيات القرآن تشريعات، والتشريعات إنما تخاطب العقل لا المشاعر. وبالمثل فإن الآيات التى تتحدث عن الأقوام السابقين تتوجه إلى العقل لأن التاريخ أحداث ووقائع وأخبار، وليس مصمصات شفاه ونهنهات أفواه وصيحات إعجاب. وهو نفسه ما نقوله عن الآيات التى تدعو إلى الإيمان بالله ووحدانيته وقدرته وسيطرته على الكون ومشيئته الشاملة، ونقوله أيضا عن النصوص الكريمة التى تتكلم عن اليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب، وكذلك النصوص التى تحض على الحلم والتصرف بحكمة واقتفاء العدل وحب السلم والصفح والعفاف وتنفِّر من الانفعالات الغشوم والحمق والكبر والغطرسة والأنانية. فكيف بالله عليك لا يهز القرآن الفكر إلا قليلا؟ خيبك الله يا شارل بيلا!

وهو أيضا يحاول إثارة الشك فى الشعر الجاهلى باستدعاء كتاب طه حسين الذى أنكر فيه صحة معظم هذا الشعر إن لم يكن كله، وانتهى بيلا بإظهار تواضع كاذب حين عبر عن موافقته على أن قسما من هذا الشعر صحيح. بارك الله فيه وفى تنازله وتسامحه! وهو لم يحاول أن يورد ولو حجة واحدة تستند إليها دعواه السخيفة هذه، إذ الحق هو أن الشعر الجاهلى صحيح إلا إذا قامت دلائل على عكس ذلك فى هذه القصيدة أو تلك المقطوعة. وكذلك لم يشر إلى أن طه حسين قد سرق أفكار مرجليوث فى هذا الصدد. ويكفى أن نقول إن طه حسين، قبل أن ينشر مرجليوث مقاله عن هذا الموضوع، لم يحدث قط أن شك فى الشعر الجاهلى. بل لقد كتب قبل ظهور مقال مرجليوث بأسابيع فصلا عن هوميروس يجده القارئ فى كتابه: "قادة الفكر" يجعل فيه الشعر الجاهلى وشعراءه أساس الحضارة الإسلامية، لكنه غيَّر اتجاهه بغتة بعد نشر مرجليوث مقاله الآنف الذكر بعشرة أشهر. كما أنه فى إنكاره جل الشعر الجاهلى إن لم يكن كله كان يتابع خطا مرجليوث. وعلى نفس الشاكلة فإن العوامل الأساسية التى اعتمد عليها د. طه فى نفى ذلك الشعر هى نفسها العوامل التى استند إليها مرجليوث. كذلك فإنه قبل إصداره كتابه عن هذا الشعر بقليل قد نزل ضيفا على مرجليوث فى بيته فى بريطانيا هو وأسرته. ويلفت النظر أن بيلا قد ضرب صفحا عن ذكر ردود العلماء المصريين الأثبات على كتاب طه حسين: "فى الشعر الجاهلى"، تلك الردود التى سحقت أفكاره النيئة وحطمت غروره وأظهرت سطحية آرائه وقلة علمه فى ذلك الوقت، فلم يستطع أن يجيب عن أى نقد وجه إليه. وهذا كله له معناه ومغزاه.

٥- المستشرقون محررو موسوعة "قرآن المؤرخين"

وهناك موسوعة استشراقية حديثة اسمها "قرآن المؤرخين" صدرت عن دار النشر الفرنسية Cerf عام ٢٠١٩م فى أربعة مجلدات بإشراف د. محمد على أمير معزّى الأستاذ فى جامعة باريس ود. جيوم داى الأستاذ فى جامعة بروكسل الحرة. وقد صرّحا فى مقدمة الموسوعة بالهدف من نشر هذه الموسوعة، وهو "إخراج نتائج بحوث قرنين من الزمان قامت بها الدوائر الأكاديمية العلمية، وتقديمها لجمهور غير متخصص"، وذكرا أن الموسوعة قد اعتمدت فى التعليق والتحليل على المنهج التاريخى النقدى والفلسفى، بالإضافة إلى طرق بحثية جديدة وما توصلت إليه الدراسة الكوديكولوجية ثم علم الآثار والنقوش، وكذلك المقاربة التاريخية والفيلولوجية. والنتيجة التى توصل كتاب الموسوعة إليه، لا سيما فى المجلد الأول، هى أنّ القرآن الكريم حسب هذه التحقيقات مؤلّف من ثلاثه أقسام: قسم يكشف عن طبقات نصية خفية يهودية مسيحية تبدو كأنها ترجمات عربية لنصوص سابقة سريانية وعبرية، وقسم يحكى التجربة الدينية لمحمد صلى‌الله‌عليه‌وسلم، وقسم آخر تم فى وقت لاحق مع الفتوحات ونشوء الإمبراطورية العربية ولأسباب تاريخية وسياسية محضة.

ومن تلك النتائج أيضا أنّ النصّ القرآنى معقّدٌ ومركّبٌ إذ إنّه ليس بعملٍ رجلٍ واحد ولا هو كتاب مغلق بل مجموعةٌ مفتوحة من النصوص تمّ بناؤها تدريجيًّا بالحوار مع السياق التاريخى الخاصّ بنهاية العصر القديم. ويحدّد الباحث جيوم دى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان على أنّه السياق السياسى والثقافى الّذى أثّر بشكلٍ أكبر على النصّ.

وقد نظرت فى ما كتبه المستشرق جيوم داى عن سورة "الطارق"، وخرجت منه بالملاحظات التالية: الملاحظة الأولى: بالنسبة للعنوان نرى المستشرق يتعامل مع ترجمة اسم السورة: "الطارق" على أنه صفة فقط وليس اسما يدل على موصوف وصفته معا. أى أنه قد أخطأ فى ترجمة "الطارق" بـ"الليلى" دون "النجم"، أى بالصفة دون الموصوف. ذلك أن القرآن استخدمة هنا اسما، والدليل على هذا أنه فسره فى الآية الثانية بـ"النجم الثاقب" ولم يترجمه بصفة فقط بل باسم وصفة معا، أى أن "الطارق" إنما تعنى اسما وصِفَته المتعلقةَ به: "النجم الثاقب"

فهذه أول ملاحظة على أول غلطة. والثانية هى أن القرآن يفسر "الطارق" بـ"النجم الثاقب"، فيفسره جيوم دى بـ"(النجم) الليلى" (L'ASTRE] NOCTURNE]). لقد تجاهل تفسير القرآن للكلمة وأتى بتفسير لها من عنده اعتمادا على المعاجم اللغوية، فكأنه يبدأ من الصفر.

الملاحظة الثالثة أن فواصل السورة (القوافى) عنده، كما جاء فى الأصل الفرنسى، هى على النحو التالى: من ١- ٧ ما عدا الرابعة: "إيقْل، إيبْ"، وهذا خطأ بل هى "إِق، إب" بدون مد قبل الحرف الأخير وبدون لام مع القاف.

الملاحظة الرابعة: يقول إن الآيات ١-١٠ تقيم توازيا بين قدرة الله على الخلق وقدرته على بعث الموتى. وهذا غير صحيح. فالآيات الأربع الأولى من هذه الآيات العشر إنما هى قسم على أن كل نفس لها حافظ. ثم إن الآيات الست الباقية لا تقيم مثل هذا التوازن، بل تتحدث الآيات الثلاث الأولى منها عن ماء الرجل والمرأة الذى خلق منه الإنسان وعن قدرة الله على البعث. أى أن الآيات إذا كانت تتكلم عن قدرة الله على البعث فإنها لم تتكلم عن قدرة الله على الخلق، ولكن تتكلم عن المادة التى خلق منها الإنسان دون تطرق إلى القدرة الإلهية فى ذلك. كما أن الآيتين ٩-١٠ لا علاقة لها بتلك القدرة الإلهية على البعث بل تتناول استخراج ما فى السرائر وافتقار الإنسان حينئذ إلى القوة وانعدام الناصر. ومعنى هذا أن كلام المستشرق عن الآيات ١-١٠ معظمه كلام فارغ. أى مملوء بالأخطاء والتسرع مع أن السورة قصيرة وموجودة أمامه ويستطيع أن يرجع إليها ما يشاء من المرات دون أية صعوبة.

الملاحظة الخامسة قوله إن الآيات ١١- ١٤ تؤكد "الوحى" (confirmer)، ومعنى هذا أن هذه الآيات تعيد كلام الوحى مرة أخرى كما نفعل عندما نسجل فى موقع ألكترونى ونكتب كلمة السر فيُطْلَب منا أن نؤكد كلمة السر، أى نعيد كتابتها كما كتبناها أول مرة حتى يتأكد أصحاب الموقع أننا نقصد هذه الكلمة السرية فعلا لا كلمة أخرى. أما ما تقوله الآيات المذكورة فليس "تأكيدا للوحى" وإنما هو قَسَمٌ على صحة وقوع اليوم الآخر وما فيه من حساب وأن القول بذلك هو القول الفصل الذى لا يشوبه هزل. وهذا غير ذاك كما هو واضح.

الملاحظة السادسة هى أن القَسَم الذى تبدأ به السورة ليس قسما غامضا، فالقسم كاملا هو "والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق؟ * النجم الثاقب * إنْ كلُّ نفس لمّا عليها حافظ"، وفى هذا النص يقسم الله سبحانه بالسماء والنجم الثاقب على أنه ما من نفس إلا وعليها حافظ.

فأين الغموض هنا؟ إذا كان المستشرق يقصد أن كلمة "الطارق" غامضة فإن القسم لا يقف عند "والطارق" بل يستمر إلى "عليها حافظ"، وفى خلال ذلك وضَّحَتِ الآياتُ معنى "الطارق"، أى خلال القَسَم وليس خارج القسم. ومن ثم فليس فى القسم غموض بل ولا حتى فى أداة القسم، التى هى "والسماء والطارق * وما أدراك ما الطارق؟ * النجم الثاقب". وهو نفسه قد ذكر صراحة أن كلمة "الطارق" الملغزة على حد تعبيره قد تم تفسيرها فى الآيتين التاليتين لها.

الملاحظة السابعة أن المستشرق ضيع وقته ووقتنا معه فى اللف والدوران حول معنى "النجم الثاقب" مشيرا إلى أن بعض الروايات تقول إنها الزهرة، وبعضها إنها أول نجم يظهر فى السماء ليلا، ولكن دون أن يورد شيئا من هذه الروايات ولا أين يجدها من يريدها بخلاف ما صنع مع مترجمى القرآن الذين أورد تفسيراتهم، إذ ذكر أسماءهم والمواضع التى نجد تلك التفسيرات فيها من ترجماتهم للقرآن المجيد.

أما ترجمة خوام لـ"الطارق" بأنه الزائر الليلى فهى ترجمة مضحكة لأنها تتجاهل تفسير القرآن للكلمة بأنها "النجم الثاقب"، أى أنها لا تعنى أبدا الزائر الليلى ولا النهارى ولا الزائر فى أى وقت. ومثل ذلك ترجمة بيرك للكلمة بـ"الوافد فى المساء". وأغرق من ذلك فى الإضحاك ترجمة بِلْ بأنها "المذنَّب"، أى الشهاب الراصد. إن الشهاب غير النجم فى القرآن المجيد. فالشهاب السماوى هو ما يُقْذَف به الشياطين من شعل النار، أما النجم الثاقب فهو يثقب ظلمات الليل. لقد حدد القرآن الكريم معنى الكلمة، وقُضِى الأمر، فلا مجال إذن لأية ترجمة تقول شيئا آخر.

وأما "النجم الثاقب" عندى فهو استخدام للمفرد للدلالة على النجوم كلها، أى أن الألف واللام فى "النجم" هى لاستغراق جنس النجوم، فكأن الكلام: "والسماء والنجوم الثاقبة (على صفحتها ليلا)...". وذلك كما نقول: "على الطالب أن يستذكر دروسه أولا بأول ولا يؤجل الاستذكار إلى آخر لحظة قبيل الامتحانات". والمراد "على الطلاب جميعا واحدا واحدا...". ومغزى هذا القَسَم فى رأيى هو الإشارة إلى ظلام الشرك والوثنية والتردى الخلقى والنفسى والاجتماعى والحضارى فى بلاد العرب وبزوغ نجم الإسلام الذى شرع ينير تلك الظلمات، وسوف ينتهى الأمر بانتصاره على كل الأعداء والمعوقات وعلى الدين كله.

ثم ما هذا الكلام السخيف المتنطع الذى يحاول الربطَ بين ليلة القدر وبين ليلة المجوس أو ليلة الميلاد كما يقول المستشرق؟ الواقع أنه لا توجد أية صلة بين الليلتين: ففى ليلة القدر نزل

القرآن، وفى ليلة المجوس ولد المسيح. ولا توجد أدنى علاقة بين القرآن والمسيح فى هذا السياق. بل إن الآيات القرآنية التى تتحدث عن ميلاد المسيح كما فى "مريم" و"آل عمران" مثلا لا تتطرق بأى شكل من الأشكال إلى "نجم المجوس" البتة. لا بل إن الحديث عن نجم المجوس يدخل فى باب الأساطير التى لا ينبغى أخذها مأخذ الجِدّ كما سنبين بعد قليل.

إن لدينا حديثا عن ولادة النبى محمد، وهو موجود فى "البداية والنهاية" لابن كثير، ونصه: "عن أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له: أَخبِرْنا عن نفسِك. قال: نعم أنا دعوةُ أبى إبراهيمَ، وبُشْرَى عيسى عليهما السلامُ. ورأَتْ أمى حين حملتْ بى أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام"، ومع هذا فأنا لا أتصور صحته، إذ كيف أمكن آمنةَ أن ترى بصرى بالشام وهى بمكة، وبينهما البيوت والجدران والجبال وآلاف الكيلَات؟ وكيف عرفتْ أن هذه بصرى، وهى لم تترك مكة إلا إلى المدينة المنورة مرة مع وحيدها وحاضنته أم أيمن؟ ومن يا ترى حكى لمحمد الصغير القصة؟ سيقال: أمه. لكن لم يا ترى لم تَحْكِ هذا لجده وأعمامه وأخواله أيضا؟ فإن قيل إنها حكت ذلك فلماذا لم يذكره أحد بعد هذا بتاتا، وبخاصة بعدما صار محمد نبيا، وصارت هذه الحكاية مما يمكن الاستعانة به فى الدعاية له بالصدق والإخلاص فى إعلانه أنه رسول من رب العالمين؟ وهل يمكن أن يسطع مثل ذلك النور الذى ليس له مثيل فى تاريخ البشرية ولا يراه أحد سوى آمنة من مكة حتى بلاد فارس؟ فإذا كنا نرفض هذا الحديث عن ميلاد نبينا، ومعنا كل الحق، فأَحْرِ بنا أن نرفض أسطورة نجم الميلاد أو نجم المجوس، وهو ما سنبينه الآن

ويستلزم الأمر أن نقرأ أولا ما كتبه متى فى إنجيله، فحين ولد عيسى بن مريم عليه السلام حكى لنا متّى (فصل ٢) حكاية فى منتهى الطرافة تخالف العقل من أية ناحية نظرت إليها وبأى معنى حاولت أن تفهمها. ولنسمع أولا الحكاية ثم نفصل القول فيها بعض التفصيل حتى يتضح وجه طرافتها ومجانبتها للمنطق: "١وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ ٢قَائِلِينَ:«أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». ٣فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ. ٤فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكَتَبَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ:«أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟» ٥فَقَالُوا لَهُ:«فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ .لأَنَّهُ هكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِي: ٦وَأَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ، أَرْضَ يَهُوذَا لَسْتِ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُوذَا، لأَنْ مِنْكِ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرْعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ».٧حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا،

وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِى ظَهَرَ. ٨ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ، وَقَالَ:«اذْهَبُوا وَافْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِى. وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِى، لِكَى آتِى أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ». ٩فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِى رَأَوْهُ فِى الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقُ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِى. ١٠فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جِدًّا. ١١وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِى مَعَ مَرْيَمَ أُمِّهِ. فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ. ثُمَّ فَتَحُوا كُنُوزَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا. ١٢ثُمَّ إِذْ أُوحِى إِلَيْهِمْ فِى حُلْمٍ أَنْ لاَ يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، انْصَرَفُوا فِى طَرِيقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَتِهِمْ".

وبعدما أوردنا الحكاية ننتقل إلى تحليلها: وأول كل شيء أن المجوس يتحدثون عن مَلِك لليهود. فأين ذلك المَلِك؟ لقد وُلِد المسيح عليه السلام فى مِذْوَد لا فى قصر ملكى، وكان ولى أمره نجارا لا قيصرًا ولا كسرًى ولا فرعونًا من الفراعين. كما أنه لم يصر ملكا فى يوم من الأيام بأى معنى من المعانى. الشيء الثانى أن هؤلاء المجوس الآتين من المشرق قد أخذوا يسألون عن ملك اليهود، وهو ما يدل على أنهم كانوا بحاجة إلى من يسألونه عن مكان هذا المَلِك المزعوم لا أنهم كانوا يعرفونه. لكننا بعد قليل سوف نسمع الراوى يقول إن النجم المذكور سوف يظهر لهم ويسير أمامهم، ثم يجيء ويقف فوق بيت الملك المزعوم. فأى الروايتين نصدق بالله عليكم؟ وثالثا فإن الراوى يتحدث عن تحرك النجم أمام هؤلاء المجوس وكأنه كان يمشى بنفس إيقاع حركتهم، فهل هذا معقول؟ وهل كان يتوقف نهارا حتى يستطيعوا استئناف رؤيتهم له ليلا فلا يضلوا عنه بعد أن يكون قد سبقهم فى سماء الله الواسعة؟ وهذا النجم هل يمكن أن نصدق أنه قد توقف فى مداره ولم يسقط فى الفضاء السحيق مثل أى نجم يتوقف عن الدوران؟ ثم ما معنى قول الراوى عن النجم إنه "جاء ووقف فوق"، أى فوق البيت الذى كان فيه الملك الرضيع المزعوم؟ والسؤال هو: جاء من أين؟ من السماء طبعا؟ وإلى أين؟ إلى تحت طبعا بحيث يكون قريبا من المذود الذى كان فيه الطفل الرضيع. أليس هذا هو ما نفهمه من النص بدون أى تكلف؟ فهل هذا ممكن، ونحن نعرف أن النجم أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة؟ أما ما يقال من أن هؤلاء المجوس كانوا يحملون بعض الآلات الهندسية التى يمكنهم أن يحددوا عن طريقها مكان المذود مع الاستعانة بالنجم، كبيرة كانت هذه الآلات أم صغيرة، كما اعترض بعض النصارى علىَّ، فأمر يبعث على الضحك لأن النص لم يقل ولا يمكن أن يقول شيئا من هذا، ذلك أنهم لم يكونوا فلكيين، وإلا ما فاتت هذه منّى ولشنّف آذاننا بها. وقد رأينا المجوس فى البداية لا يعرفون كيف يستدلون على

المكان، فكانوا يسألون الناس. ولو كانت معهم آلات فلكية ما كانوا بحاجة إلى مثل هذا السؤال أصلا! ثم كيف يا ترى استطاعوا التفاهم مع مريم ويوسف، وهم من غير أهل البلاد، وبالتالى لم يكونوا يتكلمون لغة الأم وخطيبها؟ ثم من أى كتابٍ أو فمٍ عَلِمَ أولئك المجوسُ بأمر ذلك النجم؟ بل لماذا اهتم أولئك المجوس بذلك الأمر أساسا، وهم ليسوا من اليهود؟ ولماذا ينبغى أن يشعروا أنهم لا بد لهم من السجود لملك بنى إسرائيل؟ وبعد أن رَأَوْا ملك اليهود لماذا لم يَبْقَوْا إلى جانبه ما داموا قد تكلفوا مشاق ذلك السفر الطويل الذى يهدّ القُوَى؟ أو على الأقل لماذا لم يظهروا ثانية فى حياة السيد المسيح حين كبر وأعلن دعوته وشرع يبشر بملكوت السماوات؟ وهو نفس السؤال الذى يصدق على جماعة الرعاة فى حكاية لوقا المقبلة بعد قليل.

وثمة أسئلة كثيرة أخرى لا أريد أن أرهق القارئ بها فأكتفى بهذه، وأنبه إلى أن هذه الحكاية هى من بُنَيَّات متّى، ولهذا لا نجدها فى أقاصيص الأناجيل الثلاثة الباقية، بل نجد بدلا منها قصة أخرى عند لوقا، الذى أورد فى الفصل الثانى من إنجيله حكاية مختلفة عن جماعة من الرعاة ظهرت لهم الملائكة وهى تترنم مبشرة بولادة عيسى عليه السلام... إلى آخر ما قاله فى الفصل الثانى من إنجيله عن أولئك الرعاة المساكين الذين ليس لهم فى هذا الأمر كثير أو قليل. ولهذا لا نراهم، بل لا نسمع بهم أو عنهم مجرد سماع بعد ذلك أبدا. ثم لماذا تظهر الملائكة لجماعة من الرعاة ليس لهم فى حياة السيد المسيح عليه السلام أى دور يؤدونه على الإطلاق؟

وهذه هى الحكاية: "١وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنْ أُوغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ. ٢وَهذَا الاكْتِتَابُ الأَوَّلُ جَرَى إِذْ كَانَ كِيرِينِيُوسُ وَالِيَ سُورِيَّةَ. ٣فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُكْتَتَبُوا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ. ٤فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، ٥لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ امْرَأَتِهِ الْمَخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. ٦وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. ٧فَوَلَدَتِ ابْنَهَا الْبِكْرَ وَقَمَّطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي الْمِذْوَدِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ. ٨وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، ٩وَإِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. ١٠فَقَالَ لَهُمُ الْمَلاَكُ:«لاَ تَخَافُوا! فَهَا أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: ١١أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. ١٢وَهذِهِ لَكُمُ الْعَلاَمَةُ: تَجِدُونَ طِفْلًا مُقَمَّطًا مُضْجَعًا فِي مِذْوَدٍ». ١٣وَظَهَرَ بَغْتَةً مَعَ الْمَلاَكِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ

السَّمَاوِى مُسَبِّحِينَ اللهَ وَقَائِلِينَ: ١٤«الْمَجْدُ للهِ فِى الأَعَالِى، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ».١٥وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرجال الرُّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:«لِنَذْهَبِ الآنَ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَنَنْظُرْ هذَا الأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِى أَعْلَمَنَا بِهِ الرَّبُّ». ١٦فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرْيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضْجَعًا فِى الْمِذْوَدِ. ١٧فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلاَمِ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ عَنْ هذَا الصَّبِى. ١٨وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوا تَعَجَّبُوا مِمَّا قِيلَ لَهُمْ مِنَ الرُّعَاةِ. ١٩وَأَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِى قَلْبِهَا. ٢٠ثُمَّ رَجَعَ الرُّعَاةُ وَهُمْ يُمَجِّدُونَ اللهَ وَيُسَبِّحُونَهُ عَلَى كُلِّ مَا سَمِعُوهُ وَرَأَوْهُ كَمَا قِيلَ لَهُمْ".

ونعود مرة أخرى إلى سورة "الطارق" فنقول إنها من أولها إلى آخرها تخلو خلوا تاما من الكلام عن ليلة القدر. فكيف يا ترى أقحم المستشرق ليلة القدر هنا؟ ثم إن حكاية نجم الميلاد، كما رأينا، هى كلام لا يدخل العقل ولم يحدث، فلماذا صدع المستشرق أدمغتنا بالربط بينه وبين "النجم الثاقب" فى سورتنا؟

الملاحظة الثامنة أن المستشرق قد أخطأ فى وصف الآية الرابعة بأنها خارجة عن السياق ولا صلة بينها وبين الآيات الأخرى (déconnecté et ne rime pas avec le reste). وهو لا يعرف أننا لو حذفنا الآية الرابعة لكنا أمام أداة قَسَمٍ دون مُقْسَمٍ عليه، كأن يقول أحدنا: "والله وتالله وبالله" ثم يسكت ولا يكمل كلامه. فهل هكذا يفهم العقلاء الآية؟ إن الآية الرابعة هى "إنْ كُلُّ نفس لَمَّا عليها حافظ". ومعنى الكلام أنه سبحانه يقسم أنه ما من نفس إلا عليها حافظ. فما المشكلة التى أَرَّقَتِ المستشرقَ فى هذا؟ هل ثم شيء غريب فى إشارة القرآن إلى أن كل إنسان عليه حافظ يكتب كل ما يقول ويفعل حتى إذا قام من قبره عائدا إلى الحياة يوم القيامة حُوسِبَ بناء على أقواله وأفعاله المكتوبة المحفوظة؟ فما وجه غرابته؟ وهو نفسه قد أومأ إلى قوله تعالى من سورة "الانفطار": "وإنَّ عليكم لَحافظين * كِرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون". ومرة ثانية ما المشكلة هنا؟ إن القرآن فى هذا القسم يؤكد على أسماع المشركين أنه ما من كلمة تصدر عنهم أو عمل يعملونه إلا وهو مقيد فى صحائفهم من كتاب الأعمال، ولن يهربوا من تبعة ما يفعلون مع النبى والمؤمنين، بل سوف يحاسبون على كل صغيرة وكبيرة.

الملاحظة التاسعة هى فهمه لقوله تعالى: "فما له من قوة ولا ناصر" على أنه ينفى الشفاعة (intercession) وإمكان الهروب من الحساب. والكلام فى الآية إنما ينفى أن تكون هناك قوة

فى العالم يمكن أن تنصر الإنسان يوم القيامة على الله سبحانه. وإذن فالإشارة إلى الشفاعة فى هذا السياق لا موضع لها. وفوق ذلك فإن القرآن لم يشر إلى الشفاعة فى أية سورة قصيرة كسورتنا هذه سواء فى ذلك السور المدنية أو السور المكية، وأصغر السور التى ورد فيها ذكر الشفاعة هى "المدثر"، وهى أكبر من "الطارق" بكل وضوح. أى أنه لا يوجد بتاتا أى سبب للحديث عن الشفاعة لدن تناول السورة التى بين أيدينا.

الملاحظة العاشرة أن المستشرق يربط آليًا بين قوله تعالى فى سورتنا الحالية: "يوم تُبْلَى السرائر" وبين قول بولس فى رسالته إلى أهل رومية: "٢/ ١٤لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ، مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ، فَهؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ، ١٥الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوسِ مَكْتُوبًا فِي قُلُوبِهِمْ، شَاهِدًا أَيْضًا ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً، ١٦فِي الْيَوْمِ الَّذِى فِيهِ يَدِينُ اللهُ سَرَائِرَ النَّاسِ حَسَبَ إِنْجِيلِى بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ". فماذا يريد أن يقول؟ واضح أنه يلمز النبى عليه السلام بأنه أخذ عبارة "سرائر النفوس" من رسالة بولس إلى الرومانيين مع أنها عبارة عادية ليست لها أية خصوصية حتى يقال إن محمدا أخذها من العهد الجديد. وهذا إن كان القرآن قد قال: "سرائر النفوس"، إذ الواقع أنه لم يقل سوى "السرائر" ليس إلا. كما أن الإنجيل الذى يرد ذكره فى القرآن والأحاديث لا علاقة له بهذا العهد الجديد بل هو الإنجيل الذى نزل على عيسى من عند ربه لا الأناجيل التى كتبت بعد انتهاء حياة عيسى بعقود، فضلا عن رسائل الرسل التى لا صلة بينها وبين تلك الأناجيل، بل هى شىء منفصل مستقل أضيف إلى تلك الأناجيل فيما بعد وغيرها وسمى الجميع بـ"العهد الجديد". فلو افترضنا أن محمدا عليه السلام كان يعرف الإنجيل ويقرؤه وينقل منه فهذا شىء مختلف عن رسالة بولس إلى الرومانيين وأمثالها مما يقع خارج الأناجيل الأربعة، وبالأحرى تقع خارج الإنجيل الذى تكرر ذكره فى القرآن الكريم. ثم إن القرآن يخبرنا أن السرائر سوف تُبْلَى أى يُطَّلَع عليها فى حين يقول بولس إن الله سوف يدين السرائر. والاطلاع غير الإدانة، إذ هو خطوة سابقة قد يترتب عليها الخلاص، وقد يترتب عليها الإدانة. كذلك فإن الإدانة فى رسالة بولس إنما تقع على المدان حسب تبشيره بيسوع المسيح إلها، وهو ما لا وجود له فى القرآن، إذ المسيح فى القرآن وفى الإسلام مجرد عبد لله ورسول له سوف يحاسَب يوم القيامة مثله مثل سائر البشر. ثم إن القرآن يقول: "السرائر" فقط بخلاف بولس، الذى يقول: "سرائر النفوس" كما وضحنا قبل قليل. فهل التشابه فى كلمة يستأهل ما صنعه المستشرق. ترى هل يصح أن يقال إن

فلانا أخذ من علان كلمة، وبخاصة إذا تكن تلك الكلمة تتميز بخصوصية تامة بحيث ترتبط بعلان هذا لأن أحدا غيره لم يستعملها من قبل مثلا، وجاء فلان ذاك فكان أول من أخذها عنه؟ وهذا إن كانت "رسائل الرسل" مترجمة آنذاك أصلا، فضلا عن أن تكون الترجمة العربية قد أدت الكلمة الأصلية بـ"السرائر". وهذا كله لا وجود له، فهو إذن زوبعة فى كستبان.

ثم إن العبارة موجودة فى الشعر الجاهلى. أى أنها معروفة للعرب من قبل الإسلام. وهذا أمر طبيعى، فما من رسول إلا أتى بلسان قومه. قال الأسفع الأرحبى:

فَمَن مُبلِغٌ عَنّى عَدِيًّا رِسالَةً وَيُخبِرُهُ عَنّى وَلَستُ بِحاضِرِ
بِأَنَّكُمو أَمكَنتُمُو مِن نُفوسِكُم وَفى عَقِبِ الأَيّامِ بَلْوَى السَرائِرِ؟

وقال بلعاء بن قيس الكنانى:

وكم كان فى آل المُلَوَّح من فتى منادًى مفدًّى حين تُبْلَى سرائرُه

بل إن مفردها موجود فى شعر قبل الإسلام. قال سمّاك اليهودى مثلا:

تدلَّى نحو محمودٍ أخيهِ ومحمودٌ سريرتُهُ الفُجُورُ

أما البحث عنها فى رسائل بولس وأمثاله فتساخفٌ كبيرٌ لا معنى له ولا فائدة منه ولا علم فيه.

كذلك فرسالة بولس تتسم بالركاكة الشديدة، ويصعب على صاحب القرآن، الذى يتسم بالبلاغة العالية والبهاء الجليل، حتى لو قلنا مع القائلين إنه محمد بن عبد الله، أن يتنزل إلى الأخذ من هذه الرسالة الركيكة التى تبدو فى الترجمة العربية وكأنها بقلم أعجمى لا يعرف كيف يصوغ سطرا سلسا باللغة التى كتب بها. وهذه هى الفقرة التى يريد المستشرق جيوم داى أن يقول إن محمدا أخذ منها عبارة "سرائر النفوس". وهى، حسبما نلمس بأيدينا لمسا، فقرة معسلطة لا أدرى كيف كتبها بولس، الذى يبدو وكأن حبر ريشته وحركة يده وأصابعه كانت تعانى تَيَبُّسًا مثلما يعانى الشخص منا فى بطنه. قال بولس: "١٢لأَنَّ كُلَّ مَنْ أَخْطَأَ بِدُونِ النَّامُوسِ فَبِدُونِ النَّامُوسِ يَهْلِكُ. وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ فِي النَّامُوسِ فَبِالنَّامُوسِ يُدَانُ. ١٣لأَنْ لَيْسَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ النَّامُوسَ هُمْ أَبْرَارٌ عِنْدَ اللهِ، بَلِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالنَّامُوسِ هُمْ يُبَرَّرُونَ. ١٤لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ، مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ، فَهؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ، ١٥الَّذِينَ

يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوسِ مَكْتُوبًا فِي قُلُوبِهِمْ، شَاهِدًا أَيْضًا ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً أَوْ مُحْتَجَّةً، ١٦فِي الْيَوْمِ الَّذِى فِيهِ يَدِينُ اللهُ سَرَائِرَ النَّاسِ حَسَبَ إِنْجِيلِى بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ". ثم ما معنى قوله: "حسب إنجيلى بيسوع المسيح"؟ الواقع أننى لم أفهمه، ولكن انفتح لى باب فهمه بعض الانفتاح حين رجعت إلى ترجمة أحمد فارس الشدياق فوجدته يقول: "فى اليوم الذى يدين فيه الله سرائر الناس بيسوع المسيح حسب بشارتى". وأتصور أن الشدياق تصرف فى الترجمة بما يذهب عن الأصل عسلطته وركاكته والتواء تراكيبه. ومع هذا فلا يزال فى المعنى قدر غير قليل من الغموض والعتمة.

إن الباحثين الغربيين بوجه عام يزعمون أن محمدا عليه السلام أخذ قرآنه من الكتاب المقدس. وهى شِنْشِنَة معروفة عنهم رغم تهافت زعمهم وسخافته. إنهم يصرون على أن محمدا كان يقرأ ويكتب واطلع على كتب اليهود والنصارى ونسخ منها نصوصا كثيرة فى القرآن، وأن كل قصص الأنبياء الإسرائيليين الموجودة فيه منقولة نقلا عن كتابهم المقدس. أما الأمية التى وصف الله بها محمدا وقومه فتفسيرها عندهم أنهم لم يكونوا أهل كتاب، أى ليس عندهم كتاب سماوى، لا أنهم لا يقرأون ولا يكتبون.

ومثالا على ذلك أحيل القراء الكرام إلى مادة "محمد" فى "دائرة المعارف الإسلامية" حيث يقول كاتبها حسب الترجمة العربية: "وبإمكان هذا السياق أن يقودنا إلى فهم أفضل لكلمة كثيرا ما دار النقاش حَوْلها، وهى كلمة "أُمِّىّ". فحين تشير الآية ١٥٧ من سورة "الأعراف" إلى محمد (صلى اللَّه عليه وسلم) على أنه النبى الأمى فالظاهر أنها تعنى "الشخص الذى لم يبلَّغ من قبل بكتاب اللَّه"، أى عكس أهل الكتاب الذين سبق أن تَلَقَّوْا كتاب اللَّه بلسانهم. وقد كان محمد (صلى اللَّه عليه وسلم) أميا قبل تلقيه الوحى لا بعده. ولا يؤثر هذا التفسير فى نتيجة التساؤل عما إذا كان بمقدور محمد (صلى اللَّه عليه وسلم) أن يقرأ وأن يكتب، اللهم إلا إن كانت كلمة "أمى" تحمل فى طياتها معنى عجزه عن قراءة الكتب المقدسة لليهود والنصارى. ولا بد أن اشتغاله بالتجارة كان يستلزم قدرا من الإحاطة بقراءة العربية وكتابتها. وتشير الآيات ٤- ٦ من سورة الفرقان إلى اتهام الكفار له بالافتراء: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا". ولم تكتسب كلمه "أمى" معناها الشائع

الآن، وهو الجهل بالقراءة والكتابة، إلا فيما بعد، وفى الدوائر الدينية، كتدليل على معجزة تلقى محمد (صلى الله عليه وسلم) الوحى من الله عن طريق جبريل (عليه السلام)".

وهذا زعم متهافت، فمن ناحية القراءة والكتابة نرى أن القرآن، كما مر بنا آنفا، قد وصفه عليه السلام بـ"النبى الأمى" (الأعراف/ ١٥٧). كما أكد فى موضع آخر أنه لم يكن يتلو قبل نزول القرآن عليه من كتاب أو يخطه بيمينه (العنكبوت/ ٤٨). ولو كان كلام القرآن غير صحيح لما سكت الكفار، ولسجل القرآن نفسه كالعادة رده عليهم. إن ألفريد جيوم مثلًا فى كتابه: "Islam" (Pelican Books, Lonoon, 1964, P. 56- 57) يشكك فى أُمِّيَّة النبى عليه الصلاة والسلام، وحجته أنه من غير المعقول أن يطمئن إلى أحد غيره فى قراءة الفواتير أيام اشتغاله بالتجارة، أو فى قراءة ما يرد إليه من رسائل بعد ذلك عندما أصبح نبيًّا. كما أن إحدى الروايات المبكرة تعزو إليه الكتابة يوم صلح الحديبية. وهو يفسر آية "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ" بأن المقصود بذلك هو كتب اليهود والنصارى، وأن أميته (إن صح ما تقوله الآية) إنما استمرت إلى بداية رسالته فقط. والحقيقة أن الآية المذكورة تنفى أنه كان يقرأ أى كتاب، فلا معنى لقصر ذلك على كتب اليهود والنصارى. أما فَهْمُه لقوله تعالى: "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ" بمعنى أنك، وإن كنت قبل ذلك تجهل القراءة والكتابة، فإنك الآن تستطيع ذلك فهو فهم غريب، إذ إن حجة القرآن بذلك تتهافت وتصبح غير ذات معنى، لأن رد الكفار حينئذ سيكون كالتالى: "ما دمت تعرف الآن القراءة والكتابة فهذا معناه أنك تستطيع أن تنظر فى كتب السابقين وتنقل منها". ولكنهم لمَّا لم يحيروا جوابًا كان ذلك دليلًا على أن فهم جيوم للآية غير سليم، وأن المقصود منها هو أنه عليه الصلاة والسلام كان قبل ذلك وظل بعده أُمِّيًّا، وإلا فالواحد يستطيع، على طريقة هذا المستشرق، أن يقول إن القرآن ينفى أن يكون محمد قادرًا على أن يخط شيئًا بيمينه، ولكنه لم ينف قدرته على ذلك بيده الشمال، فمحمد إذن كان يكتب ولكن بيسراه. وهو، كما ترى، فهم مضحك.

إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد فسر الأُمِّية عَرَضًا أثناء حديثه عن الشهور القمرية إذ قال: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب. الشهر هكذا وهكذا. يعنى مرة تسعة وعشرين، ومرة ثلاثين. أما تفسيرها بأنها عدم امتلاك العرب لكتاب سماوى فغير مقبول لأنه لا يعقل أن نترك تفسير الرسول ونأخذ بتفسير غيره، فضلا عن أن المعاجم العربية تفسر "الأمية" بما نفسرها به هنا

وليس فيها أبدا هذا المعنى. وسأنقل هنا ما يقوله "لسان العرب" فى هذا الموضوع: "الأُمِّى: الذى لا يَكْتُبُ. قال الزجاج: "الأُمِّى" الذى على خِلْقَة الأُمَّةِ لم يَتَعَلَّم الكِتاب، فهو على جِبِلَّتِه. وفى التنزيل العزيز: "ومنهم أُمِّيُّون لا يَعلَمون الكتابَ إلّا أَمَانِيَّ". قال أَبو إسحق: معنى "الأُمِّى" المَنْسُوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه أى لا يَكتُبُ، فهو فى أَنه لا يَكتُب "أُمِّى" لأن الكِتابة هى مُكْتَسَبَةٌ، فكأَنه نُسِب إلى ما يُولد عليه، أى على ما وَلَدَته أُمُّهُ عليه. وكانت الكُتَّاب فى العرب من أَهل الطائف تَعَلَّموها من رجل من أهل الحِيرة، وأَخذها أهل الحيرة عن أهل الأَنْبار. وفى الحديث: إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُب ولا نَحْسُب. أَراد أَنهم على أَصل ولادة أُمِّهم لم يَتَعَلَّموا الكِتابة والحِساب، فهم على جِبِلَّتِهم الأُولى. وفى الحديث: بُعِثتُ إلى أُمَّةٍ أُمِّيَّة. قيل للعرب: "الأُمِّيُّون" لأن الكِتابة كانت فيهم عَزِيزة أَو عَدِيمة. ومنه قوله: "بَعَثَ فى الأُمِّيِّين رسولًا منهم"... وقيل لسيدنا محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأُمِّى" لأَن أُمَّة العرب لم تكن تَكْتُب ولا تَقْرَأ المَكْتُوبَ، وبَعَثَه الله رسولًا وهو لا يَكْتُب ولا يَقْرأُ من كِتاب... ففى ذلك أَنْزَل الله تعالى: "وما كنتَ تَتْلُو من قَبْلِه من كِتابٍ ولا تَخُطُّه بِيَمِينِك إذن لارْتابَ المُبْطِلون" الذين كفروا ولَقالوا: إنه وَجَدَ هذه الأَقاصِيصَ مَكْتوبةً فَحَفِظَها من الكُتُب".

كما أن وصف الرسول فى سورة "الأعراف" بـ"النبى الأمى" لا يستقيم مع ما يقوله أعداء الإسلام، إذ لا يمكن أن يقول القرآن إنه "أمى" بمعنى أنه ليس فى يده كتاب سماوى فى الوقت الذى فى يده القرآن الكريم. بل إن القرآن وصف بعض اليهود فى سورة "البقرة" بأنهم "أميون" فقال: "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىَّ، وإنْ هم إلا يظنون". فهل نلغى عقولنا ومعرفتنا باللغة ونقول إنها تعنى أن من اليهود، الذى معهم التوراة، يهودا ليست لهم توراة ولا غير توراة؟ إن كان هذا يستقيم فى العقل فلا كان عقل ولا منطق ولا فهم ولا تفكير. وهل يمكن أن يقول الله لليهود: آمِنُوا يا أهل الكتاب بهذا النبى الذى ليس معه كتاب؟ كيف ذلك؟ بل لقد وُصِف القرآن المجيد فى عدد من نصوصه بأنه "الكتاب": هكذا مجردا دون وصف. ثم كيف يقال إن العرب أمةُ أميين بهذا المعنى، وقد نزل عليهم القرآن الكريم، فهم أيضا أصحاب كتاب؟

أما قول جيوم إن إحدى الروايات قد ذكرت أن الرسول كتب بيده فى صلح الحديبية فالرد عليه هو أن الرواية المتلقاة بالقبول هى أنه أَمَرَ بكتابة ما طلب المشركون من تعديل فى بعض ألفاظ الصلح كما فى "سيرة ابن هشام" مثلا. أما الرواية التى يشير إليها فهى إن صحت يكن

المقصود منها هو المعنى المجازى كما هو الحال فى قولنا: "حارب السادات إسرائيل" و"بنى عبد الناصر السد العالى" وما إليه. ومثله ما ورد فى البخارى من أن الرسول عليه السلام قد اتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه "محمد رسول الله"، إذ لا يعقل أن الرسول هو الذى نقش ذلك بنفسه، فهو لم يكن نَقَّاش خواتم، بل المقصود أنه أمر بذلك. وإن كانت الرواية التى أشار إليها جيوم قد نصت على أن الرسول كتب فعلًا بيده اسمه فلا يدل هذا بالضرورة على معرفة بالقراءة والكتابة، فربما كان عليه السلام يستطيع كتابة اسمه وقراءته فقط كما هو الحال بين كثير من الأُمِّيِّين الذين نعرفهم.

على أية حال ليس من الحكمة فى شيء أن نتمسك برواية واحدة غير مشهورة ذكرت أنه كتب فى هذه المناسبة فقط على مدار حياته كلها ولم ترد فى المصادر الأصلية لسيرة الرسول عليه السلام ونترك كل الروايات الأصلية المتضافرة على أنه عليه السلام كان أُمِّيًا. أما استبعاده أن يطمئن النبى عليه الصلاة والسلام إلى أحد غيره يكتب له الفواتير ويقرأ له الرسائل التى ترد فليس له أساس إلا مجرى الهوى، وإلا فإن كثيرًا من التجار والمقاولين فى القاهرة المعاصرة، التى لا شك أن مستواها الحضارى والثقافى أرقى مليون مرة من مستوى مكة فى ذلك الزمان، لا يستطيعون القراءة والكتابة ولا يمنعهم ذلك من النجاح فى تجارتهم إلى درجة أن بعضهم يصبح مع مر الأيام مليونيرًا. وعلى أية حال فإن السيرة النبوية تذكر أن ميسرةَ غلامَ خديجة كان يصاحب الرسول فى رحلاته التجارية عندما كان يعمل عليه السلام فى أموالها، فمن الممكن جدا أن الرسول كان يشتغل بالتجارة بينما يقوم ميسرة بالكتابة. لا ليس من المعقول أن يعيش النبى ثلاثًا وستين سنة فلا نسمع بواقعة محددة كتب فيها رسالة أو قرأ فيها كتابًا أو حتى ورقة سوى هذه الإشارة المقتضبة إلى أنه كتب فى صلح الحديبية كلمة لم يرض الكاتب المسلم أن يكتبها بنفسه، فنسارع إلى تصديق هذه الإشارة المقتضبة المغموزة ونهمل كل تلك الوقائع القاطعة.

ولو كان الرسول يقرأ ويكتب وينظر فى الكتب السابقة فمن يا ترى رآه يصنع ذلك؟ ومن شاهد فى يده كتابا أو قلما؟ ومن أى شخص كان يحصل على تلك الكتب والورق والأقلام؟ ولماذا لم ينبر واحد ممن يعرفونه عليه السلام يشهد بأنه رآه يقرأ أو يكتب؟ أم تراه إذا أراد القراءة والكتابة نزل فى سرداب تحت الأرض فقرأ وكتب ما يريد ثم ترك الأوراق والأقلام تحت الأرض وخرج ينفض ثيابه من الغبار وخيوط العنكبوت دون أن يستطيع أحد إثبات التهمة عليه؟ أيعقل

أن يكون النبى عارفا بالقراءة والكتابة ثم لا يراه أحد متلبسا بشىء من ذلك طوال عمره؟ وهل نحن فى مدينة مترامية الأطراف يجهل كل فرد فيها كل شىء عن جيرانه؟ لقد كان عليه السلام يعيش فى مكة، وهى أشبه بقرية من قرانا الآن، فلو كان يعرف القراءة والكتابة لعرف كل شخص من أهل القرية هذا الأمر بمنتهى الوضوح واليقين.

هذا عن الأمية، أما بالنسبة لدعوى نقله عليه السلام عن كتب أهل الكتاب قصص الأنبياء الإسرائيليين فالرد سهل، فقد تلقاها من الوحى، فضلا عن أن القرآن يخالف أهل الكتاب فى معظم النقاط الرئيسية والجوهرية التى تدور عليها عقائدهم وسِيَر أنبيائهم: فمثلا عقيدة الألوهية عندنا غيرها فى الكتاب المقدس، إذ إن بنى إسرائيل يصورون الله فى مواضع كثيرة من كتابهم كأنه واحد من البشر، والبشر العاجزين. وهو عندهم إلهٌ قَبَلِيٌّ خاص بهم من دون البشر جميعا، بينما هو فى القرآن رب العالمين كلهم أجمعين. والنصارى يعتقدون أن المسيح هو الإله أو ابن الإله فى حين هو عندنا مجرد عبد من عباد الله ورسول من رسله ليس إلا. وسوف يحاسَب يوم القيامة كما يحاسَب سائر البشر ولن يجلس على يمين الله يحاسِب معه البشر ويعطيهم درجات على أساسها يدخلون ملكوت السماوات أو يُطْرَدون خارجه. ونحن نؤمن بالجنة والنار فى حين يخلو العهد القديم من الحديث فى هذا الموضوع، ويقول العهد الجديد بملكوت السماء، ولكن الكلام فيه شحيح وعارض وعام ولا صلة بينه وبين عقائدنا فى اليوم الآخر. كما أبرأ قرآننا نوحا وإبراهيم ولوطا وموسى وهارون وداود وسليمان... مما يتهم به اليهود من الإجرام ومواقعة الفواحش والتصرفات المنحطة وقساوة القلب وزنا المحارم والقتل العمد الخسيس وغير ذلك، ونفى بنوة عُزَيْر لله، وأنكر صلب عيسى وألوهيته وهاجم الثالوث بكل عنفوان وكفَّر من يقول به.

ثم مَنْ مِنْ أهل الكتاب يا ترى أو من غير أهل الكتاب كان يمدّ محمدا بكتبهم؟ ولماذا لم يظهر ويواجه محمدا بهذا ويضع حدا لادعائه النبوة ما دام محمد لم يتلق شيئا من السماء، ويقول له: كيف تنسى أننى أنا الذى كنت أوافيك بكتبنا ولم يدر بخَلَدى أنك ستغدر بى وتزعم أنك نبى ثم تزيد فتهاجم دينى وكتابى وعقيدتى، وبهذا يضع حدا لمشروع محمد التلفيقى، أستغفر الله؟ وهل كانت تلك الكتب مترجمة فى ذلك الحين إلى العربية، وبالذات رسائل الرسل؟ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

ولقد كان عمه أبو لهب مثلا كافرا ويؤذيه عليه السلام أشد الإيذاء هو وزوجته وينفّر الناس منه ومن دينه، والمعروف أن أفراد كل أسرة يعلم بعضهم عن بعض كل أمورهم، فلم يا ترى لم يتقدم أبو لهب ويشهد على ابن أخيه بذلك؟ وأبو طالب لماذا هو أيضا يا ترى لم يأت بابن أخيه ويقرّعه لأنه قد أحدث فتنة فى مكة وزعم أنه نبى يوحى إليه بينما هو يقرأ ما عند أهل الكتاب من صحف وينقل عنها ويكذب مدعيا النبوة ويحرجه كل قليل مع قومه حين يأتونه ويشتكونه إليه؟

ثم كيف يفسر مستشرقونا دخول تلك الملايين المملينة من اليهود والنصارى من كل الأمم بما فيها الأمم الغربية فى أوربا وأمريكا وأستراليا منذ سطوع نور الإسلام حتى الآن وإلى ما شاء الله فى دين محمد، وفيهم العلماء ورجال الدين والحكام والسياسيون والأدباء والرياضيون وغير أولئك من خاصة الأمم، بل وتقوم دول مسلمة فى الغرب، إذا كان محمد، كما يزعم المستشِرقون، يستقى من كتبهم؟ ألم يكونوا ليقولوا حينئذ لأنفسهم: كيف نؤمن برجل أخذ من كتبنا ولفق قرآنه منها ثم ادعى النبوة وأرادنا على التخلى عن ديننا وكتابنا والدخول فى دينه والإيمان بكتابه؟ ذلك لن يكون أبدا. لكن مئات الملايين على مدار تلك القرون التى مضت منذ بزوغ نور الإسلام اعتنقت الإسلام ضاربة بكل اتهامات المستشرقين عُرْض الحائط. بل إن من المؤمنين بمحمد ودين محمد كثيرين جدا ممن كانوا قبلا ينتمون إلى المستشرقين ورجال الدين من يهود ونصارى.

كما أن فى القرآن قصص أنبياء آخرين غير أنبياء بنى إسرائيل هم شُعَيْب وهود وصالح. وبالمثل لا يقتصر القرآن على سرد قصص الأنبياء، بل هناك قصة الخلق، وتختلف كثيرا عما عند أهل الكتاب على ما هو معروف، وتشريعات للأسرة من زواج وطلاق ولعان وظِهَار وإيلاء وحيض ونِفَاس ومواريث وحضانة وما إلى ذلك، وتشريعات للبيع والشراء والقرض والوصية والزنا والربا والقِمَار والخمر والقتل والجروح والشهادة، وتشريعات أخرى للحرب والغنائم والأنفال والجزية... وهذا كله متميز لا تربطه بما عند أهل الكتاب أو غيرهم رابطة إلا فى النادر الشاذ. فتشريعاتنا مختلفة اختلافا بعيدا. حتى عباداتنا تختلف عن عبادات اليهود والنصارى اختلافا جذريا. فما قول مُتَّهِمِى محمد بأنه كان يستقى قرآنه ودينه من الكتب السابقة؟ وبالمناسبة لم يحدث أن قال اليهود لمحمد إنك تعتمد على ما فى كتبنا فى تأليف قرآنك. كل ما قالوه أنهم عندما طلب الله من المؤمنين أن يقرضوه قرضا حسنا عقَّبوا بكل وقاحة بأن "الله فقير ونحن أغنياء". كما ذهبوا إلى

الوثنيين فى مكة وأكدوا لهم أن وثنيتهم خير من توحيد محمد. وهو تصرف لا غرابة فيه، فقد كان بنو إسرائيل فى كل منعطف فى تاريخهم ولأقل ملابسة يخلعون التوحيد (المغشوش رغم ذلك) ويطيرون إلى عبادة الأوثان طيرانا. وبالمثل لم يتهم النصارى المعاصرون لمحمد أنه أخذ شيئا من كتبهم.

ولا نَنْسَ ما فى القرآن من نبوءات وبشارات بانتصار الروم على الفرس ودخول المسلمين مكة وتأديتهم العمرة بكل أمان واطمئنان وانتصار الإسلام فى آخر المطاف على كل أعدائه...، وهو ما حصل بحذافيره. وليس لشىء من ذلك وجود فى الكتب السابقة. وعلى الناحية الأخرى ليس فى القرآن شىء من "نشيد الأناشيد" الفاحش ولا يشتمل على شتائم موجهة للمسلمين على عكس الكتاب المقدس، الذى يحتوى على شتائم مقذعة يرجم بها الله اليهود رجما. كما أن القرآن ليس تأريخا لأمة العرب مثلما أن العهد القديم هو تاريخ لبنى إسرائيل. وليس قرآننا سيرة نبوية كالأناجيل، بل السيرة النبوية لدينا شىء، والقرآن شىء آخر كما يعرف كل إنسان. وليس فى القرآن سورة كبيرة خاصة بالتشريعات كما هو الحال فى الكتاب المقدس، الذى يضم بين جنباته سفر "التثنية"، وكله تشريعات من أوله إلى آخره. وعلى نفس المنوال لا يتضمن القرآن سورا كاملة كلها أدعية وابتهالات كـ"مزامير داود" مثلا. وعلى نفس الشاكلة يخلو القرآن تماما من الرسائل ما عدا رسالة سليمان لبلقيس، وهى رسالة جد قصيرة إذ تتكون من سطر واحد، ولا تخص المسلمين بل بنى إسرائيل، بخلاف العهد الجديد، فإن فيه بالقرب من نهايته عددا من الرسائل التى كتبها "رسل المسيح" لهذا الشخص أو ذاك أو لهذه الجماعة أو تلك. وهى رسائل طويلة، وبعضها مكون من عدة صفحات.

كذلك فتأليف القرآن يختلف تماما عن تأليف الكتاب المقدس، فالقرآن لا يدخل فى تفصيلات التاريخ ولا يهتم بإيراد الأسماء التاريخية إلا فى حالة الرسل وبعض الأشخاص القليلين جدا لا غير على عكس الكتاب المقدس الذى يفيض بتلك التفاصيل وتفاصيل التفاصيل والأرقام والأعداد مما لا تجده فى كتابنا المجيد. وفى القرآن كثيرا ما نقرأ العبارة التالية: "ويسألونك عن كذا فقل لهم كذا" (مع بعض التنويعات الصغيرة فيها)، مما لا يقابلنا فى الكتاب المقدس. وهناك الفواصل القرآنية، ولا يعرفها الكتاب المقدس، وإن كان بعض مترجمى الأناجيل بِأُخَرَة قد عمدوا إلى تقليد القرآن فأَجْرَوْا آياتها على طريقة القرآن بإنهائها بفواصل كما لدينا، فهم إذن الذين قلدونا لا نحن. ثم

إن قرآننا لا يعرف النصوص التى تُنْسَب إلى بعض أنبيائهم أو دعاتهم كـ"مزامير داود" و"نشيد الأناشيد" المعزوّ لسليمان و"رسائل الرسل" فى العهد الجديد مثلا، بل الكلام كله لدينا هو كلام الله. وليس عندنا إصحاحات كما عندهم ولا عندنا حذف وإضافة لبعض السور مثلما لديهم حذف وإضافة لبعض الأسفار. وفى القرآن تبدأ كل سورة، وهى تقابل السفر لديهم، بالبسملة، أما لديهم فلا بسملة ولا أى شىء آخر بل يبدأ الكلام مباشرة. وفى الوقت الذى نجد فيه سورا جد قصيرة حتى لتتكون بعض السور من سطر واحد أو سطرين أو ثلاثة أو عدة سطور أو بضعة عشر سطرا وما إلى ذلك نجد أن كل سفر عندهم لا بد أن يحتوى على عدد من الإصحاحات، ولا يبلغ أى إصحاح مثل تلك السور فى قصرها الشديد البتة. كذلك لا تعرف إصحاحات الكتاب المقدس تعدد الموضوعات وتنوعها على خلاف سور القرآن المجيد، التى قلما تقتصر الواحدة منها على موضوع واحد، ولا يكون ذلك عادة إلا فى بعض السور القصيرة جدا. وبالمثل نجد عددا من السور القرآنية تبدأ بحروف مقطعة، وهو ما لا نجده فى الكتاب المقدس. ويشبه هذا أن عددا من سور القرآن يبدأ بقَسَمٍ بينما لا يعرف ذلك الكتابُ المقدسُ.

وفى الكتاب المقدس عدد من الأسفار تتضمن رُؤًى طويلة مفصلة ومعقدة ومتشابكة وغامضة بحيث تحتمل تفسيرات كثيرة دون الوصول إلى حسم بشأن التفسير الصحيح. وفى مادة "رُؤًى" بـ"دائرة المعارف الكتابية" نقرأ أن "هناك سلسلة من المؤلفات تحمل أسماء مستعارة، وهى فى غالبيتها من أصل يهودى، ظهرت خلال الفترة بين ٢١٠ق.م. و٢٠٠م. وهذه الكتابات لها سمات مشتركة أبرزها أن هناك تشابها بين هذه المؤلفات جميعها وسفر "دانيال" حيث تستخدم معظم هذه المؤلفات أسلوب الرؤى كأسلوب أدبى لتقدم من خلاله مفاهيمها أو تصوراتها عن المستقبل البعيد... وتختلف كتابات الرؤى عن الكتابات النبوية السابقة لها فى الموضوع وفى الشكل. وكما ذكرنا من قبل أنه بينما نجد أن عنصر التنبؤ موجود فى كل كتابات الرؤى والنبوات إلا أنه يبرز بأكثر وضوح فى كتابات الرؤى، كما أنه يغطى فترات أطول. كما أن كتابات الرؤى تسهب فى وصف حالة العالم كله. ولم تكن هناك فرصة لظهور كتابات الرؤى إلا تحت حكم الإمبراطوريات الكبرى... ومن ناحية الشكل الأدبى هناك اختلافات واضحة بين هذين النوعين من الكتابة، فمع أن كليهما يستخدمان الرؤى إلا أن هذا الاستخدام كان محدودًا فى الكتابات النبوية بمعناها الأضيق. وكانت الرؤى تُذْكَر ضمنًا وليس بصورة أساسية... وتتميز الكتابات النبوية بأنها

كانت تكتب فى قالَبٍ نثرىٍّ رفيعٍ سامٍ يكاد يكون شعرًا منثورًا، بل كثيرًا ما أخذ قالبًا شعريًّا كما فى الإصحاح السادس والعشرين من "إِشَعْيَاء". أما أصحاب كتابات الرؤى فكانوا يكتبون نثرًا عاديًّا دون أى محاولة لإتقانه أو زخرفته، فنجدهم يقدمون أفكارهم فى لغة ركيكة، كما أن الرؤى تسرف فى سرد التفاصيل الخيالية الغريبة".

ومثالا على ذلك نسوق نص الإصحاح الرابع من سفر "رؤيا يوحنا اللاهوتى": "١بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِى السَّمَاءِ، وَالصَّوْتُ الأَوَّلُ الَّذِى سَمِعْتُهُ كَبُوق يَتَكَلَّمُ مَعِى قَائِلًا: «اصْعَدْ إِلَى هُنَا فَأُرِيَكَ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَصِيرَ بَعْدَ هذَا». ٢وَلِلْوَقْتِ صِرْتُ فِى الرُّوحِ، وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِى السَّمَاءِ، وَعَلَى الْعَرْشِ جَالِسٌ. ٣وَكَانَ الْجَالِسُ فِى الْمَنْظَرِ شِبْهَ حَجَرِ الْيَشْبِ وَالْعَقِيقِ، وَقَوْسُ قُزَحَ حَوْلَ الْعَرْشِ فِى الْمَنْظَرِ شِبْهُ الزُّمُرُّدِ. ٤وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ عَرْشًا. وَرَأَيْتُ عَلَى الْعُرُوشِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ شَيْخًا جَالِسِينَ مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ أَكَالِيلُ مِنْ ذَهَبٍ. ٥وَمِنَ الْعَرْشِ يَخْرُجُ بُرُوقٌ وَرُعُودٌ وَأَصْوَاتٌ. وَأَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ مُتَّقِدَةٌ، هِى سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ. ٦وَقُدَّامَ الْعَرْشِ بَحْرُ زُجَاجٍ شِبْهُ الْبَلُّورِ. وَفِى وَسَطِ الْعَرْشِ وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةُ حَيَوَانَاتٍ مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا مِنْ قُدَّامٍ وَمِنْ وَرَاءٍ: ٧وَالْحَيَوَانُ الأَوَّلُ شِبْهُ أَسَدٍ، وَالْحَيَوَانُ الثَّانِى شِبْهُ عِجْل، وَالْحَيَوَانُ الثَّالِثُ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ وَجْهِ إِنْسَانٍ، وَالْحَيَوَانُ الرَّابعُ شِبْهُ نَسْرٍ طَائِرٍ. ٨وَالأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ حَوْلَهَا، وَمِنْ دَاخِل مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا، وَلاَ تَزَالُ نَهَارًا وَلَيْلًا قَائِلَةً:«قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، الَّذِى كَانَ وَالْكَائِنُ وَالَّذِى يَأْتِي». ٩وَحِينَمَا تُعْطِى الْحَيَوَانَاتُ مَجْدًا وَكَرَامَةً وَشُكْرًا لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، الْحَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ، ١٠يَخِرُّ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا قُدَّامَ الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَسْجُدُونَ لِلْحَى إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ، وَيَطْرَحُونَ أَكَالِيلَهُمْ أَمَامَ الْعَرْشِ قَائِلِينَ: ١١«أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِى بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ»". وهو ما يحتار مفسرو الكتاب المقدس إزاءه ويختلفون فى تفسيره اختلافا شديدا.

هذا فى الكتاب المقدس، أما فى القرآن فلا توجد إلا "إشارة" إلى رؤيا واحدة قصيرة لا تزيد عن سطر تقريبا: "لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلِّقين رؤوسكم ومقصِّرين لا تخافون"، وكذلك كلمة "رؤيا" فى قوله تعالى: "وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس".

ومما يفترق به القرآن عن الكتاب المقدس اشتماله على أوصاف الجنة والنار وألوان النعيم والعذاب فى العالم الآخر مما لا يقابلنا شىء منه فى العهد القديم، أما فى العهد الجديد فإشارات ضئيلة ليس إلا. وعلى الناحية الأخرى نجد أن القرآن يخلو من نسبة أية معجزات غير القرآن إلى النبى على عكس الكتاب المقدس الممتلئ بالآيات الكثيرة المنسوبة إلى عدد من أنبيائه. ومما ينبغى ذكره فى هذا السياق أن أسفار الكتاب المقدس مرتبة تاريخيا، أما سور القرآن فلا. وفى هذه الأيام يقترح بعض المفسدين إعادة ترتيب سوره على أساس تاريخى، وهو ما يرفضه علماء القرآن كلهم، ويعدونه عبثا وإساءة إلى النص الكريم. وثم فروق أخرى بين الكتابين، لكننا نكتفى بهذه التى ذكرناها، ففيها غُنْيَةٌ عن الاتساع فى الكلام فى ذلك الموضوع. وهذا يدل على أن مزاعم اطلاع محمد على الكتب الدينية السابقة وتأثره بها هو كلام لا رأس له ولا ذيل. أما أن فى القرآن الكريم والكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى اشتراكا فى إيراد القصص الخاصة بأنبياء بنى إسرائيل فإن محمدا استقاها من الوحى الإلهى كما قلنا. ولهذا نجد فى نسختها القرآنية اختلافات واضحة وحاسمة أهمها أن فيها تصحيحات لما تتضمنه نسختها الكتابية من أخطاء حسبما وضحنا.

الملاحظة الثانية عشرة: قد أرى أن "السماء ذات الرجع" هى السماء حين ترجع إلى ما كانت عليه من قبل فيطويها الله مثل طىّ السجلّ للكتب كما جاء فى سورة "الأنبياء" وتُكْشَط كما جاء فى سورة "التكوير" فكأنها لم تكن بعد أن تمور مورا كما فى سورة "الطور"، وكما بدأ الله أول خلق فإنه يعيده، وأن "الأرض ذات الصدع" هى الأرض حين تتشقق عن الموتى سراعا وتُخْرِج أثقالها كما جاء فى سورتى "ق" و"الزلزلة" تباعا. وقد يعنى "الرجع" أيضا ترجيع الصوت، والمقصود ترجيع الصوت فى الآفاق، وهو صوت الصاخَّة والنفخ فى الصور. والذى دفعنى إلى هذا ما تؤكده الآيتان التاليتان من سورتنا من أن الكلام عن البعث قول فصل وليس بالهزل، ثم ما تبع ذلك من تهديد للمشركين وتأكيد بأن كيدهم منتهٍ إلى الفشل وأنهم راجعون إلى ربهم، وأن المسألة مسألة وقت لا أكثر، فمقاييس الله غير مقاييسنا، والبعث آتٍ آتٍ بلا أدنى جدال، ولكن الأمر يأخذ وقتا، فلذلك طلب القرآن من رسول الله تمهيل الكافرين. وأما إن كنت مخطئا فى هذا التفسير الذى لم أر أحدا من المفسرين ولا المترجمين يقوله فإنى أضرع إليه سبحانه أن يغفر لى هذا الاجتهاد الذى أرى رغم ذلك أنه أكثر إقناعا لعقلى وأشد طمأنة لقلبى. ومرة ثانية قد يكون هذا

التفسير خطأً. لكن الاجتهاد فى الإسلام مأجور حتى لو كان خطأً ما دام رائده الإخلاص والرغبة فى الوصول إلى الحق وما دام صاحبه يقدم الدليل على صحة ما انتهى إليه اجتهاده.

ثم إن قول المستشرق عن الآيات التى نحن بصددها إنها من كلام الرسول هو قول خاطئ، فإن الرسول لا يمكن أن يقول هذا ابتداء من عند نفسه بل لا بد أن يأمره الله بإعلانه للناس مستخدما كالعادة فعل الأمر: "قل". فهذا أسلوب القرآن فى مثل هذه المواضيع، أما توجيه الآيات على ما وجهها إليه المستشرق فهو توجيه خاطئ يدل على أن صاحبه يفتقر إلى الحس الأسلوبى القرآنى ومنهجه فى عرض هذه المسائل.

هذا، وقد سمى أصحاب هذا المشروع مشروعهم بـ"Le Coran des Historiens: قرآن المؤرخين"، وهذه تسمية خاطئة تماما حسبما هو واضح من المثال الذى وصلنى، وهو سورة "الطارق"، فالقرآن واحد هو هذا الذى بين أيدينا فى المصاحف المطبوعة والموجودة فى كل مكان، وهو الذى نسمعه طوال عمرنا وورثناه عن أسلافنا منذ أتى به النبى عليه السلام، فلا وجود لشىء اسمه "قرآن المؤرخين أو الجغرافيين أو الفيزيائيين أو الأطباء أو الرحالة أو العرب أو المستشرقين" بل هو قرآن واحد لا غير ولا سوى. وعلى كل حال فإن أصحاب هذا المشروع لم يقدموا لنا قرآنا غير هذا القرآن، بل قدموا تفسيرا للقرآن جمعوه من هنا وهناك على غير نظام واضح، إذ يشيرون أحيانا إلى ما قاله المفسرون المسلمون القدماء، لكن دون ذكر اسم أى منهم ودون عرض ما قالوه بوضوح وتفصيل، مكتفين بإشارات موجزة وعامة ثم يُتْبِعون هذا بما ترجم به مترجمو القرآن هذه الآيةَ أو تلك الكلمةَ، متَّبِعين أسلوب التكديس لهذه الترجمات دون محاولة لإعمال العقل النقدى أو الذوق اللغوى والأدبى فى تفهم النص القرآنى، منتهزين كل فرصة لتوجيه الاتهامات إلى النص الكريم بأنه أخذ هذه الكلمة أو تلك العبارة من كتب اليهود والنصارى دون تقديم أى دليل أو إثبات، ودون اعتبار لمنطق أو عقل، وهو ما وضحتُه وفضحتُه فى دراستى الحالية وبينت كيف يلجأون إلى التعسف والاتهام بالباطل واللمز السخيف.

وهذا يقودنا إلى ما صرنا نسمعه من المستشرقين ومن يتبعون خُطَاهم من أبناء جِلْدتنا من أن الاستشراق قد تغير وصار مستقلا عن المؤسستين: الدينية والسياسية فى الغرب، بينما الاستشراق فى الحقيقة والواقع هو كما هو فى عمومه غارق فى أوحال هاتين المؤسستين ينفذ أهدافهما، وإن حاول التجمُّل على غرار بطل رواية إحسان عبد القدوس: "أنا لا أكذب، ولكنى

أتجمل" بينما هو يكذب طوال الوقت على نحو فِجٍّ ومضحك ولا يمكن أن يقتنع بصدقه إلا كذاب مثله أو ساذج لا عقل لديه ولا فهم ولا قدرة على رؤية ما تحت عينيه مباشرة.

ويذكرنى على نحوٍ من الأنحاء ما فعله المستشرقون فى هذا الذى يسمونه بـ" Le Coran des Historiens: قرآن المؤرخين" بما زعم محمد أركون ذات يوم أنه سوف يقوم به وسماه: "بروتوكول القراءة الألسنى النقدى"، الذى يفرق بينه وبين الطريقة التى يتبعها المفسرون المسلمون والتى يُطْلِق عليها: "البروتوكول التفسيرى" بادئا بتعداد المبادئ التى تقوم عليها تلك الطريقة الإسلامية فى تفسير القرآن والتى ينظر إليها بترفع بوصفها أثرا من مخلفات الماضى التى ينبغى أن تُزَال، ذاكرا من بينها الاعتقاد بأن الحقيقة التى يتضمنها القرآن، والتى هى الحقيقة الوحيدة حسب الرؤية التقليدية للمسلمين، لا يمكن أحدا أن يحددها أو يعرفها إلا "عن طريق الاستعانة بأقوال الجيل الشاهد عليها، أقصد جيل المؤمنين الأوائل الذين تَلَقَّوُا الوحى من فم النبى مباشرة، والذين طبقوه عمليا فيما بعد (القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى/ ترجمة وتعليق هاشم صالح/ دار الطليعة/ بيروت/ ٢٠٠١م/ ١٢٢). ومن الواضح الذى لا يحتاج إلى فضل بيان أن ذلك يتناقض تناقضا أبلق مع ما سماه بـ"الوضعية العامة أو الظرف العام للخطاب". وهو، بنص كلامه، "مجمل الظروف التى جرى فى داخلها فعلٌ كلامىٌّ، سواء أكان مكتوبا أم شفهيا. ويخص ذلك فى آن معا المحيط الفيزيائى- المادى والاجتماعى الذى نُطِق فيه الكلام، كمَا ويخصّ الصورة التى شكلها المستمعون عن الناطق لحظة تفوهه بالخطاب، ويخص هوية هؤلاء، والفكرة التى يشكّلها كل واحد منهم عن رأى الآخر فيه. كما ويخصّ الأحداث التى سبقت مباشرةً عملية التلفظ بالقول، وبخاصة العلاقات التى كان المخاطبون يتعاطَوْنها فيما بينهم، ثم بشكل أخصّ التبادلات التى اندرج فيها الخطاب المعنِىّ" (السابق/ ١١٤).

وهذا كلام يسبب الدوار لقارئه ومحاول فهمه. وبالله متى يمكننا أن ننتهى من فَهْمِ بَلْهَ شَرْحَ أىّ شىء فى القرآن إذا كان علينا أن نحيط بذلك كله قبل البدء فى عملية الفهم؟ وبناء على هذا يشترط قراءة كل ما كُتِب من تفاسير منذ بداية التفسير القرآنى حتى اليوم فى تفسير سورة "الفاتحة"، التى يعلن أنه سوف يطبق عليها بروتوكوله المذكور، ثم التقفية بما يحتاجه ذلك من جرد وفرز. إلا أنه سرعان ما يحيص قائلا إن هذا العمل "لا يمكن أن يقوم به شخص واحد، وإنما فريق كامل من فرق البحوث". وبالمناسبة فما "الفاتحة" إلا مجرد مثال لأية سورة أخرى نريد تحليلها

طبقًا لبروتوكوله الألسنى النقدى. إننا لو رُمْنا ذلك فلن ننتهى أبدا من تحليل القرآن كما هو واضح! ثم فلنفترض أننا قد استطعناه، فمن ذا الذى يا ترى يمكنه الزعم بأنه سيكون التحليلَ المثالى الذى يخلو من الأخطاء؟ إن هذا أيضا بدوره مستحيل!

خلاصة الكلام أن د. أركون قد انتهى إلى أنْ طامَنَ من غُلَوائه المتنطعة وقنع من الغنيمة بالإياب فأخبرنا أنه سيكتفى بتفسير الرازى، الذى زعم أنه "قد جمع فى تفسيره أهم ما أنتجه الجهد التفسيرى خلال القرون الهجرية الستة الأولى السابقة له". لكنه عزَّ عليه أن ينهزم هكذا على الملإ أمام أول تجربة، فأخذ يؤكد لنا أنه يزمع أن يقدم لتفسير الرازى طبعة محققة مصحوبة بقراءة تهدف للإجابة عما لا أدرى ماذا (السابق/ ١٣٥- ١٣٧)، ثم إنه بعد ذلك كله لم يرجع إلى الرازى إلا مرتين اثنتين لا غير نَقَلَ فى الأولى منهما ثلاثة أسطر ونصفا (ص ١٢٧)، وفى الثانية فقرةً لا تزيد على ثلاثة عشر سطرا (ص ١٣٩- ١٤٠). ولشديد الأسى والأسف لم يحسن الاستفادة من أىٍّ من النصين.

كذلك فإن تفسير الرازى، الذى تغلب عليه الصبغة الفلسفية، هو مجرد لون واحد من التفاسير لا يغنى عن غيره ولا يغنى غيره عنه، فهناك التفسير بالمأثور والتفسير الاعتزالى والتفسير الصوفى والتفسير الخارجى والتفسير الشيعى والتفسير اللغوى والتفسير الفقهى والتفسير العلمى... وهلم جرا. وحتى لو وافقْنا المؤلفَ على ما يقوله عن قيمة تفسير الرازى وأنه يغنى عن التفاسير السابقة عليه، فماذا نحن فاعلون فى التفاسير التى جاءت بعده؟ وعلى أية حال فلو تحوَّلنا بعد ذلك كله لنرى ماذا أنجز د. أركون فى التحليل الفعلى لسورة "الفاتحة من هذا كله راعَنا كثرة العناوين وتعمد انتقاء الكلمات الضخمة التى تسبب الدوار للرأس دون أن يكون وراءها شىء ذو قيمة أو يستحق كل هذه الطنطنات. كيف ذلك؟

لنأخذ أولا العناوين، وسوف أوردها بالترتيب التى أتت به فى التحليل المذكور: "اللحظة الألسنية أو اللغوية: عملية القول أو عملية النطق، المحدِّدات أو المعرِّفات، الضمائر فى سورة "الفاتحة"، الأفعال فى سورة "الفاتحة"، الأسماء أو التحويل إلى اسم فى سورة "الفاتحة"، البِنْيات النحوية فى سورة "الفاتحة"، النظم والإيقاع. العلاقة النقدية- الفاتحة كمنطوقة أو عبارة: اللحظة التاريخية، النسق اللغوى أو الشيفرة اللغوية، النسق الدينى أو الشيفرة الدينية، النسق الثقافى أو الشيفرة الثقافية، النسق التأويلى أو الباطنى، اللحظة الأنثربولوجية". وهى، كما ترى، عناوين

مخيفة تجعل قلب الواحد منا يسقط فى قدميه. إلا أن المسألة لا تخلو مع هذا من الجانب الفكاهى، فهذه العناوين التى تخلع القلوب من أماكنها لا تساوى ثمن الحبر الذى كُتِبت به، إذ لا شيء وراءها، أو إذا كان وراءها شيء فإنه لا يستحق كل هذه الضجة المزعجة. أى لحظات تاريخية؟ وأى بروتوكولات؟ وأى شفرات؟ أنحن داخلون حربا عالمية؟ لننظر مثلا تحت عنوان "النظم والإيقاع". فماذا نجد تحته؟ لقد كتب المؤلف تحت هذا العنوان أربعة عشر سطرا فى فقرتين: فأما فى الفقرة الأولى فقد أشار مجرد إشارة عابرة إلى أهمية الدور الذى يلعبه التشديد والإيقاع والنغم والمدة وارتفاع الصوت والكثافة فى عملية القول والعلاقة بين علم النحو والنبرة، وأننا فى اللغة العربية، والنص القرآنى بالذات، نمتلك أدبياتٍ غنيةً وغزيرةً خاصةً بالنظم والإيقاع، ولا تزال تنتظر من يدرسها طبقا للمناهج الحديثة فى التحليل العلمى، وأنه "من غير الممكن (فى الحالة الراهنة) المخاطرة بتفسيرٍ مُرْضٍ لنصٍّ قصيرٍ كـ"الفاتحة"".

صحيح أن بروتوكول القراءة الشعائرية (والمقصود الطريقة القديمة فى تفسير القرآن، وإن كان كلامه يوحى بأن المقصود هو قراءة القرآن على المقابر وفى المآتم) وتقنين التجويد يقدمان لنا بعض التعليمات التى لم يُدْرَس تأويلها الصوتى والفونيمى والنظمى- الإيقاعى بشكل جاد حتى الآن". لكنه حين جد الجِدّ ولَّى هاربا ولم يعقّب. وإليك كل ما قاله البروفيسير بعد هذه الطبول والزُّمُور التى أصمَّت لنا الآذان وخلعتْ منا القلوب. قال: "ولهذا السبب فإننا سنكتفى فقط بالتنبيه إلى الملاحظة البسيطة التالية، وهى وجود قافية "إيم" متناوبة مع قافية "إين" فى سورة "الفاتحة". أما فيما يخص الوحدات الصوتية الصغرى (الفونيمات) فإننا نلاحظ هيمنة الوحدات التالية: "ميم" ١٥ مرة، و"لام" ١٢ مرة، و"نون" ١٢ مرة، و"هاء" ٥ مرات. نحن نعلم أن التفسير التقليدى يضفى قيمة رمزية على كل وحدة صوتية وعلى عدد التكرارات، وبالتالى فإن الدراسة النظمية أو الإيقاعية للعلامات أو الكلمات ينبغى أن تتلوها الدراسة الرمزية، أو ينبغى أن تستطيل عن طريق الدراسة الرمزية" (ص ١٣٤). أرأيت؟ إن الرجل لم يقدم شيئا البتة رغم كل الوعود الجبارة.

وعَوْدًا إلى ما قاله د. أركون عن مبادئ البروتوكول التقليدى فى تفسير القرآن وما توجبه من الاستعانة بالنحو وعلم اللغة التاريخى والبلاغة والمنطق للوصول إلى معنى النص القرآنى، والفرق بينها وبين مبادئ بروتوكوله هو التى لا تعرف هذه الاستعانة ولا تبالى بها، نلفت نظر القارئ إلى أنه أمضى الصفحات التى خصصها لسورة "الفاتحة" فى الكلام عما تشتمل عليه السورة

الكريمة من ضمائر وأسماء وأفعال وبنيات نحوية، محاولا الوصول إلى شىء من المعنى من وراء هذه الإحصاءات عبثا، ومتخبطا فى أثناء ذلك تخبطا لا يليق بمن يتصدى لتفسير كتاب الله العظيم! فمثلا يرى سيادته أن السورة تحتوى على فعلين مضارعين (هما: "نعبد، ونستعين") أُسْنِدا إلى البشر (جماعة المؤمنين)، وفعلٍ واحدٍ ماضٍ مسند إلى الله (هو: "أنعمتَ")، وأن السبب فى هذا أن الفعل المضارع يدل على استمرار المحاولة وديمومة التوتر، فهو يناسب البشر، بخلاف الماضى الذى يدل على أن الأمر قد تم وانتهى الأمر ولا مرجوع عنه، وهو ما يناسب القدرة الإلهية (القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينى/ ١٣٠- ١٣١). وهذا كلامٌ خَدِيجٌ لا نضج فيه، إذ كثيرا ما تُسْنَد الأفعال المضارعة إلى الله، والماضية إلى البشر، والعبرة بالسياق والمعنى لا بصيغة الفعل كما فى الشواهد التالية، وكلها من القرآن الكريم ذاته: "الله يستهزئ بهم ويَمُدّهم فى طغيانهم يعمهون"، "قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا فارض ولا بِكْر"، "قد نرى تقلُّبَ وجهِك فى السماء"، "والله يرزق من يشاء بغير حساب"، "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم"، "الله وَلِيُّ الذين آمنوا يُخْرِجُهم من الظلمات إلى النور"، "قل: إن الفضلَ بيد الله يؤتيه من يشاء"، "ولله ما فى السماوات وما فى الأرض، يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء"، "يُوصِيكم الله فى أولادكم: للذَّكَر مثل حظ الأُنْثَيَيْن"، "فأولئك يتوب الله عليهم"، "يريد الله أن يخفف عنكم"، "أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم"، "ويستفتونك فى النساء. قل: الله يفتيكم فيهن"، "لكنِ اللهُ يشهد بما أنزل إليك"، "يَهْدِى به الله من اتَّبع رضوانه سُبُل السلام"، "قد نعلم إنه لَيَحْزُنك الذى يقولون"-- "لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم"، "فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه"، "وقالت اليهود: يد الله مغلولة"، "فقد كذَّبوا بالحق لما جاءهم"، "انظر كيف كذَبوا على أنفسهم"، "وَذَرِ الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولَعِبًا وغَرَّتْهم الحياة الدنيا"، "وما قَدَروا الله حَقَّ قَدْره"، "وجعلوا لله شركاءَ الجِنَّ"... إلخ إن كان لذلك من آخر.

ومما قاله أركون أيضا فى تحليله للسورة إن أداة التعريف: "أل" التى تكررت فى قوله تعالى: "اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" تدل على أن "هذه التراكيب هى عبارة عن مفاهيم أو أصناف أشخاص محدَّدين بدقة من قِبَل المتكلم وقابلين للتحديد من قِبَل المخاطب عندما يصبح بدوره قائلا أو متكلما" (ص ١٢٧). وهكذا نرى أن الرجل الذى يقلل من شأن النحو واللغة فى عملية التفسير القرآنى كما رأينا، لم يستطع أن

يتجاهل، فيما يسميه: "تحليل الخطاب القرآنى"، لا اللغة ولا النحو، لكن دون أن يستطيع الاستفادة منهما للأسف. ليس هذا فحسب، بل ثمة ارتباك واضطراب فى استعمال المصطلحات النحوية واضحان، وهو ما يؤكد ما قلناه مرارا عن قلة بضاعته من العلم بالموضوع الذى تصدى له رغم أنه هو الميدان الذى تخصص فيه وأصبح أستاذا. وهذا كل ما يقدمه لنا الدكتور أركون من خلال ما يسميه: "تحليل الخطاب الدينى"، وهو لا يشفى غليلا ولا يزيد القارئ علما بشىء فى السورة، فلا رجوع لأسباب النزول ولا تعمق فى تحليل دلالات الاختيارات المعجمية أو الصيغ الصرفية أو التراكيب النحوية التى رُوعِيَتْ فى كلمات السورة وبناء جملها وما فيها من تقديم وتأخير وحذف وذكر وتكرير وما إلى ذلك، ولا التفات لما تريد السورة أن تغرسه فى عقل المسلم وقلبه من عقائد ومشاعر ومفاهيم مما تعج به كتب التفسير، التى لا تعرف هذه البهلوانيات الألسنية الضحلة، ومع ذلك يعمل محمد أركون عبثا على التقليل من شأنها.

وهذا المتنطس الذى لا يعجبه المنهج الذى يتبعه المفسرون المسلمون والذى يستعينون فيه، ضمن ما يستعينون، بالنحو والصرف والبلاغة، يغرق فى شبر ماء أمام كلمة "أَمْ" الواردة فى الآية التاسعة من السورة الثانية التى يريد تحليلها على منهجه (أو "بروتوكوله" حسب تعبيره)، وهى سورة "الكهف" فلا يجد إلا ما يقوله ريجى بلاشير، فيردده فرحا به كأنه وقع على كنزٍ شماتةً منه بالقرآن، وكان الأحرى به بدلا من هذا أن يشعر بالخجل لأنه دائم التنفج فى كتاباته بأن منهجه الجديد يختلف عن منهج المستشرقين السابقين البالى. فماذا قال بلاشير وردده وراءه أركون دون أن يتمعن فيه؟ قال بلاشير إن "أَمْ" هذه لا تستعمل إلا للتناوب أو المفاضلة بين شيئين، لكن الملاحَظ أنها فى آيتنا هذه لا يسبقها شىء يمكن أن يشكّل الطرف الآخر فى عملية التناوب، ومن ثم فإن الآيات قد تعرضت لعملية تلاعب، وهذا التلاعب يدل عليه غياب الطرف الآخر للتناوب (ص ١٤٨). يقصد أن "أم" فى قولنا مثلا: "أتأكل تفاحا أم كمثرى؟" هى للمناوبة بين هاتين الفاكهتين اللتين ينبغى أن تختار واحدة منهما فقط. لكن فات بلاشير ومقلده أن "أم" لا تنحصر فى هذه الوظيفة، بل لها عدة وظائف: ففى قوله تعالى: "سواء عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنْذِرهم: لا يؤمنون" نراها تدل على أنه لا فائدة فى هذا أو ذاك، فالنتيجة واحدة فى الحالتين. أما فى قولنا: "أزيد عندك أم عمرو؟" فتدل على الرغبة فى تحديد الموجود من الشخصين. وتسمى "أم" فى هذين التركيبين: "أم المتصلة"، لأنها متصلة بما قبلها، وهذا ما ظن بلاشير ومقلده أنه كل مهمتها.

لكن فات بلاشير أن هناك "أم" أخرى هى "أم المنقطعة" التى ليس للاسم الذى بعدها مناوبٌ قبلها، بل تنشئ كلاما جديدا كما هو الحال فى الآية محور الكلام، ونصها: "أم حَسِبْتَ أن أصحاب الكهف والرَّقِيم كانوا من آياتنا عَجَبا؟"، والتى يقول المفسرون إن معناها هنا "بل أ...؟"، وإن كانت تأتى أحيانا بمعنى "بل" فقط دون همزة استفهام كما فى قوله تعالى: "فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا؟" (النساء/ ١٠٩). وأنا أضيف حالتين أُخْرَيَيْن: أولاهما تأتى فيها "أم" للمناوبة بين طرفين، لكن الطرف الأول لا يُذْكَر، بل يُفْهَم ضمنيا من الكلام السابق، كما فى قول أحدنا مثلا: "رأيى أن تأخذ فلانا باللين والهوادة وأن تصبر عليه طويلا، ولسوف يَصْلُح حاله بهذا الأسلوب إن شاء الله. أم لك رأى آخر؟". والمعنى: "أتوافقنى على رأيى هذا أم إن لك رأيا آخر؟"، إلا أن عبارة "أتوافقنى على رأيى هذا" ليست مذكورة فى الكلام كما هو واضح، بل تُفْهَم فهمًا من السياق. والأخرى بمعنى: "أَتُراك...؟"، وهذا المعنى الأخير لا يكون إلا فى بعض حالاتِ مجيئها منقطعة، وأنا أفهم الآية على هذا المعنى. ومع ذلك كله لقد كان ينبغى على بلاشير ومقلده ألا يُطَنْطِنا بهذا الذى طَنْطَنَا به، فالنبى الذى جاء بالقرآن (أو "اخترعه" كما يقول من لا يؤمنون بنبوته عليه السلام) عربى، ومن ثم فإن ما يقوله هو الصواب لا ما يُرْجِف به هؤلاء الأعاجم. وحتى لو قلنا إن المسلمين قد غيَّروا فى القرآن من بعده صلى الله عليه وسلم، فالذين غيروا فيه هم أيضا عرب، ومن ثم فما يقولونه هو الصواب. أليس هذا ما يمليه المنطق؟ لكن القوم، حين يتعلق الأمر بالإسلام والقرآن، لا يهتمون بمنطق ولا عقل، بل تشغلهم أحقادهم وتُذْهِلهم عن كل شىء! وهذا الاستعمال قد تكرر فى القرآن كثيرا جدا بحيث لا يمكن، مهما تسامحنا إلى أبعد مدى، أن نظن أنه خطأ فى كل هذه المواضع! اللهم إلا أن يكون العرب والمسلمون من الجهل والبلادة فى لغتهم بدرجة ليس لها نظير فى التاريخ!

وقد رجعتُ إلى كتاب النحو الذى وضعه بلاشير بمشاركة جودفروا ديمومبين لطلاب الاستشراق فوجدتهما لا يذكران من "أم" إلا المتصلة، وهى التى سبقتْها همزة، سواء كانت همزة استفهام أو همزة تسوية كما فى المثالين اللذين ضربتهما قبل قليل (Grammaire de L'Arabe Classique, Maisonneuve et Larose, Paris, 1966, PP. 218, 469)، فهذه كل بضاعة النحو عند هذا المستشرق، وذلك هو السر فى الخبط الذى تناول به الآية وزعم أنه قد سقط قبلها كلامٌ جرّاءَ العَبَث الذى وقع فى القرآن بعد وفاة النبى عليه السلام. وعلى أية حال

هأنذا أورد العينة التالية من الشواهد القرآنية على ذلك الاستعمال لمن يريد أن يطمئن على هذا الذى نقول: "أم حسِبْتم أن تدخلوا الجنة ولـمّا يأتكم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِنْ قبلكم؟" (البقرة/ ٢١٤. ومثلها كل الآيات التى تبتدئ بعبارة "أم حسبـ(ـتَ/تُمْ")، "أم يقولون: افتراه؟" (يونس/ ٣٨، وهود/ ٣٥ مرتين، والسجدة/ ٣، والأحقاف/ ٨)، "أم اتخذ مما يخلق بناتٍ وأَصْفاكم بالبنين؟" (الزخرف/ ١٦)، "ما لكم؟ كيف تحكمون؟ * أم لكم كتاب فيه تَدْرُسون؟" (القلم/ ٣٧). ومن يُرِدْ شواهد أخرى من القرآن فبمكنته أن يراجع المواضع التالية: البقرة/ ١٣٣، والنساء/ ٥٣، والرعد/ ٣٣، والأنبياء/ ٢١، ٢٤، ٤٣، والنمل/ ٢٠، وفاطر/ ٤٠، والصافات/ ١٥٦، وص/ ٩، والزمر/ ٤٣، والشورى/ ٩، ٢١، ٢٤، والأحقاف/ ٤، ومحمد/ ٢٩، والطور/ ٣٠، والملك/ ٢٠، والقلم/٣٧.

ومثلُ "أم" فى هذا استخدامُ القرآن للظرف "إذ" فى أول الكثير من قصصه دون أن يسبقه كلام، وهو ما لا أذكر أنى رأيته خارج القرآن شعرًا أو نثرا. وهذه الـ"إذ" يقابلها قولنا حين نريد أن نحكى لأحدٍ حكاية: "كان يا ما كان" أو "يحكى أن" أو "حدث ذات مرة" أو ما إلى ذلك. ويقول المفسرون بأن معناها: "اذكر"، وهو معنى لا يذهب بعيدا عما قلناه .فهل يصح أن يأتى أعجمى كبلاشير قائلا إن هذا استعمال خاطئ، وإنه يدل على أنه كان ههنا كلام، ثم حُذِف؟

وسر تذكير "قرآن المؤرخين" لى بمشروع أركون هو أن كليهما أعلن عن طموح كبير، وهو جمع كل ما قيل فى تفسير كل كلمة وكل عبارة وكل آية وكل سورة فى القرآن المجيد، لكنه قصر فى إنجاز هذا الطموح: فأما أركون فقصر تقصيرا تاما ولم ينجز شيئا مما وعدنا وطنطن به، وأما "قرآن المؤرخين" فتشوبه أخطاء كثيرة ويعانى من وجوه نقص شديدة وضحتُ بعضها آنفا. والقائمون عليه، كما لاحظنا، ينقصهم العقل النقدى والذوق اللغوى والأدبى الذى كان من شأنه لو توافر لهم أن يساعدهم على تفهم النص القرآنى وتذوق ما فيه من جمال وروعة وإبداع سامق، فأتى كلامهم متخشبا جافا، وصار همهم القفز فى كل فرصة إلى لمز القرآن المجيد والإيماء إلى أنه مأخوذ من هنا ومن هناك من كتب أهل الكتاب، وهو ما لم يقله اليهود أو النصارى أنفسهم فى عهده صلى الله عليه وسلم. ولو كان صحيحا ما يلمز به مستشرقونا القرآن لَمَا فَوَّتَ يهودُ المبعث ونصاراه هذه الفرصةَ ولَسَدَّدوا هدفا عزيزا غاليا فى مرمى الإسلام دون مقابل وخرجوا فائزين بالمباراة.

من تأثير أطروحات الاستشراق الخاطئة على بعض كُتّابنا

نبدأ بما نقلناه من كتاب رفاعة الطهطاوى: "تخليص الإبريز" عن الخداع الذى مارسه المستشرق الفرنسى دى ساسى على السيدة الرشيدية زوجة عبد الله مينو القائد الثالث للحملة الفرنسية واستعانته بالمستشرق الفرنسى دى ساسى فى إقناعها بأن تعميد ابنها منه جائز فى الإسلام لأن الأديان عند الله واحدة دون أدنى فرق اعتمادا على تفسير قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ". وقلنا ضمن ما قلنا إن دى ساسى كان يعلم أن تفسير الآية على هذا النحو تفسير باطل، وإلا فلم دعا النبى عليه الصلاة والسلام النصارى واليهود وأصحاب الديانات الأخرى إلى الإيمان به؟ أم تراه جاء بالإسلام تضييعا لوقته ووقت الناس؟

وبالمناسبة فهناك مستشرقون آخرون وقفوا ذات الموقف إزاء هذه الآية كالمستشرق إدوار مونتيه مترجم القرآن إلى الفرنسية، الذى قال إن بينها وبين باقى نصوص القرآن التى تتحدث عن أهل الكتاب تناقضا. ذلك أنه يرى أن النص الذى نحن أمامه يدل على أن المسلمين لن ينجوا وحدهم يوم القيامة بل يشركهم فى هذه النجاة الذين هادوا والنصارى والصابئون ما داموا يؤمنون بالله واليوم الآخر بحيث لا يكون ثمة خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال ذلك لدن ترجمته الآية المشابهة لآيتنا فى سورة "المائدة". وفاته أن القرآن واضح الدلالة فى أنه لا بد للنجاة يوم القيامة من الإيمان بجميع الرسل كما تقول الآية ١٥٠ من سورة "النساء" بوضوح تام، ومعنى ذلك أنه، لكى ينجو الإنسان يوم القيامة، لا بد من الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن، أى لا بد من اعتناق الإسلام. وهذا هو ما ظل الرسول يردده طول عمره. بل إن سورة "المائدة" نفسها التى قال مونتيه ما قال عن الآية الواردة فيها تقول بصريح العبارة بكفر أهل الكتاب ما داموا يكفرون بالنبى محمد عليه السلام. وهذه الآية التى بين أيدينا إنما تعنى أن باب النجاة ليس مقصورا على المسلمين الذين آمنوا بالنبى محمد من غير أصحاب الديانات الأخرى بل هو مفتوح لمن يريد أن يلتحق بهم من يهود أو نصارى أو صابئين، وهذا هو معنى اشتراط الآية إيمانهم بالله واليوم الآخر. ذلك أن الإيمان بالله واليوم الآخر يستلزم حتما الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كما جاء فى سورة "النساء" وفى سورة "الأنعام" على التوالى: "إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا *

أولئك هم الكافرون حقا. وأعتدنا للكافرين عذابا عظيما"، "وهذا (أى القرآن) كتاب أنزلناه مبارك مصدِّق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها. والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به (أى إن من لا يؤمن به لا يعد مؤمنا بالآخرة)، وهم على صلاتهم يحافظون". كما أن رسالة محمد عليه السلام هى رسالة عالمية، أى موجهة إلى البشر جميعا. فكل من بلغته هذه الرسالة على وجهها الصحيح وفكر فيها وتبين له صحتها فعليه المسارعة إلى الدخول تحت لوائها لا يقبل منه إلا ذلك. قال تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا"، "يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا"، "تبارك الذى نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بُعِثْتُ إلى الناس كافة"، "أُرْسِلْتُ إلى الناس كافة"، "بُعِثْتُ إلى الأحمرِ والأسود"، "أُرْسِلْتُ إلى الأحمرِ والأسود"،.

ولكن الشيخ محمد عبده، فيما يبدو، يرى فى هذه الآية شيئا قريبا مما يراه المستشرق الفرنسى دى ساسى، إذ يقول فى تفسيره لآية سورة "البقرة" المشابهة إن الفرق بين المسلم والكتابى هو نفسه "الفرق بين الموحدين المخلصين العاملين بالكتاب والسنة وبين المبتدعة الذين انحرفوا عنهم"، وإن "القرآن، وهو منبع الدين، يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لا يختلفون عنهم إلا فى أحكام قليلة"، فضلا عن أنه يرى أن الحكم على المؤمنين وأهل الكتاب واحد فى الآية ٦٢ من سورة "البقرة"، وهى الآية التى تشبه آية المائدة، وذلك جريا على الفهم السطحى لها. وقد كرر هذا المعنى فى تفسيرة لقوله تعالى من سورة "آل عمران" عن أهل الكتاب: "ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف ويَنْهَوْن عن المنكر ويسارعون فى الخيرات. وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يُكْفَروه. والله عليم بالمتقين"، إذ قال: "هذه الاية من العدل الإلهى فى بيان حقيقة الواقع... وهى دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء وأن كل من أخذه بإذعان وعمل فيه بإخلاص فأَمَر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو من الصالحين".

وردا على ذلك نقول: هل يعقل بعد وصم الله لأهل الكتاب الذين رفضوا رسالة محمد عليه السلام بالكفر أن يقال إنه لا فرق بينهم وبين المسلمين إلا كالفرق بين المسلم المتمسك بالكتاب والسنة وبين المسلم المبتدع؟ ترى ماذا نقول فى الحملة المدمدمة عليهم فى قوله جل شأنه

فى سورة "البقرة": "ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدِّقٌ لما معهم، وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به. فلعنة الله على الكافرين * بئس ما اشترَوْا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا أن ينزِّل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباؤوا بغضب على غضب. وللكافرين عذاب مهين * ولقد أنزلنا إليك آيات بينات، وما يكفر بها إلا الفاسقون"؟ الواقع أن ليس لكلام الشيخ من معنى إلا أن الإسلام وجوده كعدمه. فما وجه الحكمة إذن فى إرسال محمد بدين جديد؟ وكيف يتسق كلام الشيخ مع الإيمان بعالمية الإسلام؟

وقد سار على خطواته د. محمد عمارة فى كتابه: "الإسلام والوحدة الوطنية" حيث أثنى على تفسير الشيخ للآية المذكورة ورأى أنها تعطى الحق لكل صاحب دين أن يبقى على دينه لا يخرجه أحد عنه. ونحن معه فى أن من حق كل صاحب دين الاستمرار فى دينه دون أن يتعرض له أحد بسوء، فالقرآن يقول: "من شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر"، "لا إكراه فى الدين"، "ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا. أفأنت تُكْرِه الناس حتى يكونو مؤمنين؟". لكن هذا شيء، والقول بعد مجيء محمد بالإسلام إن كل صاحب دين مهما يكن هذا الدين سوف يكون مصيره النجاة يوم القيامة، أى أن يكون من أهل الجنة والنعيم، هو شيء آخر. إننا هنا لا نبغى سوى أن نبين موقف الإسلام من هذه القضية، أما بعد ذلك فمن حق كل شخص وكل طائفة وكل شعب البقاء على ما يدينون به، ويوم القيامة يقف الجميع أمام الواحد الديان، فيحكم بينهم. أما نحن هنا على الأرض فوظيفتنا أن نقرر موقف ديننا من غير المسلمين، وفى نفس الوقت لا نطالب أصحاب الديانات الأخرى أن يَرَوْا فى نبينا نبيا حقيقيا يكفل الدينُ الذى أتى به النجاةَ والجنةَ والنعيمَ فى الآخرة لمن آمن به. إنما نحن نبين ونوضح ليس إلا. أما فى معاملاتنا اليومية مع غيرنا فنحترم الجميع ونجاملهم ولا نحاول مس مشاعرهم بسوء أبدا. وهذا هو ما يأمرنا به ديننا.

* * *

وفى سنة ١٩١٣م حصل منصور فهمى على درجة الدكتورية من السربون الفرنسية برسالة عنوانها " La condition de la femme dans la tradition et l'évolution de l'islamisme"، وهى الرسالة التى طعن فيها فهمى فى صدق النبى محمد واتهمه بأنه قد أتى بالقرآن من عنده وأنه يشرّع حسبما يحلو له، فيضع للناس أشياء ويستثنى نفسه منها كما فعل عندما أوجب على المسلمين أن يتوضأوا من جديد إذا ناموا بينما يقول عن نفسه فى مثل هذه

الحالة إن عينه تنام ولكن قلبه لا ينام أبدا، ثم لا يتوضأ، وكما فعل عندما حرّم على المسلمين الزواج بأكثر من أربع مع أن زوجاته كن أكثر من ذلك... إلى آخر تلك الانتقادات الجامحة التى وجهها منصور فهمى إليه صلى الله عليه وسلم، فضلا عن ادعائه أن وضع المرأة فى الإسلام لا يبلغ ما كانت عليه فى الجاهلية ولا ما هى عليه فى الدول الأوربية الحديثة، وذلك رغم العطف والإكرام والتكريم الذى عامل به الإسلام والرسول المرأة، فأمر باتقاء الله فيها، وحرم وأدها تحريما حاسما جازما، ودعا إلى إحسان تربيتها وجعله طريقا إلى الجنة، وحض على تعليمها بل أوجب التعلم عليها إيجابا مثلما أوجبه على الرجل سواء بسواء، وأعطاها الحرية المطلقة فى قبول المتقدم لها خاطبا أو رفضه ولم يجعل للأب عليها فى هذا الشأن سبيلا، وفرض لها مهرا على سبيل الإعزاز والتكرمة، وأعطاها حق الخلع مقابل حق الطلاق للرجل مع جعل الطلاق أبغض الحلال إلى الله جل فى علاه، وقرر لها نصيبا فى الميراث يختلف باختلاف علاقتها بالمتوفَّى، وليس نصف نصيب الذكر دائما حسبما يظن الكثيرون، وحافظ على ذمتها المالية المستقلة، وقدم الأم على الأب تقديما كبيرا كما فى حديث "من أحق الناس بصحبتى يا رسول الله؟"، وعد الزوجة الصالحة نعمة من نعم المولى على الرجل. وكان الرسول فى بيته مع نسائه أعظم تجسيد لهذه المبادئ، فكان يعطف عليهن ويتحملهن ويضاحكهن ويستشيرهن ويستمع إليهن ويأخذ برأيهن متى استبانت حكمته.

ولما ترجمت بعض نصوص هذه الرسالة فى مصر هب بعض الغيارى على دينهم ورسولهم فردوا على صاحبها وفندوا دعاواه وكشفوا الغطاء عن الظروف الخفية التى كانت وراء كتابتها. وكان محمد لطفى جمعة فى مقدمة من استفزتهم مزاعم منصور فهمى وما فيها من إساءة إلى الإسلام ونبيه، فكتب مقالا قويا فى الرد على فهمى فى جريدة "المؤيد" فى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩١٤م نجتزئ منه بالفقرات التالية: "عاد منصور فهمى من أوربا بعد دراسة الفلسفة حاملا لقب دكتور جامعى، وهى درجة فى العالمية حديثة الوضع أنشأتها جامعة باريس إكرامًا لطلاب العلم الأجانب الذين يعجزون أو يضيق وقتهم عن تحصيل الدكتوراه الحقيقية التى اختص بها الفرنسيون أنفسهم وقليلا من الأجانب المجدّين. إن أعلى الألقاب العلمية وأشرف المناصب المعنوية لا تبيح للرجل أن ينتهك حرمة دين قوم من الأقوام أو يهاجم أمة فى معتقدها أو يقلل من مجد وكرامة نبى مرسل شهد له بالفضل أعداء دينه. لا يظن منصور فهمى أننا ناقشه فى رسالته مناقشة من يمكن رميهم بالتعصب وضيق الفكر من المتشددين المغالين فى المحافظة على القديم إلى درجة الجمود،

ولكننا سنناقشه الحساب مناقشة العلم الحديث الذى بهرت بصره قشوره ولم يصل إلى بصيرته. لن نجادله دينيا لأننا لو طرقنا معه باب الدين فقد كفر لمجرد قوله: "إن محمدًا شرع للناس واستثنى نفسه". فهو بهذا القول ينكر الوحى وينكر العصمة ويؤكد أن محمدًا هو واضع الشرع . نحن نريد أن نتجرد عن صفتنا الدينية مؤقتا لنثبت بالعلم القديم والحديث وبالأدلة العقلية والمنطقية جهله وتعديه حقوقه وعبثه بحرية القول والفكر والاعتقاد .

يقرر منصور فهمى فى فاتحة رسالته أنه نشأ مسلما فى وسط إسلامى وأنه قصد باريس ففُتِح عليه بإرشاد العلامة ليفى الإسرائيلى، فظهرت فيه المؤثرات السعيدة فدَوَّن هذه الرسالة التى بحث فيها فى حالة المرأة فى الإسلام. ألا يعلم حضرته أن العالم الحقيقى إذا أراد البحث والاستقصاء عن أمر من الأمور ذهب إلى مصدر الأمر واستقصى الحقيقة من نبعها الأصلى حتى إن دارون القائل بمبدأ التطور والنشوء لما أراد التثبت من مبدئه طاف جزر المحيط الهندى الخصيب منها والمجدب ليقف على طبائع ما يوجد فيها من أنواع المخلوقات؟ كذلك علماء الاجتماع الذين جعلوا همهم درس شؤون الأمم والشعوب المختلفة لم يقولوا برأى من الآراء دون الذهاب إلى أوطانها ودرس أحوالها من قرب. فغريب جدًا من منصور فهمى الشرقى المصرى المسلم أن يترك الوسط الإسلامى، وسط علماء الأزهر ووطن جلال الدين السيوطى وابن تيمية والشافعى، ويذهب إلى باريس مقر الحاخام ليفى الإسرائيلى للبحث عن حقائق الدين الإسلامى والاهتداء بنور هذا الأستاذ للوقوف على تاريخ محمد وحياته الخاصة والعامة .

إن كثيرين من المستشرقين الذين أخذ عنهم منصور أقل بضائعهم وأحقرها قبل أن يدونوا ما دونوا أنهم تحملوا الشدائد فى تعلم اللغة العربية وانتقلوا إلى وسط إسلامى وخاطروا بحياتهم فى سبيل الوصول إلى الحقيقة، وصاحبنا منصور فهمى قصد باريس مقر العلامة ليفى ليعود إلينا بالطعن فى نبينا ومعتقداتنا المقدسة. وهنا ننقل لحضرته رأى العلامة فيلهاوزن الألمانى مؤلف كتاب "تاريخ الدولة العربية"، إذ يقول إن كثيرين منا يذهبون إلى الشرق للبحث عن عيوب فيجدوا أمورًا تبدل عقيدتهم وفضائل لم تكن تخطر على بالهم فتغير آراءهم تمام التغيير. وإنى أذكِّر منصورًا بعبارة لا بد سمعها من الأستاذ إدوار لامبير، وهى قوله: "إننى قبل أن أقصد مصر كان رأيى فى الإسلام مخالفا لرأيى بعد إقامتى بضعة شهور حتى إننى مضطر لتغيير ما جاء فى كتبى عن الإسلام مما دونته قبل ذهابى إلى مصر".

إننا نعرف المصادر التى استقى منها منصور، وبئست تلك المصادر! هى كتب بعض المتعصبين من المستشرقين الذين يرومون بكتاباتهم أغراضا سياسية أكثر منها علمية. إن حرية الاعتقاد تبيح لكل شخص أن ينتحل أى دين أو يقيم شعائر معتقده دون اضطهاد أو تعذيب. وشتان بين حماية المتدين وبين الطعن فى صاحب شريعة عظمى. إن العاقل الكبير النفس هو الذى يرحل إلى الغرب مملوء القلب بالآمال العالية فيعود إلى وطنه وقد ازداد حبه لقومه ودينه. وقد يرحل أحدنا وهو ضعيف العقيدة، ويعود إلينا وهو شديد التعصب لملته وقومه.

يقول منصور فهمى فى مقدمة كتابه: "إن هذه الرسالة تعطينا فرصة لإظهار المؤثرات السعيدة التى أثرت على تفكيرنا العلمى، فقد ولدت مسلما وقضيت شبابى فى وسط إسلامى ثم رحلت إلى باريس وحصلت العلوم بإرشاد ورعاية العلامة ليفى بريل". ومعنى هذا أن نشأته فى وسط إسلامى كان حائلا بينه وبين النور الإسرائيلى الذى أشرق عليه من مجلس الأستاذ ليفى، وهو فيما نعلم رجل خامل الذكر لم نسمع عن مؤلف من مؤلفاته. وربما خُدِع منصور أفندى بما يقوله بعض أدعياء العلم فى أوربا من أن النبى عليه الصلاة والسلام تزوج عددًا عظيمًا من النساء بلغن الثلاثة عشر عددا حُبًّا منه فى التمتع وأنه عليه السلام لم يبح لأمته إلا أربعا. على أن منصور أفندى لو نظر إلى شخصيات زوجات النبى نظرة الفيلسوف العالم الباحث عن الحقيقة، الآخذ بلب الأمور المعرض عن قشورها، لعلم أن هناك أسبابا عليا دعت النبى محمدًا إلى التزوج من نساء يزيد عددهن عن الأربع، وتلك الأسباب أولها وأهمها رغبته فى ربط الأسر والعائلات الكبرى ببيته الطاهر".

والمقال يتلهب غيرة على الإسلام وسمعة النبى الكريم وشخصيته النبيلة ويلقى ضوءا ساطعا على ما وراء الستار بحيث يرى القارئ بوضوحٍ أصابع الأستاذ اليهودى المشرف على الرسالة وهى تحرك الطالب المسكين الذى أراد التقرب إلى من سيعطونه الدرجة فلم يبال بدينه ولا بالحقائق التاريخية. ومن يقرأ رسالة منصور فهمى من المسلمين فسوف تستفزه المغالطات التى تقوم عليها والحقد الذى كان يوجه قلم صاحبها. ولقد شعرت بما شعر به لطفى جمعة حين قرأتها فى أصلها الفرنسى منذ بضعة وعشرين عاما، وهالنى أن يلجّ صاحبها فى العناد والعدوان على الإسلام إلى هذا الحد البشع إرضاء لأستاذه اليهودى ليفى بريل متناسيا أن الروح العلمية ليست هى التى

أملت على ذلك اليهودى المتعصب توجيهه على هذا النحو بل الكراهية اليهودية المتأصلة فى نفوس قومه جيلا بعد جيل نحو سيد البشر عليه الصلاة والسلام.

ولقد كان منصور فهمى برسالته هذه رائدا من رواد التهجم من قِبَل المنتسبين إلى الإسلام على هذا الدين وكتابه ونبيه مما لا نزال نحصد ثماره المرة حتى وقتنا هذا. وكمثل الادعاء السخيف الذى صرح فيه منصور فهمى فى مستهل رسالته بأنه بعد ذهابه إلى باريس قد انكشفت عن عقله غاشية نشأته فى وسط إسلامى وأشرقت عليه المؤثرات السعيدة الناتجة عن إرشاد ليفى بريل نرى هؤلاء النكرات يعدون تمسكهم السابق بدينهم دروشة يسرهم أنْ طويت صفحتها من حياتهم.

وقد كتب رجاء النقاش مقالين بـ"المصور" بتاريخ ٢٥ مايو ١٩٩٠م، و٢١ فبراير ١٩٩٢م تحت العنوانين التاليين على الترتيب: "هل كانوا زنادقة؟" و"لماذا نصادر ولا نحاور؟" وصف فيهما الشبهات والتهم التى طنطن بها منصور فهمى بأنها "سخافات" و"مجموعة من الافتراءات... لا تستحق من باحث جاد أن يذهب إلى باريس ليتعلمها ولا تستحق أن ينال صاحبها عليها الدكتوراه من السوربون". كما قال عن ليفى بريل إنه "ليس له هذه السمعة العلمية التى تتميز بالنزاهة والصدق وانعدام الهوى والغرض". كما أشار إلى أن منصور فهمى كان صغير السن آنذاك مما يجعله عرضة للوقوع فى المصيدة التى تنصبها المؤسسات الغربية للإيقاع بشباب المثقفين العرب والمسلمين كى يكتبوا عن تاريخهم سخافات وافتراءات بعيدة عن العلم والمعرفة والبحث النزيه ولخلق شخصيات مشوهة تعادى مجتمعها وتاريخها وتنزع ثقة الإنسان بنفسه وتراثه دون مسوغ علمى سليم.

ويمضى النقاش فيحكم على شخصية منصور فهمى بأنها "شخصية فكرية ضعيفة تسعى إلى تحقيق النجاح لنفسها دون أن تتمتع بفكر عميق أو ثقافة حقيقية أو موقف جدى من الحضارة والتاريخ والحياة"، مؤكدا أنه "من أجل الحصول على درجة الدكتوراه عمل كل ما فى وسعه لإرضاء أستاذه اليهودى المعادى للإسلام على حين أنه بعد عودته وتعرضه لغضب قومه تنكر لما قاله، وانخرط فى جمعية "الشبان المسلمين" وأصبح يدعو إلى الإسلام والعروبة فى حماسة شديدة". ثم ختم النقاش رأيه فى فهمى بأنه "كاتب محدود الفكر قليل الإنتاج سطحى فى كل ما قدمه".

والواقع أن منصور فهمى لم يترك وراءه شيئا يذكر فى عالم التأليف، فلا نعرف له سوى كتاب واحد، ومعظم ما كتبه مقالات ليست ذات ثقل وليس فيها ذلك الغرام بالجدل الموجود فى الرسالة المنسوبة إليه. وربما كان السبب فى ذلك أن أحدهم كتب له تلك الرسالة وانحصر دوره هو فى وضع اسمه عليها كى يكون الهجوم على الإسلام ورسوله بيد مسلم، فيكون تأثيره على أمثاله من المسلمين قويا شديدا. والعجيب أن منصور فهمى قد وُضِع على رأس جامعة الإسكندرية فترة من حياته مع فقره العلمى والتأليفى. ولا أظن أن أستاذا مثله بهذا الضعف المزرى فى دنيا العلم والتأليف قد وصل إلى رئاسة الجامعة، أية جامعة. ولست أنا ولا النقاش وحدنا اللذين نقول إنه لم يؤلف شيئا فى مصر بل قاله، ولكن بطريقته الخاصة، د. طه حسين خلال عرضه لكتاب د. منصور فهمى: "خطرات نفس" فى مقال له كتبه فى يونيه ١٩٣٠م، وجمعه بعد ذلك فى القسم الخامس من كتابه: "من بعيد". وهذا ما قاله: "أما أثر علماء الاجتماع المعاصرين فى منصور فلا يكاد يظهر فى "الخطرات" إلا حين يتحدث منصور عن الجماعة، فنراه يفهمها ويصفها على نحو ما كان يفهمها ويصفها دوركيم. ولكنى قلت آنفًا إن صديقنا لم يتحدث فى "الخطرات" إلى العلماء، وإنما تحدث إلى الكثرة من الناس، فلم يكن من اليسير أن تصور "الخطرات" حياته العلمية. وهو بخيل إلى الآن بإظهار هذه الحياة العلمية فى كتاب ينشره على الناس، وهو يزعم فى تواضع فلسفى أنه لا يحب أن يظهر هذا الكتاب حتى يتم نضجه العقلى، كأنه يريد أن يخيل إلى الناس أن عقله لم ينضج بعد. ولكن أصدقاءه وطلابه فى الجامعة لا يطمئنون إلى هذا التواضع ولا يسحرهم هذا الخيال، فهم يتمَنَّوْن على الأستاذ أن يفرغ لهم قليلًا وأن يبيح لهم شيئًا من آثار عقله الذى تم نضجه منذ دهر طويل". ومع هذا فقد مات منصور فهمى بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة دون أن يكتب شيئا مما أخبرنا طه حسين أن أصدقاءه وطلابه فى الجامعة كانوا يريدون منه كتابته.

ومع كل ما كتبناه ووضحناه وأزحنا عنه الأستار فقد ظهر فى "الأهرام" فى ١٤ سبتمبر ١٩٨٤م مقال لسامح كريِّم عنوانه "منصور فهمى الفيلسوف المتصوف" جاء فيه أن ما خطه قلم منصور فهمى ليس إلا "عبارات... تتنافى واحترام تقاليدنا". وهذا غير صحيح، فمنصور فهمى لا هو فيلسوف ولا يحزنون. وكيف يكون فيلسوفا وهو لم يترك وراءه كتابا يعرض فيه فلسفته المزعومة ولا خَلَّف تلاميذ له يحملون شعلة فكره من بعده. كذلك فالمشكلة ليست فى أنه هاجم التقاليد بل الدين نفسه كما هو ظاهر لا يحتاج إلى بيان. وفى صحيفة "الأهرام" أيضا ظهر بتاريخ ١١ يونيو

٢٠١٤م مقال غير مُوَقَّع بعنوان "إصداران لأعمال منصور فهمى" نقرأ فيه السطور التالية الخطيرة: "أصدرت الهيئة المصرية للكتاب مؤخرا "الأعمال العربية للدكتور منصور فهمى" فى ثلاثة أجزاء. وهذا الأمر يجب أن يحتفى به لأن الدكتور منصور فهمى من أبرز مفكرى النصف الأول من القرن العشرين فى مصر ومن الرعيل الأول للبعثات التى ذهبت إلى باريس لتلقى تعليمها ما بعد الجامعى. وهو يعبر عن مأساة مثقف اشتبك مع الفكر الدينى التقليدى حيث كان موضوع أطروحته للدكتوراه هو "أحوال المرأة فى الإسلام"، وظلت حبيسة لغتها الفرنسية حتى نشرت فى بدايات هذا القرن، وبالتحديد سنة ٢٠٠١، عن منشورات الجمل التى كان مقرها آنذاك كولونيا فى ألمانيا. ومنصور فهمى فعل ما فعله معظم المفكرين الذين اصطدموا بالمؤسسة الدينية فى بدايات القرن الماضى، فلكى يثبتوا إيمانهم كتبوا كتابات دينية وتصالحوا بذلك مع هذه المؤسسة".

والواقع أن النص كله مغالطات، فليس د. منصور فهمى مفكرا أصلا، بله أن يكون من أبرز مفكرى النصف الأول من القرن العشرين، وإلا فأين إنتاجه الفكرى؟ وأين تلاميذه وأتباعه؟ ثم إنه لم يشتبك مع الفكر الدينى التقليدى بل مع الإسلام ذاته، إذ أنكر نبوة الرسول واتهمه بالكذب والتزييف وادعاء الوحى، ولا تصادَم مع المؤسسة الدينية بل تصادم مع دين الله سبحانه. وهو حين عاد عن سخفه وضحالة ما ورد فى رسالته وتكذيبه للقرآن الكريم والنبى عليه السلام إنما عاد إلى الحق المبين رغم أنه لم يتبع عودته هذه بتأليف كتب أو دراسات تنبئ عن فكر عميق. وقد تتبعتُ طائفة من مقالاته التى كتبها بعد عودته إلى مصر، وكان منها مقاله: "نساؤنا بين التقاليد والتجديد" المنشور فى مجلة "الرسالة" بتاريخ ٧، ١٤ إبريل ١٩٤١م، وهو يجرى عكس ما قاله فى رسالته موضوع حديثنا الآن.

وأغلب الظن أن الشخصية الأولى فى كتاب "المرايا" لنجيب محفوظ، شخصية إبراهيم عقل، هى شخصية د. منصور فهمى، الذى ذكر محفوظ ما وصفه به أحدهم من أنه كان عقلا فذا بَشَّر فى وقت من الأوقات بثورة فكرية فى حياتنا الثقافية لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه رددها شخص لا أخلاق له زاعما بأنه طعن فى الإسلام ضمن رسالة الدكتوراه التى قدمها للسوربون، وشُنَّ على الدكتور هجوم نارى فى عديد من الصحف والمجلات، فاتهموه بالإلحاد وتبنِّى آراء المستشرقين المبشرين لنيل درجة الدكتوراه على حساب دينه وقومه ثم طالبوا بفصله من الجامعة. واهتز الدكتور من جذوره حيال الحملة العاتية، ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة ولا قِبَل له

بتحدى الرأى العام، فضلا عن حرصه على وظيفته وشدة حاجته إليها، فأنكر التهمة ودافع عن عقيدته وتوسل بكثيرين لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيها. وأضاف محفوظ أن المحنة قد علمته كيف يركز نشاطه فى دروسه الجامعية وينسحب من الحياة الفكرية خارج جدران الكلية، وأن همته قد طواها الفتور والملال وأن محاضراته صارت أقرب إلى التوجيهات العامة منها إلى المحاضرات الدسمة التى يلقيها زملاؤه.

وقد مر بنا كيف أنه لم يكن ذا عقل فذ كما تزعم هذه الصورة التى رسمها محفوظ له، ولو كان ذا عقل فذ حقا لاستمر توهج هذا العقل ولو فى مجالات بعيدة عن الصدام مع المجتمع. كما أن ما كتبه فهمى فى رسالته لا يمثل ثورة فكرية فى قليل أو كثير بل خضوعا لتأثير أستاذة اليهودى، الذى أراد أن يسىء إلى الإسلام ونبى الإسلام. وإذا صح أن إبراهيم عقل هو منصور فهمى فإن ما قاله مَنْ وَصَفَه محفوظ بـ"الواشى الحقير" من أن رسالته التى قدمها لجامعته فى فرنسا عن طعن فهمى فى الإسلام ليس زعما بل حقيقة ثابتة تمام الثبوت، وإلا فإنْ لم يكن ما قاله فهمى عن الرسول والقرآن والإسلام هو الطعن كل الطعن فى الإسلام فلن يكون هناك طعن فى دين محمد من أى نوع على مدى التاريخ. وبالمناسبة فقد وصفه بلال فضل فى مقاله: "إبراهيم عقل نموذجا" المنشور بجريدة "الشروق" فى ٣٠ سبتمبر ٢٠١٤م بالمثقف الانتهازى جراء رجوعه عما قاله فى حق النبى والإسلام. وكان حريا به، فى نظر فضل، حتى لا يكون انتهازيا أن يظل متمسكا باتهاماته للنبى وللإسلام.

هذا، ولو فكر منصور فهمى، إن كان هو كاتب الرسالة الجامعية المنسوبة إليه، فى أمر زواج النبى بأكثر من أربع فى الوقت الذى نزل القرآن يحدد عدد الزوجات المسموح لأى زوج بالجمع بينهن بأربع لعرف أن هذا النص قد نزل بعد أن حرم القرآن على أمهات المؤمنين التزوج بعد ممات الرسول عليه السلام، فلو طلق النبى ما فوق الأربع فماذا سيكون مصيرهن؟ ثم إن النبى كان يتميز ببعض التشريعات الشديدة دون سائر المسلمين كتحريم أَخْذه هو أو أى من أهل بيته شيئا من الزكاة أو الصدقات، وكجواز مواصلته الصوم يومين متتاليين دون أن يفطر أو يتسحر، وكقيام الليل فى أول الدعوة حتى تتورم قدماه، وكتحريم تزوجه بأخرى بعد نزول الآية رقم ٥٢ من سورة "الأحزاب" أو استبداله أية زوجة جديدة بزوجة على ذمته، وكعدم وراثة أى من ذريته له لأن ما يتركه الأنبياء إنما هو صدقة. ثم هل كانت زوجاته كلهن جميلات شابات نضرات حتى

يقال إنه ميز نفسه بالرفاهية والمتعة؟ لقد كان فى استطاعته أن يستبقى الجميلات من زوجاته ويسرح الباقيات، ولن يخسر شيئا من حيث المتعة والعاطفة، ومعروف أن الجميلات من أولئك الزوجات هن صفية وزينب وعائشة. بل لقد كانت بنت الصديق وحدها كفيلة بأن تسعده عليه السلام لو كان عليه الاقتصار لا على أربع بل على واحدة. ولنفترض أنه هو الذى شرع هذا التشريع فماذا فيه؟ لقد كان الحكام فى ذلك الحين يأخذون كل شىء ولا يكادون يتركون لشعوبهم شيئا. وكان محمد عليه السلام لا يعيش عيشة الملوك والأمراء بل عيشة الناس العاديين من شعبه، وربما أقل من عيشة هؤلاء فى كثير من الأحيان. كما كان يتحمل الأهوال الثقال دون أتباعه وأصحابه. ثم ماذا يريد منصور فهمى أو من كتب له رسالته أن يقول؟ هل يريد أن يقول إن محمدا تغلبه شهواته؟ وهل كان النبى حِلْس بيت يقضى وقته دوما بجوار النساء؟ أبدا بل كان ينفق الوقت الطويل فى عبادة الله ودعائه وفى تنظيم أمور أتباعه وفى المعارك التى كان يخوضها مقسورا دفاعا عن دينه ودولته وفى القضاء بين المسلمين وفى تعليمهم وتوجيههم. بل إنه كان يصرف وقتا كبيرا فى الصلاة ليلا. فأين الشهوة فى هذا كله؟ إن الشهوة ليست عيبا ما دامت لا تستخف حِلْم صاحبها فتدفعه إلى الزنا، لكن النبى رغم ذلك لم يكن رجل شهوات ونزوات بل كان نبيا كريما نبيلا عفيفا شريفا لم تجد الدنيا أشرف منه ولا أنبل ولا أطهر ولا أنظف. فلو افترضنا أن التشريع الإسلامى قد ميزه بهذا التمييز فهل يستحق الأمر كل هذه الضجة؟ خيبة الله على التافهين!

ثم فلنأت إلى لب الموضوع، وهو أن منصور فهمى فى ذلك الحين أو من كتب له الرسالة يرى أن محمدا نبى مزيف لا ينزل عليه الوحى بل يخترع هو الوحى اختراعا. وإذا كان منصور فهمى أو من كتب له الرسالة استطاع كشف الستر عن هذا السر بتلك البساطة أفيظن أن زوجاته صلى الله عليه وسلم قد فاتهن كلهن أنه نبى مزيف، وهن اللاتى يحتككن بل يلتصقن به ليل نهار ويعرفن عنه كل أسراره وخفايا حياته وشخصيته؟ فإذا كان الأمر كذلك، وكن يعرفن أن عليهن مزاولة حياتهن بعد موته دون زواج إلى الأبد، وكان معظمهن صغيرات السن، ولا ولد لهن منه ولا مال ورثنه عنه، أفيظن ظان أنهن كن يَبْقَيْنَ فى المدينة ساعة واحدة بعد وفاته ولا يهربن إلى بلاد قيصر أو كسرى ليتمتعن بالحياة والزواج والإنجاب ويتمرغن فى الأموال والملابس الفخمة والقصور العظيمة والطعام الهنىء تمرغا ويخدمهن الخدم والحشم ويلبون لهن كل ما يطلبن؟ ولقد كان كل من قيصر وكسرى ينتظر فرصة مثل هذه ويرحب بها أيما ترحيب. لكننا ننظر فنجد زوجاته عليه

السلام يَبْقَيْنَ فى المدينة ويَنْصَعْنَ لحكم القرآن بتحريم الزواج عليهن بعد النبى رغم أنه لم يترك لهن مالا ولا ولدا يعوضهن عن حياة الحرمان من الزواج التى كان عليهن مقاساتها طوال العمر. خيبة الله على كل متنطع!

وقد تراجع منصور فهمى عما كتب فى رسالته المذكورة، ومن ذلك ما ذكره فى مجلة "حياتك" الصادرة فى ديسمبر سنة ١٩٥٨م قائلا: "كانت رسالتى فى الدكتوراه عن المرأة فى الإسلام، واندفعتُ أكتبُ بحرارة الشباب المندفع، ويظهر أنى انحرفت قليلًا حيث كانت معلوماتى عن الإسلام طفيفة، وحين قُوبِلْتُ فى مصر بضجةٍ كبرى ازددتُ عناداً، و لكنَّ الله كتب لى أن أجلس طويلًا مع بعض مشايخ العلماء من ذوى الأفق الواسع والصدر الرحيب من أمثال الشيخ حسونة النواوى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ على سرور الزنكلونى، هؤلاء الذين يمثلون عالم الدين الحقيقى فى عقولهم وعلومهم، فبدأتُ أتخلَّص من الزيغ لأعود إلى حظيرة الدين، والحمد لله". ومن هذا يتضح أن ما قاله نجيب محفوظ فى "المرايا" من أنه تراجع عند أول مواجهة مع المعترضين على ما قال وسلم خوفا ورعبا هو كلام عارٍ عن الصحة حسبما قال د. منصور فهمى نفسه، وبعد نحو نصف قرن.

* * *

وفى سنة ١٩٢٥م تحولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية، وفى تلك السنة نفسها ابتدأ د. طه حسين يحاضر عن الشعر الجاهلى بعد أخذه مكان د. أحمد ضيف المتخصص فى الأدب العربى على عكس د. طه، الذى كان تخصصه التاريخ الأوربى القديم. وفى تلك السنة نفسها أصدر طه حسين كتابه: "فى الشعر الجاهلى"، فأثار ضجة هائلة بسبب ما فيه من كلام يتعارض تماما مع القرآن الكريم، وصدرت مؤلفات فى الرد عليه بأقلام محمد فريد وجدى ومحمد لطفى جمعة ومصطفى صادق الرافعى وشكيب أرسلان ومحمد أحمد الغمراوى ويوسف الدجوى وعبد المتعال الصعيدى ومحمد عبد المطلب وعبد ربه مفتاح ومحمد عرفة.

وقد تحدث طه حسين فى ذلك الكتاب عما تضمنه بحثه من شك جامح فى أشياء ذات أهمية كبرى عند المسلمين فقال إننا "إما أن نقبل من الأدب وتاريخه ما قاله القدماء لا نتناول ذلك من النقد إلا بهذا المقدار اليسير الذى لا يخلو منه كل بحث والذى يتيح لنا أن نقول: أخطأ الأصمعى أو أصاب، ووُفِّق أبو عبيدة أو لم يوفَّق، واهتدى الكسائى أو ضل الطريق، وإما أن

نضع علم المتقدمين كله موضع البحث. لقد أُنْسِيتُ، فلست أريد أن أقول: البحث، وإنما أريد أن أقول: الشك". ومضى طه حسين قائلا إنه سيسلك إلى هذا البحث منهج ديكارت، الذى يطالب الباحث بأن يتجرد من كل شيء كان يعلمه من قبل وأن ينسى عواطفه القومية والدينية وألا يتقيد بشيء ولا يذعن لشيء، وقال: إن علينا أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ولا وجلين حين ينتهى بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية أو تنفر منه الأهواء السياسية.

وسوف نورد من بين ما قاله د. طه فى كتابه النصوص التالية: "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوارة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربين فيها. ونحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والقرآن والتوراة من جهة أخرى. فهى حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام بسبب دينى وسياسى أيضًا. فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يحفل بهما عندما نريد أن نتعرف أصل العربية، ونستطيع أن نقول: إن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التى كانت تتكلمها العدنانية واللغة التى كانت تتكلمها القحطانية فى اليمن كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة من اللغات السامية وأن قصة العاربة والمستعربة وتعلم إسماعيل من جُرْهُم كل ذلك أحاديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه".

"ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه من قريش. فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبد مناف، وأن يكون بنو مناف صفوة بنى قصى، وأن تكون قصى صفوة بنى قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب والعرب صفوة الإنسانية".

"وشاعت فى العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب فى عصر من العصور، ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون وانصرفت إلى عبادة الأوثان".

وقد قُدِّم د. طه حسين إلى النيابة، وكتب النائب العام تقريرا عن طريقة طه حسين فى الكتابة جاء فيه: "إن الذى نريد أن نشير إليه إنما هو الخطأ الذى اعتاد أن يرتكبه المؤلف فى أبحاثه حيث يبدأ بافتراض يتخيله ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة كما فعل فى أمر الاختلافات بين لغة حمير وبين لغة عدنان، ثم فى رسالة إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة . أما إذا رأى المؤلف فى بحثه إنكار شيء فيقول: لا دليل عليه من الأدلة التى تطلبها الطرق الحديثة للبحث حسب الخطة التى رسمها فى منهج البحث.

الشك فى وجود إبراهيم وإسماعيل: سئل الأستاذ فى التحقيق عن أصل هذه المسألة، فقال هذا فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه فى أى كتاب آخر، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب أن شيئا مثل هذا الفرض يوجد فى كتب المبشرين (هذا المبشر هو هاشم العربى). وقد يكون للمبشر عذره فى سلوك هذا السبيل لأن وظيفته التبشير لدينه، وهو غرضه الذى يتكلم فيه. ولكن ما عذر المؤلف فى طرق هذا الباب؟ وما هى الضرورة التى ألجأته أن يرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة؟

الافتراض فى أول الأمر ثم الجزم كأنما هو حقيقة: عندما سألناه فى التحقيق عن السبب الذى دعاه أخيرًا لأن يقرر بطريقة تفيد الجزم بأن القصة حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام قال: "هذه العبارات إذا كانت تفيد الجزم فهى إنما تفيده إن صح الفرض الذى قامت عليه. وربما كان فيها شيء من الغلو، ولكنى أعتقد أن العلماء جميعا عندما يفترضون فروضا علمية يبيحون لأنفسهم مثل هذا النحو من التعبير. تورط المؤلف فى هذا الموقف الذى لا صلة بينه وبين العلم لغير ضرورة يقتضيها بحثه ولا فائدة يرجوها. لا نفهم كيف أباح المؤلف لنفسه أن يخلط بين الدين وبين العلم، وهو القائل بأن الدين يجب أن يكون بمعزل عن هذا النوع من البحث الذى هو بطبيعته قابل للتغيير والنقص والشك والإنكار، وإننا حين نفْصل بين العلم والدين نضع الكتب السماوية موضع التقديس ونعصمها من إنكار المنكرين وطعن الطاعنين. ولا ندرى لم يفعل غير ما يقول فى هذا الموضوع".

فهذا عن القضايا الدينية التى أثارها طه حسين فى كتابه عن الشعر الجاهلى. ولم يكن هناك أى مسوغ لتضمين تلك القضايا فى الكتاب، فهو كتاب فى دراسة الشعر الجاهلى وهل هو صحيح النسبة إلى أصحابه أو لا، وليس دراسة فى تكذيب القرآن وإثارة الشك فيه ومس الرسول

عليه السلام بما لا يليق ولا يصح. وكل إنسان حر فيما يرى وفيما يعتقد وفيما يقول، لكن المشكلة أنه خلط شيئا بشيء لا علاقة بينهما، وقال كلاما شديدا فى حق القرآن والنبى بمنتهى الخفة والتسرع فأوقع نفسه فى مرمى نيران العلماء الراسخين الذين أظهروا عوار ما كتب وبينوا أنه متهافت ليس له أى أساس. ولم ينج كذلك من النائب العالم الذى حقق معه، والذى أثبت أنه أقوى من طه حسين عقلا وأعمق فكرا وأبصر منه بالحجة والمنطق وأصول البحث العلمى مما اضطر طه حسين إلى التراجع ومحاولة تلطيف غلظة ما كتب.

وما قاله د. طه حسين فى إنكار صحة ما ذكره القرآن هو ترديد لما يكتبه وينشره المستشرقون والمبشرون. فهم ينكرون أن يكون محمد عليه السلام نبيا من الأساس، وإن اختلفوا بعد ذلك فى تفسير إعلانه النبوة: فمنهم من يتهمه بالكذب وأنه قد انتحل النبوة انتحالا دون أن ينزل عليه أى شيء من السماء. ومنهم من يقول إنه كان يتصور أن الوحى ينزل عليه من السماء، لكن هذا التصور هو مجرد وهم من الأوهام سببه تخيلات مرضية تعرض له فيعتقد أنه يرى ملك الوحى ويسمع آيات القرآن بينما لا يوجد شيء من ذلك فى الواقع خارج نفسه وتخيلاته وأوهامه. ومنهم من يفترى عليه أنه كان مصابا بالصرع أو الهوس أو تعتريه الهلاوس. وهذه الاتهامات الباطلة التى يعرفون هم أنفسهم بطلانها تماما هى صورة من صور الحرب الحضارية بين المسلمين وبين الغرب، الذى يريد أن يقضى على الإسلام أو أن يضعفه إلى الحد الذى لا يمثل له أى تحد، إذ هو يعرف أنه لو اشتعل الإسلام كرة أخرى فى نفوس المسلمين فلسوف يتخلصون من نِيرِ الغرب ويصيرون سادة أَعِزَّة يقفون له بالمرصاد ويرتقون ويَقْوَوْن فيمثلون خطرا عليه كما كان الحال قديما أيام قوتهم ومجدهم. من هنا يضع المؤلفون منهم الكتب والدراسات والأبحاث التى تشكك فى القرآن المجيد وفى نبوة محمد عليه السلام حتى يخرجوا المسلمين عن دينهم أو فى أقل تقدير: يملأ الشك نفوسهم، فيصبح الإسلام بلا فاعلية ولا معنى. وكان ينبغى أن يبتعد طه حسين فى كتابه عن أمر لا صلة له بموضوع الكتاب، وهو إنكار الشعر الجاهلى كله أو على أقل تقدير: جُلِّه.

ومن بين ما قاله طه حسين فى كتابه المذكور أنه إن كان يشك بعقله فهو يؤمن بقلبه. وهذا كلام زئبقى، فالإسلام إنما يقوم على العقل أولا ويعتمد على الحجة. ثم إن الإسلام ليس عواطف بل عقائد وعبادات وتشريعات وأخلاقا، وكل هذا يخاطب العقل لا العواطف. كما أن الإنسان لا يستطيع أن ينقسم على نفسه على هذا النحو العجيب، فيشك فى الدين بعقله بينما

يؤمن به بقلبه. وكانت علاقة طه حسين بالمستشرقين علاقة قوية صلبة. ومن أصدقائه مرجليوث المستشرق البريطانى، الذى اتهم النبى فى كتابه عنه بأنه "شيخ منسر"، وهاجم اليهود هجوما عنيفا لأنهم لم يتعاونوا ويقضوا على محمد ودينه ويتخلصوا منه إلى الأبد. ومن أصدقائه أيضا بول كازانوفا المستشرق الفرنسى، الذى يزعم أن محمدا لم يأت بدين بل كل ما جاء من أجله هو إخبار العرب بأن يوم القيامة سيقع فى حياته. وهذا كل ما هنالك. وبطبيعة الحال كان يكذِّب النبى ويرى أنه متنبئ زائف لا نبى صادق. ومن أصدقائه كذلك لويس ماسينيون أحد أعمدة الاستعمار الفرنسى فى الشرق الأوسط، وكان يجند الأتباع والعملاء لبلده وينفق الأموال من أجل ذلك الغرض. ومن أصدقائه ريجى بلاشير الفرنسى مترجم القرآن إلى لغته القومية ترجمة تعج بالعبث والتلاعب بالآيات وتمتلئ بتخطئة النص القرآنى الكريم، فضلا عن أنه قد أضاف إلى القرآن الجملتين اللتين يقال إن الشيطان قد ألقاهما على مسامع الكفار عند قراءة الرسول لسورة "النجم" عليهم وعلى المسلمين، وهما "إنهن (أى اللات والعزى ومناة) الغرانيق العُلَا * وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى". كما انهالت عليه الدكتوراهات الفخرية من الجامعات الأوربية. وقد رد مصطفى صادق الرافعى عليه ضمن من ردوا على الكِتَاب المذكور، فوصفه بأنه أداة أوربية استعمارية، ولاحظ أنه لم يصلِّ على النبى محمد ولا مرة فى كتابه، وأشار إلى دور زوجته الفرنسية فى حياته، وسماه: "مستر طه حسين". وقد وضع د. محمد عمارة رسالة منذ وقت غير بعيد فى التدليل على أن طه حسين قد تراجع عن آرائه فى القرآن والإسلام وصار ينصرهما فى كتاباته. ومع هذا فإن د. طه فى حوار له مع الصحفى محمود عوض قبيل وفاته قد أكد ما معناه أنه لو استقبل من أمره ما استدبر لقال كل ما كتبه دون تغيير. وهذا الحوار موجود فى كتاب الصحفى المذكور: "أفكار ضد الرصاص".

وأما إنكار طه حسين الشعر الجاهلى كله أو جله فالملاحظ أنه قبل أن ينشر مرجليوث دراسته التى تنفى تماما صحة الشعر الجاهلى وترى أنه صنع صنعا فى العصر العباسى لم يكن يشك أى شك فى ذلك الشعر. تشهد على ذلك مقالاته وكتبه ومحاضراته فى الندوات الأدبية. بل إنه حتى فى الفصل الأول الخاص بالشاعر الإغريقى هوميروس من كتابه: "قادة الفكر"، الذى صدر فى إبريل ١٩٢٥م، وهو نفس الشهر الذى وضع فيه مرجليوث دراسته التى يشك فيها فى الشعر الجاهلى جميعه، نراه يستطرد للمقارنة بين بداوة اليونان وأشعارها وبين بداوة عرب الجاهلية وأشعارهم، فلا نجده يشك فى أشعار الجاهلية أىّ مقدار من الشك، بل يؤمن بها ويؤكد أنها

أساس حضارة الإسلام، ولولاها ما كان الخلفاء والعلماء والقواد المسلمون. وقد ألحَّ على هذه الفكرة إلحاحًا كبيرا فى الوقت الذى ذكر معها شكَّ بعض الباحثين الأوربيين المحدثين فى وجود هوميروس. وهذا نص عبارته: "عَلاَمَ تقوم الحياة العربية فى بداوة العرب وأول عهدهم بالإسلام؟ على الشعر... هل كانت توجَد الحضارة الإسلامية التى ظهر فيها مَنْ ظهر مِنَ الخلفاء والعلماء وأفذاذ الرجال لو لم توجَد البداوة العربية التى سيطر عليها امرؤ القيس والنابغة والأعشى وغيرهم من الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم؟".

والعجيب أن طه حسين، فى رده بعد ذلك فى كتابه: "فى الأدب الجاهلى" على من انتقدوا غُلُوّه فى الشك فى الشعر الجاهلى، قد احتجّ عليهم بأنهم يجهلون أن النحل غير مقصور على العرب، بل عرفه اليونان والرومان، وأن الدراسات الحديثة قد نسفت اطمئنان الأقدمين إلى صحة إلياذة هوميروس وأوديساه. وفاته أنه هو نفسه كان يعرف ذلك قبلا، لكنه لم ينتفع به، إذ ظل على اطمئنانه إلى الشعر الجاهلى إلى أن ظهرت دراسة مرجليوث. إذن فقد ظل هذا هو موقف طه حسين، كما قلنا، حتى إبريل ١٩٢٥م على الأقل، وهو الشهر الذى كتب فيه مرجليوث مقاله الذى يشكك به فى الشعر الجاهلى، والذى نشره فى يوليه من ذلك العام، وإذا بالدكتور طه بعد هذا المقال بنحو عشرة أشهر يصدر كتابه: "فى الشعر الجاهلى" مستديرا بزاوية مقدارها مائة وثمانون درجة، إذ انطلق كالإعصار يشكّ فى ذلك الشعر لا يكاد يُبْقى منه على شىء.

ويتساءل الباحث: ترى ما الذى جَدّ؟ والجواب: لم يَجِدّ إلا مقال مرجليوث، الذى كان طازجا، وكان له دوىٌّ شديد بسبب إغراقه فى التطرف، فضلًا عن أن موقف طه حسين وأفكاره فى كتابه عن الشعر الجاهلى يشبهان إلى حد كبير موقف مرجليوث وأفكاره. وأهم ما أخذه من مرجليوث الدليل اللغوى والدليل الدينى ودليل الرواية الشفاهية: فأما اللغوى فيقوم على توهم أن الشعر الجاهلى لا يعكس لهجات العرب آنذاك بل هو كله مكتوب بلغة واحدة، فكيف تكون لدى عرب الجاهلية لهجات متعددة ثم لا تنعكس تلك اللهجات فى أشعارهم؟ وأما الدينى فهو أن الشعر الجاهلى لا يعكس لنا الحياة الدينية لَدُنْ عرب ما قبل الإسلام. ويبقى موضوع الرواية الشفوية، التى لا يمكن الاطمئنان إليها فى حفظ ذلك الشعر عدة أجيال حتى سُجِّلَ كتابةً بعد ذلك. والجواب على هذا أنه كانت هناك لغة قومية واحدة للعرب جميعا تعلو فوق اللهجات القبلية

وتستخدم فى الإبداع الشعرى، وأن الشعر الجاهلى قد تكلم عن عدد من الأصنام التى كان يعبدها العرب وبعض بيوت عبادتهم وطائفة من اعتقاداتهم وخرافاتهم وأساطيرهم، وأن العرب الجاهليين، وإن كانوا فى عمومهم وثنيين، كان منهم أحناف موحدون، وهو ما يفسر لنا ما يتضمنه بعض شعر الجاهليين من أفكار توحيدية وحديث عن الحساب الأخروى، اللهم إلا إذا تحدث ذلك الشعر عن الركوع والسجود، والجنة والنار، والقضاء والقدر، أو أورد بعض العبارات الإسلامية مثل "قَسَمًا بالذى أمات وأحيا"، "الأرض صارت وردة مثل الدهان"... إلخ مما لم يكن يعرفه العرب قبل الإسلام، فعندئذ يكون الشعر مصنوعا دون جدال. وأما بالنسبة إلى الرواية الشفاهية فقد كان العرب، بسبب أميتهم، يتمتعون بذاكرة حديدية، بل إن الكتابة والقراءة لم تكونا مجهولتين فى المجتمع العربى آنذاك، وكان هناك من يكتب الأشعار. ولا ننس أن طه حسين قد جرى فى خطا مرجليوث أيضا فى أن شكه قد شمل الشعر الجاهلى جله إن لم يكن كله، وهو أمر لم يقل به أحد قبل مرجليوث. الفرق الوحيد بينهما، وهو فرق لا يذكر، أن المستشرق البريطانى أنكر الشعر الجاهلى كله، أما طه حسين فأنكره جله إن لم يكن كله.

وقد كتب د. طه حسين بُعَيْد الثورة المصرية فى يوليه ١٩٥٢م مقالا بعنوان "الأدب والحياة" أكد فيه أن الشعر الجاهلى شعر صحيح وأن العرب كانت لهم لغة قومية يصطنعونها لدن نظمهم لهذا الشعر. أى أنه قد تراجع عن زعمه أن ذلك الشعر لا يعكس الحياة الجاهلية وأن خلوه من اللهجات القبلية دليل على أنه شعر زائف. قال د. طه فى مقاله عن "الأدب والحياة" المعاد نشره فى كتابه: "خصام ونقد": "ولسنا نعرف بيئة إنسانية، باديةً أو متحضرةً، متقدمةً فى الحضارة أو مقصرةً فيها، إلا ولها لون من الأدب يلائم طاقة أدبائها للإنتاج، وطاقة أعضائها للقراءة أو الاستماع. ومن أجل ذلك رأينا أهل البادية من العرب قبل أن يمسهم جناح من الحضارة (يقصد عرب الجاهلية قبل أن يتحضروا بالإسلام) يحفلون بما أتيح لهم فى حياتهم من الأدب. يقول شاعر القبيلة، ويسمع له سائرها، ويحفظ كثير منهم عنه بعض ما يقول أو كل ما يقول. وقد يُشِيعونه من حولهم فى حياتهم تلك المتنقلة فيتجاوز شعرُ الشاعر قبيلتَه إلى قبائل أخرى، ويتفاوت شعر الشعراء فى شيوع شعرهم وانتشاره وما ينشأ عن ذلك لأصحابه من الشهرة وبعد الصوت... ولأمر ما قال قدماؤنا إن الشعر الجاهلى ديوان العرب، لأنهم لم يكادوا يعرفون شيئا من أمر هؤلاء الجاهليين إلا من طريق هذا الشعر... فالشاعر العربى فى الجاهلية وفى القرن الأول للهجرة لم يكن

يقول الشعر لطبقة بعينها من الناس، وإنما كان يقوله لكل الذين كانوا يستطيعون أن يفهموه ويذوقوه. وكانت بيئته كلها تستطيع أن تفهم الشعر وتذوقه. والمحقق أن زهيرا مثلا لم يقل شعره لتفهمه طبقة بعينها من قبيلته، وإنما قاله ليفهمه كل من سمعه من العرب ويذوقه، لا فرق فى ذلك بين القوى والضعيف، ولا بين الغنى والفقير، ولا بين سادة القبيلة وسائر أفرادها. ثم لم يكد شعره يُنْشَد حتى فهمته قبيلته وفهمه غير قبيلته من العرب الذين كانوا يعيشون فى نجد والحجاز وغيرهما من الأقاليم التى كان أهلها يتكلمون لغة زهير. وقل مثل ذلك بالقياس إلى الشعراء الجاهليين جميعا، وبالقياس إلى الشعراء الإسلاميين أيضا. شعر زهير وامرئ القيس (امرئ القيس، الذى شك فى وجوده قبلا طه حسين، وزعم أن ما يقال عنه ليس سوى أساطير!) والنابغة والأعشى وشعر جرير والفرزدق والأخطل كان شعرا يصور الحياة العربية كما كان أصحابها يَحْيَوْنها، لأن الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء كانوا يتكلمون لغة واحدة، وكانت حظوظهم من المعرفة والثقافة واحدة أو متقاربة أشد التقارب وأقواه... ومن هنا كان الأدب مصدرًا من مصادر التاريخ الإنسانى، وعسى أن يكون بالقياس إلى بعض الأمم، أو بالقياس إلى بعض أطوار هذه الأمم، أخطر مصادر التاريخ . ولأمرٍ ما قال قدماؤنا إن الشعر الجاهلى ديوان العرب لأنهم لم يكادوا يعرفون شيئًا من أمر هؤلاء الجاهليين إلا من طريق هذا الشعر".

ومع هذا ففى أحد اللقاءات التلفازية فى برنامج "كاتب وقصة" أواخر ستينات القرن الماضى مع المذيعة سميرة الكيلانى نرى د. طه يؤكد أنه لم يتراجع عما قاله فى الشعر الجاهلى بل خصومه هم الذين تراجعوا وتَبَنَّوْا أفكاره. وهو كلام غير صحيح، فلم يعد أحد يقول بأن الشعر الجاهلى كله أو على الأقل: جله منحول بل هو فى الأساس شعر صحيح إلا إذا قامت دواع قوية لا يمكن تجاهلها على زيفه، وهذا قليل بوجه عام. وقد كتب صاحب هذه السطور فصلا من عشرات الصفحات منذ عدة أعوام أثبتّ فيها أن معظم ما قاله ابن سلام المنظور إليه على أنه رمز الاعتدال فى هذه القضية، دعك مما قاله طه حسين، هو كلام فى غير محله ولا يدل على ما أراده ابن سلام من التشكيك فى نصوص بعينها من الشعر الجاهلى. وهذا الفصل هو أول فصول كتابى: "الأدب العربى- نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة"، وعنوانه "ابن سلام والشك فى الشعر الجاهلى". ثم إن كتاب د. طه: "فى الشعر الجاهلى" فيه تكذيب للقرآن، فهل يقصد د. طه أن يقول إن كثيرا من قراء الكتاب صاروا يهاجمون كتاب الله ويشككون فيه؟ ولقد قال طه حسين

إن مجىء إبراهيم إلى الحجاز هو أسطورة استغلها الإسلام لأسباب سياسية بغية التقرب إلى اليهود. فهل تراجع أيضا عن هذا التكذيب الخطير للقرآن، وبخاصة أن عواره بارز للعيان، إذ إن الشخص الذى يريد التقرب من شخص آخر يعمل كل ما فى وسعه لإرضائه وكسب قلبه وود، لكننا ننظر فنجد القرآن مبكرا فى مكة يهاجم اليهود وينشر مخازيهم فى عبادة العجل وعدم احترام السبت وركونهم إلى الوثنية فى كل منعطف من تاريخهم. فهل هذا موقف من يستغل الأساطير للتقرب من اليهود؟ ترى كيف كتب طه حسين مثل تلك التُّرَّهَات التى لا تليق بالعلم ولا بالعلماء؟ وبالمناسبة فإن كثيرا من المستشرقين يزعمون أن محمدا، حين انتقل إلى المدينة، كان يجامل اليهود ويجرى على ما يجرون عليه بغية كسب قلوبهم وإدخالهم فى الإسلام، لكنه عندما وجد نفورهم من دينه وإصرارهم على ذلك انقلب عليهم وهاجمهم فى القرآن. وهو زعم متهافت كزعم طه حسين، إذ إن حملات القرآن على اليهود بدأت مبكرا فى مكة، ولم يتغير موقفه عليه السلام منهم.

* * *

والآن مع د. إبراهيم أنيس، الذى حصل من جامعة لندن على البكالوريوس سنة ١٩٣٩م، فالدكتوراه سنة ١٩٤١م. وبعد عودته من أوروبا عمل مدرسا فى كلية دار العلوم، وبعدها فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية حيث أنشأ بها معمل صوتيات. ثم عاد ثانية إلى دار العلوم، وترقّى فى وظائفها إلى أن أصبح أستاذا ورئيسا لقسم اللغويات. ثم تولَّى العمادة وأُعْفِى منها بعد مدة، ليليها مرة أخرى، إلى أن قدم استقالته. وقد اختير أنيس خبيرا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٥٨م، ثم نال عضوية المجمع بعدها بثلاث سنوات. وله فى المجلات العربية عدد من البحوث والمقالات اللغوية، أما كتبه فمنها: "الأصوات اللغوية"، و"من أسرار اللغة"، و"موسيقى الشعر"، و"فى اللهجات العربية"، و"دلالة الألفاظ"، و"مستقبل اللغة العربية المشتركة"، و"اللغة بين القومية والعالمية". وقد توفى سنة ١٩٧٧م.

وللدكتور أنيس دعوى غاية فى العجب أثبتها فى كتابه: "من أسرار اللغة" تحت عنوان "قصة الإعراب" ملخصها أن العرب لم يكونوا يعرفون الإعراب قبل نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى للهجرة، وأنهم كانوا يسكِّنون أوخر الكلمات دائما، اللهم إلا إذا التقى ساكنان يقع أولهما فى آخر كلمة، ويقع الثانى فى بداية الكلمة التالية، وأن النحويين المسلمين هم الذين اخترعوا ذلك الإعراب اختراعا بعد أن لم يكن فكان، وأن السبب فى ذلك أنهم ربما رَأَوْا تغير أواخر الأسماء فى

اللغة اليونانية فحفزهم الأمر إلى أن يكون لهم فى نحوهم شىء مشابه لما عند اليونان، فكان ذلك الإعراب (انظر "من أسرار اللغة"/ ط٢/ مكتبة الأنجلو المصرية/ ١٨٢ وما بعدها على مدار بضع عشرات من الصفحات)

ومعنى ذلك أن القرآن قد تم العبث به وتحويله عن صورته الأصلية التى كان عليها إلى صورة أخرى لم يكن له بها قبل القرن الثانى الهجرى أىّ عهد. وفى هذا رَجْعُ أصداءٍ لما قاله بعض المستشرقين من أن القرآن حين نزل فى البداية لم يكن مسجوعا، ثم إن النبى بعد هذا قد غيره بحيث صار ذا فواصل) انظر ما كتبه المستشرق بوهل فى مادة "قرآن" فى " The Encyclopaedia of Islam: دائرة المعارف الإسلامية"/ ط١. وانظر تفنيدى لهذا الزعم المتساخف فى كتابى: "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل"/ مكتبة البلد الأمين/ القاهرة/ ١٤١٩هـ- ١٩٨٩م/ ٧- ٩). وفى بحث أنيس كذلك رَجْعُ أصداء من بحث كتبه ك. فولرز عن "اللغة الشعبية المكتوبة فى الجزيرة العربية قديما" يقول فيه إن القرآن الكريم لم يكن مكتوبا قط على النحو الذى نقرؤه اليوم، ولكنه فى أقدم نسخة منه كان مكتوبا بلهجة مشابهة للهجات الحالية.

ولمزيد آخر من التوضيح لفكرة فولرز أنقل أيضا النص التالى من فصل بعنوان "اللغة العربية فى الجاهلية" وجدته على موقع جامعة الملك سعود غفلا من اسم صاحبه ومن اسم الكتاب الذى اقتُطِع منه. يقول النص، الذى يبدو وكأنه ترجمة للنص الإنجليزى السابق: "فى كتابه: "Volkessprache und schriftsprache im alten Arabien: اللهجات ولغة الكتابة فى العربية القديمة" (١٩٠٦) يَدَّعى فولرز أن تحت التركيب السطحى للقرآن هناك آثارا للغة مختلفة محفوظة فى كتب القراءات القرآنية، وقد سمى تلك الآثار باسم "volkessprache: الدارجة"، وقال إنها دارجة أهل مكة التى كان النبى عليه الصلاة والسلام يتكلمها. ويرى فولرز أيضًا أن تلك الدارجة هى السابقة الحقيقية للهجات العربية الحديثة، ومع ذلك فإن القرآن تنزل بلغة مطابقة للغة الشعر الجاهلى النجدية، وهى اللغة التى سماها فولرز: "schriftsprache"، وتتضمن الفروق بين النمطين فى رأى فولرز اختفاء الهمزة والتنوين من اللهجة الحجازية، وكذلك غياب التصريف الإعرابى. وخلص فولرز إلى أنه كان هناك نص قديم عامى للقرآن الكريم بلهجة النبى عليه الصلاة والسلام، ولكن هذا النص الدارج تم تحويله إلى لغة الشعر الجاهلى فى فترة الفتوحات الإسلامية.

يقول فولرز إن الدافع وراء هذا التحويل (أو قل: الترجمة) كان الرغبة فى رفع لغة القرآن لمستوى لغة الشعر الجاهلى. ويستمر ليقول إن المسؤولين عن عملية الترجمة تلك كانوا حازمين فيما يخص تحقيق الهمزة والتصريف الإعرابى بالذات، وسمحوا لدون ذلك من السمات أن تظهر فى نطق القرآن أو فى القراءات البديلة فى بعض الأحيان". فى ضوء هذا كله ألا يحق لنا أن نتساءل: من أين يا ترى أتى د. أنيس بمقالته فى عدم إعراب اللغة العربية فى البداية بما يترتب عليه من القول بأن القرآن المجيد لم يكن بالتالى معربا، ثم أُعْرِب فيما بعد؟

وإضافة إلى هذا فمن المعروف أن اللغة العربية لا تجرى فى بناء الجملة دائما على نظام ثابت أو شبه ثابت كاللغات الأوربية التى نعرفها: الفاعل أولا، فالفعل ثانيا، فالمفعول ثالثا، فشبه الجملة رابعا، بل هى لغة مرنة منذ أقدم نصوصها التى وصلتنا من الشعر والأمثال والخطب. فتارة يأتى الفاعل فى بداية الكلام (وهو ما نسميه الآن: مبتدأ)، وتارة يأتى عقب الفعل كما هو الحال فى الجمل الاعتيادية التى لا يميزها شىء ولا ترنو إلى إحداث تأثيرات خاصة لا تستطيعها إلا جمل ذات نظام مختلف قليلا أو كثيرا عن المعتاد الرتيب فيها تقديم أو تأخير أو حذف أو اعتراض... إلخ. وتارة يأتى الفاعل بعد المفعول به، بل بعده وبعد شبه الجملة والحال والتمييز وأى عنصر آخر يأتى سابقا عليه فى التراكيب المعتادة. وهذا مجرد مثال. فلو طبقنا هذا على القرآن فنرجو أن يقول لنا د. أنيس كيف كان على العرب فى عصر المبعث قبل أن يظهر الإعراب أن يفهموا تلك الجمل والعبارات القرآنية التى لا تجرى على النظام الوَتِيرِىّ الذى يحسنه كل أحد ولا يتميز عادة بشىء؟

هذا، وما أكثر ذلك النوع من الجمل والعبارات على عكس ما يزعم هو، إذ حصرها فى أمثلة معدودة كما هو الحال فى الآيات التالية: "فأوجس فى نفسه خيفة موسى"، "فلما جاء آل لوط المرسلون"، "أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها"،" حضر يعقوب الموت"، "جاء أحدكم الموت"، "مس الإنسان ضرّ" (من أسرار اللغة/ 226- ٢٢٧)، مما يسهل على المتلقى فهم معناه دون إعراب. ومع هذا فحتى لو صدقنا دعواه وقلنا إنه لا يوجد فى القرآن سوى هذه الأمثلة وأشباهها، فهل هذا يسهل فهم معناها كما قال؟ إنه ليمكن أن يفهم بعض الناس من المثال الأول أن هناك من أوجس فى نفسه الخيفة التى أوجسها موسى على اعتبار أن "خيفة" مضاف، و"موسى" مضاف إليه. كما أن بعضهم يمكن أن يتصور أن "آل لوط" هم الذين جاؤوا المرسلين لا العكس. لكن وجود الإعراب سوف يحل المشكلة من جذورها ولن يترك بابا للَّبْس والخلط .

على أن الأمثلة التى ضربها الأستاذ الدكتور ليست كل الأمثلة التى يمكن الاستشهاد بها فى هذا السياق، بل هناك أمثلةٌ أخرى جِدُّ كثيرة. خذ مثلا قوله عز وجل: "مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ" (البقرة/ ١٠٥)، فكيف نفهم "المشركين" لو كانت بدون إعراب؟ أنقول إنها داخلة فى "الذين كفروا"، أى معطوفة على "أهل الكتاب"؟ أم هل نقول إنها خارجة عن" الذين كفروا"، ومعطوفة عليها لا على أهل الكتاب؟ وخذ عندك كذلك: "وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ" (البقرة/ ١٢٧)، واسأل نفسك: ما موقع إسماعيل هنا؟ آشترك مع أبيه فى رفع البيت، أم مع البيت فى رفع أبيه له هو أيضا، إذ رَفَع البيت رفعا ماديا، ورَفَعَه هو رفعا معنويا؟ وخذ عندك ثالثا الآية التالية: "وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ" (البقرة/ ١٣٢)، وقل لى: هل وصَّى إبراهيم بنيه ووصى معهم يعقوبَ أيضا، فعندنا موصٍّ واحد؟ أم هل وصى إبراهيم بنيه، ووصى يعقوبُ بنيه هو أيضا، فعندنا إذن موصِّيان؟ وخذ عندك رابعا قوله تعالى: "رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ" (آل عمران/ ١٩٢)، فما المقصود به؟ هل المقصود أنك أنت يا رب الذى تدخل الناس النار، فقد أخزيتَ فلانا؟ أم هل المقصود أن من تدخله النار يا رب فقد أخزيتَه؟ لا يفصل فى الأمر هنا إلا ضبط آخر الفعل المضارع: ضَمًّا أو سكونًا على الترتيب. وخذ عندك قوله جل شأنه فى سورة "الأنعام" (١٤١-١٤٢): "وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا"، فكيف نفهم قوله: "ومن الأنعام حَمُولَةً وفَرْشًا" فى حالة غياب الإعراب؟ سوف يتبادر إلى الذهن أن المقصود هو أن الأنعام تُسْتَخْدَم حمولة وفرشا لا أن الله خلق لنا منها حمولة وفرشا. وخذ عندك سادسا هاتين الجملتين من الآية الأولى من سورة "الأعراف" وتخيلها بدون إعراب: "كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ"، ثم قل: هل المعنى هو أنه "لن يكون فى صدرك حرج"، على أساس أنه نفى؟ أم هل المراد: "لا ينبغى أن يكون فى صدرك حرج"، بوصفه نهيا؟ وخذ عندك أيضا هذه الآية: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِى الأُمِّى الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ"، فلولا أن "الإنجيل" مكسورة الآخر لظننا أن المعنى المراد هو أن الإنجيل بداية جملة جديدة، وأنه

هو الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث ويضع الإصر... إلى آخره .

أما تهوين د. أنيس من شأن الروايات التى تتحدث عن واضعى النحو والأسباب التى حملتهم على التفكير فى ذلك، رغبة منه فى التشكيك فى وجود النحو أصلا قبل القرن الثانى للهجرة، ومنها الرواية التى تقول إن بنت أبى الأسود الدؤلى قالت له يوما: "ما أحسنُ السماءِ"، فكان جوابه: "أحسنُها نجومها"، فأفهمته أنها لا تسأل عن أجمل شىء فى السماء، بل تتعجب من جمالها، وكذلك إنكاره أن يكون أبو الأسود قد سمع قارئا يقول: "أن الله برىءٌ من المشركين ورسولِه"، فارتاع وفكر فى وضع النحو، أما تهوينه من شأن هاتين الروايتين وأمثالهما ووصْفه لها بأنها مجرد قصص مسلية طريفة (من أسرار اللغة/ ٢٢٨) فلا أستطيع أن أرافئه عليه، بل أرى أنه حتى لو ثبت أنها روايات مصنوعة فمن الممكن جدا أن تقع، بل هى تقع كثيرا، إن لم يكن بنصها فعلى شاكلتها. وعلى هذا فليس ثم معنى للتهوين من شأن مثل تلك الروايات أبدا .

ومما يترتب على فكرة إبراهيم أنيس الشاذة أن الشعر العربى لم يكن موزونا قبل ذلك التاريخ، ثم لما اخْتُرِع النحو تصادف أن اتَّزَن الشعر بعدما كان مكسورا لا يعرف الإيقاع المنتظم. إن الدكتور، عند توضيح فكرته هنا، يأتى إلى بضعة أبيات اختارها عمدا فيحاول أن يقنعنا أنها عند التزام السكون فى أواخر كلماتها لن تضار كثيرا من ناحية الإيقاع الموسيقى. لكنه لم ينكر أن هناك خللا إيقاعيا قد حدث، وكلّ ما هنالك أنه أراد التهوين من شنعه. ثم إنه لم يقل لنا: ماذا عن تلك المصادفة السعيدة التى على أساسها قد استقام الشعر الجاهلى عند دخول الإعراب على لغة العرب بعدما كان بدونه ملتويا فى إيقاعه وموسيقاه؟ على كل حال سوف أورد الآن بضعة أبيات أخرى، ولتكن من معلقة امرئ القيس لنرى معا كيف يكون حالها من دون الإعراب، ثم كيف يكون حالها به. وها هى ذى الأبيات المذكورة ساكنة أواخر الكلمات عارية عن الإعراب :

فَمِثلُكْ حُبلى قَد طَرَقْت وَمُرضِعْ ... فَأَلَهيتُها عَن ذى تَمائِمْ مُحولِ

وَيَوْمْ عَلى ظَهرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَتْ ... عَلَى وَآلَتْ حَلفَةْ لَمْ تُحَلَّلْ

وَبَيضَةْ خِدرْ لا يُرامْ خِباءُها ... تَمَتَّعْتُ مِن لَهوْ بِها غَيرْ مُعْجَلْ

تَجاوَزت أَحراسْ إِلَيها وَمَعشَرْ ... عَلَى حِراصْ لَو يُسِرّونَ مَقْتَلى

فَقالَت: يَمينَ اللهْ ما لَكْ حيلَةْ ... وَما إِن أَرى عَنكَ الغِوايَةْ تَنْجَلى

خَرَجت بِها أَمشى تَجُرُّ وَراءْنا عَلى أَثَرينا ذَيلْ مِرْطِ مُرَحَّلْ
إِذا التَفَتَتْ نَحْوى تَضَوَّعْ رِيحْها نَسيم الصَّبا جاءَت بِرَيّا القَرَنْفُلْ

فهل هذا شعر؟ هل هذه موسيقى؟ ولا تنس أيضا القافية التى اضطربت اضطرابا رهيبا بسبب جرينا على تسكين أواخر كلماتها طبقا لنظرية أنيس، إذ وجدناها مرة تنتهى بالسكون، وأخرى بمدة الياء، وهو ما لا أدرى كيف يحله لنا د. أنيس بنظريته المُخَرْبَقَة. أما القصيدة على وضعها بعد الإعراب (المخترَع فى زعم د. أنيس) فهى من الإبداع الفنى فى الذروة :

فَمِثْلِكِ حُبْلَى قَد طَرَقتُ وَمُرضِعٍ فَأَلهَيتُها عَن ذى تَمائِمَ مُحْوِلِ
وَيومًا عَلى ظَهرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَت عَلَى وَآلَت حَلفَةً لَمْ تُحَلَّلِ
وَبَيضَةِ خِدرٍ لا يُرامُ خِباؤُها تَمَتَّعتُ مِن لَهوٍ بِها غَيْرَ مُعْجَلِ
تَجاوَزتُ أَحراسًا إِلَيها وَمَعْشَرًا عَلَى حِراصًا لَو يُسِرّونَ مَقتَلى
فَقالَت: يَمينَ اللهِ ما لَكَ حيلَةٌ وَما إِن أَرى عَنكَ الغِوايَةَ تنجَلى
خَرَجتُ بِها أمشى تَجُرُّ وَراءَنا عَلى أَثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
إِذا التَفَتَتْ نَحْوى تَضَوَّعَ رِيحُها نَسيمَ الصَّبا جاءَت بِرَيّا القَرَنْفُلِ

فانظرإلى هذه المفارقة: كيف أن الشعر الجاهلى، ومثلُه فى ذلك الشعر الإسلامى والأموى، وربما بعض العباسى بناء على نظرية الدكتور أنيس، إن تركتَه على وضعه الأصلى، أى إن اتبعت الحق من وجهة نظر الدكتور، لم تجد بين يديك إلا هذه الفقاقيع السخيفة البائرة التى لا تنتمى إلى الشعر ولا تساوى شيئا فى ميدان الفن والإبداع والموسيقى، أما إن اتبعت الباطل حسبما تهرف نظرية الأستاذ الدكتور، وأجريت هذا الشعر على النظام الإعرابى (المخترع على حد زعمه) تَحَصَّلَ لك فى الحال ذلك الإبداع الفاتن. ومع هذا يصر إبراهيم أنيس على أن يركب دماغه ويزعم أن العربية لم تكن تعرف الإعراب إلا بعد الإسلام بقرن أو يزيد.

وهكذا يتبين لنا أنْ لو كانت العربية ساكنةَ أواخر الكلمات دائمًا فلا تتحرك تلك الأواخر إلا عند التقاء ساكنين لما كان الشعر الجاهلى والإسلامى والأموى وشطر غير قليل من الشعر العباسى موززنا، وأن تلك الأشعار، وياللعجب، قد اكتسبت بهذا التغيير الطارئ العجيب جمالا وانتظمت موسيقاه انتظاما لم تكن تعرفه من قبل؟ ثم جاء الخليل بن أحمد فتم الحسن على يديه وبلغ الغاية، إذ استطاع أن يستخرج من هذا النظام الإيقاعى القائم على المصادفة علمًا للعروض

والقافية مستقيما غاية الاستقامة، دقيقا منتهى الدقة. على أن الأمر لا يقف هنا، بل إن الشعر الجاهلى، بدون الإعراب، ليستغلق فى كثير من الأحيان على قارئيه ومستمعيه بسبب ما فيه من تقديم وتأخير للكلمات عن مواضعها أو الإتيان بجمل وعبارات اعتراضية، مما لا يزيل غموضَه ولَبْسَه إلا الإعراب، الذى لم يكن موجودا فى ذلك الحين طبقا لفكرة الأستاذ الدكتور المتهايلة .

ومعنى ذلك ثالثا أن الأمة كلها قد تواطأت على الكذب، إذ زعم الزاعمون من علمائها النحويين أن العرب كانوا يعرفون الإعراب منذ وقت طويل قبل الإسلام، ووافقتهم الأمة كلها على هذا: وافقتهم بالإيجاب فرددت هذه المقولة معهم كذبًا منها ومَيْنًا، أو بالسلب فسكتت على هذه الكذبة البلقاء وتركتها تروج وتسود فلا يعود ثم موضع للفكرة الحقيقية بعد هذا أبدا. أما إذا لم ترد، أيها القارئ، أن تَصِم الأمةَ الإسلاميةَ كلها بالكذب والتواطؤ على الكذب فيمكنك أن تقسمها فريقين: فريق من الكذابين الوقحين، وفريق آخر من البله المعاتيه الذين ابتلعوا طعم تلك الكذبة البلقاء دون أن يفتحوا فمهم بكلمة لأنهم بله معاتيه. ومتى كان البله المعاتيه يفقهون شيئا أو يتنبهون إلى شيء؟

ومن الغريب أن يستدير د. أنيس ويأتينا من الناحية الأخرى قائلا إنه ببحثه هذا العجيب لا يهدف إلى محوٍ أو تغييرٍ فيما تواضع الناس عليه من قواعد إعرابية، بل يهدف إلى البحث العلمى البحت مستعينا بأحدث الآراء فى علم الأصوات (من أسرار اللغة/ ٢٣٠). وهو كلام أعجب من نظريته المتهافتة، إذ يشبه أن يأتى إنسان إلى زوج لا يجد فى زوجته ما يريب، بل يعيش معها عيشة هانئة سعيدة، فيعكر عليه صفوه بإثارة ريبته فيها، ويملأ نفسه بالهواجس والقلق ويحيل حياته جحيما مستعرا، ثم يستدير من الناحية الأخرى فيطمئنه بكلمتين لا تقدمان ولا تؤخران قائلا إنه لا يهدف من وراء هذا الذى قاله أن يدفعه إلى تطليق زوجته، حاشا لله، ولا إلى التزوج عليها بأخرى، أعوذ بالله، بل إلى دراسة الأمر دراسة علمية، ونعم بالله !

ثم إنك بعد ذلك تقلب صفحات البحث من اليمين للشمال، ومن الشمال لليمين، ومن فوق لتحت، ومن تحت لفوق، بحثا عن المراجع الحديثة المزعومة فلا تجد منها شيئا، بل كل ما تلقاه أينما اتجهت هو الكتب العربية القديمة التى اتهم الأستاذ الدكتور أصحابها أشنع الاتهامات، فلا تملك نفسك من أن تتساءل: ترى لِمَ يعتمد الأستاذ الدكتور على تلك الكتب إذا كان مؤلفوها بهذا السوء الذى نسبهم إليه ووصمهم به؟ إن د. إبراهيم أنيس يزعم أن العرب كانوا ينهون كل كلمات

لغتهم بالسكون، لكنهم حين يصلون الكلام كانوا يحركون أواخر تلك الكلمات بهذه الحركة أو تلك، إلا أن هذه ليست حركات الإعراب، بل مجرد حركات صوتية تناسب الحرف الذى تتلوه من الكلمة السابقة أو تسبقه من الكلمة التالية. ترى كيف عرف هذا؟ الحق أنه لا توجد أدنى إشارة إلى أن العرب كانوا يسكنون أواخر كل الكلمات، فمن أين أتى بهذا الافتراض؟ أيكفى أن يقول الواحد منا: "يبدو" أو"يظهر" أو "يخيَّل إلىّ" وما أشبه، ثم ينطلق فيسرد سخافاته سردا دون أدنى ذرة من تردد أو تفكر؟ يقول د. إبراهيم أنيس: "يظهر، والله أعلم، أن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفات الوصل فى الكلام شعرا أو نثرا، فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى: السكون. كما يظهر أن الأصل فى كل الكلمات أن تنتهى بهذا السكون وأن المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل" (من أسرار اللغة/ ٢٠٤).

والملاحظ أن قاسم أمين قام قبل بضعة عقود من ظهور كتاب إبراهيم أنيس بحملة على الإعراب متهما إياه بأنه مصدر كل ما يقع من لحن فى قراءة العربية، ومتخذا من عدم وجود الإعراب فى بعض اللغات الأوربية حجة يدعم بها رأيه. وحَسْبَ رأيه يجب علينا نحن أهل العربية "أن نبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل". وبهذه الطريقة، وهى طريقة جميع اللغات الإفرنجية والتركية كما قال، يمكن، فى رأيه، حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال دون أن تضار اللغة أى ضرر لأن مفرداتها سوف تبقى كما هى. يقول هذا وكأن اللغة مجرد مفردات فحسب (ذكر قاسم أمين هذا الرأى فى كتابه"كلمات" المنشور ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين/ تحقيق د. محمد عمارة/ ط٢ /دار الشروق/ ١٩٨٩م/ ١٤٣).

إذن فالدكتور أنيس، حين كتب ما كتب، لم يكن ابن بجدتها، بل قد تسلم الراية من أمثال قاسم أمين وطوَّر ما قاله هو ومن يلفّون لفّه كسلامة موسى، الذى هاجم فى كتابه الركيك الفكر الذى يسمى: "اللغة العربية والبلاغة العصرية" لغة القرآن الكريم زاعما بالإفك والبهتان أولا أنها متخلفة، وثانيا أن الإعراب هو أهم أسرار تخلفها وتخلفنا نحن أيضا (انظر كتابه المذكور/ سلامة موسى للنشر والتوزيع/ ١٩٦٤م/ ٩، ١١، ٧٧ وما بعدها، ٨٤، ٩٣، ١٣٠ وما يليها، وبالذات ١٢٤...). يقول هذا وكأنها متخلفة فعلا، فى الوقت الذى كان يؤلف مقالاته وكتبه بها، وينظر إلى ما كتبه على أنه انعكاس لأرقى ما وصل إليه الفكر البشرى فى اللغات الأوربية التى كان يترجم منها

ويلخص ما تشتمل عليه بغض النظر عن مدى دقته وصدقه وموضوعيته فى هذا التلخيص والعرض أو عدمه، مما يدل على أن كل ما قاله فى هذا الصدد هو كلام ماسخ سمج. نعم، إن ما كتبه أنيس لهو امتداد لما كتبه سلامة موسى وقاسم أمين وأمثالهما، وإن حاول أن تأخذ المسألة لديه مظهرا علميا رغم أن كل كلمة بل كل حرف فيما كتبه إنما يدابر العلم والمنطق مدابرة لا تفاهم فيها بتاتا.

ويورد د. أنيس نصا من قطرب النحوى العربى المعروف عن أصل الإعراب فى لغة العرب يقول فيه: "إنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون، فجعلوه فى الوصل محرَّكا حتى لا يبطئوا فى الإدراج، وعاقبوا بين الحركة والسكون وجعلوا لكل واحد أليق الأحوال به، ولم يلتزموا حركة واحدة لأنهم أرادوا الاتساع، فلم يضيقوا على أنفسهم وعلى المتكلم بحظر الحركات إلا حركة واحدة". هذا هو النص الذى نقله إبراهيم أنيس عن كتاب "إحياء النحو" لإبراهيم مصطفى، الذى نقله بدوره عن كتاب السيوطى: "الأشباه والنظائر". إلا أن النص الوارد فى كتاب الزجاجى: "الإيضاح فى علل النحو "أطول من ذلك وأكثر تفصيلا. وقد أورد الزجاجى رأى قطرب فى سياق كلامه عن إجماع النحويين على أن وظيفة الإعراب توضيح وظائف الكلمات فى الجملة. يقول الزجاجى (الإيضاح فى علل النحو/ تحقيق د. مازن المبارك/ ط٣/ دار النفائس/ ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م/ ٧٩- ٨١): "فإن قال قائل: فقد ذكرت أن الإعراب داخل فى الكلام، فما الذى دعا إليه واحتيج إليه من أجله؟ الجواب أن يقال: إن الأسماء لما كانت تعتور المعانى فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا إليها ولم تكن فى صورها وأبنيتها أدلة على المعانى، بل كانت مشتركة، جُعِلَت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعانى، فقالوا: "ضرب زيدٌ عَمْرًا"، فدلّوا برفع "زيد" على أن الفعل له، وبنصب "عمرو" على أن الفعل واقع به، وقالوا: "ضُرِبَ زيدٌ"، فدلوا بتغيير أول الفعل ورفع "زيد" على أن الفعل ما لم يُسَمَّ فاعله وأن المفعول قد ناب منابه. وقالوا: "هذا غلام زيد"، فدلوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه. وكذلك سائر المعانى جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا فى كلامهم، ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعانى. هذا قول جميع النحويين إلا قطربا، فإنه عاب عليهم هذا الاعتلال وقال: لم يعرب الكلام للدلالة على المعانى والفرق بين بعضها وبعض لأنا نجد فى كلامهم أسماء متفقة فى الإعراب مختلفة المعانى، وأسماء مختلفة الإعراب متفقة فى المعانى: فما اتفق إعرابه

واتفق معناه قولك: "إن زيدا أخوك، ولعل زيدا أخوك، وكأن زيدا أخوك". اتفق إعرابه واختلف معناه. ومما اختلف إعرابه واتفق معناه قولك: "ما زيد قائما، وما زيد قائم". اختلف إعرابه واتفق معناه. ومثله: "رأيته منذ يومين، ومنذ يومان. ولا مالَ عندك، ولا مالٌ عندك. وما فى الدار أحدا إلا زيدٌ، وما فى الدار أحدٌ إلا زيدا". ومثله: "إن القوم كلَّهم ذاهبون، وإن القوم كلُّهم ذاهبون". ومثله: "إن الأمر كلَّه لله"، و"إن الأمر كلُّه لله". قرئ بالوجهين جميعا. ومثله: ليس زيد بجبانٍ ولا بخيلٍ، ولا بخيلاً. ومثل هذا كثير جدا مما اتفق إعرابه واختلف معناه، ومما اختلف إعرابه واتفق معناه. قال: فلو كان الإعراب إنما دخل الكلامَ للفرق بين المعانى لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه لا يزول إلا بزواله. قال قطرب: وإنما أعربت العرب كلامها لأن الاسم فى حال الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج. فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ليعتدل الكلام. ألا تراهم بَنَوْا كلامهم على متحرك وساكن، ومتحرك وساكنين، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ولا فى حشو بيت، ولا بين أربعة أحرف متحركة لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون وتذهب المهلة فى كلامهم، فجعلوا الحركة عقب السكون. قيل له: فهلّا لزموا حركة واحدة لأنها مجزئة لهم إذ كان الغرض إنما هو حركة تعتقب سكونا ؟ فقال: لو فعلوا ذلك لضيّقوا على أنفسهم فأرادوا الاتساع فى الحركات وألا يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة. هذا مذهب قطرب واحتجاجه. وقال المخالفون له ردا عليه: لو كان كما زعم لجاز خَفْض الفاعل مرة، ورَفْعُه أخرى ونَصْبُه، وجاز نَصْبُ المضاف إليه، لأن القصد فى هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا يعتدل به الكلام. وأى حركة أتى المتكلمُ أجزأته، فهو مخير فى ذلك. وفى هذا فساد للكلام وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم. واحتجوا لما ذكره قطرب من اتفاق الإعراب بأن قالوا إنما كان أصل دخول الإعراب واتفاق المعانى فى الأسماء التى تُذْكَر بعد الأفعال لأنه يُذْكَر بعدها اسمان: أحدهما فاعل، والآخر مفعول، فمعناهما مختلف، فوجب الفرق بينهما، ثم جُعِل سائر الكلام على ذلك. وأما الحروف التى ذكرها فمحمولة على الأفعال. ولكل شىء مما ذكر علة تمر بك إن شاء الله تعالى".

وواقع الأمر أن هناك فارقا ضخما بين ما قاله د. أنيس وما يقول به قطرب: فأنيس يزعم أن الإعراب لم يكن موجودا فى لغة العرب، ثم أوجده علماء النحو بعد الإسلام فى نهاية القرن الأول

الهجرى أو بداية القرن الثانى .أما قطرب فلم ينسب الإعراب إلى النحاة، بل إلى العرب. أى أن ذلك أمر أصيل عندهم، وليس شيئا طارئا كما يزعم أنيس. ومقصوده أن ظهور الإعراب أمر يقوم على التطور الطبيعى لا على القصد والتخطيط، واشترك فيه العرب جميعا كما يقع فى أية ظاهرة لغوية لا أنه انفرد به علماء النحو وحدهم واخترعوه اختراعا. وفضلا عن ذلك لم يشر قطرب من قريب أو من بعيد فى كثير أو قليل إلى أن النحاة عندنا تأثروا على نحو أو على آخر بالنحو اليونانى أو غير اليونانى .

ومن الواضح أن فيما قاله قطرب نسفًا لما زعمه د. أنيس، الذى عزا اختلاق الإعراب إلى النحاة، على حين أن قطربا، الذى كان قريب عهد بأولئك النحاة المظلومين، إذ كان من أهل القرن الثانى الهجرى، قد أرجعه كما رأينا إلى السليقة العربية. ولو كان الأمر على ما زعم أنيس لقد كان قطرب، ورأيه فى الإعراب هو ما نعرف، أول من يذكر هذا ويحتج به ويتخذه دليلا لا يُصَدّ ولا يُرَدّ على صحة ما قاله فى موضوع الإعراب. وأيا ما يكن الحال فقد انفرد قطرب بهذا الرأى ولم يقل به من النحاة أحد سواه طبقا لما ذكره الزجاجى فى النص الذى أوردنه آنفا. أما قول قطرب إن هناك أسماء تشترك فى الإعراب وتختلف فى المعانى، مثل الأسماء التى تعقب "إن" و"لكن" و"لعل" و"ليت"، وأسماء تتفق فى المعنى وتختلف فى الإعراب، مثل خبر "ما" النافية، الذى قد يجىء مرفوعا، وقد يجىء منصوبا، فالرد عليه هو أن المعنى الذى يقصده النحاة ليس هو التوكيد الذى فى" إن"، والرجاء الذى فى "لعل"، والتشبيه الذى فى "كأن"... إلخ، بل تحول الاسم من مبتدإ إلى اسم لهذه الحروف، أو أن يكون الاسم فاعلا، بمعنى أنه هو الذى يأتى بعد الفعل ويحقق الفعل أو يتحقَّق الفعل من خلاله، أو أن يكون مفعولا، بمعنى أنه هو الذى وقع عليه الفعل... إلخ. أما ما يقوله قطرب فيحتاج إلى عدد غير متوفر من الحركات، إذ أنى لنا بالحركات الكافية إذا ما خصصنا كل كلمة بإعراب يقتصر عليها فلا تشاركها فيه كلمة أخرى؟ وبالنسبة إلى ارتفاع الاسم الواقع بعد "ما" النافية وانتصابه فأمره غير ما فهمه قطرب، إذ الارتفاع من عمل قوم، والانتصاب من عمل قوم آخرين، والأولون هم التميميون، والآخرون هم الحجازيون. وبالمثل ليس فى ارتفاع المستثنى وانتصابه عند مجىء المستثنى منه منفيا حجة لقطرب، إذ إن سبب ارتفاعه هو أنه بدل من المستثنى منه، وانتصابه سببه إخراجه من المستثنى منه. وهكذا ترى أن الاسم قد ارتفع لوجه، وانتصب لوجه آخر مختلف...

أما لو كانت غاية الإعراب مجرد الاتساع فى الحركة لرأينا الفاعل يرفع مرة، وينصب أخرى، ويجر ثالثة... وهكذا، إذ ما دامت الغاية هى الاتساع فلم اهتموا بالانضباط فى استعمال الحركات على النحو الذى نراه فى الإعراب؟ إن كلام قطرب معناه أن ما يقع الآن من جماهير المتعلمين ومن كثير من الكتاب من رفع المبتدإ والفاعل ونائب الفاعل مرة، ونصبها مرة، وجرها مرة كيفما اتفق، هو أمر لا غبار عليه، إذ به يتحقق الاتساع الذى أراده العرب من الإعراب، والسلام. ولنفترض أن ما قاله قطرب فى الأمثلة التى أوردها صحيح، فما نسبة ما ذكره إلى حجم علم النحو؟ إنه لقطرة من سيل، وإلا فكيف نفرق بين "إن" الشرطية و"إن" النافية؟ أو كيف نفرق بين "لام الأمر" و"لام التعليل"؟ أو كيف نفرق بين "واو رب" و"واو الاستئناف"؟ أو كيف نفرق بين هذه و"واو العطف"؟ أو "كيف نفرق بين هذه الواو و"واو المعية"؟ أو كيف نفرق بين "فاء العطف" و"فاء السببية"؟ وهذا كله، ولم نتجاوز الحروف إلى الأسماء والأفعال، بل لم نستقص كل الحروف، بل اجتزأنا ببعضها ليس إلا. ولنفترض ثانية أن ما قاله قطرب صحيح، أفلا يستحق الحرص على جمال النظام والتناسق والاطراد أن تكون هناك قواعد تحكم الإعراب بحيث يتوفر لكلامنا العنصر الجمالى بدلا من أن نكتفى بتأدية المعنى تأدية إجمالية أو تأدية مقاربة؟ إن بعض الناس يكتفون بتناول الطعام على قارعة الطريق مفترشين الأرض واضعين طعامهم أمامهم عليها. وهم بذلك يكونون قد أكلوا، ولم ينقصهم من ناحية الأكل شىء. بل إن الإنسان لن ينقصه أيضا من هذه الناحية شىء لو دُلِق الطعام أمامه على الأرض فانكبّ عليه يلعقه بلسانه كما يصنع الحيوان ذو الأربع. إلا أن الشخص المتحضر لا يكتفى بهذا، بل يخلق لنفسه خَلْقًا طائفة من الشعائر لدن تناول الطعام من موسيقى وزهور وشموع وشوكة وسكين وأطباق ثمينة وخادم يلبس تاجا قماشيا أبيض فوق رأسه ويتمنطق بحزام أحمر. ثم إنه يتناول ألوان الطعام لونا بعد لون حسب ترتيب معين لا دفعة واحدة... وهكذا. فإذا صح كلام قطرب فليكن الإعراب، فى جانب منه، مثل هذا.

والطريف أن قطربا، رغم كل هذا، كان يقول بما يقول به النحاة الآخرون من الإعراب، فكأنه لم يُؤْثَر عنه شىء مما نقلناه عن الزجاجى منسوبا إليه. وهذه أمثلة على ما نقول: ففى إعراب قوله تعالى: "وإذ أخذنا ميثاقكم لا تعبدون إلا الله" فى الآية ٨٣ من سورة "البقرة" نقرأ فى تفسير "مفاتيح الغيب" ما يلى: "اختلفوا فى موضع "يعبدون" من الإعراب على خمسة أقوال: القول

الأول: قال الكسائى: رَفْعُه على "أن لا يعبدوا"، كأنه قيل: "أخذنا ميثاقهم بأن لا يعبدوا". إلا أنه لما أسقطت "أن" رفع الفعل كما قال طرفة :

ألا أيهذا اللائمى أَحْضُر الوغى   وأنْ أشهد اللذات، هل أنت مُخْلِدِى ؟

أراد: "أن أحضر"، ولذلك عطف عليه "أن". وأجاز هذا الوجه الأخفش والفَرّاء والزَّجّاج وقُطْرُب وعلى بن عيسى وأبو مسلم. القول الثانى: موضعه رَفْعٌ على أنه جواب القسم، كأنه قيل: "وإذ أقسمنا عليهم لا يعبدون". وأجاز هذا الوجه المبرد والكسائى والفراء والزَّجّاج، وهو أحد قولى الأخفش. القول الثالث قول قطرب: أنه يكون فى موضع الحال فيكون موضعه نصبًا، كأنه قال: أخذنا ميثاقكم غير عابدين إلا الله". وفى إعراب قوله تعالى: "فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ" فى الآية ٨١ من سورة "التوبة" نقرأ فى نفس التفسير ما يأتى: "قوله: "خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ" فيه قولان: الأول، وهو قول قطرب والمؤرج والزجاج، يعنى مخالفة لرسول الله حين سار وأقاموا. قالوا: وهو منصوب لأنه مفعول له، والمعنى بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم". وفى إعراب قوله تعالى: "فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" فى الآية ٨٧ من سورة "الكهف" نقرأ فى تفسير الشوكانى هذا النص: "قال النحاس: اختلف فى معنى "فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ" على قولين: الأوّل مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى: أتاه الفسق لما أُمِر فعصى، فكان سبب الفسق أمر ربه، كما تقول: أطعمه عن جوع. والقول الآخر قول قطرب إن المعنى على حذف المضاف، أى فسق عن ترك أمره".

وقطرب هذا الذى ينكر أن يكون لإعراب الكلمات أية دلالة معنوية هو نفسه الذى كان يرى مثلا أن "الواو" العاطفة تدل على الترتيب، بمعنى أن قولنا: "جاء زيد وعمرو" معناه أن زيدا جاء قبل عمرو لا أن كلا منهما جاء، والسلام، ولا يهم مَنْ جاء قبل مَنْ، أو أنهما جاءا معا (انظر السيوطى فى "همع الهوامع"). أى أن لها معنى، بغض النظر عن أنه قد خالف فى رأيه هذا ما يقوله غيره من النحويين من أنها تفيد مطلق الجمع. وبالمثل نرى قطربا (مثل الكوفيين) يجزم بـ"كيف" سواء اتصلت بها "ما" أو لم تتصل على ما يقول السيوطى فى هذا الكتاب. كذلك يروى قطرب، على ما أورده السيوطى أيضا فى كتابه السالف الذكر، أن ما بعد "بَلْهَ" (الذى ينصبه قوم على أنه مفعول لها على أساس أنها اسم فعل أمر) يُرْفَع لأن معناها: "كيف". ومنه قول الشاعر :

تَذَرُ الجماجمَ ضاحيًا هاماتُها بَلْهَ الأَكُفُّ كأنّها لم تُخْلَقِ

ولهذا لم يكن الأمر مستغربا عندى حين قرأت أنه ألف كتابا فى النحو عنوانه" الجماهير". ولو لم يكن يرى فى الإعراب ما يراه النحاة فلماذا صنف مثل ذلك الكتاب؟ ويحكى أبو المحاسن التنوخى فى ترجمته لقطرب فى "تاريخ العلماء النحويين" ظروف تصنيفه قائلا: "كان سبب تصنيف هذا الكتاب أن الرشيد قال له يوما: كيف تُصَغِّرُ الدُنيا؟ فقال: هى مصغَّرة يا أمير المؤمنين. فقال له :اعمل كتابا لعبد الله ومحمد، فإنهما من أحوج الوَرَى إليه. فعمله، وليس بالطائل". وله أيضا كتاب فى "إعراب القرآن" طبقا لما جاء خلال ترجمة السيوطى له فى "بغية الوعاة"، وهو أمر له دلالته فيما نحن بسبيله.

والآن هل الكلام الذى حَبَّرَه د. إبراهيم أنيس يمكن أن يصمد للنظر؟ تعالوا نر. أولا: إذا كان ما يقوله الدكتور صحيحا فلماذا ظلت طائفة من الكلمات مسكنة الأواخر، مثل "هَلْ، بَلْ، قدْ، قَطْ، عَنْ، مِنْ، مَنْ، كَمْ، كَىْ، لَدُنْ، أَوْ، لَوْ، مُذْ، صَهْ، مَهْ، وَىْ، نَعَمْ، أَجَلْ، لَمْ، إِنْ، لنْ، أَنْ، لكنْ"، وكذلك الأفعال المضارعة المجزومة وأفعال الأمر كلها تقريبا.... وثانيا: لماذا جرى العرب على تحريك نهايات كل الكلمات الساكنة الأواخر كلما وصلوها بما بعدها سواء كان أول ما بعدها ساكنا أو متحركا؟ ثم على أى أساس كانوا ينوّعون حركة أواخر الكلمات؟ يقول د. أنيس إن بعض الحروف يناسبها حركة معينة تختلف عن الحركة التى تناسب بعض الحروف الأخرى. لكن الواقع أن هذا ليس بالأمر المطرد، وإلا لتنبه إليه علماؤنا القدامى وعرفوا السر وراءه ولكانوا إذن قد استراحوا وأراحوا ولم يُقْدِموا بغشم واعتساف على ما أقدموا عليه من اختراع هذا الذى يسمونه: "إعرابا"، بكل ما يتعلق به من تفريعات وتقعيدات وتعقيدات ووجع دماغ.

خذ مثلا حركة الهاء فى "عليه" لدن الوصل بساكن بعدها. إنها كسرة عند بعض القبائل، وضمة عند بعض القبائل الأخرى. والضم موجود مثلا فى قوله تعالى فى إحدى قراءات الآية العاشرة من سورة "الفتح": "عاهَدَ عليهُ اللّهَ". كما أن الحرف الأخير من فعل الأمر المضعف الآخر فى حالة الإبقاء على إدغامه ودخول هاء الغائب عليه يحرَّك لدن بعض القبائل بالكسر، ولدن غيرها بالفتح، ولدن ثالثة بالضم. وكلهم بحمد الله عرب، فيقال: مُدَّهُ يا فلان، ومُدِّهِ، ومُدُّهُ. أى أن كل الحركات جائزة هنا. وفى تنوين العلَم الموصوفِ بابنٍ مضافٍ إلى علَم، نحو: محمدٌ بن عبد الله تحرك نون التنوين الساكنة: إما بالكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين، وهو الأكثر، وإما

بالضم. ويجوز الضم والكسر فى واو الجماعة المفتوح ما قبلها، نحو: "اخْشَوُا الله "و"اخْشَوِا اللهَ". كذلك كيف يفسر اختلاف نوع الحركة فى أواخر الكلمات أحيانا من الفصحى إلى العامية؟ فمثلا حين تلتقى فى الفصحى سكنة نون "مِنْ" بسكنة بعدها نفتح النون، مثل: "مِنَ الباب"، على حين أننا نكسر هذه النون فى العامية فنقول: "منِ الباب". ونحن فى الحالين عرب لم يتغير فينا شىء.

وثالثا: لو كان هذا الذى يقوله الدكتور صحيحا لكُنّا لا نرى إعرابا إلا حيث يلتقى ساكنان. أليس الإعراب هو امتداد تحريك أواخر الكلمات، وأواخر الكلمات لم تكن تتحرك إلا حين تلتقى بساكنٍ فى أوائل الكلمات التالية لها؟ لكننا ننظر فنرى أن الإعراب، الذى هو عنده امتداد لتحريك أواخر الكلمات فى الوصل، موجود فى كل حال: سواء التقى ساكنان أو لم يكن هناك مثل ذلك الالتقاء. فما قوله فى هذا؟ ورابعا: لو كان ما يقوله صحيحا، فلماذا لم يجر الإعراب على القاعدة المتهالكة التى يدعيها، قاعدة مناسبة الحركات المعينة لحروف معينة؟ إن الإعراب لا يبالى بهذا الكلام المتهافت، بل يجرى على قواعد أخرى منضبطة لا علاقة بينها وبين الحرفين المتتاليين فى آخر الكلمة السابقة وأول الكلمة اللاحقة على ما هو معروف. وخامسا: ترى كيف يعلل الدكتور تفريق العرب بين ما يسمى بـ"المعرب" وما يسمى بـ"المبنىّ" إذ يأتون إلى آخر الألفاظ التى تنتمى للمبنىّ ويبقونها على وضع واحد، على حين ينوعون حركة آخر الكلمات المنتمية إلى المعرب؟ ألا إن هذه لضربة قاصمة لنظريته الضحلة! وسادسا: لماذا كان هناك تنوين؟ وما وجه الحاجة إليه بناء على نظرية الدكتور؟ إن وجود التنوين ليمثل، فى ضوء نظرية الدكتور، مفارقة عجيبة. كيف؟ أليس يقول إن الكلمات العربية كانت كلها فى الأصل ساكنة الأواخر، ثم حُرِّكَتْ تلك الأواخر عند التقاء الساكنين؟ فلماذا لم يكتف العرب فى هذه الحالة بتحريك أواخر الكلمات دون تنوين وأصروا بدلا من ذلك على الإتيان بالتنوين الذى هو إضافة سكون بعد ذلك التحريك لنعود مرة ثانية إلى المربع رقم واحد ويكون علينا تحريك هذا الساكن عند التقاء الساكنين؟

وتاسعا: إذا كان الأمر على ما يقول إبراهيم أنيس فكيف يعلل خروج بعض الكلمات من أسماء وأفعال عن القاعدة المطردة فى الإعراب، إذ تُجَرّ الأسماء الممنوعة من التنوين بالفتح، ثم يعود الكسر إليها إذا أضيفت أو دخلت عليها "أل"، وإذ تنصب جموع الألف والتاء بالكسر، وإذ نرى طوائف من الأسماء تُنَوَّن، وأخرى لا تُنَوَّن... إلخ؟ ولماذا لم يدخل السكون فى إعراب الأسماء ولا الجر فى إعراب الأفعال إذا كان الأصل هو مجرد التحريك للتخلص من التقاء الساكنين؟

وعاشرا: كيف أعربت الأسماء الستة والمثنى وجمع المذكر السالم والأفعال المضارعة بالحروف؟ إن تفسيره لهذا الأمر يتلخص فى أن النحاة وجدوا بين أيديهم الصيغ الثلاثة فى الأسماء الستة: "أبوك، وأباك، وأبيك" فخصوا كل صيغة بإعراب، وقل مثل ذلك فى الحالتين الأخريين. ولكن كيف وجدت الصيغ الثلاث فى الأسماء الستة مثلا، وهو يقول إن العرب كانوا يقفون بالسكون على أواخر الكلمات؟ ترى لماذا لم يقفوا بالسكون هنا فيقولوا: "أبْ، أخْ، فَمْ..." جريا على سنتهم التى نص عليها هو لا غيره فيريحوا ويستريحوا؟ يقول إنه كان لكل قبيلة صيغة خاصة بها، فجمع النحاة هذه الصيغ الثلاث وجعلوا كلا منها إعرابا خاصا (انظر "من أسرار اللغة" / ٢٥٠ فصاعدا). والسؤال هو: لماذا لم يتبع العرب رغم ذلك منهجهم فى الوقوف بالسكون على آخر تلك الأسماء؟ وكيف يا ترى تصادف أن كانت كل قبيلة تقف عليها بالمد: واوا أو ألفا أو ياء؟ وقل مثل ذلك فى الجمع السالم وفى الأفعال الخمسة. مرة أخرى يتبين القارئ بنفسه مدى الضعف والتهاوى فيما يقوله الدكتور أنيس، الذى يتحدث عن ناس مضوا منذ دهر طويل فيصف كل شىء كأنه يقع تحت بصره وسمعه الآن. وليس هذا من العلم بسبيل!

وحادىَ عشر: كيف توصل علماؤنا القدامى من أهل النحو إلى هذا النظام الإعرابى طبقا لما يزعمه الدكتور؟ وما الذى دفعهم إلى التفكير فى هذا النظام الذى لم يكونوا هو ولا أسلافهم يعرفونه ولا كان يعرفه أحد من أهل الأرض كما يقول هو ذاته؟ ثم أنى لهم تفريعه وتشقيقه وتبويبه وتقعيده، وهو بهذا التشابك والتداخل؟ وما الذى أكرههم على الدخول فى هذه المضايق، ولديهم لغة سهلة لا تعرف هذه الصعوبات ولا شكا أحد من عجزها عن الإبانة عن أى فكرة أو شعور؟ أهو جحود بالنعمة وبطر وأشر، والسلام؟ أهو عبث من عبث الأطفال لا يقدر أصحابه المسؤولية ولا يبالون بالعواقب ولا يفكرون إلا فى اللحظة الراهنة ولا ينظرون إلا تحت أرجلهم؟

وثانىَ عشر: كيف يا ترى تم فرض النحو الجديد فى ذلك الوقت على العرب، وكذلك على المسلمين الذين اتخذوا لغة العرب لغة لهم بطول العالم الإسلامى وعرضه فى وقت لم تكن فيه مدارس ولا صحف ولا إذاعة ولا... ولا...؟ ومن هم المعلمون الذين قاموا بهذا الدور؟ وكيف أدوا عملهم؟ وما العقبات التى قابلتهم؟ وما الطرائف التى وقعت لهم أو منهم أو من الجماهير؟ ثم إذا كان هذا أمرا يخص العرب، فكيف دخل النحاة وعلماء اللغة الأعاجم فى اللعبة وانخرطوا فيها دون أن يثيروا أية مشاكل؟ نعم كيف وافق علماء النحو ذوو الأصول الأعجمية على هذا الإزعاج، وهم الذين

تعلموا العربية تعلما حتى ليمكنك أن تقول إنهم، بمعنى من المعانى، قد تعمَّلوها تعمُّلاً؟ إننا مثلا نقرأ فى أخبار سيبويه الأعجمى أشهر علماء النحو العربى أن حماد بن سلمة المحدث المشهور الذى كان نحويّنا يتتلمذ على يديه قد لفته إلى أنه يلحن فى نطقه لبعض الأحاديث النبوية فصمم على التزود أكبر زاد بشؤون اللغة والنحو ولزم حلقات النحويين واللغويين وأخذ كل ما عندهم فى هذا الميدان كما يقول د. شوقى ضيف فى كتابه: "المدارس النحوية" (ط٣/ دار المعارف/ ١٩٦٧م/ ٥٧). لقد كان رد الفعل الطبيعى والمنطقى أن يتململ سيبويه من هذه الملاحظة وأن يقول مثلا إن السبب فى لحنه هو ذلك الإعراب الذى ابتدعه العلماء بعد أن لم يكن ثَمَّ إعرابٌ تعرفه العرب، فجاء العلماء وعقّدوا كل شىء !

ولم يكن سيبويه هو النحوى الأعجمى الوحيد بين علماء النحو العربى، بل كان هناك فى تلك الفترة المبكرة التى يشير إليها د. أنيس ابن أبى إسحاق الحضرمى مولى آل الحضرمى، وعيسى بن عمر الثقفى مولى آل خالد بن الوليد، ويونس بن حبيب من موالى بنى ضبة، والأخفش الأوسط، وكان فارسى الأصل... (انظر فى تراجم هؤلاء كتاب "المدارس النحوية" للدكتور شوقى ضيف/ ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٩٤)، وبعضهم كان يعيب العرب ويسىء إليهم كابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر مثلا كما ذكر أبو طاهر المقرئ فى كتابه: "أخبار النحويين". ثم كيف يا ترى تقبلت جماهير الناس تلك العطية المرهقة المزعجة من علماء النحو دون تذمر أو مقاومة؟ أم تراهم قد رفضوا ذلك وحرنوا؟ لكن إذا كانوا قد رفضوا وحرنوا، فكيف استطاع أولئك العلماء أن يجبروهم على تجرع تلك الغصة؟ وما الذى كان فى أيديهم من وسائل التأديب والتخويف والعقاب فأرهبوهم وأرعبوهم به؟ أم تراهم سحروهم وغَشَّوْا على أبصارهم وأسماعهم حتى أدخلوه فى أذهانهم إدخالا على غفلة منهم ثم تركوهم حتى اكتشفوا ما حصل بعد أن كان الوقت قد فات، ولم يعد من سبيل إلى استدراك ما حصل؟

أم هل كانت اللغة العربية المسكَّنة الأواخر تشكل عبئا باهظا على عرب الجاهلية وعصر المبعث والخلافة الراشدة وبنى أمية فعمل العلماء فى أواخر القرن الأول أو أوائل القرن الثانى، طبقا لما تهرف به نظرية د. أنيس، على تذليل هذا العبء بإدخال الإعراب؟ لكنْ ها هى ذى نصوص الشعر والخطابة والأمثال وغيرها فى الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموى تحت أيدينا بمقادير كبيرة، فليفلِّها د. أنيس وأشياعه وليأخذوا راحتهم فى التفلية، وأتحداهم أن يجدوا نصا واحدا

يشير إلى أن اللغة المسكَّنة الأواخر، إن كانت هناك فى ذلك الحين تلك اللغة المتوهمة التى ليس لها وجود إلا فى خيالات إبراهيم أنيس، كانت تشكل أى عبء على العرب. وحتى لو افترضنا أن ذلك قد حدث، وهو مستحيل، فهل الخروج من تلك الصعوبة يكون باللجوء إلى الإعراب، شأن المستجير من الرمضاء بالنار؟ ألا يرى القارئ مدى سخف هذه النظرية وتنطعها كيفما نظرنا إليها، ومن أية زاوية أقبلنا عليها؟

يقول إبراهيم أنيس: "نحن نرجح أن تحريك أواخر كل الكلمات لم يكن فى أصل نشأته إلا صورة للتخلص من التقاء الساكنين، غير أن النحاة حين أعيتهم قواعده وشق عليهم استنباطها فصلوا بين عناصر الظاهرة الواحدة. ولعلهم تأثروا فى نهجهم هذا بما رأوه حولهم من لغات أخرى كاليونانية مثلا، ففيها يُفَرَّق بين حالات الأسماء التى تسمى: "cases"، ويُرْمَز لها فى نهاية الأسماء برموز معينة. وكأنما عز على نحاة العربية ألا يكون فى العربية مثل هذه الـ"cases". فحين وافقت الحركة ما استنبطوه من أصول إعرابية قالوا عنها إنها حركة إعراب، وفى غير ذلك سموها: حركة أُتِىَ بها للتخلص من التقاء الساكنين" (من أسرار اللغة/ ٢٣٥). فهل كان علماؤنا يعرفون اليونانية ونحوها، فقارنوا بينها وبين لغتهم ووجدوا أن اليونانينة تفضلها، فشعروا بالحسد وأرادوا أن يكون للغتهم نفس النحو الذى لها واخترعوا لها هذا النظام النحوى بعد أن لم يكن لها شىء منه؟ ولكن متى تم ذلك يا ترى؟ وفى أية ظروف؟ لكننا ننظر فلا نجد أى خبر عنه فى أى كتاب أو رسالة من تراثنا؟ فلماذا؟ هل أحس هؤلاء العلماء وبقية الأمة أنهم يجترحون فاحشة عظيمة فلم يريدوا أن يأتوا لها على ذكر وآثروا الصمت على أن يعرف العالم عنهم ذلك؟

الواقع أنه من المتصور أن تخر السماء على الأرض، لكن ليس من المتصور أن يكون شىء من هذا قد وقع، وإلا كان علينا، لكى نصدق بوقوع شىء منه، أن نلغى عقولنا تمام الإلغاء. إن أمرا كهذا لا بد أن يكون قد استغرق سنين وسنين، ولا بد أن يرجّ الأمة كلها من أقصاها إلى أقصاها وأن ينقسم الناس بشأنه فرقا وأحزابا وأن تقوم بينهم منازعات وخصومات وأن يكتبوا الكتب دفاعا وهجوما وأن يتبادلوا الاتهامات... إلى آخر ما يقع فى مثل تلك الأحوال. بيد أن د. أنيس يتصور أنه يتحدث عن شرب كوب من الشاى ساعة قيلولة يخلد بعدها الشخص إلى السرير، ليقوم فيفرك عينيه ويتمطى، وقد نسى كل شىء. كذلك يرى د. على عبد الواحد وافى أن "خلق قواعد اللغة خلقا محاولة لا يتصورها العقل، ولم يحدث له نظير فى التاريخ، ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل

أو يتصور نجاحها. فمن الواضح أن قواعد اللغة ليست من الأمور التى تخترع أو تفرض على الناس، بل تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج" (د. على عبد الواحد وافى/ فقه اللغة/ لجنة البيان العربى/ ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م/ ٢٠٧).

ولنفترض أننا تغاضينا عن ذلك كله، هل نسينا أنه كان عندنا فى ذلك الوقت مدرستان لغويتان متناحرتان هما مدرستا الكوفة والبصرة، ويوشك ألا تقدم أى من المدرستين على أمر من الأمور أو تتوصل إلى رأى من الآراء إلا وتقوم الأخرى فتعارضها وتخطّئها؟ فكيف تواطأت تانِكم العدوتان اللدودتان على الصمت فى مثل تلك القضية الخطيرة فلم يفتح أى من علمائها فمه بنبسة؟ وكيف صمت العلماء والمفكرون من متكلمين ومفسرين وحُفّاظ ورجال حديث ومؤرخين وأدباء وشعراء وخطباء وقضاة وكتّاب دواوين، فضلا عن الخلفاء والولاة والقواد والمعلمين فلم يقولوا شيئا؟ لقد أقدمت تركيا فى بداية الربع الأول من القرن العشرين على مجرد التغيير فى حروف هجائها من الحروف العربية إلى اللاتينية، فارتجت أركان العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه. وكيف سكت الناس عن المعاناة التى كان عليهم أن يتجشموها فى تعلم اللغة على وضعها الجديد، ذلك الوضع الذى لم يكن لهم به عهد من قبل، فلم يتحدث عنها أحد بكلمة واحدة؟ وكيف يا ترى تم تحويل النصوص الشعرية والخطابية والأمثال عن أوضاعها القديمة إلى ذلك الوضع الطارئ الجديد؟ لقد كان العرب يفتخرون بلغتهم أيما افتخار، وكانوا يرونها لغة لا مثيل لها، فكيف تقبلوا هذا التغيير وتجرعوه بهذه البساطة، وكأنه أَخْذُ نفس وإخراجُه؟

هذا، ولم نتحدث عن القرآن المجيد. ترى أكان المسلمون يتقبلون هذا التغيير (الذى لا ضرورة له) فى طريقة نطق القرآن بهذه اللامبالاة والاستهانة؟ لقد رأيناهم يختلفون اختلافا شديدا حين نسخ عثمان من المصحف الأم عدة نسخ أخرى ليبعث بها إلى الأمصار المختلفة كيلا يكون هناك اختلاف فى قراءة القرآن، والأمر بعد لا يعدو أن يكون تسجيلا كتابيا لما كانوا يحفظونه مسجلا فى صدروهم. فما بالنا بهذا التغيير الحاد فى نطق القرآن كله وإدخال أشياء عليه لم تكن فيه بما يتعارض تمام التعارض والآيةُ التى تقول على لسان المولى عز شأنه: "إنا نحن نزّلنا الذكر، وإنا له لحافظون"؟

على أن المسألة لما تتم فصولها عند هذا الحد، إذ هناك الروايات التى تتحدث عن النحو والإعراب، وتدور حول الصحابة والتابعين والعلماء والشعراء والخطباء ومن إليهم، وتعود إلى تاريخ

سابق على هذا الإعراب المخترع. فماذا نصنع بها؟ أنقول إنها قد اخترعت هى أيضا للتغطية على هذا التزييف؟ إن معنى هذا أننا هنا إزاء طوائف من الكذابين القراريين الذين لا تختلج لهم خالجة من ضمير، ويقدمون على التزييف والتحريف والكذب والضلال بدم بارد وقلب لا يعرف التحرج ولا الخوف من أى شىء أو أى شخص حتى لقد اخترعوا تاريخا كاملا كذبا وزورا، وعضَّدوه بالروايات والحكايات المصنوعة الملفقة ولم يتركوا صغيرة ولا كبيرة تحتاجها قصة الإعراب الفاضحة إلا وارتكبوها. إن مثل أولئك لشياطين مردة لا بشر.

* * *

ولدينا أيضا ممن تأثروا من كتابنا بأفكار المستشرقين د. محمد مندور. وأريد أن أتريث عند نقطتين أثارهما فى كتاباته لهما صلة بما نحن فيه. أولاهما قوله، فى كلمة الإهداء الخاصة بكتابه: "فى الميزان الجديد"، إنه قد أخذ عن طه حسين فيما أخذ "الإيمان بالثقافة الغربية، وبخاصة الإغريقية والفرنسية". والثقافة الغربية ليست دينا حتى يقال إننا نؤمن بها. صحيح أن الكلمة هنا على المجاز، لكننا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نغفل إيحاءاتها فى هذا السياق. فمعروف أن د. طه حسين كان قد أعلن فى كتابه: "مستقبل الثقافة فى مصر" أننا يجب أن نأخذ الحضارة الأوربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها، وهو ما يذكرنا بما قاله أتاتورك من أننا يجب أن نعيش عيشة الأوربيين حتى إنهم لو أنهم أصيبوا فى رئاهم بالسل لحرصنا على أن نصاب به نحن أيضا. كما لا يمكن أن نغفل معنى تجاهل مندور للثقافة العربية الإسلامية، التى لم يقل إنه مؤمن بها مع أنها كانت فى عصر ازدهارها منارة عالمية.

سيقال إنه يقصد أن الثقافة الغربية هى الثقافة السائدة التى تقود قاطرة الإنسانية الآن. ولا مشاحَّة فى هذا بوجه عام، لكننا لا يصح أن ننسى أن الثقافة الغربية ليس طاهرة مبرأة من العيوب والرزايا. فهى ثقافة تقوم على الغطرسة والكبر واحتقار الأمم والثقافات الأخرى، وفيها التحرر الجنسى وألوان الشذوذ المختلفة، وفيها الإلحاد، وفيها كراهية الإسلام والتخطيط لاستئصاله، والعمل بكل سبيل على النيل من رسول الله، وفيها الخمر والخنزير. فكيف يعلن مندور إيمانه شروة واحدة بالثقافة الغربية؟ ثم إنه لو كان يقصد أنها هى الثقافة المنتصرة لما أتى على الثقافة الإغريقية بذكر لأنها ثقافة قديمة ليس لها من السيادة والذيوع الآن قليل أو كثير. وعلى أية حال فإذا صح أن يذكر الثقافة الإغريقية هنا فكيف أغفل ثقافتنا العربية الإسلامية، وهى المنبع الأول الذى أخذت

منه الثقافة الغربية العلوم الطبيعية والإنسانية؟ كما أنها أقرب إلى أهل القرن العشرين تاريخيا من ثقافة الإغريق، فضلا عن أنها ثقافتنا وثقافة آبائنا؟ كذلك فهى تتفوق على ثقافة الإغريق الوثنية التى تبيح الزنا والخمر وتنظر إلى الأمم الأخرى على أنهم برابرة متخلفون عن اليونانيين. قد يُرَدّ بأن فى تلك الثقافة فلاسفة وعلماء. ونرد نحن بدورنا بأن ثقافتنا تضم فلاسفة وعلماء، وعلماؤنا أفضل من علمائها لأنهم تجاوزوا ما كان علماء الإغريق قد وصلوا إليه تجاوزا كبيرا، وقد استفادت أوربا من علمائنا أعظم استفادة، وإن كانت تنكر أن دينها لنا دين عظيم. أما الفلاسفة فحتى لو لم يكن لدينا منهم أحد أفلا يكفينا محمد صلى الله عليه وسلم عن الفلاسفة؟ بل ألا يتفوق محمد على كل فلاسفة العالم تفوقا عظيما؟ لكن مندور يتحدث وكأنه لا توجد ثقافة عربية إسلامية لا اليوم ولا قبل اليوم، وإنما توجد فقط الثقافة الغربية والإغريقية.

يبدو أن د. مندور كان ينظر إلى الإسلام على أنه مجرد دروشات وتمتمات يؤديها ناس لا ينتمون إلى العصر الحديث ويعيشون فى كهوف التخلف والخرافات. وهذا فهم عامى للإسلام. ولنأخذ بعض أحاديث النبى عليه السلام التى تبين لنا أن الإسلام هو دين التحضر الراقى، وأننا لو طبقناه ولم نكتف بالجعجعات الفارغة لتفوقنا على الأوربيين. وهم يعلمون هذا جيدا، ومن ثم يعملون بكل طاقتهم على محاربته وكسره حتى لا يقف عقبة فى سبيل استعبادهم للمسلمين. وهم يرمون ديننا بكل نقيصة ويصورون نبينا على أنه رجل كاذب أو ملتاث أو متوهم يعيش فى الخيالات بعيدا عن الواقع. ترى أى خطإ فى الحديث الذى يقول إن العلماء هم ورثة الأنبياء، أو الحديث الذى يؤكد أن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، أو الحديث الذى يقول إن مداد العلماء يوزَن بدماء الشهداء، أو الحديث الذى يصرح بأن "العلماء ورثة الأنبياء"، أو الحديث الذى يبين لنا أن "مَنْ خَرَج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع"، أو الحديث الذى يعلن بكل قوة أن "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، أو الحديث الذى يأمر المسلمين أن "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، أو الحديث الذى يبشرنا قائلا: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع" وإن الحيتان فى البحر لتستغفر لطالب العلم، أو ذلك الذى ينبئنا بأن إماطة الأذى عن الطريق أو أن تبسُّم الواحد منا فى وجه أخيه صدقة، أو ذلك الذى يستحثنا ويغرينا بالتفكير المستقل القائم على أساس المنطق والعقل والإحاطة بالموضوع من كل أطرافه والتعمق فيه، ويبشّرنا بما لا وجود له فى أى نظام تربوى أو فلسفى أو سياسى من أن

المجتهد مأجور حتى لو أخطأ فى اجتهاده، أو الذى ينبهنا فيه عليه السلام إلى أن الصدقة فى السر تطفئ غضب الرب، أو أن اليد الخشنة من أثر العمل والكدّ هى يد يحبها الله ورسوله، أو أن العين التى بكتْ من خشية الله أو باتت تحرس فى سبيل الله لا تَمَسّها النار أبدا، أو أن من رُزِق من البنات ولو بواحدة فأحسن تربيتها وزوّجها دخل الجنة، أو أن الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، أو أن السِّقْط يأخذ بيد أبويه فى موقف الحساب ويراغم ربه حتى يدْخِلهما الجنة، أو أن أحق الناس بصحبة الابن هى أمه ثم أمه ثم أمه ثم أبوه، أو أن معاشرة الرجل لزوجته حسنة من الحسنات يؤْجَر عليها من الله وليست مجرد شهوة تُشْبَع، أو أن إتباع السيئة الحسنة يمحوها فلا يحاسَب الإنسان عليها، أو أنه سبحانه قد رفع عنا السهو والنسيان وما استُكْرِهْنا عليه، أو أن الله قد خلق لكل داءٍ دواء، أو قول الرسول الكريم لرجل أخذه الخوف منه: هَوِّنْ عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، أو قوله: لا تُطْرُونى كما أَطْرَتِ النصارى عيسى بن مريم، أو قوله: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أو تسبِّحون وتحمِّدون وتكبِّرون دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين، أو من آذى ذِمّيا فأنا خصيمه يوم القيامة، أو إن من الذنوب ذنوبا لا يكفِّرها إلا العمل، أو ادرأوا الحدود بالشبهات، أو إنما الصبر عند الصدمة الأولى، أو اسْتَوْصُوا بالنساء خيرا، أو خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى، أو ليس الإيمان بالتمنى، ولكنْ ما وَقَر فى القلب وصدّقه العمل، أو إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، أو إن الشيطان لَيجْرِى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق، أو إن الحياء من الإيمان، أو إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الثالث، أو إذا لم تستح فاصنع ما شئت، أو إذا بُلِيتم فاستتروا، أو إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، أو إن ذا الوجهين يُكْتَب عند الله كذابا، أو اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعْمِل عليكم عبدٌ حبشى كأن رأسه زبيبة، أو إن النظافة من الإيمان، أو إن الله جميل يحب الجمال، أو ما لكم تدخلون على قُلْحًا؟ استاكوا، أو إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، أو نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، أو ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شَرًّا من بطنه، أو رَضِينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ نبيا ورسولا، أو اللهم أسلمتُ وجهى إليك، وفوَّضْتُ أمرى إليك، وألجأتُ ظهرى إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذى أنزلتَ، ونبيك الذى أرسلتَ، أو لا رهبانية فى الإسلام، أو أَنْفِقْ ولا تخش من ذى

العرش إقلالا، أو تَعِسَ عبدُ الدينار! تَعِسَ عبدُ الدرهم! أو ما نقص مالٌ من صدقة، أو إن مَنْ فرّج عن مسلمٍ كُرْبة من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة، أو سبعةٌ يظِلّهم الله فى ظلّه يوم لاَ ظل إلا ظله: إمام عادل، وشابٌّ نشأ فى عبادة الله، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله...، أو إن الله لَيُمْلِى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته، أو من لا يشكر الناس لا يشكر الله، أو دخلت امرأةٌ النار فى هِرّة حَبَسَتْها: لا هى أطعمتْها ولا هى تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض، أو اتقُوا النار ولو بشِقّ تمرة، أو إن المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظَهْرًا أبقَى، أو من بات كالًّا مِنْ عمل يده بات مغفورًا له، أو إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتْقِنه، أو إذا قامت القيامة وفى يد أحدكم فَسِيلَةٌ فلْيَغْرِسْها، أو أَلْقِ السلام على من تعرف ومن لا تعرف، أو لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، أو اطلبوا الرزق بعزة الأنفس، أو إن الغنى غنى النفس، أو لا ينبغى للمؤمن أن يذِلّ نفسه، أو ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب، أو قوله عليه السلام لشاب خطب فتاة: انظر إليها، فإنه أَحْرَى أن يؤْدَم بينكما، أو قوله: لا تُنْكَح البِكْر حتى تُسْتَأْذَن ولا الأَيِّم حتى تُسْتَأْمَر، أو ادرأوا الحدود بالشبهات، أو يسِّروا ولا تعسِّروا، أو مَنْ أَمّ فى الصلاة فلْيخفِّف، فإن منكم الضعيف وذا الحاجة، أو أَحِبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك، أو إخوانكم خَوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فلْيُطْعِمْه مما يَطْعَم، وليُلْبِسْه مما يَلْبَس، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم، أو اتقوا الله فى الضعيفين: النساء وما ملكت أيمانكم، أو رفقًا أَنْجَشَةُ بالقوارير، أو... أو... أو... إلخ مما لا يكاد ينتهى من التوجيهات والتشريعات والأدعية النبوية العبقرية التى أكرمنا الله بها والتى ذكرتُ ما ذكرتُه منها من محفوظ الذاكرة منذ الصبا، وبالمعنى فى بعض الأحيان، وأرجو ألا أكون قد أخطأتُ فى شيء منه؟ إن الذى ينظر إلى الإسلام هذا الدين العظيم على أنه دروشات وتمتمات ولا يحق أن يؤخَذ مأخذ الجد لهو إنسان عامى متخلف مهما حاز من شهادات، ويحب العبودية ويؤثر الالتصاق بالمستعمر والعيش معه تابعا ذليلا على العيش فى الإسلام عزيزا حرا مرهوب الجانب.

ولو وقفنا أمام نظرة الإسلام إلى العلم على وجه خاص مركزين على موقف النبى العملى من المعرفة فلسوف نقف ذاهلين أمام ما صنعه، وهو الأُمِّى، عقب الانتصار فى غزوة بدر حين وقع فى يد المسلمين عشرات الأسرى من كفار قريش، إذ عرض عليهم أن يطلق سراح كل من يقوم منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين فى المدينة القراءة والكتابة. لقد كان عدد القارئين

والكاتبين فى المجتمع الجاهلى جِدَّ ضئيلٍ كما هو معروف. لكن هذا العمل النبوى العبقرى كان وراء انتشار حركة التعليم بين أفراد الأمة الناشئة، إلى جانب إلحاحه صلى الله عليه وسلم على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمة، وهو ما يتميز به عن سائر الأنبياء.

ووجه العبرة فى هذا أن العرب، رغم انتشار الأمية بينهم فى الجاهلية انتشارا واسعا، سرعان ما تخلصوا منها بعد الإسلام وقَضَوْا عليها وأَضْحَوُا الأمة الأولى للعلم والثقافة والفكر فى العالم أوانذاك رغم ضعف الإمكانات. إنه، عليه الصلاة والسلام، لم يؤلف اللجان ولم يخصص الميزانيات ولم يستكثر من بناء المدارس والجامعات لهذا الغرض، إذ كان ذلك صعب التنفيذ فى تلك الظروف إن لم يكن مستحيله، بل اكتفى بالمتاح بين يديه، وهو صفر تقريبا. ومع ذلك فإن هذا القليل الذى يكاد يقرب من حد العدم قد أتى بتلك الثمار المدهشة، وهى ثمار تتفوق على ما تحقق من نتائج فى ذلك الميدان بطول البلاد العربية وعرضها منذ عصر النهضة الحديثة التى بدأت قبل أكثر من قرنين من الزمان مع توفر الإمكانات الهائلة التى لم يكن الصحابة يحلمون بواحد على المليون منها. لقد كانوا يتلقَّوْن تعليمهم مثلا فى المسجد، والمساجد لا تكلف الدولة شيئا يذكر. ولم يستقدم عليه الصلاة والسلام لصبيان المدينة خبراء تربويين ولا مدرسين من الخارج بالعملة الصعبة، بل اعتمد على الأسرى الذين لو كان قد استبقاهم عنده دون عمل لكلفوه أموالا طائلة، لكنه بثاقب نظره وإلهامه العظيم افترع هذا الحل العبقرى الذى أتى بأعظم النتائج دون أن يدفع فيه شيئا على الإطلاق.

وللبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) كتاب بعنوان " Muhammad and Learning" تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن أحاديث الرسول الكريم ودوره فى مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه رجل مثله يعتزى إلى أمةٍ باديةٍ أُمِّيةٍ تعيش فى القرن السابع الميلادى إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب، الذى يؤكد أنه سيظل إلى الأبد وصمة عار فى جبين من اجترحوه، وفى جبين الكنيسة أيضا لارتضائها ومباركتها هذا العمل المخزى، على عكس محمد، الذى دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثا فى طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى

اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وساواه فى الفضل بالاستشهاد فى سبيل الله، بل فضّل العلماء على العبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يفْضُل به البدرُ سائرَ الكواكب.

هذه بعض جوانب العظمة فى ثقافتنا العربية الإسلامية، لكن مندور يتجاهل كل ذلك ويؤكد تأكيدا جازما حاسما قاطعا أن الثقافة العربية مزيج من عناصر ثلاثة: العنصر العبرى، والعنصر الفارسى، والعنصر اليونانى. ومعنى هذا أن الثقافة العربية ليس فيها شيء أصيل بل هى كلها مستوردة من الخارج. ففى القرآن وفى الإسلام، كما يقول، ما لا يحصى من مبادئ التوراة وقصص التوراة وأصول التوراة التشريعية، وفى الحضارة العباسية الكثير من وسائل الحياة الفارسية ببذخها المادى، بل وتياراتها الأخلاقية والفكرية فى بعض الأحايين، وأما اليونان فأظن أن تأثيرهم فى الفلسفة الإسلامية والمنطق الإسلامى وعلم الكلام بل وفى العلوم اللغوية كالنحو والبلاغة وغيرها أوضح من أن يذكر. أى أن العرب لم يساهموا بشيء فى ثقافتهم بل عاشوا على الشحاتة. كما أنه، فيما هو واضح من كلامه، لا يؤمن بدور القرآن ولا الأحاديث فى بناء صرح هذه الثقافة.

وإلى القارئ ما كتبه مندور عن العنصر العبرى فى الثقافة العربية، وهو موجود فى مقال له منشور بمجلة "الرسالة" بتاريخ ١/ ١/ ١٩٤٥م عنوانه "دراسة اللغة العربية وآدابها". لقد أكد فى ذلك المقال أن فى القرآن ما لا يحصى من مبادئ التوراة وقصص التوراة وأصول التوراة التشريعية: هكذا بإطلاق ودون مبالاة بحقائق التاريخ والعلم. ترى كيف سولت له نفسه القول بأن فى القرآن "ما لا يحصى" من التوراة؟ لقد أحصى العلماء المسلمون القرآن كله سورا وأجزاء وأحزابا، بل لقد أَحْصَوْا عدد كلماته، فكيف يكون الجزء التوراتى فيه، إن كان فيه شىء من "التوراة" كما يفهم مندور "التوراة"، شىء فوق الحصر والإحصاء؟ إننا لو تصفحنا القرآن لوجدنا أن الموضوعات المشتركة بينه وبين العهد القديم، لا التوراة كما يقول مندور، لألفينا أنه من السهل عدها وإحصاؤها. لكن القرآن فى الواقع لم يأخذ شيئا من العهد القديم. وإذا كان بعضهم يرى أن العهد القديم هو التوراة فهو مخطئ. وإذا كان اليهود يرون أن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم هى التوراة فهم وشأنهم. ذلك أن هذه الأسفار مكتوبة بيد موسى حسبما يقولون بينما التوراة

عندنا هى الألواح التى تلقاها موسى من ربه مكتوبة كما هو مذكور فى سورة "الأعراف"، فضلا عن أن الأسفار الخمسة، التى يزعم اليهود أنها مكتوبة بيد موسى، تنتهى بهذه السطور العجيبة:

"١وَصَعِدَ مُوسَى مِنْ عَرَبَاتِ مُوآبَ إِلَى جَبَلِ نَبُو، إِلَى رَأْسِ الْفِسْجَةِ الَّذِى قُبَالَةَ أَرِيحَا، فَأَرَاهُ الرَّبُّ جَمِيعَ الأَرْضِ مِنْ جِلْعَادَ إِلَى دَانَ، ٢وَجَمِيعَ نَفْتَالِى وَأَرْضَ أَفْرَايِمَ وَمَنَسَّى، وَجَمِيعَ أَرْضِ يَهُوذَا إِلَى الْبَحْرِ الْغَرْبِى، ٣وَالْجَنُوبَ وَالدَّائِرَةَ بُقْعَةَ أَرِيحَا مَدِينَةِ النَّخْلِ، إِلَى صُوغَرَ. ٤وَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: «هذِهِ هِىَ الأَرْضُ الَّتِى أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بِعَيْنَيْكَ، وَلكِنَّكَ إِلَى هُنَاكَ لاَ تَعْبُرُ». ٥فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِى أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. ٦وَدَفَنَهُ فِى الْجِوَاءِ فِى أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلَى هذَا الْيَوْمِ.

٧وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، وَلَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ وَلاَ ذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ. ٨فَبَكَى بَنُو إِسْرَائِيلَ مُوسَى فِى عَرَبَاتِ مُوآبَ ثَلاَثِينَ يَوْمًا. فَكَمُلَتْ أَيَّامُ بُكَاءِ مَنَاحَةِ مُوسَى. ٩وَيَشُوعُ بْنُ نُونٍ كَانَ قَدِ امْتَلأَ رُوحَ حِكْمَةٍ، إِذْ وَضَعَ مُوسَى عَلَيْهِ يَدَيْهِ، فَسَمِعَ لَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَعَمِلُوا كَمَا أَوْصَى الرَّبُّ مُوسَى. ١٠وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِى فِى إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِى عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ، ١١فِى جَمِيعِ الآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ الَّتِى أَرْسَلَهُ الرَّبُّ لِيَعْمَلَهَا فِى أَرْضِ مِصْرَ بِفِرْعَوْنَ وَبِجَمِيعِ عَبِيدِهِ وَكُلِّ أَرْضِهِ، ١٢وَفِى كُلِّ الْيَدِ الشَّدِيدَةِ وَكُلِّ الْمَخَاوِفِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى صَنَعَهَا مُوسَى أَمَامَ أَعْيُنِ جَمِيعِ إِسْرَائِيلَ".

ووجه العجب فيها أن موسى، الذى كتب التوراة بيده، كتب أيضا بيده فى نهايتها أنه هو نفسه قد مات وأن بنى إسرائيل قد عملوا له مناحة وأنه لم يظهر فى بنى إسرائيل نبى مثله. فيا ترى كيف يحكى إنسان قد مات خبر موته والمناحة التى عملت له وأنه لم يأت بعده من يضارعه فى العجائب التى أجراها الله على يديه؟ هذا ما لا يعقله العاقلون.

كذلك لو كان مندور مصيبا فى أن القرآن قد أخذ من التوراة "ما لا يحصى" لما اتهم القرآنُ بنى إسرائيل بالعبث والتلاعب فيها ولما خطَّأها أدنى تخطئة ولما كان ما يحكيه هو الصواب الذى لا يمكن أن يكون ثم صواب سواه. ذلك أن "التوراة"، كما هى فى أيدينا، تصور الله وأنبياءه تصويرا لا يليق وتخطئ فى كثير من الأمور التى أوردتها: لنأخذ مثلا كلامها عن أبناء الله وبنات الناس الذين تزوجوا وأنجبوا الجبابرة. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من

أنبيائه؟ ولنأخذ أيضا كلامها عن الله حين كان يتمشى فى الجنة حين هبت ريح النهار وكان يبحث عن آدم ولا يعرف أين اختبأ. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ كلامها عن حقد الله على البشر وبلبلته ألسنتهم خوفا من مناوأتهم له. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ أيضا عَبَّ نوحٍ الخمرَ حتى سكر وانطرح على الأرض عريان السوأة ودخول ابنه عليه ولعن نوح له ولعن عدة أجيال من ذريته فوق البيعة بعدما أفاق لا لشىء إلا لأنه تصادف أن رآه على هذه الحال المزرية حين دخل الخيمة التى كان منطرحا فيها. وهى غلطته هو لا غلطة الابن. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ أيضا كلامها عن إبراهيم وخوفه من أبيمالك وتركه زوجته الجميلة له يصنع بها ما يشاء وانشغاله عنها بما أفاء أبيمالك عليه من الماشية مكافأة له على تركه له زوجته التى قال إنها أخته. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ كلامها عن أن إسحاق هو وحيد إبراهيم فى الوقت الذى كان له ولد آخر اسمه إسماعيل فى الثالثة عشرة من عمره. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ أيضا كلامها عن يعقوب ومصارعته لربه طوال الليل وتكتيفه له سبحانه وتعالى فلم يستطع أن يتفلفص من التكتيفة إلا بعد أن وجه ليعقوب ضربة قوية بقبضة يده إلى حق فخذه. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ حصول إسحاق بطبق عدس على البركة التى كانت مخصصة لأخيه عيسو، وكأن البركة الإلهية تشترى وتباع دون النظر إلى من يستحقها. ويا ليتها اشتريت بثمن كريم بل بطبق عدس. هل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ أيضا كلامها عن أن يد موسى حين كان يضعها فى عبه ويخرجها كانت تخرج برصاء، فهل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ أيضا قتل موسى لأحد المصريين بدم بارد وعن عمد وسبق إصرار. فهل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ كلامها أيضا عن مخاطبة موسى لربه بخشونة وغلظة حين طلب منه أن يذهب لفرعون ويبلغه كلام ربه. فهل يعقل أن يكون هذا كلام الله أو كلام نبى من أنبيائه؟ ولنأخذ أيضا صنع هارون للعجل كى يعبده بنو إسرائيل. فهل يصح أن يكون هذا كلام الله أو حتى كلام نبى من أنبيائه؟ وكثيرا ما يوصف الله فى العهد القديم بأنه "رب إسرائيل"، أما عندنا فهو دائما رب العالمين.

وبالإضافة إلى ذلك هناك ما ألغاه القرآن من تشريعات اليهود كلحم الإبل الذى يحرمه اليهود على أنفسهم ويحله الإسلام، وكقول "توراتهم" المزعومة إن من يرتكب ذنبا يعاقبه الله هو وعددا من أجيال ذريته رغم أنهم لم يجترحوا شيئا. كما تختلف أحكام الحيض والنفاس فى ديننا عن توراتهم، فهى عندهم خانقة للأنفاس وللحياة ذاتها وتشكل عنتا لا مثيل له، أما عندنا فتتلخص فى أن الرجل لا يعاشر امرأته أوانذاك، ولا تصلى المرأة ولا تصوم، وما أسهل ذلك وأيسره، بل هو اليسر كل اليسر. كذلك فإن عقوبة الزنا فى القرآن هى الجلد بينما فى اليهودية هى الرجم. وليس فى الإسلام كهانة على حين تعرفها اليهودية، وهى وظيفة هارون وذريته من بعده، وما أعقد طقوسها وأشقها على النفس والحياة! أما فى الإسلام فهارون نبى لا كاهن. واليهود يسبتون، أما المسلمون فلا. فعندهم الجمعة، ولا يُطْلَب منهم التوقف عن مزاولة الأعمال فيها. وفى اليهودية يحل أخذ الربا من غير الإسرائيلى فى حين أن الربا فى الإسلام حرام قولا واحدا سواء أُخِذ من المسلم أو غير المسلم. وليس فى الإسلام مَحَارِق تذبح فيها الحيوانات وتشوى فيها لحومها كى يشمها الله ويستمتع بها على عكس اليهودية التى تعرف عددا منها للتقرب بها إليه. وفى الكتب الأخرى من العهد القديم نجد أن تشريعات الحرب مع الأمم الأخرى تشريعات استئصالية، وهو ما لا وجود له فى الإسلام. ثم إن معظم تشريعاتنا لا وجود لها فى اليهودية أو توجد لكن بصورة مختلفة، ومنها الحج والصوم والصدقات والصلاة والتوريث. ولا ننس أن المحارم فى الإسلام تختلف عنها فى اليهودية. ولقد طالما قرَّع القرآن والرسول يهود المدينة فلم يفتحوا فمهم بكلمة يردون بها عليه فى هذا الصدد، ولم يسجل التاريخ أنهم اتهموه صلى الله عليه وسلم بأنه يأخذ من كتبهم رغم سفاهتهم وطول ألسنتهم وكثرة مشاغبتهم له بسبب وبدون سبب وتجديفهم فى حق الله نفسه.

وأخيرا فإن ما فى القرآن من موضوعات مشتركة بينه وبين ما يسمى بـ"التوراة" ليس مصدره تلك التوراة بل الوحى الإلهى. وإلا فليدلنا د. مندور أو غيره على الكيفية التى توصل بها محمد إلى التوراة وأخذ منها تلك النصوص؟ لقد نزل كثير جدا من هذه النصوص فى الفترة المكية، أى قبل أن يرى الرسول اليهود فى المدينة بعد هجرته. ولم يكن الرسول يكتب أو يقرأ حتى يقال إنه قد أخذ هذا الكلام من كتب اليهود، ولم يره أحد ممسكا كتابا طوال حياته. ولو كان قد تعلم هذا من أحد شفاها فلماذا لم يظهر هذا الأحد ويوجه للرسول ضربة تقصم ظهر دعوته بإعلان أنه هو معلم محمد وأن محمدا ليس بنبى بل تلميذا له؟ ومع هذا كله يأتى مندور فى آخر الزمان مقتفيا خطا

المستشرقين والمبشرين بل متجاوزا لهم فى هذا المضمار فيزعم أن فى القرآن "ما لا يحصى" من نصوص التوراة.

* * *

وفى كتاب "الفن القصصى فى القرآن الكريم" يتنفج د. محمد أحمد خلف الله بأنه بهذا الكتاب إنما يريد تجنيب القرآن تكذيب المكذِّبين من خلال القول بأن القرآن لا يورد القَصَص الموجود فيه بوصفه وقائع تاريخية حدثت فعلا بل بوصفه فنا أدبيا يقوم على الخيال لا الحقائق. وهل يريد أعداء الإسلام شيئا آخر غير هذا؟ الواقع أن هذا الذى يقوله د. خلف الله يؤكد ما يتهمون به كتاب الله من أنه ممتلئ بالأخطاء التاريخية. ومع هذا فإن د. خلف الله يريد منا أن نصدق أنه إنما يدافع عن القرآن. وقد ضرب الدكتور أمثلة متعددة وحللها لينتهى منها إلى ما يريد. ولن أقف لدن جميع ما أورده من تلك الأمثلة بل لدن بعضها فقط مما يبين أن ما يزعمه لا نصيب له من الصحة.

فهو مثلا ينقل عن الرازى المفسر عند قوله جل جلاله فى سورة "آل عمران" عن عيسى عليه السلام: "ويكلم الناس فى المهد" أنه لو كان عيسى تكلم فى المهد لعض النصارى على تلك الواقعة بالنواجذ لأنها معجزة ومن ثم تدعم موقفهم منه وأنه إله، ولكانت عداوة اليهود له أعنف حتى ليفكرون فى قتله. ولأن هذا وذاك لم يحدثا علمنا أنه لم يتكلم فى المهد. هذا ما نقله خلف الله عن الرازى بغية تدعيم رأيه أن هذا الكلام ليس تاريخا حقيقيا بل فنا أدبيا خياليا. ولكن ماذا يقول خلف الله حين نقول إن هناك إنجيلا يذكر كلامه فى المهد؟ صحيح أن الكنيسة لا تعترف بهذا الإنجيل، لكن عدم اعترافها به لا يضر، فهى لم تعتمد على أسس علمية فى قبول ما قبلت من أناجيل ورفض ما رفضته منها. وهذا الإنجيل اسمه "إنجيل الطفولة". وقد ذكرت هذه المعجزة فى أول فقرة من فقرات ذلك الإنجيل. وهو عندى مكتوب بالإنجليزية، وهذا هو النص المشار إليه.

"IN the name of the Father, and the Son, and the Holy Spirit, one God.

With the help and favour of the Most High we begin to write a book of the miracles of our Lord and Master and Saviour Jesus Christ,

which is called the Gospel of the Infancy: in the peace of the Lord. Amen.

1. We find (1) what follows in the book of Joseph the high priest, who lived in the time of Christ. Some say that he is Caiaphas. (2) He has said that Jesus spoke, and, indeed, when He was lying in His cradle said to Mary His mother: I am Jesus, the Son of God, the Logos, whom thou hast brought forth, as the Angel Gabriel announced to thee; and my Father has sent me for the salvation of the world".

وهو نفسه ما قاله القرآن فى هذا الصدد من أنه عليه السلام تكلم حين كان راقدا فى المهد، مع فارق واحد هو أنه فى القرآن يقول: "إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا" أما فى الإنجيل المذكور فيقول مخاطبا أمه: "إنى عيسى ابن الله، الكلمة، الذى أَنْجَبْتِهِ... أرسلنى أبى لخلاص العالم". إذن فعيسى قد تكلم حسب إنجيل الطفولة، الذى لم يكن الرازى، فيما هو واضح، يعلم عنه شيئا، فوقع فى الخطإ وأعطى د. خلف الله وأعداء الإسلام الفرصة ليقولوا إن هذا خطأ تاريخى فى القرآن. ومن الطبيعى أن يصحح القرآن ما فى قصة ذلك الإنجيل، إذ عيسى فى الإسلام مجرد عبد من عباد الله ورسول من رسله وليس ابنا لله. وهذا أكبر دليل على أن القرآن حين يحكى شيئا مما عند أهل الكتاب لا يحكيه كما يعتقدون به بل يصححه بعكس ما يزعمه خلف الله، الذى يؤكد أن القرآن يقص ما عند أهل الكتاب كما هو بغض النظر عن صحته أو لا. ولا ريب أن خلف الله كان مندفعا لا يبالى أين يقع كلامه.

وأخيرا فكيف يظن ظانٌّ، سواء كان هذا الظان هو الرازى أو خلف الله أو غيرهما، أن كلام رضيع فى المهد يمكن أن يكون دليلا على أنه إله أو ابن للإله؟ ترى هل يكون الإله بشرا أصلا فضلا عن أن يكون رضيعا؟ ألا إن هذا خوف فى غير موجب للخوف بل هو خوف قائم على الوهم والجهل بطبيعة الألوهية. ولو كانت المعجزات دليلا على الألوهية لكان الأنبياء السابقون كلهم آلهة لأن كلا منهم قد أيده الله بمعجزة أو أكثر.

كذلك ينقل د. خلف الله عن الرازى تعجبه من جهل سليمان بمملكة سبإ وبسجود السبئيين للشمس رغم ما يقال من أنه كان يملك الدنيا كلها وكانت تحت رايته بلقيس. والرد على

ذلك من أيسر ما يمكن، إذ كيف نحكّم ما يقال عن ملك سليمان للدنيا كلها، وهو كلام شعبى لا حقيقة له، فى ما يقوله القرآن من أنه لم يكن يعرف سبأ ولا ملكة سبإ؟ يجب على من يريد محاكمة القرآن أن يحاكمه إلى ما يقوله هو نفسه أو إلى الوقائع التاريخية المقطوع بها على وجه اليقين. وأما كيف حصل للهدهد معرفة الله ووجوب السجود له سبحانه وإنكار سجود السبئيين للشمس فإنه معجزة، والمعجزات لا تُنْكَر عليه سبحانه، فهو الذى خلق الكون وأجراه على قوانين معينة، وهذه القوانين ليست طبيعية فى الأشياء ولا الأحياء بل الله هو الذى أرادها أن تكون كذلك فكانت، ولو أراد أن يغيرها لكان له ما يريد. وكان الغزالى يقول بأن النار تحرق لا لأن طبيعتها الذاتية الإحراق بل لأن الله جعلها تحرق، ولو أراد عز وجل ألا تحرق لما أحرقت. وهل يختلف هذا الأمر عن النبوات؟ إن النبوات معجزات هى أيضا لأنه لا يمكن أى شخص أن يكون نبيا بناء على رغبته مهما حاول ومهما أنفق ومهما استعان بالبشر أو بالمال أو بالحِيَل، بل على مشيئة الله وحدها ليس إلا.

ومما أورده خلف الله من مشاكل يتوهم وجودها فى القصص القرآنى ما أورده القاضى عبد الجبار وفحصه ووجهه بحيث ينتفى عنه الاتهام بالخطإ، ثم أبدأ فيه وأعاد المستشرق البريطانى سانكلير تسدال صاحب كتاب "مصادر الإسلام" بوصفه خطأ تاريخيا لا سبيل لجبره، ودليل على أن القرآن من صنع محمد لا من عند الله، فمما أورده خلف الله من تلك المشاكل المتوهمة قول القرآن عن مريم أم عيسى: "فأتت به قومها تحمله (أى تحمل طفلها). قالوا: يا مريم، لقد جئتِ شيئا فَرِيًّا * يا أخت هارون، ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمك بَغِيًّا" رغم أنه كان بين مريم أم عيسى وهارون أخى موسى، كما يقول المبشر المذكور، ١٥٧٠ عاما. وقد وجه عبد الجبار الآية إلى أنها قد يكون لها أخ اسمه هارون، أو تكون من نسله كما يقال عن أى شخص من نسل العرب: "يا أخا العرب".

لقد شغب المبشرون وما زالوا على هذه الآية متسائلين: كيف ينسب القرآن مريم أم عيسى إلى هارون باعتبار الأخوة مع ما يفصل بينهما من القرون المتطاولة؟ وذلك رغم أن القرآن ليس هو الذى نسبها إلى هارون، بل هو مجرد راوٍ لما وقع فحسب. كما أن الكتاب المقدس مفعم بمثل ذلك النسب أبوةً وبنوةً وأخوةً على ما توضح موادّ "أب" و"أخ" و"أخت" فى "دائرة المعارف الكتابية". وما أكثر ما سمعنا هذا الشاعر الشعوبى أو ذاك وهو يتنفج على العرب بأنه ابن قيصر

أو ابن كسرى رغم أنه لا يربطه شيء لا بهذا ولا بذاك، بل كثيرا ما يكون صعلوكا حقيرا لا قيمة له فى عالم الأنساب. وهذا من الشهرة بحيث لا أحتاج إلى سوق الشواهد عليه.

وما دام الشيء بالشيء يذكر فإن المسيح يسمى فى الأناجيل: "ابن داود" مع أن داود ليس جده بيولوجيا، إذ مريم أمه ليست من نسل داود، على عكس عبد المطلب، الذى قال محمد ذات مرة: "أنا ابن عبد المطلب"، إذ ينحدر محمد من صلبه فعلا، علاوة على أنه هو الذى رباه منذ ولادته إلى أن بلغ ثمانى سنوات. وبطبيعة الحال فإن محمدا ليس ابن عبد المطلب بل حفيده. وفى الكتاب المقدس كثيرا ما ينسب الشخص إلى من ليس بأبيه أو أخيه البيولوجى لكثير من الاعتبارات كما قلت. ومن يرد التحقق من هذا فليرجع إلى مواد "أب" و"أخ" و"أخت" فى "دائرة المعارف الكتابية". وعلى هذا فلا معنى للقول بأن محمدا، حين انتسب إلى جده عبد المطلب، قد تحدى قوانين البيولوجيا. وكيف يتحدى قوانين البيولوجيا، وهو فعلا من ظهر عبد المطلب عبر عبد الله بعكس الأُبُوّات والأُخُوّات الكثيرة فى الكتاب المقدس التى لا تسندها أية قوانين بيولوجية بحال؟ وكانت قريش، تعبيرا عن غيظها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسميه بـ"ابن أبى كبشة" تشبيها له برجل لا نسب بينه وبينه خالَفَها فى عبادتها الشِّعْرَى مثلما خالف محمد قومه فى عبادة الأوثان. كما كان رسول الله عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يسمى عبد الله بن مسعود: "ابن أم عبد". أتراه كان يجهل أن أباه هو مسعود؟ وكانت خديجة أحيانا ما تنادى رسول الله بـ"يا ابن عم" مع أنها كانت من عشيرة غير عشيرته.

وأما بالنسبة إلى قول القاضى عبد الجبار إنه كان لمريم أخ اسمه هارون سمى بهذا الاسم تبركا بهارون أخى موسى عليهما السلام فالذى نعرفه أن مريم لم يكن لها أخ. ولو كان لها هذا الأخ لأرسلته أمه إلى المحراب بدلا من أخته لكونها أنثى، وليس الذكر كالأنثى كما قالت الأم. ثم إن أباها وأمها قد ماتا سريعا ولم نسمع أنهما أنجبا طفلا سواها. وعلى كل حال فليس القرآن هو الذى نادى مريم بذلك بل قومها كما قلنا. فإذا كان هناك خطأ فهو خطأ القوم، وما القرآن إلا ناقل للحوار كما نطق به أصحابه ليس إلا. ولو كان فى الأمر أدنى خطإ فكيف سكت اليهود فى عهده صلى الله عليه وسلم، وكانت بين الفريقين خصومات، فلم يهتبلوا هذه السانحة لضرب القرآن فى مقتل؟ ألا إن سكوتهم لأكبر دليل على أنهم لم يجدوا فى الأمر شيئا. صحيح أن أعضاء وفد نجران قد أبدَوْا أمام المغيرة بن شعبة وبعض الصحابة استغرابهم من أن تكون مريم أخت هارون رغم المدة الزمنية

الطويلة التى تفصل بينهما. لكن لا بد أن نتنبه إلى أنهم، لو كانوا صادقين، لاعترضوا على هذا فى وجه النبى لا أمام بعض الصحابة، إذ حين قابلوه صلى الله عليه وسلم ودارت بين الطرفين المناقشات لم تكن تلك المسألة منها بتاتا. كما أنهم قد اكتفَوْا بهذا الاستغراب ثم أكفأوا على الخبر ماجورا، فلم يفتحوا بابه بعد ذلك قط. فلو كانوا صادقين فى استغرابهم لانطلقوا يطنطنون بهذا الاستغراب ولحولوه إلى اعتراض وفضيحة. إلا أننا لم نسمع لهم فى هذا الموضوع بعد ذلك حِسًّا. فعلام يدل هذا؟

أتصور أنهم إنما أرادوا إثارة الشبهات فى عقول من قابلوهم من الصحابة على عادة أمثالهم ممن نعرفهم فى عصرنا، إذ يحاولون إثارة الشبهات مع من يظنونهم عاجزين عن الرد، ويغلقون أفواههم تماما فى حضور من يتيقنون أنه قادر على نسف شبهاتهم. وعلى كل حال لقد قدَّم النبى صلى الله عليه وسلم الجواب فوضع حدا لذلك اللغط السخيف. عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه: "لما قَدِمْتُ نجرانَ سألونى فقالوا: إنكم تقرأونَ "يَا أُخْت هَارُونَ"، وموسى قَبْلَ عيسى بكذا وكذا. فلما قدمتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سألتُه عن ذلك، فقال: إنهم كانوا يُسَمّونَ بأنبيائِهم والصالحينَ قبلهم". أى أنهم كانوا يسمون أولادهم وبناتهم بأسماء الصالحين السابقين أو يضيفون أسماء أولادهم وبناتهم إليهم تيمنا وتبركا. فكأنهم يقولون على سبيل التبكيت والتقريع: "كيف تجترحين إثم الزنا يا من تنتسبين إلى هذا النبى الصالح بالخدمة والعبادة والانقطاع للهيكل؟". وواضح أنه صلى الله عليه وسلم يعزو الأمر إلى بنى إسرائيل لا إلى القرآن، الذى لم يصنع أكثر من إيراد عبارتهم بنصها دون أن ينشئها. كذلك لا ينبغى أن نمر مرور الكرام على تفسيره هذا من حيث دلالته على أن الأمر ليس أمر خطإ تاريخى كما يريد المشككون أن يزرعوا فى رُوعنا.

ولا ينبغى كذلك أن ننسى أن عبارة "يا أخت هارون" نزلت ضمن سورة "مريم" فى مكة سنة أربع للبعثة، وزار وفد نجران المدينة سنة تسع أو عشر للهجرة. فكيف سكت النجرانيون وغيرهم من النصارى طوال ثمانية عشر عاما فلم يتخذوا من تلك العبارة مادة للتشنيع على الإسلام؟ ليس ذلك فقط، بل لقد تلا المسلمون صدر سورة "مريم"، وفيه تلك العبارة، على نجاشى الحبشة، الذى كانوا أيامذاك لاجئين فى بلاده احتماء من أذى القرشيين، ولم نسمع لا من النجاشى ولا من كبار رجال دينه الذين كانوا حاضرين ذلك اللقاء وسمعوا ما تلاه المسلمون أى اعتراض على قول القرآن بلسان بنى إسرائيل: "يا أخت هارون". ولقد كان اليهود، وهم المعنيون

قبل غيرهم بهذه المسألة، يساكنون النبى بالمدينة وعلى مقربة منها، ولكن لم يحدث أن اعترض أحدهم على تلك الكلمة أو جعلها موضع سؤال كما سبق أن أشرنا.

ولسوف نرى، من خلال الكتاب المقدس ذاته، أن اليهود والنصارى كانوا يتوسعون فى استعمال كلمة "أخ" و"أخت" توسعا شديدا بحيث يدخل فيها هذا الاعتبار بمنتهى السهولة والسلاسة. ومن المضحك أن يُظَنّ بالقرآن ارتكاب هذا الخطإ التاريخى الأبلق رغم ما كرره من أن المسيح (ابن مريم، التى لُقِّبَتْ بأنها "أخت هارون") قد أتى بعد موسى وهارون ومن تبعهما من الأنبياء بزمن طويل، بما يدل على أنه لا يقصد أبدا أن تكون مريم أخت هارون أخوّة جسديّة. ومرة أخرى حتى لو كان هذا التلقيب رغم ذلك كله خطأ لكان الخطأ خطأ بنى إسرائيل لا خطأه هو حسبما كررنا.

كما أننا نجد فى أول سطر من إنجيل متى هذا العنوان: "كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ" مع ما يفصل بينه وبين كل منهما، وبخاصة ثانيهما، من الأزمان الطويلة، وكذلك رغم أن المسيح لا ينتمى إلى داود، لأنه من جهة الأب لم يكن له أب، ومن جهة الأم لم تكن أمه من سلالة ذلك النبى الكريم، بل الذى ينتسب إلى داود هو يوسف النجار، ويوسف النجار ليست له أية علاقة نَسَبِيّة بالسيد المسيح عليه السلام، وإن ذُكِر فى الأناجيل أحيانا على أنه أبوه رغم أنه ليس أباه، وهى أشد من "يا أخت هارون". بل إن المسيح عليه السلام قد دعا زكا رئيس العشارين: "ابن إبراهيم" (لوقا/ ١٦/ ٩). وبالمثل قال عن امرأة ممسوسة شَفَاها من مرضها إنها "ابنة إبراهيم" (لوقا/ ١٣/ ١٦). كذلك نسمع أحد الأغنياء يستغيث من الجحيم بإبراهيم عليه السلام أن يخف لنجدته مما يقاسيه من أهوال العطش قائلا: "يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ"، فيؤمِّن إبراهيم على ذلك بقوله: "يَا ابْنِي" (لوقا/ ١٦/ ٢٤). كما أشار جيفرى لانج الأستاذ الجامعى الأمريكى المسلم، فى كتابه: "Struggle to Surrender" إلى وصف العهد الجديد لأليصابات قريبة مريم ومعاصرتها بأنها "ابنة هارون" مع ما يفصل بينها وبينه من نفس المسافة الزمنية التى تفصل مريم عنه. وما دام النصارى يقبلون هذا فكيف يقيمون الدنيا ويقعدونها بسبب ما جاء فى القرآن رغم أن الأمرين واحد؟

ولماذا نذهب بعيدا، وعندنا الكتاب المقدس نفسه يستخدم كلمة "أخ" و"أخت" بتوسع شديد لا تُعَدّ عبارة "يا أخت هارون" بالقياس إليه شيئا مذكورا؟ تعالَوْا نطالع معا "قاموس

الكتاب المقدس" ونقرأ ما يقوله فى مادة "أخ": "١- لفظ أُطْلِق على الابن فى علاقته بأبناء أو بنات نفس الوالدين (تك٢٧: ٦) أو نفس الأب فقط (تك٢٨: ٢) أو نفس الأم فقط (قض٨: ١٩).

٢- كذلك أطلق على قريب من الأسرة الواحدة، ابن الأخ مثلا (تك١٤: ١٦)، أو من نفس الجنس (نح٥: ٧) أو من أُمَّة قريبة (تث٢٣: ٧) أو من أمة حليفة (عا١: ٩).

٣- وأطلق أيضا على إنسان من نفس الدين الواحد (أع٩: ١٧). وكثيرا ما دُعِى المسيحيون: إخوة (مت٢٣: ٨).

٤- كما أطلق أيضا على الصديق المحبوب. فقد دعا داود يوناثان: أَخًا (٢صم١: ٢٦). وكذلك أطلق على إنسان غريب كنوع من حسن الخطاب، فقد دعا آخاب بنهدد: أخا (١ مل ٢٠: ٣٢).

٥- وكذلك أطلق على أى إنسان من الجنس البشرى مراعاة لأُخُوّة البشر (تك٩: ٥).

وفى "معجم اللاهوت الكتابى" أن "لفظ "أخ" يدل، فى أقوى معانيه، على الأشخاص المنحدرين من أم واحدة (تكوين ٤: ٢). ولكن فى العبرانية وفى العديد من اللغات الأخرى ينطبق هذا اللفظ على أعضاء الأسرة نفسها (تكوين ١٣: ٨، أحبار ١٠: ٤، راجع مرقس ٦: ٣)، أو على أعضاء القبيلة نفسها (٢ ملوك ١٩: ١٣)، أو حتى على أعضاء الشعب نفسه (تثنية ٢٥: ٣، قضاة ١: ٣) تمييزا لهم عن الغرباء (تثنية ١: ١٦، ١٥: ٢- ٣). وهو يشير أخيرا إلى الشعوب المنحدرة من الجدّ الأصلى نفسه، مثل آدوم وإسرائيل (تثنية ٢: ٤، عاموس ١: ١١). وبجانب هذه الأخوّة القائمة على الجسد يشير الكتاب إلى أخوّة أخرى ذات طابع روحى هى أخوّة الإيمان (٢: ٢٩)، فى التعاطف (٢ صموئيل ١: ٢٦)، فى الوظيفة المتماثلة (٢ أيام ٣١: ١٥، ٢ ملوك ٩: ٢)، فى العهد المعقود (عاموس ١: ٩، ١ ملوك ٢٠: ٣٢، ١ مكابيين ١٢: ١٠). وهذا الاستعمال المجازى للكلمة يدل على أن الأخوّة الإنسانية هى، كاختيار حياتى، لا تقتصر فقط على القرابة الدموية رغم أن هذه الأخيرة تشكّل دعامتها الطبيعية".

ويقول القس بولس فغالى فى قاموس "المحيط الجامع فى الكتاب المقدس والشرق القديم": "أخ- أخت: أولاد أب وأم (تك ٤: ٢)، أولاد أب وأمّهات عديدات (تك ١٢:٢٠)، أولاد أم وآباء عديدين (تك ٤٣:٧؛ لا ١٨:٩؛ ٢٠:١٧). فى معنى واسع الإخوة هم أيضًا العم وابن الأخ

(تك ٨:١٣؛ ١٤:١٤)، وأناس من العشيرة الواحدة (لا ١٠:٢١)، أو من العشيرة المجاورة (تث ٢:٤، ٨؛ ٨:٢٣). فى الرسائل يُخاطب الملكُ ملكًا مثله باسم أخ (١ مل ٩:١٣؛ ٣٢:٢٠-٣٣). وقد يُسَمِّى الرجل زوجته: "يا أختى"، وتسمّى المرأة زوجها: "يا أخى" (نش ٩:٤-١٢؛ ١:٥-١٦). فى العهد الجديد، يُسَمَّى المسيحيّون: "الإخوة" قرابة ١٦٠ مرّة، ويسمّى يسوع تلاميذه: "الإخوة" (يو ١٧:٢٠؛ رج عب ١١:٢-١٢). ويقول بولس الرسول إنّ ابن الله هو بكر إخوة كثيرين (رو ٢٩:٨)".

أما ما كتبته "دائرة المعارف الكتابية" تحت عنوان "أخ" و"أخت" على الترتيب فهو، كما يقول المثل: "قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قولَ كل خطيب"، إذ يمثل ضربة ماحقة لكل الضجيج المثار حول عبارة "يا أخت هارون":

- "يطلق لفظ الأخ على:

١- الابن فى علاقته بأبناء أو بنات نفس الوالدين (تك ٤: ٨، ٤٢: ٤، مت ١٠: ٢).

٢- الابن لنفس الأب فقط دون الأم (تك ٢٠: ١٢، ٤٢: ٣) أو لنفس الأم فقط دون الأب (قض ٨: ١٩).

٣- على قريب من الأسرة الواحدة، كابن الأخ مثلا، فقد قال أبرام عن لوط ابن أخيه إنه "أخوه" (تك ١٤: ١٢ و١٦).

٤- على أفراد السبط الواحد (٢ صم ١٩: ١٢).

٥- أطلق اسم "إخوة" على الأفراد من الشعب الواحد (خر ٢: ١١، أع ٣: ٢٢، عب ٧: ٥).

٦- على حليف أو أحد أفراد شعب حليف (عدد ٢٠: ١٤، تث ٢٣: ٧، عاموس ١: ٩).

٧- على شخص يشابه شخصا آخر فى صفة من الصفات (أم ١٨: ٩).

٨- على الأصدقاء (أيوب ٦: ١٥).

٩- على شخص يماثل شخصا آخر فى المرتبة أو المكانة (١ مل ٩: ١٣).

١٠- على شخص من نفس العقيدة الواحدة (أع ١١: ٢٩، ١كو ٥: ١١).

١١- تستخدم مجازيا للدلالة على المشابهة كما يقول أيوب: "صرت أخا للذئاب" (أيوب ٣٠: ٢٩).

١٢- على زميل فى العمل أو فى الخدمة (عزرا ٣: ٢).

١٣- أى إنسان من الجنس البشرى للدلالة على الأخوة البشرية (مت ٧: ٣ - ٥، أع ١٧: ٢٦، عب ٨: ١١، ١ يو ٢: ٩، ٤: ٢٠).

١٤- للدلالة على القرابة الروحية (مت ١٢: ٥٠).

١٥- قال الرب للتلاميذ: "أنتم جميعا إخوة" (مت ٢٣: ٨). كما استخدم الرسل والتلاميذ لفظ "إخوة" للتعبير عن بنوتهم المشتركة لله، وأن كلا منهم أخ للآخر فى المسيح (أع ٩: ١٧، ١٥: ١ ... الخ)، فالمؤمنون جميعا إخوة لأنهم صاروا "رعية مع القديسين وأهل بيت الله" (أف ٢: ٩). وقد كان الربيون اليهود يفرقون بين "أخ" و"قريب"، فيستخدمون لفظة "أخ" لمن يجرى فى عروقهم الدم الإسرائيلى، أما لفـظ "قريب" فيطلقونه على الدخلاء، ولكنهم لم يكونوا يطلقون أى لفظ من اللفظين على الأمم. أما الرب يسوع والرسل فقد أطلقوا لفظة "أخ" على كل المؤمنين، ولفظة "قريب" على كل البشر (١ كو ٥: ١١، لو ١٠: ٢٩). وكل المجهودات الكرازية وأعمال الخير إنما هى من منطلق هذا المفهوم المسيحى لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

١٦- للدلالة على المحبة القوية المتبادلة (٢ صم ١: ٢٦، كو ٤: ٧ و٩ و١٥ و٢ بط ٣: ١٥)". وهو نفسه ما تقوله "International Standard Bible Encyclopedia" تحت عنوان "Brother".

- "أخت: تستخدم هذه الكلمة كثيرا فى العهد القديم... للإشارة إلى:

١- أخت شقيقة من نفس الأبوين.

٢- أخت من أحد الأبوين (تك ٢٠: ١٢، لا ١٨: ٩).

٣- امرأة من نفس العائلة أو العشيرة (تك ٢٤: ٦٠، أى ٤٢: ١١).

٤- امرأة من نفس البلد أو الناحية (عدد ٢٥: ٢٨).

٥- يقال مجازيا عن مملكتى إسرائيل ويهوذا إنهما أختان (حز ٢٣: ٤).

٦- تعتبر المدن المتحالفة أخوات (حز ١٦: ٤٥).

٧- تستخدم نفس الكلمة العبرية لوصف أشياء ذات شقين أو أشياء مزدوجة، مثل الستائر أو الشقق التى يقال عنها: "بعضها موصول ببعض" (وفى العبرية "موصول بأخته"- خر ٢٦: ٣ و٦)، كما تطلق أيضا على أزواج الأجنحة (حز ١: ٩، ٣: ١٣).

٨- لوصف بعض الفضائل المرتبطة بالشخص مثل: "قل للحكمة: أنت أختى" (أم ٧: ٤، أى ١٧: ١٤).

٩- لوصف العلاقة بين محب وعروسه كتعبير عن الإعزاز (نش ٤: ٩، ٥: ١، ٨: ٨).

وفى العهد الجديد تستخدم... "أخت" فى المعانى الآتية:

١- لوصف القرابة بالجسد أو بالدم (مت ١٢: ٥، ١٣: ٥٦، ١٩: ٢٩، لو ١٠: ٣٩، لو ١٤: ٢٦، يو ١١: ١، ١٩: ٢٥، أع ٢٣: ١٦).

٢- أخت فى المسيح: "أختنا فيبى" (رو ١٦: ١، انظر أيضا ١ كو ٧: ١٥، ١ تى ٥: ١، يع ٢: ١٥).

٣- قد تشير إلى كنيسة: "أختك المختارة" (٢ يو ١٣)". وهو نفسه ما تقوله "International Standard Bible Encyclopedia" تحت عنوان "Sister".

والآن أتركك، يا قارئى العزيز، تقوم بنفسك بتسكين أُخُوّة مريم لهارون تحت ما تراه مناسبا من هذه البنود، وكثير منها ملائم تماما لهذا الاستعمال. وبالمناسبة لا يقتصر ذلك التوسع فى الاستعمال على كلمة "أخ" و"أخت" وحدهما بل يمتد إلى ألفاظ القرابة الأخرى ككلمة "ابن" و"أب". وبالمناسبة أيضا فواضعو هذه الموسوعة ليسوا مجرد كتاب نصارى، بل من كبار رجال الدين والمتخصصين فى الدراسات الدينية الكتابية. ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن إثارة د. خلف الله لهذه المسألة وتصوره أنها تحرج القرآن وتعرضه للاتهام بأنه قد أخطأ خطأ تاريخيا أبلق لا يغتفر، هذه الإثارة لا معنى لها. والدرس الذى نخرج منه هنا هو أنا لا ينبغى أن نتسرع ونتصور أن فى القرآن الكريم ما يعتذر عنه.

وقد كتب تسدال فى هامش الفصل الخاص بـ"قصة مريم العذراء" من كتابه المذكور آنفا أن نصارى نجران سألوا المغيرة بن شعبة عن الخطإ المزعوم الخاص بـ"يا أخت هارون" فراجع المغيرة النبى عليه السلام، ولكنه لم يحصل على أى جواب مقنع. وكلام تسدال كذب صراح وقح، فقد أجابه النبى بإجابة واضحة تتسق مع أكثر من اعتبار من الاعتبارات التى ذكرتها مادة "أخت"

من الموسوعات الخاصة بالكتاب المقدس وأوردناها آنفا. وإلى القارئ العزيز مرة أخرى نص الحديث المذكور فى "صحيح مسلم" والذى أشار إليه سنكلير تسدال: "عن المغيرة بن شعبة: لَمّا قَدِمْتُ نَجْرانَ سَأَلُونِى فَقالوا: إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ "يا أُخْتَ هارُونَ"، وَمُوسى قَبْلَ عِيسى بِكَذا وَكَذا. فَلَمّا قَدِمْتُ على رَسولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عن ذلكَ، فَقالَ: إِنَّهُمْ كانُوا يُسَمّونَ بِأَنْبِيائِهِمْ والصّالِحِينَ قَبْلَهُمْ". أى أنهم سَمَّوْها بـ"أخت هارون" لأن هارون كان نبيا من أنبياء بنى إسرائيل. فأين عدم الإقناع فى هذا الجواب؟ بل كيف عرف تسدال أن المغيرة لم يقتنع بهذا الجواب؟ ترى هل أسرَّ له المغيرة بهذا دون سائر البشر؟ وكيف، وبينهما كل هذه القرون المتطاولة؟ ثم ألم يجد الصحابى الكريم إلا ذلك الكذاب الأشر ليسر إليه بما اعتمل حينئذ فى عقله وقلبه؟

أما أن القرآن قد سمى مريم: "ابنة عمران"، وتصوُّر تسدال بناء على ذلك أن الرسول قد أخطأ وخلط بين المريمين، فالرد عليه هو أن الأنساب فى الكتاب المقدس كثيرا ما تكون متناقضة ومضطربة كما هو الحال فى نسب عيسى نفسه عليه السلام، إذ فى الأناجيل الأربعة المعتمدة من الكنيسة هناك سلستا نسب له مختلفتان فى ترتيب أسماء الأجداد وعددهم بل وفى الأسماء نفسها أحيانا. بل إن إحدى السلستين تربط لا بين مريم وداود بل بين يوسف النجار وذلك النبى الكريم، وكأن يوسف هو أبو عيسى عليه السلام. وهذه مشكلة كبيرة. كذلك هناك أشخاص فى الكتاب المقدس لهم أكثر من اسم كحَمِى موسى، الذى له ثلاثة أسماء: يثرون ورعوئيل بن يثرون (أى ابن نفسه!) وحوباب. بل إن عيسى نفسه له عدة أسماء، ومن بينها عمانوئيل، الذى يقول الكتاب المقدس إن معناه "الله معنا"، ورغم ذلك لا نجد أحدا قد ناداه به فى أى مكان بالعهد الجديد، وإنما هو كلام نظرى لا حصيلة له فى الواقع. وبالمثل فإن لنبينا عدة أسماء: محمد وأحمد والمصطفى والأمين وأبو القاسم، وكذلك طه وياسين فى الأوساط الشعبية. ومن ناحية أخرى فإن والد مريم أم عيسى ليس مذكورا فى أى موضع من العهد الجديد بأناجيله الأربعة وأعمال الرسل ورسائلهم ورؤيا يوحنا اللاهوتى، لكنه "يواقيم" فى إنجيل آخر لا تعترف به الكنيسة، فلماذا يُحَاجُّ القرآن بما لا ثقة فيه عند أهل الكتاب؟ وإذا افترضنا أن اسمه فعلا يواقيم فهل يمنع هذا أن يكون له اسم آخر ككثير من أسماء أشخاص الكتاب المقدس؟ الواقع أنه كان له اسمان آخران هما بوناخير وصادوق. وعلى هذا فمن الجائز جدا أن يكون له اسم آخر هو عمران لقبًا له بمعنى "صَدِيق يهوه"، فهذا هو معنى "عمران" فى الأصل، أو يكون عمران هو نفسه اسمه الأساسى.

ولقد قرأت فى موقع (https://www.drghaly.com/articles/display/10277) النصرانى أن اسم والد العذراء هو هالى. وبناء على هذا فإن ما جاء فى إنجيل لوقا من أن هالى هو أبو يوسف النجار غير صحيح، والصواب هو تحويل هذه البنوة عن يوسف النجار إلى مريم عليها السلام. بل لقد كتب عبد الله عبد الفادى فى الجزء التاريخى من كتاب "هل القرآن معصوم؟" أن إنجيل لوقا (٣/ ٢٣) يقول إن مريم العذراء هى بنت هالى رغم أن هذا الكلام لا وجود له فى الموضع المذكور من الإنجيل المذكور. وحتى يستطيع القارئ أن يقدِّر مدى مصداقية ما يقوله القوم عن مريم عليها السلام أذكُر هنا أنهم لا يعرفون شيئًا يُذكر عنها بعد أن توفَّى اللهُ ابنَها، بل لا يعرِفون كم من الأعوام لبثَت بعده على قيد الحياة، إذ يختلفون فى هذه النقطة ما بين ثلاث سنوات وخمس عشرة (انظر مادة "Mary" فى " Wikinfo, an internet encyclopedia")، بل إنهم لا يعرفون بالضبط من يكون إخوة عيسى، أو كما يقولون: إخوة الإله، الذين جاء ذكْرهم فى العهد الجديد: أهم إخوته فعلًا من أمه بما يُفيد أنها قد تزوَّجت بعد ولادته من يوسف؟ أم هل هم مجرد أقارب له من جهة تلك الأم؟ أم هل هم أبناء يوسف من امرأة أخرى غير مريم؟ (انظر الجزء الخاص بمريم العذراء من مادة "Mary" فى " International Standard Bible Encyclopedia")

ليس هذا فقط، بل يقول الكتاب المقدس فى سفر "التكوين" إن آدم ابن الله، وهذا يناقض عقيدة النصارى فى أن عيسى وحده هو ذلك الابن. وهو ما يزيد الأمر اضطرابا وتعقيدا، ويدل على أن من يخطِّئ القرآن لقوله إن مريم هى ابنة عمران إنما يخطئه على غير أساس وبلا دليل. فالأمور عند القوم يسودها الاضطراب والتضارب. أما أن النبى محمدا لم يكن يعرف أن هناك فارقا زمنيا بين مريم أخت موسى وهارون وبين مريم أم عيسى فهذا ما لا يمكن أن يكون، فقد كان عليه السلام، بعيدا عن أن القرآن وحى سماوى لا يعتريه الخطأ، يعلم تمام العلم أن عيسى أتى بعد موسى بوقت طويل بُعِثَ فيه رسل كثيرون بنص القرآن فى سورة "البقرة": "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ" وأن اليهود قد وقفوا منه موقفا عدائيا وحاولوا صلبه وقتله لكن الله نجاه منهم ورفعه إليه، ومن ثم لا يخطر على بال عاقل أن نبينا عليه السلام كان يجهل أن مريم أخت موسى وهارون غير مريم أم عيسى، وإلا

لكان هناك موسى وهارون يدعوان فرعون إلى عبادة الله الأحد، وكان هناك أيضا عيسى يكفّر اليهود فى نفس الوقت، وهو لو حدث لكان أمرا فكاهيا. ولم يحدث قط أن قال القرآن أو الرسول إن موسى وعيسى كانا يعيشان فى نفس العصر. ولو كان قد خلط بين مريم أخت موسى ومريم أم عيسى لأفلت منه ما يدل على أن موسى وعيسى كانا متعاصرين بل متزاملين، وهو ما لم نجده فى أى نص من نصوص القرآن أو الأحاديث. وفى الحديث الشريف "أولُ أنبياءِ بنى إسرائيلَ موسى، وآخرُهم عيسى. وأولُ الرسلِ آدمُ، وآخرُهم محمدٌ ". وواضح أن النبى عليه السلام كان يعى جيدا الفرق الزمنى الكبير الذى يفصل عيسى عن موسى.

والملاحظ أن اسم "عمران/ عمرام" كثير فى بنى إسرائيل. فما الذى يمنع أن يكون اسمُ أبى مريم العذراء عمرانَ أيضا، أو أن يكون عمران اسما ثانيا له كما قلت قبلا؟ ومعروف أن هناك كثيرا من الناس يشتهرون بألقابهم، وكثيرا ما تجهل الجماهير أسماءهم الحقيقية. وعندنا من الشعراء النابغة والأعشى وتأبط شرا والشنفرى وكُثَيِّر عزة وجميل بثينة والفرزدق والأخطل وأبو العتاهية وأبو نواس وصريع الغوانى والمتنبى والخبز أرزى وسلطان العاشقين والشاب الظريف وأمير الشعراء وشاعر النيل وشاعر القطرين، ومن المغنين مطربة القطرين وكوكب الشرق وموسيقار الأجيال وقيثارة الحب والعندليب الأسمر، ومن اللاعبين المعاصرين الظهير الطائر وبيبو والعمدة والعميد وأوباما وبكهام وقفشة. وقد لصقت هذه الأسماء بهم، ويفضلها كثير منهم على أسمائهم الحقيقية.

على أن هذا ليس هو كل شىء، إذ إن نسب عمران أبى موسى نفسه فيه خلاف: فبعضهم يقول إنه ابن قهات، وبعضهم يقول: بل كان من نسله، وبينهما عدة أجيال. ومرة أخرى ليس هذا فقط بل إن زوجة عمران بنت قهات بن لاوى (والد مريم) هى يوكابد بنت لاوى. أى أن زوجة عمران والد موسى وهارون هى عمة زوجها، وهو ما تقوله صراحة "JewishEncyclopedia" فى مادة "عمرام أبو موسى". ومن الممكن أن تكون "دائرة المعارف الكتابية" قد قالت إن عمران هذا ليس ابن قهات بل من نسله كى يهربوا من تلك المشكلة! فبالله كيف يحاجّ القرآنَ أحدٌ بما فى الكتاب المقدس؟

لقد أخطأ د. خلف الله أيما خطإٍ حين جعل الكتاب المقدس عِيَارًا على القرآن؟ إن هذه لهى الهزيمة النفسية والحضارية بعينها. والملاحظ أن الموسوعات التى تتحدث عن "عمران" تذكر أنه

عند المسلمين هو أبو مريم العذراء أيضا، ولا تحاول النيل من القرآن أو الإسلام فى هذه النقطة فى قل أو كثر. وفى النهاية جائز جدا أن يكون أبو مريم قد سماها: "مريم" حتى يقال: "مريم ابنة عمران" على اسم "مريم بنت عمران" أخت هارون وموسى" كنوع من الانتساب الاسمى إلى سيدة شهيرة كما فعل أحد رجال قريتنا، وكان اسمه "كامل"، فسمى ابنه: "مصطفى" كى ينادَى بـ"مصطفى كامل" الزعيم الوطنى المصرى المعروف، وأصل أسرته من قريتنا، وسمى ابنته بـ"فايدة" كى تنادى بـ"فايدة كامل" على اسم المطربة المشهورة. ومن المصادفة أن فايدة كامل المطربة خريجة حقوق، ودخلت سَمِيَّتُها عندنا كلية الحقوق أيضا وحصلت على شهادتها وتشتغل الآن محامية ومتزوجة من محام.

ورغم كل ما كتبناه هنا فى هذا الموضوع أحب أن أنهى الكلام فيه بإيراد الأفكوهة التالية من الكتاب المقدس، وهى أن سن الابن أكبر من سنِّ أبيه بعامين: "١٦وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين ١٧فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة فى بيت الملك مع بنيه ونسائه أيضًا ولم يبقَ له ابن إلا يهوآحاز أصغر بنيه، ١٨وبعد هذا كله ضرَبه الرب فى أمعائه بمرض ليس له شفاء، ١٩وكان من يوم إلى يوم وحسب ذَهاب المدة عند نهاية سنتين أن أمعاءه خرجت بسبب مرضه فمات بأمراض رديئة، ولم يعمل له شعبه حريقة كحريقة آبائه، ٢٠كان ابن اثنتين وثلاثين سنة حين ملك وملك ثمانى سنين فى أورشليم وذهب غير مأسوف عليه، ودفنوه فى مدينة داود ولكن ليس فى قبور الملوك" (أخبار الأيام الثاني/ ٢١)، "١وملك سكان أورشليم أخزيا ابنه الأصغر عوضًا عنه؛ لأن جميع الأوَّلين قتَلهم الغزاة الذين جاؤوا مع العرب إلى المحلة، فملك أخزيا بن يهورام ملك يهوذا، كان أخزيا ابن اثنتين وأربعين سنة حين ملَك" (أخبار الأيام الثاني/ ٢٢)، لاحظ أيها القارئ الكريم أن الأب قد مات وعنده من العمر أربعون، إذ كانت سِنّه حين تولَّى المُلك اثنين وثلاثين عامًا ثم ملَك ثمانية أعوام، ثم تولَّى ابنه الحكم بعده مباشرة وكان عمر هذا الابن وقتها اثنين وأربعين.

وقد نجم عن هذه الأخطاء والتضاربات التى يعج بها الكتاب المقدس أن لجأ العلماء الكتابيون إلى اختراع نظرية تُسوِّغ وجود هذه الأخطاء، ومؤدَّى هذه النظرية أنه لا بدَّ من التَّفرِقة بين الوحى من ناحية الشكل وبينه من ناحية المضمون: فمن الناحية الأولى تجدهم يقولون إنه ليس إلا إبداعًا أدبيًّا للكاتب، أما من الناحية الثانية فيؤكِّدون أنه صادر عن الله. ذلك أن الوحى بِناء

على هذه النظرية لا يُلغى شخصية الكاتب، بل تتدخل ظروفه فى الصياغة، ويمكن أن يقع تحريف فى النص، ومن ثم لا بدَّ من عملية النقد والتمحيص (انظر مادة "Inspiration" من " The New Bible Dictionary"/ لندن/ ١٩٧٢م/ تحريرJ.D.Douglas/ ٥٦٥- ٥٦٦). وهو نفسه ما يقوله "Hook's Church Dictionary" (لندن/ ١٨٨٧م)، الذى يرى أن الأنبياء وكتَبَة الكتاب المقدس قد أدَّوْا ما تلقَّوْه من الوحى كما هو بدون أدنى خطإٍ من الناحية اللاهوتية، لكن هذا لا يَصدُق على الناحية اللُّغوية والعلمية (ص ٤٠٣، ٩٦٤). وقد سمَّى المستشرق البريطانى مرجليوث هذه النظرية بـ"Colouring by the Medium"، ومعناها أن الوحى إنما ينزِل على النبى أو الرسول أو الكاتب كفكرة، ثم يقوم الوسيط بصياغة هذه الفكرة بأسلوبه هو، ومن ثَمَّ فالأخطاء التى تقع فى الكتاب المقدس مبعَثُها هذا الوسيط لا السماء، أى إن الوسيط هو بمثابة كوب الشراب الذى يُضفى على السائل لون زجاجه (D. S. Margoliouth, Mohammedanism, London,1921, p.63).

ومن الأمثلة التى ساقها د. خلف الله أيضا ليثبت أن القَصَص القرآنى الخاص بالأنبياء والأمم السابقة ليس أخبارا تاريخية بل تعبيرات فنية أدبية لا تؤدى إلينا حوادث حقيقية وقعت فعلا تنبيهُه إلى أن قصة النبى الواحد من الأنبياء تختلف تفاصيلها من سورة إلى سورة كما هو الحال فى قصة موسى، التى وردت فى سور "طه" و"النمل" والقصص" مختلفة بعضها عن بعض. وهذا كلامه نصا: "سؤال آخر سأله العقل الإسلامى نفسه فيما يخص هذا التكرار، وهو أنه على فرض قدرته على الوقوف على الأسرار التى من أجلها كان التكرار فلما ذا كان هذا الاختلاف؟ لماذا اختلف إيراد القصة الواحدة فى موطن عنه فى آخر؟ لماذا اختلف وصف القرآن لموقف موسى من ربه فى سورة "طه" عنه فى غيره من السور مع أن الموقف واحد والحادثة واحدة؟ لماذا قال القرآن فى سورة طه: "وهلْ أتاك حدِيثُ مُوسى* إِذْ رأى نارًا فقال لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنسْتُ نارًا لعلِّى آتِيكُمْ مِنْها بِقبسٍ أوْ أجِدُ على النّارِ هُدًى * فلمّا أتاها نُودِى يا مُوسى * إِنِّى أنا ربُّك فاخْلعْ نعْليْك إِنّك بِالْوادِ الْمُقدّسِ طُوًى * وأنا اخْترْتُك فاسْتمِعْ لِما يُوحى * إِنّنِى أنا اللّهُ لا إِله إِلّا أنا فاعْبُدْنِى وأقِمِ الصّلاة لِذِكْرِى * إِنّ السّاعة آتِيةٌ أكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نفْسٍ بِما تسْعى * فلا يصُدّنّك عنْها منْ لا يُؤْمِنُ بِها واتّبع هواهُ فتَرْدى * و ما تِلْك بِيمِينِك يا مُوسى * قال هِى عصاى أتوكّأُ عليْها وأهُشُّ بِها على غنمِى ولِى فِيها مآرِبُ أُخْرى * قال ألْقِها يا مُوسى * فألْقاها فإِذا هِى

حيّةٌ تسْعى * قال خُذْها ولا تخفْ سنُعِيدُها سِيرتها الْأُولى * واضْمُمْ يدكَ إلى جناحِك تخْرُجْ بيْضاء مِنْ غيْرِ سُوءٍ آيةً أُخْرى * لِنُرِيك مِنْ آياتِنا الكُبْرى * اذْهبْ إلى فِرْعوْن إنّهُ طغى * قال ربِّ..." إلخ؟ ولماذا قال فى سورة "النمل" عن نفس الحادثة والموقف: "إذْ قال مُوسى لِأهْلِهِ إنِّي آنسْتُ نارًا سآتِيكُمْ مِنْها بخبرٍ أوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قبسٍ لعلّكُمْ تصْطلُون * فلمّا جاءها نُودِي أنْ بُورِك منْ فِي النّارِ و منْ حوْلها وسُبْحان اللهِ ربِّ الْعالمِين * يا مُوسى إنّهُ أنا اللهُ الْعزِيزُ الْحكِيمُ * وألْقِ عصاك فلمّا رآها تهْتزُّ كأنّها جانٌّ ولّى مُدْبِرًا ولمْ يُعقِّبْ يا مُوسى لا تخفْ إنِّي لا يخافُ لدى الْمُرْسلُون * إلّا منْ ظلم ثُمّ بدّل حُسْنًا بعْد سُوءٍ فإنِّي غفُورٌ رحِيمٌ * وأدْخِلْ يدك فِي جيْبِك تخْرُجْ بيْضاء مِنْ غيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إلى فِرْعوْن وقوْمِهِ إنّهُمْ كانُوا قوْمًا فاسِقِين..." إلخ؟ ولماذا قال فى سورة "القصص" غير هذين؟".

هذا ما قاله د. خلف الله، ومعنى كلامه أن القرآن أورد فى كل مرة القصة كاملة بحوادثها وموقفها وأنها رغم هذا كانت مختلفة؟ والرد هو أن الموقف الذى تتناوله تلك النصوص المتعددة فعلا واحد، لكن القرآن لم يكن يورد القصة فى ذلك الموقف كاملة فى كل مرة، بل كان يورد منها ما يتسق مع السياق الذى أنزلها فيه. إن الحكاية يمكن أن تروى عدة مرات لكنها لا تروى كاملة فى كل مرة، بل يُذْكَر منها هنا شيء، وهناك شيء آخر، وهنالك شيء ثالث، وكل شيء من هذه الأشياء صحيح لأن الحكاية كبيرة تحتوى على تفاصيل كثيرة، لكنا لا نورد منها فى كل مرة إلا شيئا خاصا بتلك المرة فقط. ومثالا على ذلك أقول: لو أننى قابلت صديقا لى فى الطريق فتبادلنا التحية وسألته عن أحواله وأحوال أسرته وبنته المريضة، ثم تماشينا، ودعوته إلى الغداء فى مطعم، وإلى الشاى فى مقهى، ثم أتى معى لأعمل بعض التحاليل فى المستشفى، وهناك شاهدنا مشادة بين موظف الاستقبال وأهل أحد المرضى فى الطوارئ... إلخ، ثم حكيت هذه القصة على من لم يكونوا معنا، فقلت فى مرة: إننى قابلت صديقا لى فى الشارع فسألته عن أحواله، ثم سكتّ فلم أقل شيئا آخر، لكنت صادقا. ولو قلت إننى قابلت صديقا لى فعزمته على الطعام، فأنا صادق. ولو قلت إننى قابلت صديقا لى فذهبنا إلى القهوة وشربنا شايا، فأنا صادق. ولو قلت إننى قابلت صديقا وذهبنا إلى المستشفى، فأنا صادق. ولو قلت إننى كنت مع صديقى فى المستشفى، وكانت هناك مشادة بين موظف الاستقبال وأهل مريض بالطوارئ فأنا صادق. ولو قلت إننى سألت صديقى فلانا الفلانى عن بنته المريضة ولم أقل شيئا آخر فأنا صادق. ذلك أننى فى كل مرة أذكر

جانبا من القصة لا يتعارض مع ما أذكره منها فى كل من المرات الأخرى. والقصة بعدُ تاريخية حقيقية لا قصة فنية أدبية خيالية.

كذلك يخلق د. خلف الله مشكلة من لامشكلة فى قوله جل شأنه عن ذى القرنين فى سورة "الكهف"، إنه حين "بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة..."، فيقول إننا لو أخذنا هذه القصة على أنها قصة حقيقية كان معنى هذا أن الآية تقرر أن الشمس قد غربت فى عين حمئة رغم أن الشمس طالعة أبدا، ومن ثم تخطئ الآية. وهذا كلام عجيب، إذ يمكننى مثلا أن أجلس أمام البحر، وأكتب أننى بقيت جالسا وحدى هناك أرقب الشمس وهى تهبط فى الأفق وتختفى فى عرض البحر، وأنا هنا لا أكذب ولا أدعى أن الشمس تغرب فعلا فى البحر، بل أصف ما شاهدته عيناى مع معرفتى العلمية بأن الشمس لا تغرب فى البحر أبدا. ود. خلف يقول إن الشمس طالعة أبدا، وهذا يتعارض مع قولنا إنها غربت، إذ هى لا تغرب ولا تشرق بل الشروق والغروب هما ما تراه أعيننا رغم أنه لا شروق ولا غروب بالنسبة للشمس الطالعة أبدا بتعبيره هو نفسه. لقد كان يمكن أن يكون هناك خطأ لو قال القرآن إن الشمس قد غربت فعلا فى العين الحمئة، لكنه لم يقل ذلك بل قال إن هذا ما رآه ذو القرنين. ولى فى هذه المسألة مقال طويل أتيت فيه بعبارات إنجليزية وفرنسية مشابهة لهذه استعملت فى وقائع حقيقية بناء على أن هذا هو ما يبدو للعين. وهل يحرم أن يذكر الإنسان وقائع حقيقية مستعملا بعض الأساليب البلاغية؟ هل يتعارض قولى إننى كنت ماشيا فى الشارع أمس فشاهدت حصانا هائجا يجرى فى اتجاهى، فركبنى الرعب وأخذت ذيلى فى أسنانى وقلت: "يا فكيك"، هل يتعارض كلامى بصوره البلاغية هذه مع كون ما ذكرته قد حدث فعلا؟ وبالعكس يمكن أن يقول أحد الفلكيين إنه كان جالسا أمام البحر ومضت الأرض فى دورانها حول الشمس فكانت النتيجة أنه لم يعد يرى الشمس لأن الجانب الذى هو فيه لم يعد يواجه الشمس، نعم يمكن أن يقول الفلكى هذا الكلام العلمى الذى لا يخر منه الماء، ومع هذا تكون حكايته كاذبة تماما لأنه لم يجلس أمام البحر ولم يرقب الشمس عند ابتعادها عن أعيننا، بل اخترع حكاية جلوسه أمام البحر اختراعا. إن الكلام العلمى الدقيق فى تضاعيف قصة مكذوبة لا يجعلها حكاية حقيقية، كما أن ورود بعض الأساليب البلاغية خلال قصة صادقة لا يصيرها قصة كاذبة. وهذا ما لا يريد أن يسلم به د. خلف الله. وهذه المسألة هى من المسائل التى يتعلق بها المستشرقون والمبشرون لإيهام المسلمين أن كتابهم فيه أخطاء

تاريخية وعلمية... وهيهات. وقد ردد د. خلف الله هذا الذى يقوله المستشرقون والمبشرون للأسف، فسلم لهم بما يريدون مع تظاهره بأنه إنما يرد عليهم. وهل هم يريدون شيئا آخر غير أن نقول إن ما ورد فى القرآن من قصص الأنبياء والأمم السابقة هو كلام خيالى لا وشيجة تربطه بالواقع أو التاريخ؟

و"مغرب الشمس" فى النص القرآنى الكريم هو وقت غروبها، مثلما أن مشرقها هو وقت طلوعها، لأنه لا يوجد مكان تغرب عنده الشمس أو تطلع منه، إذ الأرض فى تحركها حول الشمس هى التى تتسبب فى اختفاء الشمس شيئا فشيئا، فنسمى هذا: غروبا أو مغربا، وتتسبب بعد ساعات أخرى فى ظهور الشمس شيئا فشيئا، فنسميه: طلوعا للشمس أو مطلعا لها. وأما الذين يتهمون القرآن بأنه يتصور الشمس تسقط فى العين فيتجاهلون ما يقوله القرآن عن النجوم والكواكب: "وكلٌّ فى فلك يسبحون" مثلا. ثم ألم يشاهد ذو القرنين غروب الشمس فى أماكن أخرى ووجد أنها لا تسقط فى عين؟ وحتى لو قلنا إن محمدا هو مؤلف القرآن فهل شاهد الرسول يوما غروب الشمس عند بركة أو بحيرة فظن أن الشمس تسقط فيها؟ وإذا كان قد شاهد ألم يشاهد غروب الشمس أيضا فى البادية والأماكن المفتوحة وعلى قمم الجبال فعرف أن الشمس لا تسقط فى العيون؟ ويكثر فى النصوص الأدبية تعبيرات مثل هذا التعبير. وقد درست هذا الموضوع فى دراسة طويلة فى كتابى: "حقائق الإسلام الدامغة وشبهات خصومه الفارغة"، واستشهدت بنصوص شعرية ونثرية أجنبية على هذا الاستعمال. وهذا كله يعطينا فكرة عن تساخف خصوم القرآن وتخليهم عن العقل والمنطق فى اتهاماتهم له.

ومن المشاكل التى يخلقها د. خلف الله أيضا ثم يحاول إقناعنا أنه يقدم لها الحل السليم الذى يخرس المستشرقين والمبشرين فى حين أنه ورط القرآن فى التهمة التى يوجهها إليه هؤلاء المتربصون الأغبياء ما عقَّب به على قوله تعالى فى آخر سورة "الفتح" وصفا للنبى الكريم وصحابته النبلاء: "محمد رسول الله والذين معه أَشِدّاءُ على الكفار رحماءُ بينهم تراهم رُكَّعا سُجَّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا. سِيماهم فى وجوههم من أثر السجود. ذلك مَثَلُهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرعٍ أخرج شَطْأَه فآزره فاستغلظ فاستوى على سُوقه يعجب الزراعَ ليغيظ بهم الكفار..." قال: "علينا أن نضع بين يدى الرجعيين و الجامدين ومن على شاكلتهم هذه الآية الكريمة التى تشير فى صراحة إلى أن القرآن الكريم كان يرد بعض تشبيهاته وأمثاله إلى مصادرها الأولى أو

إلى التوراة والإنجيل". ذلك أن كلامه يفهم منه أن القرآن الكريم تأثر بأسلوب التوراة والإنجيل فى وصفه للصحابة والنبى الكريم. لكن الأمر ليس كذلك بل كل ما صنعه القرآن هو أنه قال إن التوراة والإنجيل قد بشرا به عليه السلام وبصحابته وأن وصفهم فيهما هو كذا وكذا. فهذا خبر من القرآن. ولو افترضنا أن القرآن قد استعمل بعض تعبيرات التوراة والإنجيل فعلا فإن ذلك لا يعطى خلف الله المسوغ لقول ما قال، بل كان ينبغى أن يقول إن المصدر الذى أخذت منه التوراة والإنجيل وأخذ منه القرآن واحد، وهو الوحى السماوى، ومن ثم فلا استعارة ولا يحزنون. وبالمناسبة ليس شرطا أن نجد هذين التشبيهين فى الكتاب المقدس لأن الكتاب المقدس شىء، والتوراة والإنجيل شىء آخر، علاوة على أن القرآن اتهم أهل الكتاب بالعبث بكتبهم. إن الترجمة الإنجليزية الأحمدية الموسعة، بالنسبة إلى عبارة "ذلك مثلهم فى التوراة"، تشير إلى ما ورد فى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر "التثنية": "وَتَلأْلأَ (أى الرب) مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ"، وإن كانت ترجمتهم الإنجليزية لهذه العبارة تعنى "... وأتى ومعه عشرة آلاف قديس". وبلمحة خاطفة نستطيع أن نحكم بألا صلة بين النص القرآنى والنص الكتابى. وأما المثل الإنجيلى للنبى وصحابته فتشير نفس الترجمة إلى ما جاء فى إنجيل متى فى الإصحاح الثالث عشر على لسان عيسى: "هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ، ٤وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ، فَجَاءَتِ الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ. ٥وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَنَبَتَ حَالًا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضٍ. ٦وَلكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ احْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. ٧وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشَّوْكِ، فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. ٨وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَرًا، بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ". وهنا أيضا نجد أن النصين مختلفان ولا يتحدثان عن ذات الموضوع. أما أبو بكرحمزة فى ترجمته الفرنسية فبالنسبة إلى عبارة "ذلك مثلهم فى التوراة" يشير إلى الجملة الأولى من الإصحاح الرابع عشر من رؤيا يوحنا اللاهوتى: "١ثُمَّ نَظَرْتُ وَإِذَا خَرُوفٌ وَاقِفٌ عَلَى جَبَلِ صِهْيَوْنَ، وَمَعَهُ مِئَةٌ وَأَرْبَعَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا، لَهُمُ اسْمُ أَبِيهِ مَكْتُوبًا عَلَى جِبَاهِهِمْ". وهذا كلام مضحك بخلاف النص التالى من إنجيل متى (الإصحاح الثالث عشر)، الذى يومئ حمزة إليه بوصفه "مثلهم فى الإنجيل": "٣١قَدَّمَ لَهُمْ مَثَلًا آخَرَ قَائِلاً: «يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَبَّةَ خَرْدَل أَخَذَهَا إِنْسَانٌ وَزَرَعَهَا فِي حَقْلِهِ، ٣٢وَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ. وَلكِنْ مَتَى نَمَتْ فَهِيَ أَكْبَرُ الْبُقُولِ، وَتَصِيرُ شَجَرَةً، حَتَّى إِنَّ طُيُورَ السَّمَاءِ تَأْتِي وَتَتَآوَى فِي أَغْصَانِهَا»" فهو

قريب من التعبير القرآنى. ومثله النص التالى من إنجيل مرقس (الإصحاح الرابع): "٢٦وَقَالَ: «هكَذَا مَلَكُوتُ اللهِ: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ، ٢٧وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ، ٢٨لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلًا نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ".

ومرة أخرى لنكن على ذكر من أن الكتاب المقدس شىء، والتوراة والإنجيل شىء آخر: التوراة والإنجيل نزلا من السماء، أما الكتاب المقدس فهو تسجيل بشرى لتاريخ بنى إسرائيل وأنبيائهم، وإن كان يبدأ من أول الخلق لينتهى إلى ذلك التاريخ فيلزمه ولا يفارقه، وبطبيعة الحال فإن هذا العمل البشرى لا يخلو من بعض نصوص الوحى الإلهى حين يورد أقوال أولئك الأنبياء فتتخللها أشياء من تلك النصوص الإلهية.

* * *

ونصل إلى د. يوسف زيدان ومزاعمه حول المسجد الأقصى والإسراء والمعراج. ففى تقرير بعنوان "رافضون للإسراء والمعراج- يوسف زيدان: اختراع ولا أساس لها بالدين" فى موقع "الموجز" بتاريخ ٢٨ نوفمبر ٢٠١٨ نقرأ هذه السطور: "ووصل التشكيك عند زيدان فى هذه الحادثة عند المسجد الأقصى أيضًا حينما أثار الجدل فى حديثه مع الإعلامى خيرى رمضان ببرنامج "ممكن"، المذاع على قناة "CBC" فى ديسمبر ٢٠١٥، بعد رفضه للتفسير الشائع فى سورة "الإسراء"، بأنها تشير إلى المسجد الأقصى فى القدس، مشيرًا إلى أن المسجد الذكور فى السورة لا علاقة له بالمسجد الأقصى الذى نعرفه.

وبرر المفكر الإسلامى ذلك بأن الرسول حينما لاحقه قوم قريش غادر إلى الطائف، وعلى الطريق كان هناك مسجدان: الأدنى والأقصى، وهذان المسجدان معروفان آنذاك، وهما قرب الطائف، وأن الأقصى فى القدس لم يكن موجودًا يومها.

وأضاف أن "الإسراء ثابت فى القرآن، ولكن المعراج لا أعلم من أين جاء. وعندما نزلت سورة "الإسراء" كانت مكية، والصلاة فُرِضَت فى المدينة، والأقصى لم يكن موجودًا حينها أو بها مساجد، وكانت حينها القدس تسمى: "إلياه"، وهى كلمة عبرانية معناها "بيت المقدس"، وأن المسجد الأقصى يمثل لعبة سياسية قام بها عبد الملك بن مروان".

وفى لقاء أيضًا مع الإعلامى عمرو أديب فى نوفمبر ٢٠١٥ صرح زيدان أنه لا وجود لمعجزة الإسراء والمعراج، معتبرا أن المسجد الأقصى ليس القائم فى فلسطين الآن، ولا يمكن أن يكون كذلك، وليس أحد القبلتين، مضيفًا أن سيدنا محمد اتجه حينما فرضت الصلاة مثلما اتجه اليهود إلى الشمال، فى نيته ليثرب، حتى نزلت الآية: "قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها"، ليتحول من الشمال إلى الجنوب وأصبحت الصلاة تجاه الكعبة".

وتحت عنوان "يوسف زيدان: المسجد الموجود فى فلسطين ليس هو الأقصى" نشرت أمانى أبو النجا (الخميس ٣ ديسمبر ٢٠١٥) تقريرا هذا نصه: "قال الكاتب والروائى يوسف زيدان إن "المسجد الموجود فى مدينة القدس المحتلة ليس هو المسجد الأقصى ذو القدسية الدينية الذى ذُكِر فى القرآن الكريم والذى أسرى الرسول إليه" على حد قوله. وأضاف خلال لقائه فى برنامج "ممكن" المذاع على قناة "سى بى سى" المصرية الخميس أن المسجد الأقصى الحقيقى الذى ذكر فى القرآن يوجد على طريق الطائف، ولكن المسجد المتواجد فى فلسطين لم يكن موجودًا من الأساس فى عهد الرسول محمد، وأن من بناه هو عبد الملك بن مروان فى العصر الأموى" حسبما قال.

وأكد زيدان أن الحرب مع إسرائيل حول القدس لا معنى لها، قائلا: "ما يحدث حاليا هو صرع سياسى حول أرض، ولا يوجد علاقة للدين به، ومستعد للعدول عن قناعاتى هذه إذا قُدِّم لى دليل واضح يخالف ما قلته فى هذا الشأن". وأوضح زيدان أن ما قاله حول المسجد الأقصى لا يعنى أن إسرائيل لها الحق فى احتلال فلسطين، مضيفًا: "إسرائيل تم بناؤها على باطل، وهى عدو، وعبارة عن مجتمع عسكرى برر وجود حكومات عسكرية فى المنطقة كلها".

وقال إنه بالرغم أنه لا يحب توجيه النصائح إلا أنه وجه عدة نصائح للرئيس عبد الفتاح السيسى خلال لقائه به منذ عدة أشهر، مضيفًا: "نصحته من أجل مصلحة البلاد فقط، وبالرغم من أننى أنتقد بعض التصرفات إلا أنه تقبل ما قلته برحابة صدر، وكان أفضل من نصحتهم". ترى ما كل هذا الانتفاخ يا دكتور زيدان؟ "تنصح" الرئيس ذاته و"تنتقد" بعض تصرفاته، فـ"يتقبل" نصائحك وانتقاداتك بـ"رحابة صدر"؟ الحمد لله، الذى جعل فى أمة محمد ناصحا أمينا شجاعا مقداما لا يبالى بالعواقب ومنفوخا مثلك!

فهذا ما نُقِل لنا عن زيدان. وعلى بركة الله نبدأ تحليل ما قال. وأول سؤال يفد على الذهن هو: هل كان هناك حقا مسجد، فضلا عن مسجدين، فى الطائف؟ فمن كان يسجد فيهما؟ ولا نقول: فمن بناهما؟ لقد كان المسلمون يصلون خفية فى مكة، ولم يكن هناك مسجد فى مكة غير البيت الحرام، فكيف يكون هناك مسجدان اثنان بالطائف، تلك المدينة التى أغلقت أبوابها وقلوبها فى وجه النبى حين زارها أملا فى أن يؤمن به أهلها، وطارده غلمانها وسفهاؤها بالحجارة فى الشوارع حتى ألجأوه إلى بستان ابنى ربيعة؟ هل بنتها ثقيف مثلا؟ فلماذا لم تؤمن بمحمد الراكع الساجد ما دامت تبنى المساجد أو تسجد فيها؟ بل إنها حين غزاها الرسول والمسلمون بعد ذلك بسنوات حين انتهوا من فتح مكة لم تفتح لهم أبوابها إلا بعد عشرات الليالى، وذلك من شدة تمسكها بوثنيتها وأصنامها وتأبيها على دين التوحيد. الواقع أن أول مسجد عرفته الطائف قد تم بناؤه بعد فتحها عقب فتح مكة، وأمر الرسول أن يحتل نفس الموضع الذى كانت منصوبة فيه أصنامهم. ففى الحديث عن عثمان بن أبى العاص أنّ "النبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طواغيتهم". ثم أين المعجزة فى الأمر بحيث يمتن الله سبحانه على عبده محمد بأنه أُسْرِىَ به إلى هناك وبين الطائف ومكة بضع عشرات من الكيلومترات فقط؟ وأين البَرَكة حول أى موضع بالطائف فى ذلك الوقت حسبما أخبر المولى بأنه بارك حول المسجد الأقصى؟

كما أن زيدان يفسر الإسراء بأنه الرحلة التى قام بها النبى إلى الطائف. أى أنه هو الذى قام بالرحلة كما يقوم بها أى إنسان، فكيف يسند الله مسراه إلى ذاته العلية؟ ولماذا لم يقل: إن عبده سرى من مكة إلى الطائف؟ وهذا لو كانت رحلة الرسول إلى الطائف سريانا بالليل ولم تكن بالنهار؟ كذلك لِمَ استغرب الكفار أن يذهب الرسول إلى الطائف ويعود فى نفس الليلة، وهو أمر ممكن إذا ركب ناقة، إذ المسافة بين مكة وبينها نحو ثمانين كيلومترا كما ألمحنا قبل قليل؟ وكيف فات الرسول أن يؤكد صدق كلامه بالقيام بهذه الرحلة بأن يحيلهم على أهل الطائف ليشهدوا أنه فعلا زار مدينتهم؟ هل يمكن أن يكون قد فاته هذا الحل السهل الذى لا يخر منه الماء؟ وأين الآيات التى أراه الله إياها فى الطائف على حين لم ير هناك سوى قلة الأدب والشتائم والمطاردة من السفهاء فى الشوارع والقذف بالحجارة؟

ولا ينبغى أن ننسى أن القرآن يستخدم لفظ "المسجد" بمعنى مكان السجود، فهو اسم مكان فى معظم الأحيان أو المكان الذى تؤدى فيه الصلوات حتى لو لم تكن صلوات المسلمين.

وهذا موجود فى الآية التاسعة من سورة الإسراء، وفى سورة "الكهف"، وفى سورة "الجن"، وفى سورة "الأعراف"، وكلها سور مكية نزلت قبل أن يكون هناك مساجد كمساجدنا. وفى ضوء هذا نفهم قوله صلى الله عليه وسلم: "لعن الله اليهود والنصارى. اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، إذ من الواضح أن المساجد فى الحديث ليست هى المساجد التى نعرفها. وبالمثل لا يمكن أن يفهم قوله صلى الله عليه وسلم: "جُعِلَتْ لى الأرض مسجدا" على أن المقصود مسجد مبنى كمساجدنا، فالأرض لا يمكن أن تكون كلها مسجدا بهذا المعنى، وإنما المقصود أنه يصح للمسلم السجود، أى الصلاة، على الأرض فى أى مكان. ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: "خيرُ مساجدِ النِّساءِ قَعْرُ بيوتِهِنَّ". وفوق ذلك هل سمع أحد أن أيا من المسلمين قد شد الرحال إلى مسجد الطائف كما وصى الرسول الكريم فى قوله: "لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ: المسجدِ الحَرامِ، ومسجدِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومسجدِ الأقصى"؟ وهناك رواية لهذا الحديث بالصيغة التالية: "إنَّما الرحلةُ إلى ثلاثةِ مساجدَ: مسجدِ الحرامِ، ومسجدِ المدينةِ، ومسجدِ إيلياءَ". ومن الواضح أن المسجد الأقصى هو مسجد إيلياء، أى بيت المقدس.

ومما له دلالته القوية ومغزاه الذى لا يصح إغفاله أن الآيات التى تلى آية الإسراء من سورة "الإسراء" تتحدث عن بنى إسرائيل وتحذرهم وتهددهم بأن عاقبة إفسادهم فى الأرض عاقبة وبيلة، وأن الله سوف يرسل عليهم فى الإفساد الثانى عبادا له يدخلون "المسجد" كما دخلوه فى المرة الأولى. فانظر كيف ربطت الآيات بين الإسراء وبنى إسرائيل، وكيف ربطت ثانيا بين المسجد الأقصى والمسجد الذى سوف يدخله عباد الله المرسلون لتأديب بنى إسرائيل ومعاقبتهم على عصيانهم وتمردهم وفسادهم.

تقول الآيات المذكورة من أول سورة "الإسراء": "سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا * وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الأَخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا".

ثم إن هناك قبل ذلك كله أحاديث الإسراء والمعراج، وكلها تتكلم عن بيت المقدس لا عن الطائف، تلك المدينة التى لم تذكرها الأحاديث بشىء يدل على أنها مكان مبارك أبدا ولا كانت إليها رحلة الإسراء مطلقا. ثم لو لم يكن لبيت المقدس ومسجدها مكان ومكانة فى الإسلام منذ وقت جد مبكر فلم كان الرسول والمسلمون يتجهون إليه فى صلاتهم حتى نزلت آيات تحويل القبلة فى المدينة من بيت المقدس إلى الكعبة؟ وهل كان أهل الطائف ليسكتوا فلا يقيموا الدنيا ويقعدوها بعد إسلامهم متفاخرين رغم تأخر دخولهم فيه بأن الإسراء كان إلى مدينتهم، وأن المعراج قد انطلق من المسجد الذى كان قائما فيها؟ وهل كانوا ليفوتهم أن يطلقوا على ذلك المسجد: "مسجد الإسراء والمعراج" مثلا؟ بل هل كان النبى ليفوته، ساعة غزوته التى حاصر فيها الطائف وافتتحها، أن يقول مثلا إنه قد جاء ليخلصها من أيدى المشركين ويطهرها من رجس الوثنية ويصيّرها مُسْلِمَةً بوصفها مَسْرَاه ومَعْرَجَه، أو أن يسترجع على الأقل ذكرياته هناك ويشير إلى هذا الموضع أو ذاك قائلا مثلا: هنا وقف البراق ونزلتُ عن ظهره، وهنا صليتُ، وهنا عُرِجَ بى إلى السماوات العلا؟ بل إن الصحابة ما كانوا ليتركوه حتى يتذكر أحداث تلك الليلة من تلقاء نفسه بل كانوا يسارعون فيسألونه عن تفاصيل تلك الأحداث من تلقاء أنفسهم على عادتهم فى سؤاله عن كل صغيرة وكبيرة مما يتصل بالوحى والآيات الخارجة على سنن الكون. ثم لو كان الأمر كذلك لألفيناه صلى الله عليه وسلم، حين كان يصلى فى مكة، يتجه إلى الطائف جاعلا الكعبة بينه وبينها بدلا من بيت المقدس. كذلك ماذا نفعل بخبر تحويل القبلة، بعد وصوله إلى المدينة بزمن غير بعيد، من بيت المقدس وحدها إلى الكعبة وحدها (بعدما كان يصلى إليهما معا فى مكة) واعتراض اليهود على تحويلها من بيت المقدس، الذى يقدسونه، إلى الكعبة، تلك البَنِيّة التى لا تمثل لهم شيئا؟ وهذا الاعتراض موجود فى سورة "البقرة" فى قوله تعالى: "سيقول السفهاء من الناس: ما وَلّاهم عن قِبْلَتِهم التى كانوا عليها؟...". فماذا نفعل فى هذا كله؟ إن ما يقوله زيدان إنما هو كلام متهافت لا رأس له ولا ذيل. وقد أطلقه فى الهواء دون مبالاة بعلم أو تاريخ أو جغرافية أو منطق أو عقل أو تحليل نفسى أو اجتماعى. لقد أراد أن يزعزع الثابت وينشئ بدلا منه جديدا متهاويا ظنا منه أنه قادر على أن

يجعل من تهاويه وهلهلته كلاما راسخا موزونا عاقلا منطقيا. ولكن هيهات. وإن مسارعة إسرائيل إلى الترحيب والاحتفاء به وبكلامه لذو مغزى كبير، ومؤشر خطير.

ثم هل كان المسلمون ليسكتوا على الفريق الذى جعل الإسراء والمعراج إلى ومِنْ بيت المقدس (على الترتيب) بدلا من الطائف؟ يقينا ويمينا لقد كان هذا من شأنه أن يخلق لنا فريقين بين العلماء والمتعالمين: فريق الطائف، وفريق بيت المقدس، ولقد كان حريا أن ينشب بينهم خلاف وخصام حول هذا الموضوع، شأنه شأن أى موضوع آخر فيه رأيان أو أكثر، ولَصُنِّفَت الكتب وعُقِدَت المناظرات وهاج البشر بل ربما تقاتلوا جراء هذا الخلاف. ثم كيف سكت يهود بيت المقدس ونصاراها على الأقل فلم يفضحوا هذا الزيف والتزوير التاريخى الأبلق الذى يتصور زيدان أنه ابن بجدتها: كاشف خباياه وهاتك عوراته؟ أما ما يُفْهَم من كلام زيدان الساذج الذى لا يدخل عقل قطة فهو يخالف المعهود من سنن المجتمعات فى مثل تلك الحالة. إنه تبسيط مخل، ويدل على أن ما يقوله فرية غشيمة. لقد كان بيت المقدس قد فُتِح وانتقل إلى سلطان المسلمين، ولم يكونوا بحاجة إلى تسويغ فتحه ووضع اليد عليه.

أما دعواه بأن النبى والمسلمين فى مكة كانوا يتجهون فى صلاتهم إلى الشمال ناحية المدينة لا ناحية بيت المقدس فمن أين يا ترى جاء بهذا الكلام العجيب؟ وماذا كان فى المدينة مما يمكن أن يجعلها قبلة المسلمين آنذاك فى صلاتهم؟ لقد كانت يثرب مدينة عادية تماما، فليس فيها بيت من بيوت الله الشهيرة ولا ظهر فيها قبلا نبى. ثم كيف يمكن أن نغفل عن الحقيقة التى تفقأ عين كل جهول مكابر والتى تقول إن المسلمين فى المدينة عقيب الهجرة كانوا لا يزالون يصلّون إلى الشمال كما كانوا يصنعون فى مكة. فلو كان يثرب هى قبلتهم فى مكة لقد كان ينبغى ألا يمموا وجوههم هنا أو هناك ما داموا يسكنون عند القبلة ذاتها. أليس كذلك؟

ثم إن لدينا أخبار لقاء اليثربيين بالرسول عقب الحج فى السنة الثانية عشرة من البعثة، وهو اللقاء الذى رَجَوْه فيه أن يهاجر إليهم فيقفوا إلى جانبه ويؤمنوا بدعوته ويصيروا مسلمين، ولا وجود لأى كلام عن يثرب مدينتهم بوصفها قبلة الصلاة فى الإسلام. ولو كانت هى القبلة كما يهرف زيدان لقد كان ينبغى أن يتخذ أهل يثرب من هذه الحقيقة حافزا بل الحافز الوحيد لكى يحثوه من خلاله على تلك الهجرة قائلين له: هيا عجل بالمجىء إلى مدينتنا كى تعيش بجوار قبلة دينك دون مسافات تفصل بينكما.

بل إن فى المدينة مسجدا يقال له: مسجد القبلتين جراء كونه المسجد الذى تصادف أن نزلت آيات تحويل القبلة إلى الكعبة والمسلمون يصلون الظهر وراء الرسول عليه السلام فيه من شهر رجب فى السنة الثانية للهجرة، فما كان منهم سوى الاستدارة أثناء تأديتهم الفريضة إلى الجنوب ميممين شطر الكعبة، فكان شطر صلاتهم ناحية الشمال، والشطر الآخر ناحية الجنوب. واضح أننا كلما حاولنا مسايرة زيدان اصطدمنا بجدار من فولاذ لا يمكن اختراقه أبدا حتى لو انطبقت السماء على الأرض. ورغم هذا نراه يتناول هذه الموضوعات الجليلة الخطيرة ذات الشأن العظيم على نحو رخيص قليل القيمة.

على أن أمر زيدان لا يقف عند الإسراء، فهو ينكر المعراج أيضا. وفى موقع "فيتو" بتاريخ ١٥ ديسمبر ٢٠١٧ نقرأ تحت عنوان "يوسف زيدان يفسر تصريحاته: المعراج فكرة دينية وهمية وليست من العقيدة. الوحى أغنى الإسلام عن العروج. العلماء المسلمون أخطأوا فى تفسير سورة "النجم"، والفن والأدب سبب فى ترويج الوهم" ما يلى: "قرر الكاتب والروائى يوسف زيدان الرد على الحملة التى قامت ضده بعد تصريحاته النارية التى دارت حول إنكاره لمعراج الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومكان المسجد الأقصى، فأصدر مساء أمس بيانه الثانى حول حقيقة المعراج بعد أن قد أعلن فى وقت سابق أنه سيصدر ٧ بيانات متتالية حول تلك التصريحات.

قال زيدان: إن الدين هو علاقة تربط بين الإنسان "الأرضى، المحدود"، والعالم اللامرئى "السماوى، المطلق"، وعلى الرغم من تعدُّد واختلاف الأديان والمذاهب الروحية والنِّحل العقائدية إلا أنها جميعًا تقيم هذه العلاقة على إحدى قاعدتين، لا ثالث لهما: فإما نزول السماوى للأرضى وإما عروج الأرضى إلى السماء. ومن العسير أن نجد أصل الديانة جامعا بين هذين الطريقين لأنه إذا تنزل السماوى بالوحى أو بهبوط المعبود نفسه إلى العالم الأرضى فلا معنى عندئذٍ ولا حاجة للمعارج. وبالعكس إن كانت هذه العقيدة أو تلك من النوع القائم على المفارقة المطلقة بين الوجود السماوى "المتعالى، الترانسندنتالى" والوجود الإنسانى فهنا تأتى ضرورة "المعراج" مثلما هو الحال فى العقائد المسماة باللفظ اليونانى القديم "الغنوص"، أى المعرفة المباشرة التى تحصل عليها النفس الإنسانية إذا ارتقت بالرياضات الروحية، وحلّقت فى العالم الإلهى الأعلى. ومن هذه الديانات والمذاهب الغنوصية: الهرمسية، والفيثاغورية المتأخرة، والعديد من الديانات الشرقية كالزرادشتية الفارسية القديمة، وبعض ديانات الهند العتيقة. وهذه الديانات والمذاهب يحفل تراثها بما لا حصر له

من صور المعراج والارتقاء الروحى إلى العالم الأعلى فى لحظاتٍ معينة مثلما هو الحال فى قصة معراج "أخنوخ" عند الغنوصيين، وقصة معراج أبولونيوس "بلنياس" عند الهرمسيين، وقصة معراج "أرتاويراف" بصحبة الكائن الروحانى "سروش" عند الزرادشتيين، وقصة معراج "أرجنا" بصحبة الكائن الروحانى "إندرا" عند الهنود القدماء وغير ذلك من المعارج.

أما فى الديانات التى نؤمن بها، ونراها ثلاثة: "يهودية، مسيحية، إسلام"، وأراها واحدة الجوهر مختلفة الصيغ والتجليات بحسب اختلاف الأزمنة واللغات، فالقاعدة الأساسية هى النزول الإلهى، والتنزيل الربانى، والوحى الهابط من السماء بوسيط روحانى هو: "روح قدوشيم، روح القدوس، روح القُدُس، جبريل". وبالتالى فلا معنى للمعراج لأن المطلوب حدث بنزول الرب للحرب مع يهوشع بن نون، أو للعراك مع يعقوب الذى غلب فسُمِّى إسرائيل، أو لتخليص الإنسان من الخطيئة الأولى، أو لإيصال الوحى القرآنى عبر جبريل.

والسورة التى يعتبرها بعضُ مفسرى القرآن المتأخرين نصا قرآنيا يدل على المعراج اسمها ليس "المعراج" وإنما "النجم"، وفيها يقول النص القرآنى إن "الله، أو جبريل، أو ذا المِرَّة نزل ودنا وتدلى". والتدلّى هو الهبوط لا الصعود، فكيف يصح ما اعتقده بعض المسلمين من أن السورة تتحدث عن معراج؟ غير أن انتشار هذه الفكرة الوهمية، خصوصا لدى الشعوب المسلمة ذات الخلفية الزرادشتية والعقائد الهندية، أدى إلى ازدهار الخيال وتنشيط النزعة الأدبية التى صاغت المعراج النبوى المظنون فى نصوص شعرية مثل "معراج نامة، رحلة الطير"، وفى لوحات الفن الفارسى المعروف باسم المنمنات. لكن هذه إبداعات فنية وأدبية، وليست أصولا عقائدية".

هذا ما قاله زيدان، والآن نعقب على ما قال: فأما أن اتصال السماء بالأرض لا يتم إلا عبر اتجاه واحد: إما نزولا أو صعودا فلا أدرى من أين أتى به. هل هناك قانون كونى يقول بهذا ويعرفه يوسف زيدان وحده دون الناس أجمعين؟ بالطبع لا يوجد مثل هذا القانون، وإنما هو من بُنَيَّات أوهامه. وما دام يستشهد بالكتاب المقدس أفلم يقرأ فى سفر "التكوين" عن أخنوخ، وهو السابع من آدم من نسل شيث (يهوذا ١٤)، وعاش ٣٦٥ سنة (تك ٥: ٢٣)، وكتب عنه مؤلف السفر المذكور: "سار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه" (تك ٥: ٢٤). وعبارة "سار مع الله" تدل على حياة مكرسة عاشها فى شركة وثيقة مع الله، والمفهوم من عبارة "لم يوجد لأن الله أخذه" أنها تعنى ما ذكره كاتب الرسالة إلى العبرانيين: "بالإيمان نقل أخنوخ لكى لا يرى الموت، ولم

يوجد لأن الله نقله" (عب ١١: ٥) كما جاء فى مادته الموجودة فى "دائرة المعارف الكتابية"؟ وبالمناسبة فأخنوخ قد ورد ذكره وصعوده إلى السماء فى العهد القديم. فصعوده إذن هو اعتقاد كل من يؤمن بالكتاب المقدس من نصارى ويهود وغيرهم من أتباع الأنبياء السابقين، وليس اعتقادا غنوصيا كما قال د. يوسف زيدان. على الأقل: هو اعتقاد كتابى فى الأصل. ألم يقرأ عن صعود إشَعْيَاء إلى السماوات بعد استشهاده وعودته إلى الحياة؟ ألم يقرأ صعود السيد المسيح فى ظروف مشابهة؟ وكل منهم كان نبيا قبل هذا. أى أن النبوة نزلت عليه أولا ومارسها طويلا قبل أن يصعد إلى السماء. فقصة أخنوخ، كما يرى القارئ الكريم، تدل على عكس ما قاله زيدان حين استشهد بها، وتنسف كل دعواه نسفا، إذ كان أخنوخ قد "نزل عليه الوحى" أولا وصار نبيا قبل "صعوده إلى السماء"!

وبالمثل كان إيليا نبيا، أى نزل عليه الوحى، ثم حدث أن أصعده الله فى العاصفة إلى السماء فلم يعد يُرَى من يومئذ كما هو مكتوب فى الإصحاح الثانى من سفر "الملوك الثانى": "١وَكَانَ عِنْدَ إِصْعَادِ الرَّبِّ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ، أَنَّ إِيلِيَّا وَأَلِيشَعَ ذَهَبَا مِنَ الْجِلْجَالِ. ٢فَقَالَ إِيلِيَّا لأَلِيشَعَ: «امْكُثْ هُنَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَى بَيْتِ إِيلَ». فَقَالَ أَلِيشَعُ: «حَي هُوَ الرَّبُّ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ، إِنِّي لاَ أَتْرُكُكَ». وَنَزَلاَ إِلَى بَيْتِ إِيلَ. ٣فَخَرَجَ بَنُو الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ إِيلَ إِلَى أَلِيشَعَ وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّهُ الْيَوْمَ يَأْخُذُ الرَّبُّ سَيِّدَكَ مِنْ عَلَى رَأْسِكَ؟» فَقَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي أَعْلَمُ فَاصْمُتُوا». ٤ثُمَّ قَالَ لَهُ إِيلِيَّا: «يَا أَلِيشَعُ، امْكُثْ هُنَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَى أَرِيحَا». فَقَالَ: «حَي هُوَ الرَّبُّ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ، إِنِّي لاَ أَتْرُكُكَ». وَأَتَيَا إِلَى أَرِيحَا. ٥فَتَقَدَّمَ بَنُو الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ فِي أَرِيحَا إِلَى أَلِيشَعَ وَقَالُوا لَهُ: «أَتَعْلَمُ أَنَّهُ الْيَوْمَ يَأْخُذُ الرَّبُّ سَيِّدَكَ مِنْ عَلَى رَأْسِكَ؟» فَقَالَ: «نَعَمْ، إِنِّي أَعْلَمُ فَاصْمُتُوا». ٦ثُمَّ قَالَ لَهُ إِيلِيَّا: «أُمْكُثْ هُنَا لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَى الأُرْدُنِّ». فَقَالَ: «حَي هُوَ الرَّبُّ، وَحَيَّةٌ هِيَ نَفْسُكَ، إِنِّي لاَ أَتْرُكُكَ». وَانْطَلَقَا كِلاَهُمَا. ٧فَذَهَبَ خَمْسُونَ رَجُلا مِنْ بَنِي الأَنْبِيَاءِ وَوَقَفُوا قُبَالَتَهُمَا مِنْ بَعِيدٍ. وَوَقَفَ كِلاَهُمَا بِجَانِبِ الأُرْدُنِّ. ٨وَأَخَذَ إِيلِيَّا رِدَاءَهُ وَلَفَّهُ وَضَرَبَ الْمَاءَ، فَانْفَلَقَ إِلَى هُنَا وَهُنَاكَ، فَعَبَرَا كِلاَهُمَا فِي الْيَبَسِ. ٩وَلَمَّا عَبَرَا قَالَ إِيلِيَّا لأَلِيشَعَ: «اطْلُبْ: مَاذَا أَفْعَلُ لَكَ قَبْلَ أَنْ أُوخَذَ مِنْكَ؟». فَقَالَ أَلِيشَعُ: «لِيَكُنْ نَصِيبُ اثْنَيْنِ مِنْ رُوحِكَ عَلَيَّ». ١٠فَقَالَ: «صَعَّبْتَ السُّؤَالَ. فَإِنْ رَأَيْتَنِي أُوخَذُ مِنْكَ يَكُونُ لَكَ كَذلِكَ، وَإِلاَّ فَلاَ يَكُونُ». ١١وَفِيمَا هُمَا يَسِيرَانِ وَيَتَكَلَّمَانِ إِذَا مَرْكَبَةٌ مِنْ نَارٍ وَخَيْلٌ مِنْ نَارٍ فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى

السَّمَاءِ. ١٢وَكَانَ أَلِيشَعُ يَرَى وَهُوَ يَصْرُخُ: «يَا أَبِي، يَا أَبِي، مَرْكَبَةَ إِسْرَائِيلَ وَفُرْسَانَهَا». وَلَمْ يَرَهُ بَعْدُ".

وكذلك الأمر مع النبى إدريس، الذى لم تمنع نبوته، أى "نزول الوحى عليه" أن "يُعْرَج به إلى السماء" بعد ذلك كما جاء فى قوله تعالى من سورة "مريم": "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا"، الذى يفسره الطبرى بقوله: "يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد فى كتابنا هذا إدريس "إِنَّهُ كانَ صِدّيقًا" لا يقول الكذب، "نَبِيًّا" نوحى إليه من أمرنا ما نشاء، "وَرَفَعْناهُ مَكانا عَلِيًّا". ذكر أن الله رفعه وهو حى إلى السماء الرابعة، فذلك معنى قوله: "وَرَفَعْناهُ مَكانا عَلِيًّا". يعنى به: إلى مكان ذى علوّ وارتفاع. وقال بعضهم: رُفِع إلى السماء السادسة. وقال آخرون: الرابعة". كما أورد الطبرى الرواية التالية: "لما أُسْرِى بالنبى صلى الله عليه وسلم صعد به جبريل إلى السماء الرابعة، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل. قالوا: ومن معه؟ قال: محمد. قالوا: أَوَقَدْ أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قالوا: حَيَّاه الله من أخ ومن خليفة. فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ونعم المجيء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل. قال: هذا إدريس رفعه الله مكانا عليًّا".

ثانيا كيف يجزم زيدان أن سورة "النجم" لا تتحدث إلا عن رؤية واحدة رأى فيها النبىُّ عليه السلام بالأفق الأعلى "شديدَ القُوَى ذا المِرَّة" الذى علّمه الوحى، بينما الآيات التى تلى ذلك مباشرة تصف رؤية أخرى فى مكان آخر من الكون: عند سدة المنتهى، التى عندها جنة المأوى؟ يقول سبحانه وتعالى: "ولقد رآه نَزْلَةً أخرى * عند سِدْرَةِ المُنْتَهَى * عندها جنةُ المأوى * إذ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يغشى * ما زاغ البصرُ وما طَغَى * لقد رأى مِنْ آياتِ ربِّه الكبرى". أم تراه يقول بأن جنة المأوى موجودة على الأرض؟ فِلْيُرِنَاها ما دام واثقا بنفسه وبأوهامه إلى هذا المدى.

ثم لدينا أحاديث المعراج ذاتها. ففى "صحيح البخارى" مثلا أَنَّ "رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: فُرِجَ عن سقفِ بيتى وأنا بمكةَ، فنزَل جِبريلُ ففرَج صدرى ثم غسَله بماءِ زَمزَمَ، ثم جاء بطَسْتٍ من ذهَبٍ ممتَلئٍ حكمةً وإيمانًا فأفرَغه فى صدرى، ثم أطبَقه، ثم أخَذ بيدى فعرَج بى إلى السماءِ الدنيا. فلما جئتُ إلى السماءِ الدنيا قال جِبريلُ لخازنِ السماءِ: افتَح. قال: مَن هذا؟ قال: هذا جِبريلُ. قال: هل معَك أحدٌ؟ قال: نعمْ، معى محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقال: أُرسِلَ إليه؟ قال: نعمْ. فلما فتَح عَلَوْنا السماءَ الدنيا، فإذا رجلٌ قاعدٌ، على يمينِه أَسوِدَةٌ، وعلى يسارِه أسوِدَةٌ، إذا نظَر قِبَلَ يمينِه ضحِك، وإذا نظَر قِبَلَ يسارِه بَكى، فقال: مرحبًا بالنبى الصالحِ والابنِ الصالحِ. قلتُ

لجِبريلَ: مَن هذا؟ قال: هذا آدَمُ، وهذه الأَسوِدَةُ عن يمينِه وعن شمالِه نَسَمُ بنيه: فأهلُ اليمينِ منهم أهلُ الجنةِ، والأسوِدَةُ التى عن شمالِه أهلُ النار، فإذا نظَر عن يمينِه ضحِك، وإذا نظَر قِبَلَ شمالِه بَكى، حتى عَرَج بى إلى السماءِ الثانيةِ، فقال لخازِنِها: افتحْ.. فقال له خازنُها مثلَ ما قال الأولُ، ففتح. قال أنسٌ: فذكَر أنه وجَد فى السماواتِ آدَمَ وإدريسَ وموسى وعيسى وإبراهيمَ صلواتُ اللهِ عليهم، ولم يُثبِتْ كيف منازلُهم، غيرَ أنه ذكَر أنه وجَد آدَمَ فى السماءِ الدنيا، وإبراهيمَ فى السماءِ السادسةِ. قال أنسٌ: فلما مرَّ جِبريلُ بالنبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإدريسَ قال: مرحبًا بالنبى الصالحِ والأخِ الصالحِ. فقلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إدريسُ. ثم مرَرتُ بموسى، فقال: مرحبًا بالنبى الصالحِ والأخِ الصالحِ. قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مرَرتُ بعيسى، فقال: مرحبًا بالأخِ الصالحِ والنبى الصالحِ. قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا عيسى. ثم مرَرتُ بإبراهيمَ، فقال: مرحبًا بالنبى الصالحِ والابنِ الصالحِ. قلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا إبراهيمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قال ابنُ شهابٍ فأخبَرَنى ابنُ حزمٍ: أنَّ ابن عباسٍ وأبا حبةَ الأنصارى كانا يقولانِ: قال النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ثم عُرِج بى حتى ظهَرتُ لمستوَى أسمَع فيه صَريفَ الأقلامِ. قال ابنُ حزمٍ وأنسُ بنُ مالكٍ: قال النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ففرَض اللهُ على أُمَّتى خمسينَ صلاةً، فرجَعتُ بذلك، حتى مرَرتُ على موسى، فقال: ما فرَض اللهُ لك على أُمَّتِك؟ قلتُ: فرَض خمسينَ صلاةً. قال: فارجِعْ إلى ربِّك، فإنَّ أُمَّتَك لا تُطيقُ ذلك. فراجَعنى فوضَع شَطْرَها، فرجَعتُ إلى موسى، قلتُ: وضَع شَطرَها. فقال: راجِعْ ربَّك، فإنَّ أُمَّتَك لا تُطيقُ. فراجَعتُ فوضَع شَطرَها، فرجَعتُ إليه، فقال ارجِعْ إلى ربِّك، فإنَّ أُمَّتَك لا تُطيقُ ذلك، فراجَعتُه، فقال: هى خمسٌ، وهى خمسونَ، لا يُبَدَّلُ القولُ لدى، فرجَعتُ إلى موسى، فقال: راجِعْ ربَّك، فقلتُ: استَحْيَيْتُ من ربى، ثم انطَلَق بى حتى انتَهى بى إلى سِدرةِ المنتهى، وغشِيها ألوانٌ لا أدرى ما هى، ثم أُدخِلتُ الجنةَ، فإذا فيها حبايلُ اللؤلؤِ، وإذا ترابُها المسكُ".

وأما ما قاله عن تأثر قصة المعراج بحكايات مشابهة لدى الأمم الأخرى فلسوف أقف من تلك الحكايات لدى الحكاية الزرادشتية المتعلقة برحلة أرتاويراف، وكذلك لدى رحلة إيتانا البابلية كى يتبين للقارئ مدى التدليس فى الكلام. وإننا لنتساءل: أين يا ترى كانت تلك الحكاية الزرادشتية التى يتحدث عنها الكاتب؟ هل تُرْجِمت إلى العربية حتى يمكن القول باحتمال اطلاع العرب عليها؟ أم هل جاء ذكر للكتاب فى تراثنا العربى قط؟ فمن ذكره يا ترى؟ وفى أى سياق؟

واضح أن زيدان قد ألقى كلمته دون احتياط على الإطلاق، ولم يفكر لا فى العواقب ولا حتى فى المصادر! ويزيد الأمر سوءا وتعقيدا وغرابة أن زيدان لم يجشم نفسه تعريفنا برحلة الموبذ الزرادشتى أرتاويراف هذه، بل اكتفى بالقول بأنها معراج. وفى "الموسوعة الإيرانية: Encyclopedia Iranica" نطالع قصة هذا المعراج فى مادة "ARDĀ WĪRĀZ".

ومنها يتضح أن الذى قام بالرحلة موبذ زرادشتى (لا نبى) من سَدَنة بيت النار (أى أنه وثنى) أراد أن يتحقق من صحة دينه وما يقوله هذا الدين عن الآخرة والثواب والعقاب (أى أنه هو الذى قرر القيام بتلك الرحلة لا أن الله هو الذى شاء له ذلك، وأنه لم يكن واثقا من دينه فأراد التحقق من صحته، وهو ما يختلف تمام الاختلاف عن وضع نبينا عليه السلام) وأنه كان متزوجا بسبع نساء هن أخواته جريا على ما هو جائز وشائع فى ديانتهم (على عكس النبى الكريم، الذى لم يكن متزوجا آنذاك، فقد ماتت خديجة زوجته الوحيدة وصار بلا زوجة، فضلا عن أن الإسلام يحرم الاقتران بالأخوات)، وأن زوجاته كن مشفقات بل مرتعبات من رحلته هذه التى كان على روحه أن تفارق خلالها جسده إلى أن تنتهى منها فتعود كرة أخرى إلى ذلك الجسد، وأنه لكى يستعد للقيام بالرحلة قد تناول شرابا أفقده الوعى لمدة سبعة أيام وسبع ليال... إلخ. فأين هذا كله من المعراج المحمدى؟ وهل كان العقل الإسلامى ليقبل أن يخترع لنبيه معراجا يقلد فيه موبذا فارسيا وثنيا عابدا للنار متخلف العقيدة والشعائر فى مثل تلك الرحلة؟ وهل كان الفرس الشعوبيون الكارهون للإسلام ليسكتوا على ذلك فلا يشنعوا به على الرسول الكريم ودينه وقرآنه؟

أما رحلة إيتانا فيمكن الرجوع إلى"Encyclopædia Britannica"، التى خصصت لها مادة بعنوان "Etana Epic"، وقالت ما تَرْجَمَتُه حسبما جاء فى مقال لآية عبد الرحمن فى موضع "رصيف ٢٢" عنوانه "كيف تشابهت أحداث المعراج الإسلامى مع مثيلاتها فى الديانات الأخرى؟" (بتاريخ ٢٢/ ٤/ ٢٠١٧) تبدى فيه ابتهاجها لأنها، كما تظن وتتوهم، قد وضعت يدها على المصدر الذى أُخِذَتْ منه رحلة الإسراء والمعراج المحمدية. تقول الكاتبة تحت عنوان جانبى هو "إيتانا- الصعود المقدس عند البابليين": "إلى جانب الزرادشتية تتشابه أحداث المعراج الإسلامى مع أسطورة الملك إيتانا البابلية، والتى نقلتها إلينا بعض الألواح الأثرية، بحسب الموسوعة البريطانية.

تبدأ القصة بأنه لم يكن هناك ملك على الأرض حتى قررت الآلهة أن تصطفى واحدا، فوقع اختيارها على إيتانا، فحكم شعبه على خير وجه، ولكنه عانى من أن زوجته لم تمنحه وريثا، ولم يكتمل لها حمل قط، وأصبح الملك العظيم مهددا بأن يموت دون وريث يعتلى العرش من بعده.

وكان الحل الوحيد أمام إيتانا أن يصل إلى نبتة الولادة أو شجرة الولادة التى تنبت فى السماء، وكان مطلوبا منه أن يصعد بنفسه لإحضارها ليظفر بالوريث الذى يحلم به. وعلى هذا تضرع إيتانا للإله شَمَشْ، فاستجاب لصلواته وأمره بالسير إلى جبلٍ معينٍ حيث سجن نسرا مارقا فى حفرة عقابا له على إخلافه بعهدٍ مقدس. كان خلاص إيتانا من لعنته يتمثل فى الحصول على مساعدة هذا النسر فى بلوغ النبتة، فعمل على إنقاذه من حفرته، واعتنى به. ومكافأةً له على نبله أخذه الطائر العظيم إلى السماء.

لا نعرف على وجه الدقة كيف كانت رحلة إيتانا نظرا لأن اللوح الأثرى الذى دونت عليه القصة تكسَّر فى أكثر من موضع، ولكن الجزء السليم منه ذكر أن الملك البابلى الصالح بلغ السماء، وهناك انهار شبه فاقد للوعى. ولكن مهما كان مسار الأحداث فقد عاد بجزءٍ من نبتة الولادة، ورزق ابنا هو الملك "بالح".

ويرجح المؤرخون أن يكون الملك إيتانا الذى ذكرته الأسطورة هو نفسه الملك إيتانا الذى حكم مدينة كيش فى جنوب بلاد ما بين النهرين فى وقتٍ ما من النصف الأول من الألفية الثالثة قبل الميلاد. وإلى جانب أنها من القصص الأولى التى ذكرت الصعود إلى السماء فى التاريخ الإنسانى فهى أيضا من أوائل القصص التى عرضت تَوْق الإنسان إلى وريث يحمل اسمه ويكون امتداده فى الحياة". وهذا هو الأصل الإنجليزى بحذافيره:

"Etana Epic, ancient Mesopotamian tale concerned with the question of dynastic succession. In the beginning, according to the epic, there was no king on the earth; the gods thus set out to find one and apparently chose Etana, who proved to be an able ruler until he discovered that his wife, though pregnant, was unable to give birth, and thus he had no heir to the throne. The one known remedy was the birth plant, which Etana was required to bring down personally from heaven.

Etana, therefore, prayed to the god Shamash, who heard his request and directed him to a mountain where a maimed eagle, languishing in a pit (into which it had been thrown as punishment for breaking a sacred pact), would help him obtain the special plant. Etana rescued the eagle, and as a reward it carried him high up into the sky.

The result of Etana's quest is uncertain because of the incomplete state of the texts. According to one fragment, Etana reached heaven and prostrated himself before the gods. There the text breaks off. According to another fragment, however, Etana either became dizzy or lost his nerve before reaching heaven and crashed to the ground. If, as many scholars believe, Etana was successful, the myth may have been used to support early dynastic claims.

Etana of the myth is probably the Etana who ruled Kish in southern Mesopotamia sometime in the first half of the 3rd millennium BC, although there is no historical evidence laying claim to the exploits recorded in the epic. His flight is depicted on several cylinder seals of the period".

فأين، بالله عليك أيها القارئ، وجه الشبه بين معراج رسولنا وبين هذا الكلام؟ لا يوجد شيء على الإطلاق: فالكلام هنا عن ملك، بينما فى معراجنا هناك نبى. وعندنا إله واحد، وفى أسطورة إيتانا مجمع من الآلهة. وبينما نحن مع رسولنا أمام توحيد صاف نقى خالص إذا بنا مع إيتانا إزاء شرك ووثنية. وفى معراج محمد لدينا البراق، ولا براق فى أسطورة إيتانا. كذلك فرحلة محمد السماوية رحلة روحية، أما هنا فرحلة دنيوية تتعلق بالحكم ووراثة العرش والعقم والحمل والولادة وما إلى ذلك. كما أن فى أسطورة إيتانا نسرا ونبتة للولادة، وهو ما لا وجود له فى معراج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم... وهكذا، وهكذا. فما معنى ذلك الابتهاج إذن، وكأن الكاتبة قد أتت بالذئب من ذيله؟ إن الأمر لا يزيد عن كونه أوهاما خطرت لها أو لمن نقلت عنهم. ومثل هذه

الأمور لا تؤخذ بالأوهام؟ وبالمناسبة لم تقل "Encyclopædia Britannica" كلمة واحدة عن أى تشابه بين أسطورة إيتانا وبين معراج الرسول العربى الكريم. إن يوسف زيدان ومن يشبهه إنما يحطبون فى حبل أولئك الكتاب الذين أصابهم السعار سعيا منهم لقلب المعارف التاريخية والجغرافية رأسا على عقب بِلَىّ رقاب الحقائق العلمية بل بكسرها وتحطيمها، ومنهم مثلا كمال الصليبى الأستاذ اللبنانى الذى كتب زاعما أن مواضع التوراة وبنى إسرائيل ليست فى فلسطين بل فى جزيرة العرب. وهو يلجأ فى هذا إلى طرق وأساليب غاشمة معتسفة لا ترعى حقا ولا تلتزم بمنطق، وإن كان هناك من يهلل له ويهتف بمنهجه مدعيا أنه سوف يعدل الأوضاع المائلة الباطلة ويعيد الحق التاريخى إلى نصابه.

ومن هؤلاء أيضا المستشرق الإيطالى كايتانى، الذى يدعى أن "سِدْرَة المنتهَى" المذكورة فى سورة "النجم" بوصفها الموضع الذى رأى عندها رسولُنا الكريم جبريلَ عليهما السلام نزلةً أخرى هى شجرة نبق كانت تقوم على أطراف مكة، وأن "جنة المأوى" التى كانت عند تلك السدرة هى فيلا من الفلل هناك. وقد نقل ريجى بلاشير فى ترجمته الفرنسية للقرآن المجيد ذلك التفسير فى الهامش عند ترجمته آيتى سورة "النجم" اللتين ذكرتا سدرة المنتهى وجنة المأوى.

أما ما زعمه يوسف زيدان عن عبد الملك بن مروان واللعبة السياسية التى لعبها حين بنى المسجد الأقصى فنجده عند المستشرق الدانمركى فرانتس بوهل، الذى قال فى مادة "القدس" من "The Encyclopadia of Islam" (ط١) إن العاهل الأموى قد شيد المسجد المذكور ليصرف المسلمين التابعين له عن الحج إلى بيت الله الحرام، الذى كان واقعا آنذاك تحت سيطرة الزبيريين، خشية أن يهتبل ابن الزبير تلك السانحة فيأخذ منهم البيعة له. وهذا كلام مضحك، إذ ما المشكلة فى أن يأخذ ابن الزبير من أتباع الخليفة الأموى العهد له؟ فليعطوه ما يريد من عهد بل من عهود، وليرموا بتلك العهود خلف ظهورهم فور مفارقتهم مكة. ترى ما المشكلة فى هذا؟ لقد اعتمد بوهل على رواية لليعقوبى الشيعى المبغض لبنى أمية والمفترى عليهم الأكاذيب لأن حج الشاميين لم ينقطع يوما طوال أيام عبد الملك حسبما ذكر الطبرى وابن سعد والبلاذرى مثلا. ثم إن أحدا قبل اليعقوبى لم يقل هذا السخف، فهل يعقل أن يظل هذا الخبر كامنا فى الزوايا المظلمة إلى أن أتى اليعقوبى فاكتشفه دون الخلق أجمعين؟ والعجيب أن يقول اليعقوبى إن هذا الأمر قد استمر طوال حكم الأمويين مع أنه يعود فيقول إن عبد الملك ذاته قد حج إلى البيت الحرام. فكيف نوفق

بين هذين النقيضين؟ ثم هل يمكن أن يقدم عبد الملك على خطوة كارثية مثل هذه ولا يرتج العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه؟ وكيف لم يحاول الزبيريون اهتبال هذه الفرصة للتشنيع على هذا الغريم المزعج الخطير؟ وباستطاعة القارئ العودة فى هذا الموضوع إلى كتابى: "دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية- أضاليل وأباطيل" فى الفصل الخاص بالأمور التاريخية فى تلك الموسوعة المفعمة بالأكاذيب والتلفيقات والأحقاد والتى تكاد ألا تترك شيئا فى الإسلام إلا وشككت فيه وفسرته تفسيرا مسيئا غير عابئة بحق أو حقيقة.

وهناك فى الفترة الأخيرة اتجاه بين قطيع من المستشرقين ومن يعدو لاهثا على آثارهم يتلخص فى إشاعة الاضطراب والتشكيك فى كل شىء يتعلق بالنبى محمد والدين الذى أتى به من حيث الجغرافيا والتاريخ والوقائع التى حدثت عندئذ. بل إن بعضهم لينكر أن يكون هناك شخص اسمه محمد أصلا، ومن ثم لم يكن هناك قرآن، بل هو نص اخْتُرِع اختراعا فيما بعد أيام الأمويين وصُنِعَت له سيرة واخْتُلِق له شخص اسمه محمد قيل على سبيل الزيف والبهتان إنه كان رجلا عربيا نزل عليه الوحى بالقرآن مع أن شيئا من ذلك ليس له أى وجود كما يزعم هؤلاء المتاعيس. وهم يَرَوْن أن هذا هو التفكير الحداثى الذى يخرج على المواضعات البالية، متصورين أو موهمين قراءهم أن التفكير المنطقى شىء أكل عليه الدهر وشرب. وهم فى سبيل هذا يأتون بأمور تضحك الثكالى من فرط سخفها وتهافتها، ومع ذلك نجدهم يكتبون هذا السخف بكل جمود وجه.

فزيدان لا يأتى بشىء جديد فى هذا الخلط الذى يمارسه بل هو حاطبٌ فى حبال أولئك الناس يقلدهم تقليدا. وما أسرع أن التقط الصهاينة الخيط فأَثْنَوْا عليه وأكبروا من شأنه ورحبوا أيما ترحيب به وبما قال لأنه يخدم دعاواهم وأطماعهم فى فلسطين، التى امتلخوها من أهلها العرب والمسلمين ويريدون أن يهدموا أمرها فى نفوسنا حتى تنسى الأجيال القادمة عروبة تلك الأرض المباركة وإسلاميتها ويتركوها لليهود. وهيهات ثم هيهات مهما كانت أحوالنا وأوضاعنا الآن فى غاية السوء والانحطاط.

أما إنكار الإسراء والقول بأنه كان فى المنام فكلام لا معنى له فى ضوء النص القرآنى، الذى يقول: "سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا. إنه هو السميع البصير"، إذ لا يقال عن النائم إنه أُسْرِىَ به، كما لا يقال: أُسْرِىَ بروحه. ومن هنا لا يصح أن يقال إن فلانا أُسْرِىَ به إلا إذا كان هو نفسه الذى سرى،

وكان مسراه فى اليقظة لا فى المنام. وبالمثل لا يقال عن الصور والأشباح التى يراها الشخص فى المنام إنه قد رأى آيات ربه. كذلك لا تُوصَف مثل هذه الرؤيا بأنها معجزة يسبّح القرآنُ جَرَّاءَها اللهَ عز وجل. ثم لو كانت مجرد رؤيا لما أثارت أحدا من المشركين ودفعته إلى التكذيب لأن أحدا لا يفكر فى تكذيب خيالات النائمين، إذ ما أكثر الخيالات التى نراها فى المنام والتى كثيرا ما تصل فى الغرابة والإدهاش حدا بعيدا شاسعا، ورغم هذا لا ينكرها أحد لا من المحبين المرافئين ولا من المبغضين المعارضين.

* * *

وفى حوار أجرته أميرة العنانى وأحمد ونيس مع محمد خالد ثابت ابن الشيخ خالد محمد خالد بعنوان "من الإلحاد إلى التصوف- رحلة نجل المفكر خالد محمد خالد للبحث عن الذات" فى صحيفة "أمان" فى باب "وجهات نظر" بتاريخ ١٨ أبريل/ ٢٠١٨ م رد على السؤال التالى: "كيف بدأت رحلة بحثك عن الله؟" بقوله: "عام ١٩٧١ كنت أدرس فى الجامعة الأمريكية، وكان يدرِّس فيها أساتذه مستشرقون. كان هناك دورات تدريبية ودراسات فى القرآن، وكنت أدرس مع الدكتور محمد النويهى أستاذ الأدب، وكان مقتنعا بمنهج المستشرقين. وكان الهدف من التدريب التشكيك فى القرآن. وكان عنده نظرية أن القرآن يجب أن يعاد ترتيب آياته، وله أفكار كثيرة غريبة وشاذة، درست معه فى عدة دورات تدريبية.

وحول نفس الموضوع نشرت صحيفة "القاهرة" المصرية فى الصفحة الخامسة (العدد ١٤٤) حوارًا مع الدكتور يوسف صديق بجامعة السوربون بعنوان "المفكر التونسى يوسف صديق: نحن لم نقرأ القرآن بعد" أدلى فيه الأستاذ المذكور ببعض الآراء التى استوقفتنى ورأيت أنها تحتاج إلى مراجعة لأنها تثير قضايا على قدر عظيم من الخطورة لا يمكن أن يمر كلامه فيها دون تمحيص وتعقيب. ولتكن بداءتنا عنوان الحوار نفسه: "نحن لم نقرأ القرآن بعد"، وهو عنوان الكتاب الذى جاء فى حديثه إلى الصحيفة أنه بسبيل إعداده، وقد أدلى الرجل بكلامين فى هذه المسألة: الأول فى بداية الحوار، وهو أننا " كلما تقدمنا وتعمقنا فى الفكر و الفلسفة استطعنا أن نفهم القرآن بشكل يتواءم مع التقدم فى معرفتنا". وهذا كلام لا نستطيع إلا أن نتفق معه فيه، فالقرآن أوسع وأعمق وأبعد غورًا من أن يفهم حق الفهم دفعة واحدة، بل ستظل هناك دائماً، مهما طال الزمان، أبعاد تحتاج إلى من يحاول ارتيادها واكتشاف ما فيها من أسرار. وسبب ذلك أنه من عند الله،

فهو يمثل المعرفة المطلقة، أما معارف البشر فهى محدودة ونسبية. لكن الأستاذ صديق قد عدّل كلامه هذا قرب خاتمة الحوار (والعبرة، كما يقولون، بالخواتيم) فقال إننا لم نقرأ القرآن بعد بما يعنى بوضوح أن كل ما قمنا به طوال الأربعة عشر قرنًا من تلاوة القرآن وتفسيره ودراسته فى كتب تعد بالآلاف، فضلًا عما وُضِع حوله من معاجم واستُخلص منه من علوم..إلخ..إلخ هو عبث فى عبث، وأن يوسف الصديق سيكون أول من يقرأ القرآن من عباد الله. أى أن علينا أن نضرب صفحًا عن كل هذا التراث القرآنى الذى شاركت فى صنعه عشرات الأجيال ونشتغل فقط بما سيجود علينا به قلمه فى هذا الصدد، فهل من يوافق على هذا الكلام الغريب الذى أظن أنه هو مقصد المؤلف الحقيقى، وإن لم يشأ أن يجابهنا به فى بداية الحوار بل مهّد له بأن القرآن "لا يكشف عن دلالاته مرة واحدة"؟ وهو أسلوب من التدرج يلجأ إليه بعض الكتاب بغية تخدير القارئ المسكين!

وفى السؤال الثانى والثالث تتساءل مجرية الحوار عما طرحه د. يوسف صديق فى كتابه الذى صدر هذا العام باسم "القرآن كتاب مفتوح" (وإن كان العنوان الفرنسى كما يظهر فى صورة الغلاف المنشورة مع الحوار هو "القرآن: قراءة جديدة وترجمة جديدة") من فكرة تدعو إلى تفسير آيات القرآن حسب تواريخ نزولها لا حسب ترتيبها فى المصحف، وكان جوابه أنه لا يمس سوى عمل بشرى لا صلة له بالقدسية. يقصد أن ترتيب الآيات داخل كل سورة هو من عمل الصحابة. وهذا غير صحيح، ولم يقل به أحد إلا هو، إذ ادعى أن الرسول قد ترك القرآن قِطَعًا متفرقة لا تنتظم فى سورة، وهو ادعاء باطل ألقى به د. صديق باستخفاف لا يليق بأستاذ جامعى أو غير جامعى.

لو كان الكلام اقتصر على "تفسير" القرآن حسب ترتيب النزول لآياته فربما لم يجد د. صديق من يختلف معه، فهذا لون آخر من ألوان الدراسات القرآنية الكثيرة رغم الصعوبة البالغة بل رغم الاستحالة التى تكتنف مثل هذه الدراسة القرآنية لأن كثيرًا جدًا من آيات القرآن لا نعرف لها سبب نزول، ولأن قسمًا من الآيات الأخرى قد اختلف حول سبب نزوله. ومن قبل قام العالم الفلسطينى محمد عزة دروزة بتفسير القرآن حسب الترتيب النزولى للسور مع الصعوبة الشديدة فى ذلك لأنه لا إجماع هنالك على مثل هذا الترتيب، علاوة على أن عددًا كبيرًا من سور القرآن لم تنزل منه السورة دفقة واحدة ولا دفقات متتالية، قلت: لو كان الكلام اقتصر على

"تفسير" القرآن حسب الترتيب الزمنى لآياته فربما لم يجد المؤلف من يختلف معه، بيد أن كلامه فى الجواب عن السؤال المذكور يشير بوضوح إلى أن المسألة تتجاوز هذا إلى الدعوة إلى "ترتيب" آيات القرآن كله حسب تاريخ نزولها لا إلى "تفسيرها". ومعنى هذا أن تنفرط آيات القرآن كما تنفرط حبات المسبحة و ينهار بناؤه إلى أن يهل علينا العبقرى الذى يقدر على صنع "المستحيل" فيعيد ترتيبه حسب التاريخ الخاص بنزول كل آية، وهو ما لن يتحقق دهر الداهرين، اللهم إلا إذا قال د. صديق إنه هو ذلك "العبقرى المنتظر"، وهيهات أن نصدقه! ومرة أخرى نقول إن الكلام فى هذا الحوار يبدأ بفكرة بريئة ثم يفاجأ القارئ بأن الأرض الصلبة التى كانت تحت قدميه قد استحالت بقدرة قادر إلى رمال متحركة تريد أن تبتلعه ابتلاعاً.

وأمامى الآن ترجمتان إنجليزيتان للقرآن الكريم حاولتا هذه المحاولة: إحداهما للقسيس البريطانى رودويل، والثانية للمدعو داود، وهما تختلفان فى ذلك الترتيب اختلافًا بعيداً، وكان ريجى بلاشير قد رتب القرآن فى الطبعة الأولى من ترجمته الفرنسية لكتاب الله سبحانه على نحو مخالف لهذين الترتيبين، ثم عاد إلى الترتيب المصحفى فيما بعد ذلك من طبعات. كما أن بعض مترجمى القرآن ممن التزموا ترتيب السور حسبما ورد فى المصحف يصدّرون ترجمتهم بدراسة عن القرآن يتناولون فيها، ضمن ما يتناولون، مسألة ترتيب الوحى ترتيبًا زمنيا محاولين استخلاص السمات المضمونية والأسلوبية التى تميز كل مرحلة فى تاريخ نزوله، وإن اقتصر الأمر فى ذلك على الخطوط العامة وممن فعل ذلك إدوار مونتيه السويسرى وبلاشير الفرنسى فى ترجمتيهما للقرآن إلى الفرنسية. ويجد القارئ تفصيلًا لهذا الأمر فى الباب الثانى من كتابى: "المستشرقون والقرآن"، وهاتان الترجمتان أمامى الآن وأنا أكتب هذا الكلام.

على أن د. صديق، فى جوابه عن قلق الأستاذة التى أجرت الحوار معه مما تمثله دعوته تلك من مساس بقدسية النص القرآنى، ينبرى مؤكدًا أننا نحن الذين قد ابتدعنا هذه القدسية. وهذا كلام خطير جدا، فالقرآن مقدس لأنه من عند الله لا لأننا الذين خلعنا عليه هذه القداسة. صحيح أن من لا يؤمن بأن القرآن وحى إلهى لا يرى فيه نصا مقدساً، لكننا نحن المسلمين نؤمن بقدسيته، وإلا فلسنا مسلمين. والكاتب يؤكد إيمانه بالقرآن، فكيف لا يراه كتابًا مقدساً؟ أما دعواه بأننا قد "أَلَّهْنا" الرسول عليه الصلاة والسلام فهى دعوى غريبة بل منكرة، إذ لا يوجد مسلم واحد على وجه الأرض يقول بـ"تأليه" الرسول. صحيح أنه صلى الله عليه وسلم "رجل يمشى

فى الأسواق مثلنا ويأكل، وله كل المواصفات البشرية" كما جاء فى كلام الدكتور، لكنه فى ذات الوقت ليس بشرًا عاديًّا، بل هو نبى يُوحَى إليه، وأخلاقه من السمو بحيث لا يدانيه غيره من البشر، وهو ما كنت أحب أن يضيفه د. صديق إلى كلامه السابق حتى يكتمل المعنى. وفى القرآن الكريم أمر للنبى بأن يقول: "إنما أناَ بَشرٌ مثلكم يُوحَى إلىّ"، وفيه أيضا: "وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم"... إلخ، فكان ينبغى ألا يغفل الأستاذ الدكتور فى كلامه ذلك البعد الذى يميز الرسول رغم بشريته عن سائر الخلق.

كذلك ترددتْ فى حديث د. صديق الإشارة إلى "مصادر القرآن ومراجعه"، فما الذى يقصده الدكتور بهذا؟ إن للقرآن مصدرًا واحدًا ليس غير هو الوحى الإلهى، أما الحديث عن "مصادر" و"مراجع" كما لو كنا بصدد دراسة تقدم بها أحد الباحثين لها مصادرها ومراجعها من الكتب السابقة فهو كلام لا يصح من مسلم أن يقوله. ولصاحب هذه السطور كتاب فى هذا الموضوع عنوانه" مصدر القرآن" رددت فيه بتفصيل شديد على النظريات الاستشراقية والتبشيرية السخيفة التى تحاول إرجاع القرآن إلى مصادر بشرية. فالقول بأن للقرآن "مصادر ومراجع" هو فرية استشراقية معروفة أساسها قول مشركى مكة عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما يعلِّمه بشر"، وإن القرآن الكريم هو "أساطير الأولين اكتتبها، فهى تُمْلَى عليه بكرة وأصيلا". وها هى ذى تطالعنا بوجهها القبيح فى كلام لأحد المنتسبين إلى الإسلام.

كذلك يبدئ الأستاذ التونسى ويعيد القول بأنه إنما يريد أن يجعل من القرآن كتابًا عالميا يقرؤه الناس جميعًا ولا ينحصر فى العرب المسلمين وحدهم. ولست أدرى أجادٌّ هو فى ذلك أم هازلٌ، فالقرآن كتاب عالمى بطبيعته وبتاريخه: بطبيعته لأنه أنزل إلى الناس "والجن أيضا" كافة، وبتاريخه لأنه ما من أمة فى الأرض إلا وفيها نسبة من المسلمين، قَلّت هذه النسبة أو كثرت. والمسلمون اليوم يقتربون من المليارين من البشر، وهم يقرأون القرآن ويدرسونه ويفهمونه ويضعون المؤلفات فيه ويحاولون أن يسيروا وفق تعاليمه حسبما يستطيعون، ولا ينتظرون حتى يأتيهم د. صديق فيجعل لهم القرآن كتابًا عالميًّا. بالله أهذا كلام يقوله من يعى ما يقول؟ ولقد دخل فى الإسلام فى العصر الحديث أعداد هائلة من الغربيين، ومنهم المستشرقون والقساوسة والحاخامات والسياسيون والفلاسفة والعلماء والفنانون والرياضيون وأساتذة الجامعة والإعلاميون... إلخ، وهناك دولة البوسنة والهرسك، وهى دولة إسلامية أوروبية، وجزء من تركيا يقع كما نعلم فى

أوروبا، بل كانت أسبانيا والبرتغال لمدة ثمانية قرون تقريبًا دولة مسلمة تعكف على القرآن تلاوة وتدريسًا وتطبيقاً، فما كل هذه الطنطنة التى يحدثها د. صديق من لاشىء؟ ثم إن القرآن مترجم إلى معظم لغات العالم الآن، ويقرؤه بها وبالعربية المسلمون وغير المسلمين، وكل ذلك قبل أن يهل علينا يوسف صديق بأنواره البهية.

ونأتى الآن إلى بعض ما قاله عن الإسكندر المقدونى، إذ زعم أن المسلمين لا يحاولون فهم القرآن بل يكتفون بترتيله "مكرّسين غياب المعنى عنه" على حد تعبيره. وهو كلام عجيب لا رأس له ولا ذنب، فإن أدنى عوام المسلمين يفهمون أشياء كثيرة من القرآن الكريم، فما بالنا بالمثقفين؟ وماذا تقول فى الألوف المؤلفة من الكتب والدراسات التى أُلِّفَتْ حول القرآن؟ أهى مجرد تراتيل قرآنية؟ ذلك ما لا يقوله عاقل. أما تفسيره لـ"ذى القرنين" الذى ورد ذكره فى أواخر سورة "الكهف" بأنه هو الإسكندر المقدونى فليس هو أول من قاله، خلافًا لما جاء فى كلامه، بل هذا أحد الآراء التى طرحها المفسرون، علاوة على أنه ليس بالتفسير الوجيه، فالآيات تتحدث عن حاكم مؤمن بالله واليوم الآخر قد مكن الله له فى الأرض فهو يسوسها بالعدل و الحزم والرحمة، فهل هذا مما ينطبق على الإسكندر المقدونى؟

وأخيرًا نختم بما قاله د. صديق عن كلمة "كوثر" القرآنية وأشباهها مما زعم أنه مأخوذ عن اليونانية. ترى هل بين يديه دليل على هذا؟ إن مجرد التشابه الشكلى الجزئى بين "كوثر" و"كاثارسيس" اليونانية لا يكفى أبدا. وحتى إذا كان كافيًا فلماذا ينبغى أن يكون القرآن هو الذى استعار الكلمة اليونانية ولا يكون الإغريق هم الذين أخذوا كلمتهم من لغة الضاد؟ إن هذا هو أسلوب المستشرقين، إذ لا يخطئون مرة فيقولوا إن العربية هى الأصل، بل هى لديهم دوما الفرع، والدكتور صديق يحذو حذوهم للأسف.

المراجع

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
كتب الحديث الشريف
الموسوعة البريطانية (بالإنجليزية)
دائرة المعارف الإسلامية (بالإنجليزية)
عدد من ترجمات القرآن الكريم (بالإنجليزية والفرنسية)
دائرة المعارف الكتابية (بالإنجليزية والعربية)
كتب المستشرقين الوارد ذكرهم فى الكتاب (بالفرنسية والإنجليزية والعربية)
... إلى جانب طائفة كبيرة ومتنوعة من الكتب الأخرى باللغات الثلاث، وكل منها مذكور فى موضعه من الكتاب